كاترشينا توتشكوفا

ساحرات جيتكوفا

ترجمة: د. إيمان إسماعيل

رواية

كاترشينا توتشكوفا

ساحرات جيتكوفا

رواية

ترجمة

إيمان إسماعيل

مراجعة

خالد البلتاجي

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET

د. ايمان اسماعيل أحمد محمد / مواليد عام 1965. درست اللغة التشيكية وآدابها وتخرجت في كلية الألسن. حاصلة على الدكتوراه في الأدب التشيكي من جامعة شارل بجمهورية التشيك وموضوعها "الشخصية الإبداعية ليوسف تشابك". مدرس بكلية الألسن جامعة عين شمس، قسم اللغات السلافية – شعبة اللغة التشيكية.
صدرت لها ترجمة لثلاث مسرحيات من فصل واحد للكاتب المسرحي التشيكي فاتسلاف هافيل عام 2012 (المقابلة – عرض خاص – احتجاج)، بالإضافة إلى عدة مقالات عن الأدب التشيكي صدرت بجريدة اخبار الأدب المصرية ومجلة ابريز التي تصدرها كلية الألسن. مترجم معتمد بالسفارة التشيكية بالقاهرة منذ 2004.

ساحرات جيتكوفا

الطبعة الأولى 2017

رقم الإيـــــداع: 2018/25009

الترقيم الدولي: 978-977-821-001-9

جميع الحقوق محفوظة ©

عدا حالات المراجعة والتقديم والبحث والاقتباس العادية، فإنه لا يسمح بإنتاج أو نسخ أو تصوير أو ترجمة أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل أو وسيلة مهما كان نوعها إلا بإذن كتابي.

No part of this book may be reproduced or utilized in any from or by means electronic or mechanical including photocopying recording or by any information storage and retrieval system without prior permission in writing of the publishers.

الناشر

محمد البعلي

إخراج فني

علاء النويصي

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي دار صفصافة.

This translation was supported by the Ministry of Culture of the Czech Republic

© Kateřina Tučková, 2012
© Host — vydavatelství, s.r.o., 2012

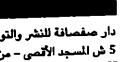

دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات

5 ش المسجد الأقصى – من ش المنشية – الجيزة – ج م ع.

ساحرات جيتكوفا

المحتويات

11	**الجزء الأول**
13	سورمينا
23	دورا إيديسوفا
27	دار المحفوظات: اليوم الأول
45	الثعبان الأبيض
63	مقطوعة باردوبيتسه الحالمة
71	كاترشينا سخانيلكا
81	قسم المحفوظات: اليوم الثاني
95	الإرث المشترك
101	الدين في مواجهة السحر
113	دوار الليل
115	دار المحفوظات: اليوم الثالث
125	يعقوب
131	دار المحفوظات: اليوم الرابع
145	قضية "الساحرات"
151	**الجزء الثاني:**
153	دار رعاية القاصرات
159	إيرينا إيديسوفا
165	متجر السيد أوشتيبكا للكتب المستعملة
171	يوسف هوفر
183	تعويذة العاصفة
189	ألجيبيتا باجلاروفا

199 | إيرما جابرهيلوفا
221 | الأب
237 | الخطاب
243 | يوسيفينا ماهدالكا
249 | ماجدالينا ميكفا

257 | الجزء الثالث
259 | الملف الأزرق
271 | أرشيف الساحرات
279 | ملف الساحرة سورمينا
293 | ملف ساحرات عائلة ماهدال
309 | فريدريخ فرديناند نورفولك

315 | الجزء الرابع
317 | كوبرفازي
323 | يوستينا روخاركا
339 | السوار الأحمر
345 | فينتسه سلاف روزمازال
355 | إينجيبورج بيتينوفا
367 | بوتوتشنا
375 | يانيجينا

383 | الجزء الخامس
385 | يندرشيخ شفانتس
399 | بيدوفا
415 | ملحوظة الكاتبة

تعذَّرتْ عليها رؤية البيت من الداخل، فشبَّت على أطراف أصابعها وألصقت أنفها بالنافذة كي تختلس النظر من خلف ستارة متدلية من منتصف النافذة. تخلل الظلام رءوس نبات القلقي التي كانت من قبل تتمايل بحرية في الخارج، أما اليوم فهي لسبب غير معروف حبيسة خلف الألواح الزجاجية، والمكان مظلم، لكنه أَلِفَ هذا الظلام فهو لا يفارقه تقريبًا على الإطلاق، ولا يعرف النور طريقة إلى البيت إلا عَبْرَ النوافذ الصغيرة فقط أثناء النهار.

استدارت كي تلقي نظرة على الطريق المؤدي إلى بيتهم. وكانت سورمينا تمشي بصعوبة متثاقلة الخطوات. دائمًا وأبدًا كان يُعْييها طول المسير؛ لعيبٍ بقدمها، كما أن يعقوب يضاعف حملها، فهو ثقيل، وهي تستشعر ذلك، وبالكاد تستطيع حمله.

تعود مرة أخرى للنافذة، ويبدو لها أنها ترى أقدامًا تظهر من وراء التنور، تظهر بالكاد من الركبة حتى القدمين، أجل إنها أقدام تنتعل حذاءً أسود ثقيلًا طويل الساق.

- أرى أقدامًا! أبي بالبيت! تصرخ في سورمينا، إنه موجود بالبيت!

وعندما اقتربت منها، أبعدتْها سورمينا من طريقها وهي ما تزال تحمل يعقوب: انتظري، تنحي جانبًا. فراحت تضع كفها فوق عينيها وتلصق وجهها باللوح الأعلى من زجاج النافذة.

- حسنا، إنه هنا.. ذلك الوغد!

أخذت تسوِّي هندامها، ثم حملت يعقوب على ذراعها من جديد: هيا تعال. ثم أخذت تتلفت حولها وهي تهمهم: ذلك السكير! الويل له إن وقع في يدي!!

كانت تدور بخطوات ثابتة حول الجدران خشنة الطلاء. تسير من خلفها تكاد تلتصق بتنورتها. تسحق بخطواتها الأرض الرطبة. تحاول القفز في إثرها، ولكنها لا تستطيع أن تباريها. تصرصر البوابة، فتتسلل عبرها وتتركها مفتوحة، وتدور حول سورمينا أمام

الباب، وعلى ظهرها تتمايل حقيبة كبيرة، ومن فوقها تتطاير في الهواء ضفيرتان كثَّتان يتدلى من إحداهما شريط. تتوقف أمام مدخل البيت، تستدير نحو سورمينا وقد اتسعت عيناها وتدلت شفتاها. بجوار الباب توجد أورمة خشبية ضخمة، لكن البلطة التي تكون عادة مثبَّتة فيها غير موجودة. وتلك الأجساد المنتفخة للقطة وصغارها لا بد أنها بقيت هكذا لعدة ساعات.

قالت دورا وهي في غاية التأثر: إنها ميتسكا، إنها قطتنا ميتسكا وهؤلاء صغارها الذين لم يمهلهم القدر كي ترينا إياهم!

انتفخ جسد القطة ليصبح كالبالون، بينما احتشد الذباب على تلك الفتحة الدامية في رقبتها. أما أجساد الصغار، التي كان من الممكن أن يتسع تجويف راحة اليد ليحتويها، فقد انتفخت بطونها بفعل الغازات واستدار تجويفها، لدرجة أنه لو مالت راحة اليد قليلًا لسقطت منها وتدحرجت وتدحرجت إلى أسفل لتصل إلى هروزينكوف.

- ذلك السكير، الحقير، عديم الإحساس بالمسئولية!

استشاطت سورمينا غضبًا، وأمسكت بكتفها بعنف لتبعدها عن ذلك المشهد الدامي، فصفقت الباب المؤدى إلى الرواق، ثم قالت غاضبة: امسحي حذاءك كي لا تتسخ الأرضية. ولم يكن هناك داعٍ لقولها هذا؛ فقد كانت واقفة ثم بدأت تمسح قدميها بممسحة الأرجل، وبعدها استدارت لتلقي نظرة أخرى على ما بقي من ميتسكا.

فقالت سورمينا: لا تنظري إليها، وإلَّا اصابتك الكوابيس! انطلقت دورا كالسهم متجاوزة الرواق لتندفع نحو سورمينا عبر باب غرفة المعيشة. كان ذلك جزءًا لامتناهيًا من الثانية، استغرقته في السرعة التي تحركت بها في خطوتها الأخيرة ما بين جنب سورمينا وإطار باب الحجرة، وانتهت فيه خطوتها المحدودة فجأة بنظرة مثبتة على أرضية الحجرة الخشبية، حيث ترقد أمها بالقرب من قدمي أبيها، وقد انشلحت تنورتها أعلى فخذيها، وغرق المكان من حولها في بركة من الدماء الجافة الداكنة. ساد الصمت المكان، وبقي ثلاثتهم لدى الباب كما لو كانوا تمثالًا جماعيًّا.

- هيا اخرجي! انطلق صوت سورمينا عاليًا حادًّا كالسكين، فانتفض معه جسدها، وأخذت تضرب برأسها إطار الباب ثم خرجت تتعثر في مشيتها، والغريب أنها وهي على

هذه الحال لم تسقط مغشيًّا عليها. تسمع من خلفها بكاء يعقوب الرهيب، وسورمينا تصيح بكلمة واحدة: اخرجي من هنا! أخذت تركض حول ميتسكا وصغارها بمحاذاة السياج الخشبي، ثم تواصل متجاوزة البوابة لتدور حول البيت، على الطريق المبلل بماء المطر الصيفي، ثم تتابع المسير إلى أسفل حتى تصل إلى بيت سورمينا. تتوقف هناك، تفتح البوابة ثم تغلقها من خلفها، وبخطوات هادئة تذهب كعادتها، تذهب لتجلس على المقعد المجاور لمدخل البيت. تبقى هناك وتنتظر وقد تعلقت أنظارها بالتل المقابل، لترى كيف تتعثر سورمينا وهي تسير في نفس الطريق الذي قطعته هي وقد ناءت بحملها وانحنت من فرط ثقل يعقوب، إلا أنها كانت تسير بسرعة، سرعة لم تعتدها منها قبل اليوم. وها قد بدأ يصل إلى أسماعها صوت أخيها وهو يبكي، وسورمينا وهي تلهث.

جلست سورمينا على المقعد من فرط التعب، وقد وضعت إحدى يديها على رأس يعقوب، وأخذت تربت بالثانية على كتفها لتسري عنهما.

ثم قالت: هوِّنَا عليكما، هونا عليكما.

لكنها لم تكن تصدق أن شيئًا لم يحدث.

غربت الشمس وأخذت العتمة تتسلل إلى الجبال، وهي جالسة على المقعد، وبعد قليل بدأ يخفت بكاء يعقوب، فقط من حين لآخر صار يصدر نحيبًا خافتًا متقطعًا.

وبعدها صارت دورا تسمع فقط صوت خشخشة أنفاسه المتلاحقة. هدأت أنفاس سورمينا، ولكن يدها التي كانت تحتضن كتف دورا المحاطة بسيور الحقيبة، ما زالت ترتجف. كانت هذه السيور مزودة بعواكس حمراء، تمامًا كما كانت ترغب. دوائر حمراء كبيرة تعكس الضوء عندما يسلطه أحدهم عليها، كتلك التي يحملها أطفال هروزينكوف. وكانت قد ذهبت مع أمها الصيف الماضي إلى أوهرسكي برود، كي تشتريا منها تلك الحقيبة.

بدأ الظلام يلف بيتهم على التل المقابل، والليل يطل من خلف التل في دفقات بطيئة لا يمكن إيقافها، كما لو كان أحدهم يسكبها من مدينة بويكوفنيتسه.

عندئذ قالت سورمينا: ستبقون عندي.

وما إن غطتها بالبطاطين وجلد الغنم المدبوغ خلف التَّنُّور حتى بدأت تشعر بالدفء

الذي امتد ليغمر المكان من حولها، وخاصة بعد أن استقر الخشاش الساخن في أعماق معدتها، ولم يَبْقَ إلا أن تسمعها وهي تقول: لا تخشي شيئًا، سنجتاز الأمر معًا، ستصبحين ملاكًا، وستكونين على ما يرام.. سترين.

الجزء الأول

سورمينا

اعتقدت لفترة طويلة من الزمن أن كل معاناتها قد بدأت بتلك الحادثة. إلا أنها لم تبدأ مطلقًا حينها، في اللحظة التي وقف فيها أهالي كوبرفازي-كوبانيتسه بباب بيتهم يحملقون في جسدي والديها. لم تكن دورا غبية إلى حد لا تتمكن معه من ملاحظة علامات الانفعال على وجوههم، حتى وإن كان ذلك قد حدث منذ زمن بعيد، بعيد إلى حد لا تصل إليه ذاكرتها القصيرة. لم تخدعها وجوههم المغتمَّة ولا كلماتهم من قبيل: يا له من حادث مأساوي! أو لماذا يحصل هذا معكم أنتم بالذات! لم يستطيعوا خداعها؛ لأنها هي نفسها كانت جزءًا من تلك الحكاية، تشعر بكل ما فيها، بل إنها كانت تتنفسها. وعلى الرغم من أنهم بذلوا في ذلك أقصى جهدهم، إلا أن الإشاعات التي انتشرت من وراء ظهرها، بدأت ببساطة بمرور الوقت تتسرب إليها، ومفادها أن الأمر كان متوقعًا، وأن ذلك كان قدرًا محتومًا، ربما بهذه الكيفية أو بطريقة أخرى، لكن باختصار كان لا بد أن ينتهي بشكل مأساوي؛ لأن أمها كانت ساحرة، وهكذا هو مصير الساحرات دائمًا وأبدًا.

وكانت دورا على الجانب الآخر تدرك أن الأمر قد تجاوز كل الحدود؛ لأنها سمعت ذات مرة أن أيًّا من الساحرات التي كانت تعرف سر السحر لم تمت تحت حد البلطة منذ أكثر من ثلاثمائة عام.

لماذا أمها بالذات؟ كانت دائمًا تتساءل وتعيد السؤال، لكنها لم تتلقَّ على سؤالها إجابة. لم يكن أحد يرغب في الخوض في هذا الموضوع، وكلما أثارته أمامهم كانوا يتراجعون مذعورين، كما لو أنها سبَّت الدين أمام رفات القديسين. حتى سورمينا امتنعت عن الحديث فيه.

وهكذا لم يَبْقَ لها إلا أن تُبقي سؤالها محبوسًا في أعماق نفسها. وبعد عدة أشهر قررت أن تغلق الباب خلف تلك الحادثة، عازمة عزمًا أكيدًا على ألَّا تعود للتفكير فيها أبدًا. فليبدأ الأمر، حينما يُراد له أن يبدأ، ولتكن خاتمته كما شاء القدر أن تكون.

ثم إنها كانت مشغولة بأشياء كثيرة؛ فكان عليها أن تتعلم كيف تصبح ملاكًا، وأن تتبدد الغمة التي تشعر بها تحت وطأة الأحداث الجديدة المثيرة. هي – تصبح ملاكًا!

كانت من قبل تسمع عنهم فقط، عن الملائكة الطيبين الذين يحُضرون للساحرات كل ما يلزمهن، وفي المقابل لم يعودوا يومًا بدون مكافأة. أما هي فلم تلتقِ أحدهم من قبل، ولا حتى عندما تعمدت لعدة مرات أن تمكث طويلًا عند منحدرات التلال، حيث يمكنها أن ترى عالم سورمينا وإيرما، أو كاترشينا هودوليكوفا.

- هيا يا خالتي أريني ملاكك! من صنعه لك؟ كانت تود أن تعرف متى بدأت هي وأمها تسيران في هذا الطريق. تظاهرت سورمينا بأنها لم تسمع مطلقًا من قبل عن أية ملائكة، بينما ضحكت أمها إيرينا وسألتها: أنا أيضًا ساحرة، لكن هل رأيتِ يومًا عندى أيًّا منهم؟ إلَّا أن أمها كانت ساحرة مختلفة، نموذجًا خاصًّا. لم تفعل كثيرًا مما تقوم به الساحرات؛ ولذلك فإن الملائكة لم يرسلوا إليها أحدًا.

وها هو السر ينكشف الآن، هكذا من تلقاء نفسه، تمامًا كما تنفتح قشرة البقلة الناضجة فتخرج كل ثمارها دفعة واحدة. في ذلك الحين لم تعرف فقط من هم ملائكة الساحرات، بل إنها صارت واحدة منهم.

®من قديم الزمان، منذ الأزل، كانت دورا تعرف ذلك جيدًا، أما الأمر الذي لم تكن تعرفه قبل أن تصبح ملاكًا، فهو تلك القيمة العظيمة للساحرات وفنونهن، تلك التي تفتقر إليها مناطق أخرى. كانت وهي صغيرة تعتقد أن أحد أشكال الوجود، هو أن تكون المرأة ساحرة؛ ذلك أن النساء تنقسم باختصار إلى سيدات تعمل بالبريد أو الجمعية، حلابات وعلافات بالجمعية التعاونية الزراعية، ثم أولئك اللواتي يعملن ساحرات. كانت تلك المهنة من وجهة نظرها مهنة عادية مثلها مثل أى مهنة أخرى، ولم يخطر لها في يوم من الأيام أنها ليست كذلك.

عرفت ذلك فقط عندما أصبحت ملاكًا، عرفت كيف كان الناس يقطعون مسافات طويلة سعيًا وراء الحصول على المشورة أو تلقي العلاج من الساحرات، فأدركت كم كانت تلك السيدات متميزات. وحرصت بشدة على هذا التميز في عملها كملاك، فكانت تطبق بدقة كل ما استودعتها إياه سورمينا لتحفظه بقلبها.

وكانت سورمينا دائمًا تقول: عندما يأتي الباص، توقفي دائمًا بالقرب من المحطة، لا تنبهي أحدًا لوجودك، فقط انتظري حتى يناديك أحدهم، وإذا سألك عن كيفية الوصول

إلى الساحرات، اسأليه أنتِ، كيف يكون هكذا غبيًّا إلى حد أنه يصدق تلك الساحرات؟ ثم انظري بمَ سيردُّ عليك. إذا اغتاظ بشدة من قولك فاصطحبيه إلى هنا، وإذا بدا واثقًا من نفسه أكثر من اللازم، فدعيه وشأنه؛ فمثل هؤلاء لا يأتي من ورائهم خير. واحذري من أي ثنائي، وتذكري أن زوارنا يجيئون غالبًا بهمومهم التي يكابدونها بمفردهم ولا يحتاجون عليها شهودًا.

تذكُرُ دورا ذلك جيدًا. كانت حينها تتأمل بعناية الزوار الذين تلفظهم حافلات الظهيرة القادمة من برود، وعندما كانت ترى غريبًا يتلفت حوله باحثًا عن الطريق، كانت تقطع عليه الطريق، وتنتظر أن يسألها: من فضلك يا صغيرتي، ألا تعرفين أين تسكن الساحرة هنا؟

كانوا أناسًا مختلفين، عاديين ومميزين، تقريبًا دائمًا من الوحدانيين والمنعزلين، وبين الحين والحين كان يظهر الثنائي الذي كانت سورمينا تحذِّرها منه. كانا غالبًا رجلًا وامرأة، شابين، صحيحي البدن، ولا يبدو عليهما مطلقًا أنهما يحملان أية هموم. وكان رأي دورا أنهما بالقطع غير محتاجين لمساعدة الساحرة. وما زالت حتى اليوم تذكُر أحدهم، وقد التقت به في بداية عملها كملاك.

مكث هذا الثنائي لفترة طويلة على المحطة، بعد أن غادر الباص، تمامًا كما يفعل الغرباء عندما يقررون الاستعانة بإحدى الساحرات ولا يعرفون السبيل إليها. أخذت دورا تتابعهم لفترة، كانت ملابس المرأة التي تشي بأنها ليست من أهل البلدة، تعطي انطباعًا يتنافر مع كون اليوم يوم عمل، وكانت تنتصب بشدة دائمًا عندما يهمس لها بشيء ذلك الرجل الذي جاء معها، وكان هو يلبس قبعة ومعطفًا طويلًا، وكان يتصرف كأنما لا تربطه بها أية علاقة. ارتابت دورا في أمرهما وأرادت أن تترك المكان، لكنها وهي تستدير، لمحت الرجل يعطي للمرأة إشارة، انطلقت على إثرها نحوها.

نادتها تلك المرأة: من فضلك يا صغيرتي، ألا تعرفين أين يوجد هنا بيت الساحرة؟ تحركت قليلًا، بعدها هزت رأسها في تردد وأشارت إلى قمة جبل كيكولا.

- هناك فوق، في الغابة. ستجدون علامة زرقاء، سيروا بمحاذاتها حتى تصلوا إلى الصليب، وبعدها سترون بيت الساحرة.

شكرتها المرأة بحرارة، وأخرجت من جيبها كورونًا واحدًا وزجَّت به في كفها، ثم استدارت وانطلقت بهِمَّة نحو الطريق الموصوف، وتبعها ذلك الرجل على مسافة بضعة أمتار. وأخذت دورا تنظر إليهما من خلفهما حتى غابا عن ناظريها عند منحنى الطريق المؤدي إلى سفح جبل الكاربات الوعر. أمَّا ما يعنيها اليوم في هذه الحادثة فهو معرفة ما إذا كانا قد قضيا ليلتهما في العشة المقامة بوسط الغابة العميقة، التي لا يخترقها أيُّ شيء سوى المدق الوحيد المعروف بلونه الأزرق، والذي يصل من هروزينيكوف إلى الصليب ثم يختفي، أم أنهما استطاعا يومها العودة إلى قريتهما. على أية حال، كان آخر باص متجه إلى برود يتحرك في الرابعة والربع، ويستحيل أن يكونا قد لحقا به.

والواقع أن كل الغرباء لم يكونوا مثيرين للريبة بهذا الشكل، بل على العكس كانوا من أولئك الذين يحتاجون بالفعل لعلم سورمينا. وصارت دورا بمرور الوقت تعرفهم من الوهلة الأولى. فكانت تجزم عند رؤية سيدة عجوز عابسة تحمل حقيبتها أنها جاءت بسبب أبنائها، أما الفتاة الشابة التي تقف مرتبكة بالقرب من لوحة جدول مواعيد الباص، فهذه بالتأكيد جاءت لتسمع شيئا عن الحب. كما كان المرضى يترددون على المكان هناك. كل هؤلاء كانت دورا تأتي بهم إلى سورمينا، وهي تشعر بالسعادة؛ لأنها كانت تعلم أنها ستقدم لهم يد العون، وأن وجوههم سوف تشرق بعد قليل بشيء خاص اسمه الأمل.

كانت دورا تتواجد في محطة الباص، حيث طلبوا منها أن تكون؛ كي تقود الزوار إلى الساحرة، فتمسك بأيديهم وتدلهم على الطريق إلى أعلى، حول المقابر في تشيرنا كوبانيتسه، عبر الغابة وصولًا إلى التقاطع، ومن هنا يمكن أن يَلُوح لهم عن بعد بيت سورمينا في بيدوفا. وهي بالإضافة إلى ذلك تؤدي دورها كملاك، وذلك بالكيفية التي لقنتها إياها سورمينا.

– هل أنت قادم من مكان بعيد؟ تسأل دورا ويبدو عليها أنها ما سألت سؤالها إلا خوفًا من توقف الحديث.

– أَلَسْتَ متعبًا بعد تلك الرحلة؟ ستعدُّ لك سورمينا شاي عشبة لسان الحمل، وستشعر بعدها بتحسن!

– لماذا هذا الحزن؟ ما الذي يُعيِيك؟ هل هي مشكله عضوية؟ أم ربما نفسية؟

لا تستطيع أن تحسب عدد المرات التي تدربت فيها هي وسورمينا على „نظام الأسئلة الذكية" وتوزيعها على مدار الوقت، وإظهار عدم الاكتراث عند إلقاء السؤال، كما لو كانت تدير معهم حديثًا عفويًّا أثناء الرحلة الطويلة صعودًا إلى قمة منحدرات تلال جيتكوفا. وكلما طال صعودهم، صار حديثهم أكثر دفئًا وصدقًا، وفاضت أنفسهم بما يعتمل فيها من هموم مكبوتة منذ زمن طويل، وهو ما يحدث أحيانا ببطء وأحيانًا أخرى باندفاع شديد، ولكنه مقرون بيقين بأن الفرج آتٍ لا محالة، وبأنهم سيُلْقون بصخرة معاناتهم على أعتاب بيتنا، عند قدمي الساحرة التي ستعينهم على التخلص من عذاباتهم كما يرونها هم. فكانوا في ذلك المشهد يكشفون عن معاناتهم لتلك الطفلة الغريبة التي لا يعرفونها، والتي عما قليل ستختفي من حياتهم، وذلك في نهاية الطريق الذي يتشعب فيه المدق إلى منحدرين يوصلان إلى كوبرفازي وبيدوفا، حيث تودعهم وهي تعرف عنهم كل شيء. وبعدها كانت الدقائق العشر التي تعدو فيها لتجتاز الغابة من الخلف كافية كي تصل لبيت سورمينا قبل أن يصل الضيف، الذي ما زال يسير في الغابة عبر منحنى الطريق المتعرج، لتخبرها بما عرفت.

– تفضل، تفضل، تقول سورمينا للزائر قبل أن يفتح البوابة عند السياج، تعال ولا تقلق، سأساعدك في التخلص من الآم الظهر ومن تلك الورطة المالية، أنت ضعيف الذاكرة، أليس كذلك؟ لا تنزعج، فربما لا يكون الأمر سيئًا كما يبدو، تعال، تعال، سنفكر معًا كيف نصلح كل ذلك.

لا يوجد زائر واحد لم يقع أسير تقديس المرأة التي بمجرد أن رأته استطاعت أن تستشفَّ كل أسباب معاناته دون أن ينطق بكلمة. كانوا بعد ذلك يدخلون إلى الحجرة المظلمة، التي يتوقف فيها الزمن عند منتصف القرن الماضي، وفيها تضع سورمينا قِدْرًا صغيرة على الموقد لإسالة الشمع، وعلى الطاولة وعاء به ماء بارد.

– هذا هو أكثر شيء سيساعدهم، ضحكت سورمينا ضحكة نقية عندما سألتها دورا لاحقًا عما إذا كانوا بذلك يغشون الناس.

– طالما أنهم قرروا المجيء إلى هنا، سعيًا وراء سيدة مُسِنَّة لا يعرفونها، إلا أنهم

يثقون فيها من خلال حكايات تُروى عنها تتعلق بمقدرتها على مساعدتهم، فلا بد أنهم في ورطة. ربما أكون أملهم الأخير. يأتون إلى هنا يملؤهم الخوف والشكوك، إلا أن الأمل يشدهم إلى هنا. ولعلمك فإن غالبية هؤلاء لا يعانون مشكلات عضوية، بل نفسية، وهؤلاء هم أكثر المستفيدين، حيث إن معاناتهم بسبب أشياء لا طائل من ورائها ستتوقف. أما إنْ كنتُ أستطيع أو لا أستطيع مساعدتهم.. هل تعلمين إلى أى مدى يشعرون بالارتياح عندما يعتقدون وهم ما زالوا على عتبة البيت أن لديَّ قدرات خاصة؟ وإلا كيف سنواجه مشكلة أولئك الذين لا يبوحون بتفاصيل معاناتهم؟ وكما يقال، مجرد الإيمان يشفي، وهم مؤمنون بأني سأساعدهم، وهو ما يتحقق بعدها بالفعل. والآن هل فهمتِ؟ هذا ليس غشًا، بل مساعدة ذكية.

اقتنعت دورا بما قيل دون أن تطرح المزيد من الأسئلة، تمامًا كما كانت تفعل عندما تأمرها سورمينا: المهم ألَّا تبوحي لأحد بهذا الأمر، وغير مسموح لك بأن تخبري أحدًا سواي بما يقول هؤلاء، أو بأنهم يتحدثون معك أصلًا، فهذا سر ينبغي أن يبقى بيننا فقط، أتفهمين؟

أومأت دورا بالموافقة.

- إذا فُضح هذا الأمر فلن نستطيع تقديم هذه المساعدة لمن يحتاجها. أتفهمين؟

ومرة أخرى أومأت دورا بالموافقة.

- والأهم من كل ما سبق أن تنسي دائمًا وبأقصى سرعة كل ما يقوله لك هؤلاء الناس. افعلي هذا من أجلك أنتِ، وإلا فسوف تؤلمك أنتِ أيضًا عذاباتهم. أتعدينني؟

تعهدت لها دورا بذلك؛ لأنها في ذلك الوقت لم تكن تستطيع أن تعترض على أي شيء تطلبه سورمينا منها.

****

تولت سورمينا مسئولية رعايتهما عندما كانت هي في الثامنة من عمرها، بينما كان عمر يعقوب أربع سنوات. لم تتصور مطلقًا أن يذهبا إلى أحد سواها، وكانت دورا على يقين من ذلك. فهي في ذلك الوقت لم تكن كبيرة في السن بشكل يعوقها عن تحمُّل أعباء تربيتهما، كما أن قلبها الكبير لم يكن ليسمح أن تفعل غير ما فعلت، بالإضافة إلى كونها

لم تنجب، وما زالت دورا حتى الآن تعتقد أنهما قد كانا لها خير عوض.

حدث ذلك في عام ستة وستين عندما جاءا إليها، وكانت سورمينا قد تخطَّت الخمسين من عمرها، ولكن شيئًا ما بداخلها في ذلك الحين جعلها تبدو كامرأة عجوز، ربما كان ذلك بسبب شعرها المعصوب بمنديل الرأس، الذي كانت تلبسه مع الزى الخاص بأهل بلدة كوبانيتسه، حتى وإن لم تكن قد تزوجت قط، أو ربما بسبب تلك الشبكة من التجاعيد التي تقاطعت في مسارات عديدة وفريدة على خديها، وتلك الطريقة التي تحافظ بها على وضعية جسمها، والتي حاولت من خلالها الاختباء داخل نفسها. كانت تسير منحنية، متحدبة، حتى إنه كان من الصعب حتى أن يطلق على ذلك مشي، كانت مشيتها تشبه قفز عصفور الدوري؛ وذلك بسبب قدمها التي كانت كلما خطت خطوة الْتَوَتْ، كما لو كانت تقفز على الأرض. وكانت تقول إن هذا من أثر الحرب، عندما هربت إلى الغابة لتختبئ بها ووقعت على الأرض وقعة عنيفة، شلت حينها حركتها تمامًا. وهكذا اشتهرت في كافة أرجاء تلك المنطقة بالمُداوية العرجاء، كما بدأ الناس يطلقون عليها بعد ذلك. وأنَّى لها أن تجذب قدمها المخلوع بشكل صحيح، أن تجذبه وتلفه بشدة حتى يعود المفصل المخلوع إلى مكانه الصحيح؟ فعلت حينها ما كان بوسعها أن تفعل، فقامت بلفّ قدمها في جبيرة من فروع الشجر الطويلة، ثم انتظرت ثلاثة أيام بلياليها وحيدة بالغابة حتى هبَّت لنجدتها الجموع.

رأت دورا بنفسها كم كانت سورمينا تتصرف بمثل هذه الطريقة مع زوارها. فكانت تقف منفرجة القدمين أمام الجريح وتنحني للأمام بشدة وهي تحتضن فخذه أو بطة ساقة، وذلك بحسب وضعية المفصل المخلوع، ثم تضغط على كعب المريض بقوة من تحت إبطها، وبعدها تقوم بسحب القدم وشدها ولفها بكل ما أوتيت من قوة، وكان المريض يصرخ صراخًا كانت دورا تعتقد معه أنه سيموت، وفجأة يسري الهدوء في المكان وقد عاد المفصل إلى موضعه مرة أخرى. وسألتها: أين تعلمتِ كل هذا؟ فابتسمت سورمينا ابتسامة لها معنى وهي ترجع بذاكرتها إلى الوراء. فربما كان هذا هو الشيء الوحيد الذي لم تتعلمه من أمها الساحرة يوستينا روخاركا. تعلمت ذلك من دفَّان بلدة هروزينكوف، وبالتحديد من خلال الناس، أي الموتى. فقد اختارها هي على وجه الخصوص من بين كل ساحرات جيتكوفا؛ لأنها كانت تعيش وحدها في بيتها المتواضع

مع أختها الصغرى إيرينا.

حملها إليها ذات مساء، وكانت حينها تسمع من بعيد صوت ارتطام العظام وهي تتخبط داخل الصناديق الخشبية الثلاثة المثبتة على عربة كان يجرُّها بنفسه، وقد أتاها بها مباشرة من المقابر ووضعها في غرفة المعيشة، وقد بدا له أنها يمكن أن تتعلم من خلالها كيف ترتبط العظام ببعضها وتتآلف. لم تكن هناك ضرورة لإقناعه باحتياج البلدة لمثل ذلك الأمر، وبخاصة في الوقت الذي لاحت فيه نُذُر الحرب. في البداية ارتعبت سورمينا، وبقيت الصناديق الثلاثة ثلاثة أيام بغرفة المعيشة، بقيت مغلقة كما وضعها الدفَّان، وكانتا هي وإيرينا تنامان في الحقل حتى لا تضطرا للبقاء مع الصناديق في غرفة واحدة. إلا أن الدفان كان يأتيهما كل مساء لينظر كيف سارت الأمور. وفي اليوم الثالث لم يستطع الصبر على هذا الوضع أكثر من ذلك، فكشف عن الصناديق الغطاء، وبدأ يمسك بنفسه العظام البيضاء الملطخة ببعض الطين ويحاول إعادة ترتيبها. ظنت سورمينا في البداية أنها سوف يُغْشَى عليها، لكن لم يحدث. فاجتذبت العظام من بين يدى الدفان الذي تنقصه المهارة، وبدأت هي ترتبها بنفسها، وذلك بحسب ما كانت تعلم وقتها عن جسم الإنسان. وبدون كلل أو ملل أخذت تحاول أن تثبِّت العظام مع بعضها، ثم تربطها بقوة بأنشوطة كانت قد قصَّتْها من السياج. استغرق منها ذلك زمنًا طويلًا حتى تمكنت من وضع العظام في أماكنها الصحيحة، فصار لديها في الغرفة ثلاثة شباب فائقي الجمال. وربما كان السبب في عدم زواجها يرجع إلي هؤلاء الثلاثة، فبفضلهم ذاع صيتها وانتشر، وكان الناس يأتونها من أجل إصلاح عيوب عظامهم من مورافيا وسلوفاكيا. وظلوا يأتونها حتى بعد أن عرفوا أنها تقف لتعالجهم بقدم عرجاء لن تشفى أبدًا.

هكذا كانت دائمًا في ذاكرة دورا، عرجاء حدباء. إلا أن ذلك لم يؤثر في طبعها، كانت شديدة قاسية على نفسها، لم تكن تتورع عن القيام بأي عمل بدنيّ، حتى عندما كانت عدم كفاءتها للقيام بذلك العمل تمنعها من فعله، وهكذا كانت تنتظر من الآخرين في تعاملها معهم، بل وحتى منهما، من الطفلين. واليوم ما زالت دورا تدين لها بالفضل بسبب تلك القساوة الممتزجة بالحب، وأنها في ذلك الحين لم ترأف بحالها، وعندما ألَمَّتْ بها تلك الكارثة، لم تتركها لتنعم بالراحة. كانت تتصرف وكأن شيئًا لم يكن،

فدفعت بها إلى العمل، كما اقتادتها في اليوم التالى للحادثة إلى المدرسة. إلا أنها ظلت تنتظرها أمام المدرسة في ظهيرة الأيام الأولى وهي تحمل يعقوب كى تصعد بها عائدة إلى بيدوفا، كما لو أنها كانت تتوقع أن يلتف حولها الفضوليون الذين لا يستحون أن يمطروها بوابل من الأسئلة المزعجة، بل والأسوأ من ذلك إظهار الشفقة على حالها. كان ذلك هو التراجع الوحيد الذي أرادت به أن تخفف عنها اللحظات القاسية التي مرت بها في الأسابيع التالية للحادثة التي غيرت فجأة حياة دورا بشكل مأساوي.

التفتت إليها ذات مرة زميلتها لينكا بافليكوفا وهم يتناولون طعام الغداء: اسمعي، بالنسبة لخالتك سورمينا، هل رأيتِ قائمة العملاء؟

هزت رأسها بالنفي. لا تعرف، ولِمَ كان عليها أن تعرف. كانت قوائم عملاء النظام تتحكم في الدولة لزمن طويل، ولكنها لم تكُ تعتقد أنها الآن وبعد مرور ما يقرب من تسع سنوات من بعد الثورة أنها ستتحكم فيها هي أيضًا.

– أنا لا أعرف بالتحديد علاقة هذا ببحثك.. لكني لاحظت أن اسمها مُدْرَج هناك. فقط اسمها، ويوجد قبل اسم عمي ببضعة أسطر؛ لذا لم يكن ممكنًا ألَّا أراه وقلت لنفسي: ربما يمكن أن يعني هذا لكِ شيئًا.

بدأ قلب دورا يدق بقوة. سورمينا على القوائم؟ رباه! لماذا؟

صعدت متعبة بعدها طابقين إلى أعلى وأغلقت عليها حجرة مكتبها، فقد كانت تعتقد حتى ذلك الوقت أنها تحققت من كل شيء، أنها لم تَدَعْ مصدرًا واحدًا أو موردًا إلا وتتبعته. فهي لم تترك أو تغفل شيئًا خلال تلك السنوات التي كرستها لكشف النقاب عن مصير سورمينا وبقية الساحرات بطبيعية الحال.

كلفها ذلك جهدًا لا يوصف. قضت عشرات الساعات في قاعات المطالعة الملحقة بدور المحفوظات التي غطاها التراب، وقطعت عشرات الكيلومترات عبر ممرات جبال الكاربات الأبيض المعبدة، وقد تحدب ظهرها أسفل حقيبة الظهر التي حملت فيها جهاز تسجيل بعد أن دست فيه قابس سلك ميكروفون، فضلًا عن هدايا لشهود العيان من أولئك الذين ما زالوا على قيد الحياة، والذين رفضوا في النهاية التحدث في الميكروفون. وأمضت شهورًا وسنوات في جمع كل ما يحيط بها، الآن كل شيء مفهرس بعناية، مصور، ومُعَدّ منه نسخ احتياطية وموضوع في مجلدات وملفات سميكة كتبت عليها البيانات الخاصة به، ومصفوف على رفوف تحيط بجدران حجرة مكتبها التي تدخل إليها في كل يوم كما لو كانت تدخل معبدًا. وبنفس القدر من الرهبة والتقديس تنظر

حولها إلى الجدران، حيث توجد تلك الرفوف الحديدية التي حفظت عليها كل شيء، كل ما كانت حتى ذلك الحين تعتقد أنها استطاعت التوصل اليه.

إلا أنها كانت مخطئة.

أخذت دورا تروح وتجيء في الفضاء الضيق لحجرة مكتبها وهي في غاية الانفعال. كانت ترفض أن تصدق الخبر. ألَا يمكن أن تكون عينا لينكا بافليكوفا قد خانتاها؟ لعل الأمر اختلط عليها؟ ولماذا جاء اسم سورمينا في القوائم؟ في النهاية جلست إلى الحاسوب، ودخلت على صفحة المكتبة البلدية، وطلبت نسخة من جريدة تسيبولكوفي التي تتضمن تلك القوائم باعتبارها مرجعًا يخص البحث الذي تقوم به. وعزمت على أن تتحقق من الأمر بنفسها في المساء، عندما تعود من عملها.

لكن بقيت بضع ساعات إلى أن يأتي المساء. كانت تتعذب لمجرد التفكير في كيفية مرور تلك الساعات البطيئة. حاولت أن تنشغل باستئناف ما كانت تعمله في الصباح، وعلى الأقل إنهاء ما بدأته بالفعل ولم تكمله، لكن محاولتها باءت بالفشل. كانت تخطئ فيما تعمل، لأنها فقدت القدرة على التركيز. في النهاية وجدت نفسها تجلس خلف مكتبها، وقد طوت يديها في حجرها، وأخذت تنتقل بعينيها من شاشة الحاسوب إلى الكتب والمجلدات على الرفوف، وليس أكثر. ببساطة هذا اليوم سيضيع هباء. مدت يدها في حسرة إلى كتاب، كانت قبل قليل تحملق في حاشيتة في شرود. كان مجلدًا مغلفًا بجلدة سوداء من الكتان منقوش عليها بماء الذهب عنوان „ساحرات جيتكوفا"، وتحت العنوان يوجد اسمها، وهو المنتج الأول لجهد طال لسنوات. كانت تود أن يبقى منهن شيء، من الساحرات. كان هذا هو عنوان رسالتها لنيل درجة الماجستير.

اليوم أصبح لدى دورا بعض التحفُّظات حيال محتوى الرسالة، وإن كان الفضل في الواقع يرجع إليها؛ لكونها مكّنتها في أواخر الثمانينيات من دخول الأروقة المظلمة والحجرات الضيقة لمعهد الإثنوجرافيا. فبفضلها وافقوا على طلبها بأن تبقى في برنو للعمل بمعهد الإثنوجرافيا والفولكلور التابع لأكاديمية العلوم، والأهم من ذلك أنها بقيت بجوار يعقوب، وذلك بدلًا من تعيينها في أحد المتاحف المحلية. تركوها تعمل هنا حتى بعد الثورة، عندما اهتزت أركان المعهد حتى القواعد. وربما كان ذلك بسبب أنها هي وبحثها لم يثيرا الكثير من الجدل، وأن شخصيتها لم تكن قوية بالقدر الكافي، وأنها لم

تستطع أن تلقي حجرًا في مياه بحر الإثنولوجيا التشيكية الضحلة تهدد به مكانة أي أحد سواء من السابقين أو الحاليين. فهي تقف تمامًا في المربع الذي يريدون لها أن تبقى فيه: خارج ساحة المعركة، من خلال عدد من المقالات وأوراق المؤتمرات والمراجع العلمية، وانعدام الطموح في التقدم الوظيفي، وكونها منهمكة في أمرٍ ما يخصها، يبتعد بها عن مسار الموضوعات الجذابة التي يتعقبها أولئك المفترسون. فهي منعزلة في مكتبها الذي لم يتغير فيه شيء منذ سنوات طويلة، منكبَّة على دراستها، تكتب بحثًا جديدًا تلبي فيه ما لم تستطع الوفاء به في رسالة الماجستير.

والآن ينبغي أن ينتهي كل هذا، لا بد أن يتوقف، لا يمكن أن تستمر إلا بعد أن تعرف المخفيَّ داخل غياهب أرشيف وزارة الداخلية، الذي يحوي معلومات عن المتعاونين مع أمن الدولة، وعن عملاء الشرطة، والمخبرين، والجواسيس. شعرت دورا بدوار، عندما وجدت بالفعل بينهم في مساء ذلك اليوم اسم سورمينا. أغلقت القوائم المنشورة في الجريدة وجلست أمامها طويلًا بلا حراك وقد فقدت القدرة على أن تنهض وتغادر المكتبة. غير معقول! أقعدها اكتشاف السر الرهيب عن الحركة، ولم تنم تلك الليلة إلا عندما أطل الصباح.

وفي اليوم التالي مباشرة تقدمت بطلب للوزارة بشأن الاطلاع على ملف سورمينا. تيريزيا سورمينا (1979-1910) المقيمة بتل بيدوفا، جيتكوفا رقم 28، مقاطعة أوهيرسكي هراديشتي، وأسلفت ذلك ببضع مكالمات هاتفية، ودعمت الطلب المرسل بمستند صادر من السجل المدني التابع لمكتب بلدية جيتكوفا يحوى تصديقًا رسميًّا يؤكد صلة القرابة بين دورا وسورمينا.

- ستصلك مذكرة في غضون ثلاثة أشهر. هكذا جاء الرد، عندما أرادت دورا بعد عدة أيام أن تتأكد من أنهم قد تسلموا الطلب والمستندات المطلوبة في الوزارة.

ولم يتبقَّ لها منذ ذلك الحين سوى الانتظار. الانتظار والصبر، يومًا بعد يوم، أسبوعًا بعد أسبوع، ثلاثة أشهر.

وبينما كانت تنتظر، أخذت تفحص المعلومات التي تجمعت بين يديها على مر السنين، وراحت تراجع النتائج التي توصلت إليها والاستنتاجات الفرعية، وبدأت ترسم في مخيلتها مخططًا لأحداث متسلسلة مسَّتْ حياة الساحرات، التي بدأت في مكان ما في

أعماق الماضي لتنتهي عند قدميها وتصب في دلتا مصائر الكثير من البشر الذين تعرف معظمهم. وتذكرت أيضًا. نعم تستطيع أن تتذكر، كما لو كانت تلك الأشياء تجدث أمامها الآن. كان يكفي أن تغمض عينيها وتتحرر من الارتباط بالمكان من حولها، لتصبح هناك في موطن الساحرات، في جيتكوفا، في بيتهم مع يعقوب أو سورمينا. وربما كانت تلك الأفكار التي تواتيها، وكانت هي تستدعيها وقتما تشاء، ربما هي التي ساعدتها في التغلب على كل تلك السنوات، كل تلك الأعوام الطويلة التي افترقوا فيها عن بعضهم، وصاروا مشتتين في أنحاء مورافيا، كل منهم في ناحية، كل واحد فيهم بمفرده. فكادت تُجَنُّ بدونهم في السكن الداخلي وبعدها في برنو. وإلى الآن ما زالت تلك الأفكار تمدها بالقوة، وتزداد اكتمالًا وتنوعًا كلما اكتشفت شيئًا له علاقة بالفسيفساء المبعثرة من سيرة عائلة ساحرات جيتكوفا، حتى لو كان قصاصة عن قضية أولئك اللواتي حوكمن لكونهن عرَّافات، أو هؤلاء اللواتي ألقت بهن محكمة أوهيرسكي هراديشتي وراء الحدود قبل عشرات السنين. وكانت هي تشعر من خلال المستندات التي وجدتها عنهن كما لو أنها تعرفهن عن قرب مثلهن مثل سورمينا. ولكن، هل حقًّا كانت تعرف سورمينا؟

راحت الشكوك تعصف بكيان دورا من أول لحظة تأكدت فيها علاقة سورمينا بأمن الدولة، وأُضيفت إليها العصبية التي تصاعدت حدَّتُها بالتزامن مع قرب نهاية فترة الأشهر الثلاثة. كانت تتوق إلى معرفة النتيجة كما كانت تخشاها، فصارت روحها تتقلب بين الخوف والرجاء.

- ما زال الفحص مستمرًّا، أنتِ على قائمة الانتظار. هكذا كانت إجابة الموظفة بلا أي اكتراث.

فاجأ الرد دورا. كيف يمكن ألَّا يكون لديهم أي رد حتى الآن؟ هل يمكن أن يكون ملف سورمينا قد فُقد؟ أم أنهم لا يريدون أن يعطوها إياه؟ كانت ثائرة جدًّا، وبمرور الأيام التي توالت لتصبح أسابيع، اشتد لديها الشعور بأنها ستنفجر من شدة التوتر. حتى جاءت صبيحة يوم قطع فيه رنين الهاتف الحاد الصمت في مكتبها.

عثرنا لك على هذا الملف، سورمينا تيريزيا، (ألف وتسعمائة وعشرة حتى ألف وتسعمائة وتسعة وسبعين)، ولم تكن من المتعاونين، بل من المطارَدين من قِبَل النظام. متى ستأتين؟ تساءل صوت خافت على الجانب الآخر.

وضعوا أمامها ملفًّا كبيرًا وردي اللون مقاس A4، وكان معنونًا باسمها، تيريزيا سورمينا. وضعوه فوق سطح مكتب حديث الدهان بقاعة المطالعة الخاصة بأرشيف أمن الدولة بمدينة باردوبيتسه، حيث ذهبت دورا بعد بضعة أسابيع، وذلك فور إعلانها بخطاب أنه تم إرسال نسخة من ملف الشخص محل البحث إلى فرع باردوبيتسه.

كان الملف ضخمًا على غير المتوقع، وقد قدَّرت دورا سُمكه ما بين سبعة إلى ثمانية سنتيمترات. وبات واضحًا أن الإلمام بكل ما جاء فيه سيتطلب ساعات. مدت دورا يدها بسرعة لتطلع على الملف فصارت تتساقط من بين أصابعها استمارات كُتبت بياناتها على الآلة الكاتبة، ومعها مستندات قديمة، وقصاصات من الصحف، وملاحظات مدونة بخط اليد.

حاولت التغلب على التوتر الذي كانت تشعر به. كانت سعيدة بعد أن اتضح أن سورمينا لم تكن عميلة لأمن الدولة، لكنها من ناحية أخرى كانت تخشى أن يتجلَّى أمامها مصير سورمينا بشكل لم تكن تتوقعه، أو أن يستيقظ فيها من جديد الألم الذي سكن أعماق قلبها منذ ذلك الحين، منذ فرقوا بينهم ذات يوم بلا رحمة.

فتحت الغلاف الباليَ وهي ترتعد، وأمسكت بصفحة باهتة من ورق مهلهل كتب عليها رقم واحد.

1

إدارة الأمن العام بمقاطعة أوهيرسكى برود

رقم التسجيل: ت ش ف س ف ب-01/3814- 1953

موجه لـ: مجلس اللجنة الوطنية بـمنطقة جيتكوفا

الموضوع: تيريزيا سورمينا، طلب بخصوص عمل تقرير عن سيرتها الذاتية

نتقدم إليكم بطلب عمل تقرير عن مسيرة حياة تيريزيا سورمينا، المولودة في 24/7/1910، والمقيمة في جيكوفا رقم 28. وينبغي أن يشمل التقرير بيانات عن أصولها، آرائها، وأفعالها أثناء الحرب، توجهاتها السياسية السابقة والحالية، ومن ثم مساهمتها في الحياة العامة، علاقتها بالنظام، بالعمل، حياتها العائلية، سماتها الشخصية وطباعها.

مطلوب إرسال تقرير من نسختين في مدة أقصاها 8 أيام. 00- الأمن العام

العمل شرف!

المأمور: دفورشاك

في 17/9/1953

2

مجلس اللجنة الوطنية بـمنطقة جيتكوفا

رقم التسجيل: رقم ملف التحقيق أمن دولة-1953-01/3814

مرسل لـ: إدارة الأمن العام بمقاطعة أوهيرسكى برود

الموضوع: تيريزيا سورمينا، تقرير عن سيرتها الذاتية

تيريزيا سورمينوفا، ولدت في 24/7/1910، غير متزوجة، تنحدر من عائلة تنتمي إلى صغار الفلاحين، قبل الحرب لم يكن لها أي انتماءات سياسية، وكذلك بعد عام 1945 لم تكن حزبية، لا يمكن توصيف علاقتها بالنظام الحالي باعتبارها إيجابية، وكذلك الحال بالنسبة لعلاقتها بالمجتمع. رفضت الانضمام بأرضها الزراعية ومساحتها 1.6 هكتار للجمعية التعاونية الزراعية. ليس لها مشاركة فعالة في الحياة العامة، إلا أنه لا يمكن اعتبارها غير مؤثرة فيها؛ وذلك لعلاقتها بالكثير من المواطنين الذين يقصدونها لما يُعرف عنها من قدرة على علاج الأمراض، وهو النشاط الذي كانت تمارسه أثناء الحرب وما زالت تقوم به حتى الآن.

وسُمعتها تلك هي ما يأخذه عليها الرفاق المحليون؛ لأن الأمر يتعلق بعملية احتيال تمارسه على مواطنين تشيكوسلوفاك حسني الظن وغير مواكبين للعصر. ولهذا السبب نحن مضطرون لأن نذكر في التقرير أنها تتسم بصفات سيئة جعلتها تثري على حساب المجتمع، وذلك من خلال الأموال التي تحصل عليها مقابل الخدمات العلاجية المشار إليها والمرتبطة بتجارة الأعشاب غير الشرعية.

كما أن حياتها العائلية ليست على ما يرام، ومعروف أنها تواعد يان روخار، مواليد 17/1/1884، ومقيم في جيتكوفا رقم 98، وتربطها به علاقة قرابة بعيدة من ناحية والدتها، وقد أثمرت علاقتهما غير الشرعية طفلين، توفيا بعد فترة قصيرة من ولادتهما عامي 1939 - 1942. ملتزمة بسداد التزاماتها المادية تجاه الدولة.

أمين اللجنة الوطنية المحلية: ليبتاك

تحريرًا في 25/9/1953

نحَّتْ دورا النسخة المطبوعة جانبًا في ذهول.

لم تذكر سورمينا قط أنها كان لديها أبناء، ولم تعتنِ بقبريهما، في حين أنها كانت تتردد على المقابر باستمرار لتصلح شواهد قبور أقاربها المتوفين. أبناء؟ وعلاقة مع روخار؟

أعادت دورا قراءة الخبر غير مصدقة، وذلك قبل أن تقلب الصفحة على وجهها على الناحية اليسرى للملف، وهي عازمة أن تسأل عن ذلك باجلاركا بمجرد وصولها إلى جيتكوفا في المرة القادمة، ربما كانت تعرف عن ذلك المزيد.

لكن ابني سورمينا غير الشرعيين لم يكونا في النهاية سبب اهتمامهم بها. المشكلة بوضوح كانت هي عملها كساحرة. أمسكت دورا بالمستند التالي بسرعة، وهو عبارة عن مناشدة من الأمن العام في أوهيرسكى برود يطلب فيها معلومات مفصلة عن نشاط سورمينا.

وافونا بأسماء المواطنين الذين يترددون على سورمينا، في حال علمكم بهويتهم

وأسباب توافدهم عليها.

اتضح من الأوراق التي تراصَّتْ فوق بعضها أمامها واحدة تلو الأخرى أن الأمين ليبتاك لم يدع السلطات تنتظر طويلًا. فبعد أسبوع وصل إلى برود تقرير مكون من عدة صفحات عن أنشطة سورمينا، وفي الأسابيع التالية أُرسلت الإيضاحات وبقية الأوراق المطلوبة، وبعدها أيضًا صور من عدة محاضر لاجتماعات اللجنة الوطنية المحلية. فكان مما جاء فيه على لسان أعضاء اللجنة معبرين بحماس شديد عن رفضهم للسلوك غير الحضاري للمواطنة سورمينا: *لابد أن نضع حدًّا لتلك الحماقة! هذا النشاط يعد سُبَّة في جبين المنطقة! دعونا نتصدَّى للأنشطة المحظورة لدينا!*

حدث ذلك في نهاية العام التالي، عندما استدعوا سورمينا للمرة الأولى للحضور إلى قسم الشرطة.

ولم يترتب على ذلك أي نتائج سلبية.

أكيد. وهل كان لديهم أي دليل اتهام ضدها؟

وضعت دورا المستند الخاص بإيقاف التحقيق جانبًا وهي تشعر بالسعادة.

ومن تحت وثيقة إيقاف التحقيق ظهرت مجموعة من الرسائل مدسوسة في ورق شفاف. سحبت دورا برفق الأوراق التي تحوَّلَ لونها إلى الصفرة، وكان بعضها عبارة عن أغلفة نُزعت من عبوة سكر أو طحين. أما الناحية الداخلية الخالية من الطباعة، فقد غطتها كتابة بخط طفولي صغير.

محض هراء، وتلفيق، وافتراء. قرأتها دورا وهي لا تكاد تصدق نفسها. كان من بينها تسميم الحيوانات الأليفة بسبب عداوات مع الجيران. الاتجار في المشروبات الروحية التي تسلب إرادة المستهلك بعد تناوله لها، إفساد أخلاقيات شباب القرية. وكانت زوجة روخار هي كاتبة هذه الرسائل. ورأت دورا أن الدافع وراء ذلك لابد أن يكون جنون الغيرة الذي أوصلها إلى تلك الوشايات السخيفة، إلا أنه من بين هذه السخافات المدرجة بين السطور، والتي تنضح كذبًا وزورًا، تظهر هنا وهناك بعض المعلومات المهمة. على سبيل المثال: من هم زوار سورمينا، وماذا كانوا يريدون منها، وماذا أخذت في المقابل.

هل كانت تقف عند طريق العودة من بيدوفا وتستجوب الزوار العائدين من عند

سورمينا خلسة، فيجيبونها بكل أريحية عن كل ما سألتهم عنه؟

أعادت دورا تلك التجاوزات الفظة إلى مكانها داخل الغلاف الورقي وهي تشعر بالغثيان. وأخذت تطالع في ضيق بعض الأخبار الأخرى الواردة من لجنة جيتكوفا، حتى وقعت عيناها على مستند مرسل إلى مكتب المدعى العام في أوهيرسكي هراديشتي.

23

اللجنة الوطنية المحلية، الإدارة الصحية

أوهيرسكي برود

الرقم المرجعي: الصحة. 277/1955

مكتب المدعى العام بمقاطعة أوهيرسكى هراديشتي

الموضوع: طلب بالتحقيق في ممارسة سورمينا تيريزيا غير الشرعية لمهنة الطب

كانت الإدارة الصحية التابعة للجنة الوطنية المحلية في أوهيرسكى برود قد تلقت إخطارًا مفاده أن المواطنة تيريزيا سورمينا المقيمة بـ جيتكوفا تمارس التطبيب بشكل غير شرعي مقابل مبالغ مالية تتلقاها من المرضى. وقد نما إلى علمنا من خلال المرضى، ومن خلال ما استطعنا التوصل إليه بأنفسنا، قيامها „بجبر" كسور عظام الأطراف لحالات بعينها. ويكمن الخطر هنا في أن المعالجة غير المتخصصة التي تقدمها المذكورة تضر بالمرضي. ولدينا مخاوف مبررة تتعلق بالحالات التي تم رصدها:

يانا أوبيهليكوفا: تاريخ الميلاد 27/6/1953، ابنة مساعد سائق شاحنة، محل الإقامة: 43 زليخوف – خلع بمفصل الورك.

يارميلا تشيرنوخوفا: تاريخ الميلاد 19/11/1954، ابنة صانع هياكل سيارات، محل الإقامة: 12 بوليخوفيتسه – خلع بمفصل الورك.

ريناتا توجيمسكا: تاريخ الميلاد 3/12/1950، ابنة مُعلم، محل الإقامة: 86 ستراجنيبتسه

– خلع بالمعصم.

وفي جميع الحالات المذكورة تم تقديم العلاج المتخصص اللازم، إلا أن آباءهم لم يحضروا للمتابعة، وكما اتضح بعد ذلك، كانوا بدلًا من ذلك يذهبون إلى المدعوة سورمينا التي كانت تقدم للأطفال نوعًا ما من المعالجة نظير مبالغ مالية. وقد أضرت بهم لأنها أقنعت الآباء بنجاح العلاج الذي تقدمه، وبذلك حرمتهم من الرعاية الطبية السليمة التي يقوم بها الأطباء المعالجون. وفي حالة تأخير العلاج، يستغرق الأمر وقتًا مضاعفًا، مما يجعل تكلفته أعلى، وهو الأمر الذي من شأنه أن يثقل كاهل الدولة بمزيد من الأعباء.

لذلك أوصي مكتب المدعي العام المحلي بالتحقيق في النشاط الذي تمارسه المواطنة سورمينا، وأن يمنعها من القيام بكافة الأنشطة العلاجية الأخرى. وهذا الأمر ضروري على الأخص كي يصل العلاج لجميع مواطني جمهوريتنا الديمقراطية الشعبية عبر المؤسسات التخصصية التابعة للإدارة الصحية الخاضعة لسلطان للدولة بأعلى كفاءة ممكنة، وبالمجان، وعندها لن توجد ضرورة كي يسعى المرضى لطلب المساعدة من غير المتخصصين بل ودفع مبالغ باهظة لقاء ذلك.

مدير الإدارة الصحية بمجلس اللجنة الوطنية المحلية: د. ك. ليشني

في 27/4/1955

24

مكتب المدعي العام بمقاطعة أوهيرسكي هراديشتي

الرقم المرجعي: الصحة. 227/1955

موجه لـ: إدارة الأمن العام بمقاطعة أوهيرسكي برود

الموضوع: سورمينا تيريزيا – ممارسة مهنة الطب بشكل غير شرعي- تحقيق

مرسل لكم إشعار الإدارة الصحية التابعة للجنة الوطنية المحلية في أوهيرسكي برود، المتعلق بطلب إجراء تحقيق. وينبغي أن يركز التحقيق على دراسة الملابسات التي من شأنها ان تؤدي إلى اتخاذ قرار بشأن ما إذا كانت ممارسات المذكورة تعد فعلًا مُجرَّمًا طبقا لأحكام المادة 221/1 من قانون العقوبات، وربما كذلك المادة 222/1 من نفس القانون.

برجاء إرسال تقرير عن نتائج تحقيق مكتب المدعي العام التابع للمقاطعة في مدة أقصاها شهر من تاريخ تسلم هذا الإشعار.

مدير مكتب المدعي العام بالمقاطعة: د. مانياك

في 9/5/1955

25

إدارة الأمن العام بمقاطعة أوهيرسكي برود

الرقم المرجعي: الصحة. 227/1955

مكتب المدعي العام بمقاطعة أوهيرسكي هراديشتي

الموضوع: ممارسة مهنة الطب بشكل غير شرعي من قبل سورمينا تيريزيا – تقرير

ردًّا على طلبكم المرسل بتاريخ 9/5/1955 نحيط سيادتكم علمًا بما يلي: تم التوصل في الحالات المشار إليها من قِبل الإدارة الصحية التابعة للجنة الوطنية بمقاطعة أوهيرسكي هراديشتي إلى أن والدة يانا أوبيهليكوفا، وتُدعى يرجينا أوبيهليكوفا، تاريخ الميلاد: 12/2/1930، محل الإقامة: 43 زليخوف، لم تذهب إلى سورمينا مطلقًا. أما فيما يتعلق بمفصل ابنتها المخلوع، فقد ذكرت أنها سليمة تمامًا، وهو ما تأكد من خلال متابعة طريقة سير الابنة (عمرها الآن عامان) التي تقف وتسير بشكل يتناسب مع عمرها. وردًّا على التساؤل الخاص بأسباب عدم التردد على الطبيب المعالج للمتابعة بعد بداية المتاعب الصحية في أوهيرسكي هراديشتي، أجابت بأن المفصل عاد إلى مكانه من تلقاء نفسه، ولذا لم ترَ ضرورة لمعاودة زيارة الطبيب.

ونفت يارميلا تشيرنوخوفا، تاريخ الميلاد: 12/3/1929، محل الإقامة: 12 بوليخوفيتسه، والدة يارميلا تشيرنوخوفا قيامها بزيارة سورمينا، وذكرت أن ابنتها في حالة صحية جيدة.

أما والدة رينانا توجيمسكا، وتدعى لودميلا توجيمسكا: تاريخ الميلاد 13/2/1925، محل الإقامة: 86 ستراجنيتسه، وكانت ابنتها تعاني من خلع بمعصمها، فقد حضرت بعد استدعائها للتحقيق من قِبَلنا، وأدلت بما يلي: „ذهبت إلى المركز المحلي في أوهيرسكي هراديشتي لزيارة الطبيب هرشيب بعد يوم واحد من تعرض ابنتي لحادث، لأنها باتت تبكي طوال الليل، كما تورمت يدها، وقال لي الطبيب إن الأمر بسيط جدًّا، وصرفنا بدون كشف. ولأن بكاء الطفلة لم يتوقف فقد ذهبت في اليوم الثالث إلى سورمينا التي سمعت عنها وعن سمعتها كمُعالِجة. فقامت بتحريك يد ابنتي بطريقة ما، ودهنتها بشيء ما ثم ربطتها، وفي تلك الأثناء خف إحساس الطفلة بالألم وتوقفت عن البكاء. وهكذا تركنا يدها لمدة أسبوع قمنا فيه فقط بتغيير الضمادة مرة واحدة، ودهناها بالمرهم الذي أعطتنا إياه سورمينا، فشفيت الطفلة. والآن صارت يدها تتحرك بطريقة طبيعية".

وردًّا على سؤالها عما إذا كانت سورمينا قد طالبتهم بدفع أي مقابل مادي، أجابت توجيمسكا بالنفي، لكنها ذكرت أنها أحضرت لها معها بيضًا وسمنًا على سبيل الهدية. فقمنا بإرسال السيدة توجيمسكا وابنتها للعرض على قسم تقويم الأعضاء بالمكتب المحلي للصحة العامة، حيث قام بتوقيع الكشف عليها د. دوفيك كبير الاستشاريين الذي أفاد بعد الكشف بما يلي: „ما جرى للطفلة كان في أغلب الظن مجرد التواء في مفصل المعصم الأيسر، وهو ما نتج عن حادث بسيط، حتى إنه خلال بضعة أيام اختفت الآلام تلقائيًّا وعاد المفصل لأداء وظيفته. كان هذا هو ما توصل إليه الطبيب الذي أجرى الفحص والذي رأى أنه لم تكن هناك أية ضرورة لتضميد المفصل. أما كون المعصم عاد بالفعل إلى مكانه، فهذا يؤكد صحة تقدير الطبيب. وأعتقد أن الحالة استقرت من تلقاء ذاتها، وأن ذلك كان سيحدث بغض النظر عن تدخل سورمينا".

وقد شدد د. دوفيك على المطالبة بتحجيم نشاط سورمينا التي تشوش العامة، وتعوق الأطباء المؤهلين عن أداء دورهم.

وفي المقابل جرى تحقيق أيضًا في محل إقامة المشكو في حقها، وقام بإجراء التحقيق الملازم أول فارجيكا والملازم كلادكا. وقد افتُتِح التحقيق في 19/5/1955 الساعة 9:15،

وذلك باللجنة الوطنية المحلية بـ جيتكوفا بحضور المدير الرفيق لوبال وأمين السر الرفيق ليبتاك.

وقد وصفا ممارسات سورمينا بأنها نشاط غير شريف، وأنه خداع، واستيلاء على أموال المؤسسات الشعبية الديموقراطية، وذلك من خلال سرقة الممتلكات العامة التابعة لإدارة الغابات بمنطقة أوهيرسكى برود (أساءت المشكو في حقها استعمال الثروة القومية الطبيعة)، وكذلك مزاولة مهنة الطب على المواطنين البسطاء مقابل مبالغ مالية. وردًّا على سؤال عن معرفتهم لأية حالة بالتحديد، أجاب الرفيق ليبتاك والرفيق لوبال بالنفي، ولكنهما أشارا إلى أن الرفيقة روخاروفا والرفيقة هودوشكوفا بالتأكيد لديهما ما تدليان به في هذا الشأن بصفتهما مواطنتين كبيرتين في السن، ولكونهما جاراتين قريبتين لسورمينا.

في المنزل رقم 98 بـ جيتكوفا تمت مواجهة السيد روخار، ولم تؤكد أقواله صدق ادعاء مدير وأمين سر اللجنة الوطنية المحلية. فقد شهد روخار بأنه يتردد على سورمينا الكثير من الناس الذين لا يعرفهم شخصيًّا، أما فيما يتعلق بالعلاج أو تقاضيها مبالغ مالية نظير العلاج فليس لديه أية معلومات. ولم تؤكد كذلك أقوال الرفيقة هودوشكوفا المقيمة في جيتكوفا بالمنزل رقم 46 صدق ما ذهبا إليه. فقد أفادت الشاهدة أن المشكو في حقها تجيد معالجة الماشية، وصد العواصف، والتنبؤ بالمستقبل. إلا أن شهادة هودوشكوفا غير جديرة بالثقة، فهي امرأة مسنة شديدة التدين ولديها نزوع شديد تجاه الأفكار غير الواقعية، وينقصها صدق المعرفة بالحياة الحديثة بالجمهورية الاشتراكية.

في الساعة 12.45 جرت محاولة لاستجواب المشكو في حقها، إلا أنه لم يتم العثور عليها بالبيت الذي بقيت خارجة حتى الساعة الرابعة، فألغي الاستجواب.

وفي يوم 25/5/1955 جرت محاولة جديدة لمواجهة المشكو في حقها، التي كانت تلك المرة متواجدة ببيتها. وردًّا على سؤال عما إذا كانت تعرف الأطفال المشار إليهم سابقًا، أجابت بأنها لا تعرفهم. وبسؤالها عما إذا كانت تزاول مهنة الطب بشكل غير شرعي، أجابت بأنها لا تفعل، إلا أنها تنصح ما استطاعت إلى ذلك سبيلًا، فقط تنصح. وذكرت على سبيل المثال الغرغرة بمشروب سليفوفيتسه في حالة ألم الحلق. ونفت توافد الغرباء عليها لتلقي العلاج، ونفت تلقيها مقابلًا ماديًّا لقاء ذلك، ونفت كذلك الاستيلاء على الثروة القومية من الغابات. وقد تم العثور على كم كبير من الأعشاب الجافة بمسكنها المكون من غرفة واحدة وردهة واحدة،

وبخلاف ذلك لا يوجد ما يستحق الذكر. وقد أُحيطت المشكو في حقها علمًا بالآثار التي يمكن أن تترتب على ممارسة نشاط سري.

وأُغلق التحقيق على ذلك في 25/5/1955 الساعة الرابعة وثلاثة وخمسين دقيقة.

قيمة المصروفات: 202 كرون تشيكي

الخلاصة: بعد إجراء التحقيق، لدينا هنا ما يدفعنا للشك بأن المشكو في حقها سورمينا تمارس مهنة الطب بشكل غير شرعي، على الرغم من نفيها ذلك. لم تنجح السلطات الرسمية في معرفة مدى نطاق خدماتها أو ما تتحصل عليه من أموال في المقابل، وهو ما أصرت على نفيه. وبالنظر إلى طبيعة المهمة فإننا نعتقد أن نشاط سورمينا يتطلب مزيدًا من البحث المعمق الذي لن يحالفه التوفيق إلا في حالة إجرائه في سرية تامة. وقد تم إبلاغ أمن الدولة في أوهيرسكي هراديشتي بما توصلنا إليه في هذا الصدد، حيث قمنا بتسليمهم نتائج التحقيق. وسيتولى البحث الضابط شفانتس بالقسم الثالث، الذي سبق له التحقيق في شأن يتعلق بالمذكورة، وهو كذلك الشخص المعني الذي ستتواصلون معه فيما يتعلق بمتابعة سير القضية.

المأمور: روديمسكي

في 29/5/1955

ضحكت دورا في نفسها عند ذكر الغرغرة بمشروب سليفوفيتسه (البراندي)، لكن عندما تابعت قراءة بقية المستندات لتعلم أن قضية سورمينا قد أُدرجت على جدول أعمال أمن الدولة، فقدت كل رغبة في الضحك. فمنذ منتصف عام 1955 أصبحت سورمينا بالنسبة لهم شخصًا معاديًا للدولة.

تتابعت الأيام سريعًا وتراكمت فيها العشرات من المحاضر الرسمية المقتضبة.

كانت تتعلق بإسناد القضية للقسم الثالث بأمن الدولة التابع لـ أوهيرسكي هراديشتي وللضابط شفانتس، وبالموافقة على مسار القضية، وانتداب الملازم كلادكا للتحقيق، وهو الذي قام ميدانيًا بإجراء التحقيق الأول، فكان بذلك على دراية بتلك الحالة، كما

جاء اختياره باعتباره موظفًا نشطًا بأمن الدولة بمقاطعة أوهيرسكي هراديشتي، وتم إعطاؤه اسمًا حركيًا هو العراف.. وهكذا دواليك.

وقد رأت فيه دورا إنسانًا دءوبًا استطاع أن يُعلي من قدر نفسه. أخذت دورا تعيد ترتيب المستندات المبعثرة داخل المجلد بعناية وتستكمل قراءة المحضر التالي.

42

الإدارة المحلية لأمن الدولة

أوهيرسكي هراديشتي، القسم الثالث

ليد الموظف المسئول شفانتس

إعداد: الاسم الحركي/المجلد: المفسر/15701

نوع التعاون: موظف تنفيذي

إدارة أمن الدولة: أوهيرسكي هراديشتي

تقرير بحث حالة تيريزا سورمينا:

بالنظر إلى أن التحقيق الجاري لم يكتمل بنجاح، بسبب الإحجام الصريح للمواطنين الذين تم استجوابهم عن التحدث مع جهات الأمن العام؛ كان من الضروري متابعة التحقيق في الخفاء. بناءً على التعليمات انتقلنا مع الملازم ثان نوفوتنا إلى منطقة جيتكوفا في 18/9/1955. وكان هدف الزيارة المعلن بغرض التمويه هو السياحة. وكانت التعليمات الصادرة للملازم ثان نوفوتنا هي التداخل المباشر مع أنشطة سورمينا تحت ذريعة طلب المساعدة منها، والتأكد بذلك من طبيعة الأنشطة التي تقوم بها، في حين كان عليَّ أن اتواصل مع المواطنين من أهل البلدة بغرض جمع معلومات متكاملة.

تم التوصل إلى أن سورمينا تتمتع بسمعة طيبة في محيط سكنها، وتحيى حياة هادئة. تعيش وحيدة منذ انتهاء علاقتها بـ يان روخار (المقيم بمسكن قريب أسفل منحدر تل تشيرني

مع زوجتة الشرعية) في عام 1944. توفي والداها قبل الحرب، ولا تربطها أي علاقة بأحد سوى أختها الصغرى إيرينا، بينما انقطعت علاقتها بأشقائها الكبار، وعلى ما يبدو قلّما تخرج سورمينا من بيتها، تذهب إلى الكنيسة وللتبضع من هروزينكوف مرة واحدة في الأسبوع. كما أنها متدينة، وقد اتضح ذلك من خلال أحاديث عابرة في حانة البلدة، وبخلاف ما سبق تبدو غير مستنيرة (لا تثق بالأطباء ولا الموظفين ولا بالهيئات الرسمية، تقيم بغرفة واحدة، وتُدْخِل إليها الماشية في فصل الشتاء)، ويضاف إلى ذلك مواقفها المعادية للمؤسسات الاشتراكية.

وفي سؤال عما إذا كان لديها علاقات بالجماهير، جاء الرد بأن لها علاقات كثيرة، وكلها علاقات داخل الوطن (لا يعرف جيرانها شيئًا عن أية علاقات لها بالخارج). وقد كشف المخبرون عن زيارات عديدة كانت تأتي سورمينا. كما شهد العامل بحانة البلدة „أو نوفي شكولي" أن هؤلاء الزوار كانوا غالبًا ما يتوقفون عنده ليسألوه عن الطريق، وفي بعض الأحيان يمرون عليه بعد زيارتهم لـ سورمينا. وأفاد بأن الأمر غالبًا ما كان يتعلق بنساء يردن أن يطلعن على المستور في الغيب، أو مواطنين جاءوا يستعينون بها للشفاء من مرض ألمَّ بهم.

كان جميع المواطنين الحاضرين يقدِّرونها. وقد ذكر أحد الحضور من المواطنين أنها عالجت والدة من السل، وحكى آخر عن امرأة لا يعرف اسمها ولا عنوانها ترددت عليها عدة مرات، وشُفيت على يديها من الصرع. كما روى أحدهم أن سورمينا تستخدم الأعشاب لمعالجة العديد من الأمراض، وأنها تجيد جبر الكسور، أما بالنسبة لقراءة المستقبل فليست بالخبيرة المحنكة، وأفضل منها في هذا المجال السيدة خوباتا أو ربما كذلك السيدة ليونورا، وفيما يتعلق بالتوصل إلى الفاعل في السرقات فهي تستعين كثيرًا بمساعدة كراسنياتشكا زهوداكو. وفي سؤال عن قيمة المبالغ المطلوبة نظير تلك الخدمات، قيل: „كل على قدر سعته". هذا ولم يُفِدْنا المواطنون بأكثر مما ذكرنا.

أكدت التحقيقات التي أجريناها أسفل جيتكوفا، في كوبرفازي رقم 17 وروفني رقم 44 صحة ما توصلت إليه التحقيقات السابقة. وردًّا على سؤال حول قدرة سورمينا على شفاء التقرحات: نعم تستطيع، وذلك بمجرد وصول المريض إليها. وقد عَرضتْ عليَّ ابنة صاحب المنزل رقم 44، التي ذكرتْ أنها تعرف الطريق إلى بيت سورمينا، وهو نفس المكان الذي أشار إليه صاحب البيت، عرضت أن تصحبني إليها حتى تصف لها سورمينا علاجًا هي الأخرى.

وقد تبين من خلال التحقيق المباشر في مسكن سورمينا، أنها تعيش حياة غاية في

التواضع. وتُظهر عدم الثقة بالوافد الغريب، ولا تقبله إلا بعد إلحاح، وتبدأ في التفاعل فقط بعد أن يستفيض في شرح المشكلة. وقد شكت إليها الملازم ثان نوفوتنا الأرق والصداع، وفي النهاية قامت سورمينا بإسالة الشمع على الموقد، ثم أخذت تسكبة في وعاء به ماء وهي تردد كلمات مبهمة. وراحت تتظاهر طويلًا بأنها ترى فيه شيئًا. وأجبرت الملازم ثان نوفوتنا على خلع بلوزتها، فيما أخذت تمر على عمودها الفقري، ثم تجس رقبتها، بعدها جُنَّ جنونها، وطلبت من الملازم ثان نوفوتنا الرحيل، وقالت لها وهي تغادر، إنها لو لم تكذب عليها، لكانت ساعدتها، ولكن ليس على التخلص من الصداع وإنما من مشاكل الحمل. وعندما سألتها الملازم ثان نوفوتنا كم تريد، أجابتها بأنها „لا تنتظر أجرًا لقاء ما تقوم به".

وأُغلق التحقيق على ذلك في 18/9/1955 الساعة الرابعة وأربعين دقيقة.

قيمة المصروفات: 148 كرون تشيكي.

الخلاصة: أظهر التحقيق أن المتحرَّى عنها تمارس الطب بشكل غير شرعي مقابل أجر غير محدد القيمة. وثبت ارتكابها لأنشطة احتيالية، وأن المواطنين البسطاء من داخل البلدة ومن خارجها يقبلون عليها. وخطورة ما تقوم من أنشطة لا تكمن فقط في أثرها على المواطنين البسطاء، بل على المجتمع بأكمله، لأن سورمينا بموقفها السلبي تجاه المؤسسات المجتمعية، وتأثيرها الملحوظ على شبكة عملائها، تضر بمكانة جمهوريتنا الاشتراكية. لكن نظرًا لعدم كفاية الأدلة وعدم وجود شهود عيان مستعدين للإدلاء بشهادتهم، فلا يمكن إثبات توافر الركن المادي للجريمة وتوجيه الاتهام طبقًا لأحكام المادة 221/1 من قانون العقوبات. لذلك أوصي بوضع سورمينا تحت المراقبة؛ لأني أعتقد أن المسألة باتت مسألة وقت، وستقوم بنفسها من خلال ما تمارسه من أنشطة بتوفير الغطاء القانوني لمساءلتها.

ملحوظة:

أوصي باستبعاد الملازم ثان نوفوتنا من القضية، حيث إنها لم تظهر بالكفاءة المطلوبة أثناء العمل الميداني في القضية (الفشل الذريع بعد انتهاء زيارتها المتحرَّى عنها).

يالك من وغد! هكذا كانت دورا تحدث نفسها عندما استكملت قراءة تقرير العراف، ثم أخذت تقلب بمرارة بقية الوثائق.

بدا للوهلة الأولى من تلك المستندات أنهم قبلوا بدون أي تحفظات توصيته برصد تحركاتها، اصطفت التقارير واحدًا تلو الآخر وحُررت في توقيتات منتظمة شهريًا. لم تكن سورمينا تغيب عن أنظارهم، وراحوا ينتظرون أن ترتكب أي خطأ. أخذوا يترقبون، بينما تركوا حبل المشنقة منصوبًا حول بيت سورمينا، بل إنه امتد من جيتكوفا ليصل إلى أسفل عبر الطريق المؤدي إلى محطة حافلات هروزينكوف ومنها مباشرة إلى هراديشتي. كان يكفيهم الانتظار والتأني، ثم شد الحبل بقوة.

وفي تلك اللحظة اندفع أمام عينيها إعصار ذكريات حياتهما معًا.

54

مجلس اللجنة الوطنية المحلية في جيتكوفا

الرقم المرجعي: 7- اللجنة الوطنية 103/66

موجه لـ: محكمة أوهيرسكي

الموضوع: الأوضاع المالية والشخصية لتيريزيا سورمينا في علاقتها بالطفلين القاصرين دورا ويعقوب إيديس:

ترتبط تيريزيا سورمينا بصلة قرابة عائلية من الدرجة الأولى بكل من دورا إيديسوفا، تاريخ الميلاد 30/10/1958، ويعقوب إيديس، تاريخ الميلاد 16/2/1961، فهي خالة الطفلين، أي أخت والدتهما، المرحومة إيرينا إيديسوفا ولقبها قبل الزواج سورمينا. ومعروف عن علاقتها بهما أنها علاقة طيبة. وحاليًا القاصر دورا والقاصر يعقوب في حضانتها، حيث تذهب دورا إيديسوفا يوميًا إلى المدرسة الابتدائية في ستاري هروزينكوف، في حين يبقى يعقوب بالبيت مع سورمينا التي تتقاضى معاش عجز. ومن المعروف، بل ومن السهل، ملاحظة أن النمو العقلي والبدني ليعقوب إيديس يشوبه النقص. وعلى ما يبدو لن يكون قادرًا على تلقي التعليم الإلزامي، وسيتواصل احتياجه للرعاية بدوام كامل، وهو ما يمكن أن تقدمه له سورمينا.

ومن ناحية أخرى واضح أنه نظرًا لعلاقتها السلبية بالنظام الاشتراكي لجمهورية

تشيكوسلوفاكيا، فإن سورمينا لن تعتبر ضمان رعاية مستنيرة للأطفال الموجودين في حضانتها ضرورة مُلِحَّة. والحل من وجهة نظرنا هو فرض رقابة منتظمة من قِبَل مكتب الشئون الاجتماعية الذي سيكون عليه متابعة نموهم.

وفيما يتعلق بالأحوال المالية لتيريزيا سورمينا، يمكن القول إنها تتلقى معاش عجز شهريًّا وقدره 740 كرونًا تشيكيًّا، وتمتلك رأسي ماشية، كما تتكسب بشكل جزئي من أرض زراعية تمتلكها ومساحتها 1.6 هيكتار. ومن المعروف كذلك أنها تمارس أنشطة علاجية تُدِرُّ عليها فيما يبدو عائدًا ماديًّا كبيرًا؛ لذلك ليست هناك مخاوف فيما يتعلق بتوفير الاحتياجات المادية للشقيقين.

وقد أحطنا الجهات المحلية التابعة للأمن العام علمًا بأنشطة سورمينا العلاجية، فقاموا بالتحقيق في هذا الشأن، ولكنهم أبلغونا أن التحقيق قد أُغلق لعدم كفاية الأدلة. لذلك لا نجد ما يمنع من إسناد حضانة الطفلين القاصرين إلى تيريزيا سورمينا.

مدير إدارة الشئون الداخلية للجنة الوطنية المحلية: سيرب

تحريرًا في 20/7/1966

أخذت دورا تقلب بين يديها بسرعة مجموعة من الوثائق الأخرى التي تتعلق بإسناد حضانتهما لسورمينا. وثائق من اللجنة الوطنية المحلية في جيتكوفا، والمكتب المحلي للمدعي العام، وإدارة أمن الدولة بمقاطعة أوهيرسكى برود، وكذلك إدارة أمن الدولة بمقاطعة أوهيرسكى هراديشتي، وشهادة المدرسة ممثلة في مُدرِّسة الفصل، وتقرير مكتب الشئون الاجتماعية، وكلها تؤكد براءة ساحة سورمينا. وفي سياق التقارير والمراسلات السابقة لم تستطع دورا أن تصدق أن انتقالهم إلى بيت جديد قد تمَّ بمثل تلك السلاسة، لكنه حدث. إلا أنهم أبقوهم دائمًا تحت الرقابة المشددة.

أخذت دورا تقلّب بين يديها مكاتبات أخرى كثيرة تتناول حياتهم وقتها، وقد راحت تومض أمام عينيها بيانات طبعت على الآلة الكاتبة، تتعلق بسنوات رائعة قضتها مع سورمينا، ومن بعدها بيانات تسجل لأحداث كانت أحيانًا تتذكرها جيدًا وأحيانًا أخرى لا تذكرها تقريبًا على الإطلاق.

على سبيل المثال قصة الفتاة التي أقامت لديهم طوال العطلة الصيفية، والتي سقط اسمها لسنوات من ذاكرة دورا، ولكنها تذكرتها الآن فجأة، كما لو كانت تطقطق أمام عينيها أصابع ساحر كانت تشاهد حيله في فترة ما في برنامج «إين كيسيل بونتس»[1]. كانت تُدعَى كفيتا مازوفسكا، وهي فتاة حزينة تناولت قضيتها العديد من التقارير التالية.

وكانت سورمينا تقول لدورا في ذلك الوقت، إن عليها تجاهل وجودها، إلا عندما ترغب الفتاة بنفسها في الحديث معها، فكانت بالكاد تلحظ وجودها، وكانت تتساءل في نفسها: كيف تمكنت سورمينا من تحمُّل ذلك الوضع؟ كيف استطاعت أن تتحلَّى بالصبر إلى هذا الحد؟ لم يكن التوفيق حليف الفتاة في أي عمل تقوم به، كانت تخشى الأبقار؛ لذا لم يكن ممكنًا إرسالها إلى المرعى، وقلَّما كانت تقوم بأي عمل في الحديقة أو في الحقل. كل ما كانت تفعله طوال الشهر الأول كان الطواف حول المنزل أو فوق التلال أو النوم. لم تكن تتحدث مع أحد. وبخلاف ما ذُكر لم تكن تفعل أي شيء آخر. كانت سورمينا تقول عنها إنها ربّما سئمت الحياة. وقد سمعت دورا بالصدفة من سورمينا، عندما كانت باجلاركا تزورهم بالبيت، أنها حاولت التخلص من حياتها بالانتحار. أتقتل نفسها؟ فزعت حينها باجلاركا، وكانت دورا أكثر منها فزعًا، منتحرة في بيتنا؟ ولم تستطع من بعدها أن ترفع بصرها عنها، فكانت تتسلل وراءها عندما تخرج للنزهة، وتراقب كل خطوة من خطواتها. وبعد أسبوع لم يعد الأمر يروق لها، فتوقفت عن ملاحقتها. لم تكن الفتاة تفعل أو تتفاعل مع أي شيء. كانت مثل العذراء النائمة.

ثم حدث في منتصف شهر أغسطس أن قامت سورمينا فجأة، وقد اكفهرَّ وجهها، وراحت تدوسها بقدميها بلا هوادة. كانت تلاحقها في كل مكان وتصرخ فيها، حتى بدأت الفتاة تجلس تحت البقرات وتحاول حلبها، وراحت تخوض في الوحل، وتنزع الأعشاب الضارة من الحديقة، كما صارت تغدو في الخامسة صباحًا إلى المروج وتعود محملة بالفراولة، وقد توردت قدماها بفعل ندى الصباح البارد، وتخضبت بالحمرة وجنتاها، وبدون مقدمات بدأت الابتسامة تعرف الطريق إلى شفتيها. وتعجبت دورا من

1- برنامج ترفيهي موسيقي كان يُعرض على تليفزيون ألمانيا الشرقية سابقًا لمدة 21 عامًا. وكان يعرض كذلك في تليفزيون تشيكوسلوفاكيا.

ذلك التحول المفاجئ الذي طرأ عليهما، والذي صار بالنسبة لها لغزًا: سورمينا الغاضبة، وكفيتا التي باتت تغمرها الرغبة في الحياة.

وأجابت سورمينا على تساؤلاتها الحائرة قائلة: يكفيها ما ارتشفت من الأعشاب، الآن ينبغي أن تتعلم هذه الفتاة كيف تحب الحياة، وهو ما سيتحقق بالعمل!

العلم عند الله، لكن شيئًا من ذلك قد حدث بالفعل. ففي بداية سبتمبر غادرت كفيتا بيتهم وهي سعيدة، ممتلئة الجسم. عادت بعدها لتقضي معهم أسبوعًا من صيف عامين متتاليين، ثم جاءت في زيارة خاطفة بصحبة زوجها، وفي الصيف التالي اكتفت بإرسال صورة تظهر فيها وهي تحمل طفلها الرضيع في قماطه. وضعت سورمينا هذه الصورة على الرف وسط الكئوس، وبين الحين والآخر كانت تلقي عليها نظرة حانية يملؤها التأثر.

لم يَحْوِ التقرير المُلقَى على الطاولة أمام دورا أي شيء يثير المشاعر. كانوا يرصدون تحركاتهما في ذلك الصيف، سورمينا وهي، أي كفيتا التي تنحدر من عائلة متواضعة الحال من مدينة أوسترافا، كانوا يتابعونهما يومًا بعد يوم، أسابيع طوالًا، شهورًا، بل وعلى مدى السنوات التالية. كانوا كذلك يرصدون بقية الزوار الذين كانوا يتوافدون عليهم. وقد ذُكرت بالتقرير أوصاف بعضهم بالتفصيل، كما تواصلوا مع البعض منهم، وأرسلوا للبعض الآخر إعلانات على محل إقامتهم.

تشعبت موضوعات التقارير إلى مجموعات ليس لها آخر، وكلها كانت تنتهي إلى تقارير أخرى أكثر تركيزًا على الدقائق والتفاصيل، وتمتلئ بمئات الأكليشيهات المكررة. كانت مملة، حتى إن دورا بدأت تتجاوزها. إلا أنها توقفت عند أحدها وقد لفت انتباها تكرار اسمها فيه بوتيرة أعلى من ذي قبل. وبدا لها أنه كلما طالت الفترة التي لم يحدث فيها أي شيء لافت في محيط سورمينا، كانوا يوجِّهون انتباههم إليها، إلى دورا. كشفوا عنها غطاء الملائكية، وحاولوا التوصل إلى المكاسب الذي تتحصل عليها من وراء نشاطها التخريبي. وقدَّورا ذلك بمئات الكورونات التشيكوسلوفاكية. وانفجرت دورا ضاحكة، فقد كانت تنفق ذلك الكرون الذي تحصل عليه على الفور في شراء لوليتا أو نوجة الشيكولاته، ولم يحدث أن بقيت معها إلى الغد، وغالبًا ما كانت تحصل على تفاحة يخرجها الزائرون من حقيبة الظهر حتى لا يتركوها تعود خاوية الوفاض.

كانت إذن مئات! ابتسمت دورا وهي تقلب الصفحة. إلا أنها أُصيبت بالذعر، عندما وقع بصرها على مستند كانت تعرفه جيدًا، لم تنسَه على الرغم من أنها لم ترَه منذ سنوات. وبدأ يتراءى لعينيها وميض متقطع، وراحت الأحرف الصغيرة تذوب في ضباب كثيف. هوت على ذراع الكرسي وهي تحس بالعرق يتسلل إلى جبهتها ووجنتيها. ما زال المستند يقبع أمامها، ذلك الذي دمر بالكامل حياتهم الجديدة التي شُيِّدت على أطلال الماضي.

الثعبان الأبيض

وصلهم ذلك المستند داخل غلاف ممهور بخاتم رسمي في بداية صيف عام 1974. حدث هذا في يوم جمعة. يوم حُفر في ذاكرتها، لن تنساه أبدًا، ففي هذا اليوم انهارت الأشياء التي كانت السبب في إنهاك قواها، وفي عذاباتها ولوعتها لسنوات طوال.

ربما لأن كل ما حدث كان بسبب خطأ ارتكبته.

ربما تسبَّبَ نعل حذائها في تمزيق دعائم حياتهم الهانئة.

لكن من كان بوسعه أن يتنبأ بما كان يحمله لهم ذلك الثعبان الأبيض؟

ربما خرج من بيضته في مكان ما بالبيت، أو أتى به يعقوب، من يعرف؟ ربما كان لسنوات يكمن داخل جدار بيتهم، كما كانت سورمينا تؤكد. بل ربما لم يكن مؤذيًا على الإطلاق. إلا أنها رأت جسد ثعبان نحيل وقد التف حول يدي يعقوب الذي راح يمسك به في رعونة ويقذفه من إحدى يديه إلى الأخرى أمام عينيه البريئتين، وكان يتهلل فرحًا عندما ينقضُّ عليه الثعبان في حركة عنيفة، أو عندما يسحب جسده في محاولة للتملص منْ بين يديه اللتين تعذبانه.

من ذا الذي لا يصاب بالهلع في لحظة كهذه؟ وخاصة أن دورا لم ترَ مطلقًا من قبل في كوبانيتسه مثل ذلك الثعبان ذي الجلد الرمادي والقشر اللامع!

أمسكت به بقوة لم يستطع يعقوب حيالها إلا أن يئنَّ في هلع، وقد انفجر رأس الثعبان تحت نعل حذائها.

وبعدها دوت صرخة.

لم يُصَب بشيء. فقط شعر بالخوف ثم بالغضب، عندما التفت إليها، وكانت ما تزال تمسك به في تلك اللحظة وقد تشابكت أيديهما، وأخذا يرقصان فوق جسد الثعبان حتى صار كعجينة دموية سُحقت فوق الأسفلت.

وقد استدعى صراخهما سورمينا، ولم تكن المرة الأولى، فقد كانت الحَكم فيما يشب

بينهما من شجار، أما هذه المرة فقد شحب وجهها، وانتابتها نوبة من الوهن المفاجئ، لم تستطع معها إلا أن تستند براحة يداها على الجدار.

- قتلتِ الثعبان الأبيض؟

الثعبان الأبيض؟ داست أقدامها الثعبان الذي لا يعلم أحد من أين أتى به يعقوب، دهست ذلك المخلوق الذي لا تعرف من يكون. نعم قتلتْ الثعبان الأبيض.

قالت سورمينا وهي تهوي على المقعد الخشبي: والآن لم يَبْقَ لنا إلا أن تتنزل علينا رحماتك يا رب!

وقفت دورا أمامها في حرج، بينما انسحب يعقوب لينزوي في أحد أركان الغرفة وقد أصابه الهلع من رد فعلها الغريب، إلا أنها بعد فترة ليست بالقصيرة، وبعد إلحاح شديد من دورا، كي تفسر لها ما حدث، قالت: في الأماكن التي يقتلون فيها الثعبان الأبيض، حارس البيت، تحدث مصائب مروِّعة.

ربما لم يكن ممكنًا أن تقول أسوأ مما قالت. فجَّرت تلك الكلمات في نفس دورا شيئًا أخذ يتنامى بداخلها بمرور الوقت في الشهور والأسابيع والأيام الأخيرة، فانتابها نفور من الإيمان بكل تلك المعتقدات العبثية التي كانت سورمينا وسكان جيتكوفا يؤمنون بها.

خرافة أخرى بغيضة؟ حماقة جديدة جعلتهم يرتعدون، كما يحدث مثلًا عندما يدوي في الغابة نعيق البومة فيتعوذون بالصليب، حتى لا تبعث بهم الشياطين إلى قبورهم؟

ألم تكن تكفينا تلك الأشياء والمخاطر التي توجب علينا توخي الحذر؟ والآن يضاف إليها الخوف من ثعبان ميت!

رفضت دورا أن تشاركها تلك المعتقدات، رفضت الإيمان بما تؤمن به سورمينا وأمثالها ممن لا يعترفون بأن قرنًا جديدًا قد بدأ منذ زمن بعيد. إنه القرن العشرون الذي لم تعد الأشباح تعدو فيه عبر الجبال، ولا تحرف فيه العفاريت السائرين عن مقصدهم، كما لم تعد فيه القطط السوداء نذير شؤم.

وقد حدث يومًا أن تشاجرتا لهذا السبب، ومنذ ذلك الحين اتضح لهما أنهما تسيران في طريقين مختلفين.

****

حدثت تلك المشادة بينها وبين سورمينا قبل تلك الواقعة بقليل. وبقيت مرارتها في نفس دورا على الدوام، فكانت تتذكرها من وقت لآخر كما تتذكر قلة حيلتها أمام تصريف القدر الذي فعل فعله مع الجميع، معها، مع يعقوب وكذلك سورمينا.

كل شيء انهار بسبب ما أتت من مدرستها تحمله عبر تل بيدوف. حتى في ذلك اليوم جاءت به من هناك وهي مفعمة بالغضب الذي تجذَّر في أعماقها طويلًا، لكنها في ذلك اليوم أفرغت كل ما في جعبتها، فأصاب الجميع منه شيئًا: زملاء المدرسة، مُدرِّسة الفصل الجديدة، كما وصلت آثاره إلى سورمينا التي كانت السبب فيما حدث. بسببها أصاب الآخرين ما أصابهم. فقد كانت هي السبب في أن يتناول الناس سيرتهم بوصفهم أناسًا غريبي الأطوار يتوجهون إلى الله بدلًا من أن يتوجهوا إلى مركز الرعاية الصحية، عندما يُلِمُّ بهم المرض، ويتصورون أن صلواتهم سوف تشفيهم. بسبب سورمينا ينبشون الأرض، يقطفون الأعشاب ويقومون بغليها لتصبح تركيبة علاجية كما لو كانوا يعيشون قبل قرون مضت.

وليت الأمر توقف عندها وحدها، لكنها تفعل ذلك بالمساكين الذين تخدعهم بمعتقداتها البالية الغبية، فتفسد عليهم فرصتهم في الشفاء، وهو الأمر الذي لا يمكن التسامح فيه! أما الرفيقة المُدرِّسة، وكانت تسوي دائمًا شعرها على شكل كعكة أعلى رأسها وتضع على عينيها نظارة مودرن مسحوبة الجوانب إلى أعلى، فقد أدانت باستعلاءٍ أفعال سورمينا. ولكي تدلل على ما تقول، التقطت من حقيبة يدها زجاجة دواء، أخذت تتأرجح أمامها، أمام دورا، في حين استفاضت المدرّسة في شرح كل ما يمكن أن يقوم به الطب الحديث. تمامًا كما لو كان الأمر مجهولًا للجميع، كما لو كانت دورا لا تعرف أنهم في حالة المرض أو الألم يذهبون يوم الأربعاء إلى مركز هروزينكوف الطبي حيث يوجد طبيب أوهيرسكي برود، الذي يأتي إلى هنا بشكل منتظم، وفي حالة كسور العظام يذهبون إلى المستشفى في هراديشتي، وليس لمجبِّرة الكسور ببيتها في بيدوف.

لكن ما حيلة دورا أمام سورمينا التي لم تكفّ عن الإلحاح حتى تذهب بعد المدرسة إلى موقف الحافلات لتنظر ما إذا كان هناك أحد من أولئك الذين يقصدون الساحرات؟ وعلى الرغم من أن شعور دورا بالحرج كان يزداد بمرور الوقت، إلا أنها بقيت تصطحب هؤلاء الزوار إلى تل جيتكوفا، ولم يكن عددهم بالقليل، وكانوا يترددون عليها حتى في

يوم الأربعاء، حيث كان يمكنهم ببساطة الذهاب إلى الرفيق الطبيب في مركز الصحة.

لم يكن ذلك هو الشيء الوحيد الذي ميَّز عائلة سورمينا عن بقية سكان المنطقة الدنيا من بلدة هروزينكوف. فقد بدأت دورا بالتدريج تلاحظ فروقًا عديدة أخرى، على سبيل المثال كيف كانت دارهم تقترب من الأرض عامًا بعد عام، وذلك بعكس البيوت أو الشقق الجديدة المحيطة بميدان ستاري هروزينكوف، حيث كان يقطن زملاء الدراسة. لفتَ نظرها تنوراتها وبلوزاتها الباهتة وجواربها التي كانت تلبسها إياها سورمينا، والأحذية التي كانت تنتعلها أثناء الخروج والتي كانت تختلف كثيرًا عن الأحذية الخفيفة للأطفال الآخرين. كما استرعى انتباهها أنه لم يعد أحد يرتدي الزى التقليدي سوى عدد قليل من سكان كوبانيتسه الذين كانوا يلتقون في صلاة القداس بالكنيسة يوم الأحد، بينما تزايدت أعداد أولئك اللواتي يدقون الأرض بأحذيتهن الجديدة من الجالسات على مقاعد الكنيسة، أو الذين يمعنون في إبراز كسرة بنطال بدلتهم شبه الجديدة. كانت دورا في الماضي لا تتمكن من مقعدها في الخلف أن ترى المذبح بسبب أغطية الرأس ذات الألوان الزاهية والقلنسوات الحمراء المطرزة التي دنت وتقاربت من بعضها البعض، أما اليوم فقد حُجبت عنها رؤية المشهد بفعل تسريحات النساء اللواتي رفعن شعورهن أعلى رءوسهن.

لم يعد ممكنًا التغاضي عن تلك الفروق، وخاصة أن الكثيرين كانوا لا يرغبون في إغفالها. كانوا يتعاملون معها باستعلاء، وكان الأولاد والبنات اللواتي يتلألأن من فرط النظافة يسخرون منها ويصرخون في وجهها: دورا المحتالة، دورا الملاك. هل تصبح يومًا ما كذلك مشعوذة؟ كانت قهقهة الأولاد تُسمَع في كل مكان يرافقها حفيف الأغصان والحجارة في أيديهم. ثم ذلك الشعور بالوحدة. كانت تصعد بمفردها أعلى تل بيدوف، تاركة وراءها هروزينكوف الجديدة بمساكنها الجديدة وطريقها السريع الجديد الذي كانت الحافلات تجوبه الواحدة تلو الأخرى وصولًا إلى ترنتشين حاملة معها سكان ذلك العالم الجديد الذي هو أبعد ما يكون عن عالمهم الذي تحكمه سورمينا، التي لم تكن تعترف إلا بقانونين اثنين: الكنيسة والطبيعة.

سألتها دورا وقد امتلأت روحها بالأسى، عندما عادت إلى البيت بعد ذلك الموقف مع المدرّسة: لماذا تَدْعين هؤلاء إلى بيتك يا خالة؟

فأجابت باندهاش: أنا لا أدعو أحدًا، إنهم يأتون من تلقاء أنفسهم.

فتابعت دورا متسائلة: ولماذا لا يذهبون إلى الطبيب في مركز الصحة يوم الأربعاء؟

- لأن الطبيب لن يفيدهم.

- ولماذا لا يفيدهم؟ سيعطيهم أقراص وهذه ستشفيهم!

أجابت سورمينا محاولة التحلّي بالصبر: الدواء لا يعالج كل الأمراض يا دورا.

- وهل تكفي لعلاجها تعاويذك؟

- نعم، في بعض الأمراض يكون نفعها أعظم من وصفة الطبيب.

- لكن هذا لم يعد يصلح الآن.. فالجميع يذهبون إلى الطبيب، ومن لا يذهب يصبح محلًا للسخرية، لأنه ترك نفسه فريسة للخداع.

- خداع من؟

توقفت دورا فجأة عن الكلام، لم تكن ترغب في التفوه بذلك. بعدها قالت في تردد: محتالات جيتكوفا.

- اتعتقدين أني محتالة؟

انتصبت واقفة كما لو كان أحدهم قد جلدها بسوط، وتلوَّنَ صوتها بنبرة ألم، بينما أطرقت دورا بعينيها إلى الأرض.

- لا، ليس هذا ما قصدت، أنا فقط أردت القول بأن هذا لم يعد يصلح في أيامنا هذه. في زماننا هذا يذهب الناس للطبيب.

- وماذا لو أنهم لم يُعلِّموا هؤلاء الأطباء كل شيء أثناء الدراسة؟

تعجبت دورا: ولماذا لا يعلمونهم كل شيء؟ توجد كتب لتحقيق هذا الغرض. وما دام المرء قد أصبح طبيبًا، فهذا يعني بالضرورة أنه قد أحاط بجميعها علمًا. أليس كذلك؟!

تبسمت سورمينا ابتسامة مريرة، وتناولت من الخزانة كوبًا معدنيًّا، وراحت تسير بخطوات مهتزة بطيئة عبر الحجرة، ثم مدت يدها لتصل إلى رف أعلى النافذة وتأخذ

إحدى زجاجات الخمر المكدسة هناك في صف طويل. كانت من هدايا زوار كوبانيتسه. صبت في الكوب ليستقر في قاعه سائل شفاف فائر.

- كون المرء طبيبًا لا يعني أنه يعرف كل شيء! فأنا بحسب ما عرفت الأطباء، أراهم يجهلون الأساسيات، يستوي في ذلك أفضلهم مع أسوئهم؛ ذلك أن توعك الجسد يعني كذلك اعتلال الروح. كان هذا هو أول درس تعلمته من أمي، وهو ما لم يتوصلوا إليه حتى الآن. أنَّى لهم أن يعرفوا أكثر مما أعرف؟ أو أكثر مما تعرف إيرما؟ أو كاترشينا؟ ألا ترين ذلك؟

- ولكنهم يصفون الأقراص، وهذه تساعد على الشفاء!

- أقراص؟ ومن يعرف ماهية هذه الأقراص؟ من يعرف طبيعة تلك الحبوب البيضاء المسطحة التي يتم إنتاجها في أحد المصانع، والتي ربما تطرد الآلام، لكني لا يمكنني أن أضعها في فمي، حتى لو حشرها القس في فمي، وليغفر لي الرب ما قلت الآن! وهل يستطيع الطبيب، عندما تمكثين في تلك العيادة البيضاء نتنة الرائحة إلى أن تأتي الممرضة لتقودك إلى الخارج، أن يتوصل بحق إلى أسباب المرض؟ إن الرب نفسه ليخشى البقاء في مثل هذا المكان، فكيف به أن يساعد فيه على الشفاء؟

- لكنهم هناك لا يحتاجون لمساعدة الرب، هناك الأطباء!

- طفلتي، من الذي أوحى إليك بهذا الهراء؟ تنهدت سورمينا. وهل نسيتِ أن أهم شيء هو الإيمان؟ الله في كل مكان، يوجد حتى مع هؤلاء الأطباء. ولا عجب؛ فجميع من يتوجهون إلى القديسين طلبًا للمشورة، ويؤمنون بقدرتهم على قضاء حوائجهم بدلًا من أن يلتمسوا ذلك عند الرب، غالبًا ما يعودون إليهم مرات ومرات. هزت سورمينا رأسها بعصبية شديدة ثم أخذت رشفة كبيرة .

- لكن الأمر ليس على هذا النحو يا خالتي، فالرب لا يعالج، لا يمكنه أن يصف الدواء! فقط الأطباء هم من يفعلون!

- لا تقولي مثل هذا الكلام! الله يشفـي، لكن بطريقة مختلفة عما تظنين. فبالإيمان تنفضين الألم عن روحك حتى تتخلصي منه. هنا ومن خلال شيء ما تعرفينه وتعرفين

مفعوله، أين يعمل على وجه الدقة، وكيف يؤثر في أحدهم، وقد تم تجريبه لمئات السنين. وإلا كيف كان الناس يتداوون برأيك قبل أن توجد تلك الحبوب؟ بالأعشاب! وبالإيمان بقدرتها على الشفاء.

- لكننا نعيش في عصر جديد يا خالتي!

- أي عصر جديد؟ أي عصر ذلك الذي يمكن أن تفقد فيه الأعشاب مفعولها؟ هيا أخبريني!

وهنا أخذت دورا تغالب عَبَراتها، ولم تستطع لا بقليل ولا بكثير أن تعبر عمَّا يجول بخاطرها. وقضت بقية النهار على قمة التل، ولم تطلق العنان لدموعها إلا عندما أرخى الليل سدوله على التل، وراحت نوافذ وادي هروزينكوف ترسل إليها وميضها عبر أضواء شاشات التلفاز. إنه ذلك العالم الذي لن تكون يومًا جزءًا منه، ها هو بدأ لتوه في ممارسة عاداته الليلية.

وبعد مرور عدة أسابيع ظهر عندهم ذلك الثعبان الأبيض. الأمر الذي فاق قدرة دورا على التحمل. عندها كانت سورمينا تجلس على المقعد أمام البيت، وقد ارتسمت على وجهها علامات التعاسة، أما دورا فكانت تشعر بالامتعاض حيال كل ذلك السخف التي تعيَّنَ عليها قبولها بسببها، وقد فقدت الرغبة في تصديقها.

بعدها بقليل صعدت موظفة البريد التل قاصدةً إياهم، ثم أخرجت من حقيبتها الجلدية المنتفخة ذلك الخطاب الرسمي.

بقي هذا الخطاب على الطاولة مستندًا على جرة الأزهار البرية بقية يوم الجمعة، وطوال يومي السبت والأحد، ظل ساكنًا في مكانه لم يبرحه، ما زال مستندًا على الجرة التي أخذ الماء بداخلها يتناقص شيئًا فشيئًا، ثم بدأ يتلاشى بفعل سيقان النبات العطشى. ولم تسأل دورا سورمينا عما إذا كانت ستفتحه، إلا في مساء الأحد، فهزت رأسها بالنفي.

فاعترضت دورا قائلة: إنه مختوم بخاتم رسمي.

راحت سورمينا تتنقل بالغرفة بقدمها العرجاء وهي تحضر الأطباق لتناول طعام العشاء، وتضع الماء يغلي على الموقد مضيفة إليه عدة ملاعق من عشبة الهندباء.

ألحَّتْ دورا قائلة: وجود الخاتم الرسمي يعنى أنه شيء مهم. لماذا لا تطلعين على ما فيه؟

مرة أخرى أجابتها سورمينا فقط بأن هزت كتفيها.

أخذت تتمتم وهي تضع الخشب في المدفأة: أليس لديَّ أشغال أهمُّ من ذلك أقوم بها؟ من سيدخل الماشية إلى حظيرتها، من؟ من سينظف المكان بعد تناول العشاء، من؟

وعندما خرجت من الغرفة، فتحت دورا المظروف بسرعة، وعلى عجل مرت بعينيها على السطور. وكان يعقوب يتابعها بشغف عبر الطاولة.

تتذكر وقتها أن أنفاسها كادت تتوقف إلى أن عادت سورمينا.

- اقرئي هذا، همست متوسلة إليها أن تفعل، ومدت يدها التي تمسك بالخطاب في تردد.

تجاهلت سورمينا إيماءتها كأنها لم ترَها، ووقفت صامتة لدى الموقد حيث كان الماء يغلي في القدر.

صرخت فيها دورا وقد أصابها الهلع: لا يمكنك تجاهل الأمر هكذا! وانكمش يعقوب على نفسه متـأثرًا بالتوسلات التي جرت على لسانها.

أما سورمينا فراحت تنظر إليها بلا أدنى اكتراث.

ماذا سنفعل؟ تسألت دورا وهي تضع في يدها الورقة، وكان يمكن رؤية بصمة أصبعها التي تفوح منها رائحة العرق على طرف الورقة. لم تحاول حتى النظر تحيتها، ووضعت الخطاب بجوار الموقد على الفرن الساخن وهي تحدِّق في دورا، ثم ولَّت غاضبة.

كانت دورا تعلم جيدًا أن سورمينا شديدة العناد، لكن الشيء الذي لم تكن تعرفه حتى الآن، والذي لم يخطر لها على بال من قبل، والذي أدركته لتوِّها، فوقع عليها كصاعقة البرق، هو أن سورمينا كانت تجهل القراءة.

أخذت الورقة في تردد وبدأت تقرأ:

مكتب الأمن العام بمقاطعة أوهيرسكي برود

المباحث الجنائية بجمهورية تشيكوسلوفاكيا الاشتراكية

تيريزيا سورمينا

28 جيتكوفا، مقاطعة أوهيرسكي برود

استدعاء:

انطلاقًا من الاشتباه في ارتكاب جريمة التسبب عن طريق الإهمال في ايقاع الإيذاء الصحي نتيجة لمزاولة مهنة الطب من غير متخصص وممارسة الاحتيال، وذلك وفقًا للمادة 224/1 والمادة 250 من القانون الجنائي.

تحريرًا في 17/6/1974

مطلوب حضوركم إلى مكتب الأمن العام بمقاطعة أوهيرسكي برود في مواعيد العمل الرسمية للإدلاء بأقوالكم بشأن إجراء عملية إجهاض غير قانونية ترتب عليها ترتب عليها وفاة أنًّا بيتشاكوفا. برجاء إحضار هذا الاستدعاء وبطاقة تحقيق الشخصية.

تعليمات:

في حالة ما إذا لم يتمكن المطلوب استدعاؤه من الحضور للإدلاء بأقواله، يتوجب عليه طبقًا للمادة 66 من القانون رقم 141/1961 التقدم باعتذار مقبول. ومن يتخلف عن الحضور بدون عذر مقبول يُعَرِّض نفسه لغرامة تأديبية تصل إلى 500 كرون تشيكي (المادة 66 الفقرة 1 من قانون الإجراءات الجنائية)

التوقيع: القائد نوفاك

تحريرًا في 11/6/1974

عندما انتهت دورا من قراءة الخطاب، بدأت سورمينا تتصرف وكأن شيئًا لم يكن، أما

يعقوب فقد بدأ يشرئبُّ عنقه، ولم يكن ذلك بسبب فهمه لمحتوى الخطاب، ولكن بسبب الذعر الذي تملَّك دورا وهي تقرأ جملة تلو الأخرى، حتى إن بكاءه قد أخاف سورمينا نفسها. ارتعشت يداها عندما كانت تضع خلطة الحنطة السوداء في الأطباق المُعدَّة على المائدة. تناولوا العشاء صامتين، ثم صلوا معًا، في البداية من أجل المسيح وبعدها من أجل سورمينا، ثم خلدوا إلى النوم بشكل طبيعي.

وعندما استيقظوا في الصباح، وجدوا الحليب الطازج وقطع الدجاج على المائدة، وكانت سورمينا قد قامت بذبحها وتسويتها في قدر على الموقد مع بزوغ الشمس. بينما ألقت بالأرجل والرأس إلى الخارج. رأتها دورا تتدلى على سياج الساحة الأمامية للحديقة وهي مربوطة مع عشبة حشيشة الدود، التي لا يجرؤ على فكِّها إنسان وإلا مات في غضون عام، ثم يتم لفها على ذيل كلب حتى يقوم هو بفكها عندما يبدأ في الركض. وقد سألتها دورا يومًا: وهل يموت ذلك الكلب؟ لكن سورمينا اكتفت بأن هزَّت كتفيها. تلك الربطة العجيبة، التي هي عبارة عن عشبة حشيشة الدود وبعض من أجزاء جسم الدجاجة، من شأنها أن تحمي سورمينا وتعيد سمعتها مرة أخرى طاهرة مبرأة من كل أذى. والهدف منها تأمين عودتها آمنة مطمئنة. وكان الجميع في ذلك اليوم الأخير الذي قضوه معًا بالبيت، يخرجون من وقت لآخر إلى الشرفة رافعين أيديهم بالوعيد صوب أوهيرسكي برود وهم يهتفون: „ابتعد أيها الكذب، ابتعد أيها الخوف، ابتعد كالغربان في كل مكان، أنا بينكم ذرة ذهب، سأرجع لبيتي بلا خدش!". رددت ذلك حتى دورا.

وفي نهاية المطاف أخذت سورمينا معها ربطة أرجل الدجاجة مع عشبة حشيشة الدود في طريق ذهابها، لكنه لم يُجْدِ نفعًا.

****

كان الجو في قاعة المطالعة باردًا إلى حد التجمد. وكانت دورا تشعر ببرودة العرق وهو يتصبب منها، وقد سرت القُشَعْرِيرة في أوصال يديها. وأخذت الذكرى تعاودها في تلك اللحظة، عندما أُغلق فصل جديد من حياتها في اللحظة التي غاب عن أعينهم فيها شال سورمينا الأحمر المُطرَّز خلف منعطف الطريق المتفرع من تلهم. هذه المرة إلى الأبد.

قامت دورا من مكتبها وخرجت إلى ردهة الأرشيف المظلمة. استغرق منها الأمر زمنًا حتى استطاعت أن تعود لتجلس خلف مكتبها مرة أخرى. جلست لحظات بلا حراك منكمشة داخل كنزتها الصوفية، وتاهت نظراتها وهي تتأمل الأرضية الرخامية ذات الخطوط الدقيقة. كانت تعلم ما الذي سيحدث الآن؛ لذلك فقدت كل رغبة في مطالعة بقية صفحات الملف.

75

مكتب النائب العام بمقاطعة أوهيرسكي هراديشتي

موجه لـ: المكتب العام لخدمة المجتمع - برنو

الموضوع: نقل الطفلين القاصرين دورا ويعقوب إيديس من حضانة فرد يمثل خطرًا على بنية المجتمع:

في 17/6/1974 تم إعلام مكتب النائب العام بمنطقة أوهيرسكي هراديشتي بحبس المشتبه بها تيريزيا سورمينا، المولودة في 24/7/1910، والمتهمة بالإضرار بالصحة الذي أفضى إلى الموت، وتهديد العامة والاحتيال عليهم.

تيريزيا سورمينا هي الوصية على القاصرين دورا ويعقوب إيديس اللذين ضُمًّا إلى حضانتها في 17/11/1966 والمقيمين معها ببيتها الكائن بمنطقة جيتكوفا، رقم 28، مقاطعة أوهيرسكي برود.

طلب اتخاذ تدابير مؤقتة:

مكتب النائب العام بمنطقة أوهيرسكي هراديشتي في 17/6/1974 يرفع طلب اتخاذ تدابير مؤقتة طبقًا للمادة 76 من القانون المدني، ويوكل إلى المكتب العام لخدمة المجتمع طبقًا لمقررات المادة 76 من القانون رقم 99/1963 من القانون المدني، القيام بتنفيذ نقل الطفلين من حضانة شخص يمثل خطرًا على العامة، أي أن يقوم على الفور بالتحفظ عليهما في محل إقامتهما ونقلهما إلى حضانة مؤسسات الرعاية المحلية بالطريقة التالية:

القاصر دورا إيديسوفا المولودة في 30/10/1958: المؤسسة الإيوائية لرعاية الأطفال في أوهيرسكي هراديشتي.

القاصر يعقوب المولود 16/2/1961: مؤسسة الرعاية الاجتماعية للشباب المعاقين ذهنيًا في برنو- تشيرنوفيتسه، إدراة برنو- خيرليتسه.

برجاء إرسال تقرير بمسار عملية نقل وتسليم الطفلين القاصرين إلى دور الرعاية.

د. إنجيل ريخارد، المكتب الإقليمي للنائب العام

في 17/6/1974

79

المؤسسه العامة لخدمة المجتمع ببرنو

مُرسل إلى: مكتب النائب العام بمقاطعة أوهيرسكي هراديشتي

ليد السيد: د. إنجيل ريخارد

تقرير خاص بتسليم القاصر دورا إيديسوفا والقاصر يعقوب إيديس لمؤسسة الرعاية:

نحيط سيادتكم علمًا بأن القاصر دورا إيديسوفا، المولودة في 30/10/1958، والقاصر يعقوب إيديس المولود في 16/2/1961، محل الإقامة 28 جيتكوفا، مقاطعة أوهيرسكي برود، قد تم في 18/6/1974 التحفظ عليهما في محل إقامتهما، ثم إيداعهما مؤسسات الرعاية المعتمدة.

ملحوظة: لم تتم عملية نقل حضانة الطفلين وإيداعهما دور الرعاية بسلاسة. كان يعقوب إيديس المعاق جسديًا وذهنيًا يعاني من صدمة أدت إلى إصابته بنوبة أمكن السيطرة عليها بالعقاقير داخل المركز الصحي بمقاطعة أوهيرسكي برود؛ وذلك لتأثره بالأزمة التي أثارتها دورا إيديسوفا، بعدها تم نقله إلى مؤسسة برنو - خيرليتسه للرعاية الاجتماعية للشباب المعاقين ذهنيًا. أما دورا إيديسوفا فقد رفضت تمامًا الامتثال لتعليمات مكتب الأمن العام، وصَحِب عملية نقلها للمؤسسة الإيوائية لرعاية الأطفال سلوكٌ عدواني وهجوم على أعضاء

المكتب وعلى الحَاضِرات من المُربيات.

ونظرًا للوضع الراهن، فإننا نوصي خلال الأشهر التالية بالرعاية المؤسسية للطفلين كل على حدة، مع استبعاد إمكانية اللقاءات القصيرة بينهما. كما نوصي بأن تخضع دورا إيديسوفا لفحصٍ نفساني، سيتحدد بناء على نتيجته اختيار البرنامج التربوي المناسب.

لمزيد من المعلومات يُرجَى التواصل مباشرة مع مندوبي دور الرعاية المعنية.

د. إلجيبيتا فوشوفا

في 19/6/1974

82

المكتب المحلي للأمن العام

أوهيرسكي هراديشتي، القسم الثالث

موجه لـ: مؤسسة أوهيرسكي هراديشتي الإيوائية لرعاية الأطفال

في الثامن عشر من يونيو عام 1974 تم إيداع دورا إيديسوفا، مواليد 30/10/1958، محل الإقامة 28 جيتكوفا، مقاطعة أوهيرسكي برود، لديكم بالمؤسسة. ونظرًا لكونها تربَّتْ في بيت شخص يمثل خطرًا على بنية المجتمع وعلى عموم مواطني جمهورية تشيكوسلوفاكيا الاشتراكية، يُرجَى إبلاغنا على الفور بأي تصرف غريب أو عدواني يصدر منها. أما فيما يتعلق بالنظام التربوي الذي ستخضع له، فيتعين عليكم العمل آخذين بعين الاعتبار مسألة علاقة الأمر بمجتمعنا الاشتراكي ومبادئه الفكرية. برجاء موافاتنا بالنتائج من خلال التقارير الدورية إلى أن يحين موعد الاستدعاء.

أعد التقرير: يندرشيخ شفانتس، رقم الخط الداخلي 708

تحريرًا في 29/6/1974

كانت تلك التقارير التي صيغت بلغة المكاتبات الرسمية المُختَزَلة في بضع جمل جافة تبدو كما لو أنها جاءت من عالم آخر، عالم مُوازٍ لعالمها، عالم لا يعرف الرحمة، لذلك يقومون بكتابة تلك التقارير الرسمية الآليّة، أو بالأحرى ذلك الكم من الأكاذيب المتقنة التي كان يتم تضمينها دوريًّا في التقارير المرسلة بمعرفة المربيات.

وجدت دورا نفسها مع هذه المستندات في قلب حياتها التي كانت في ذلك الحين غارقة في رواسب المشاعر المضطربة، عاجزة، وحيدة، فاغرورقت عيناها بالدموع.

أخذ موظف الأرشيف الشاب ذو الشارب الذهبي الصفرة ينظر إليها، ثم ضم شفتيه ليرتسم عليهما شكل قلبٍ صغيرٍ قاسٍ. فقد رأى الكثيرين من هؤلاء الذين هم في مثل حالِ دورا، الذين يُخرجون من جيوبهم أو من حقائب أيديهم مناديل، كى يُخْفوا بها ضعفًا مفاجئًا ألمَّ بهم وخاصة في السنوات الأولى التي تَلتْ إتاحة أرشيف البوليس السري للجمهور.

****

تستطيع دورا أن تحكي بالتفصيل، بل بأدق التفاصيل، أحداث ذلك اليوم من شهر يونيو عام 1974 حين حدث ما حدث. وكيف تنسى، حتى لو كانت تلك رغبتها؟ فقد كانت ذكرى تلك الأحداث تعاودها من وقت لآخر في أحلامها التي لم تستطع التخلص منها، وهكذا راحت تعيش من جديد تلك الحظات الرهيبة. مرة أخرى يعثرون عليها، مرة أخرى يتحفظون عليها، ومرة أخرى أمام عينيها يجذبون يعقوب الذي يأبى الانصياع للخروج معهم.

ظلوا ينتظرون طوال ذلك اليوم، بعدما غادرت سورمينا. انقضى الضحى، ومضت الظهيرة، واقترب المساء، ولاح الظلام، ولم تعد سورمينا. لم تعد في الليل ولا حتى في صباح اليوم التالي، ولم تذهب دورا إلى مدرستها. بقيت مع يعقوب أمام البيت تنتظر حتى الظهيرة.

عندها فقط ظَهَر في الطريق الصاعد المؤدي إلي بيتهم أشخاص قادمون، ثم صعدت إلى بيتهم سيدتان ورجلان.

أخذت دورا تتأمل أولئك الأربعة، وقد رأت كيف توقفوا مرارًا كي يلتقطوا أنفاسهم

أثناء صعودهم ذلك المنحدر الشاهق، وأثناء إحدى تلك الوقفات استطاعت أن تلمح من بين القادمين شخصًا يرتدى زي الشرطة. قبضت على ذراع يعقوب بشدة وراحا يفرّان أمامهم إلى الداخل، إلى البيت. جلسا على المقعد بجوار النافذة، وأمسكا بأيدي بعضهما. وأخذت دورا تهدئ من روع أخيها الذي أصيب بنوبة عصبية، وراحت تقول له إن شيئًا لن يحدث، وإنه ربما هؤلاء الأشخاص لا يقصدونهما، إلا أنهم دخلوا بعد لحظات إلى البيت، وبدون سؤال انتشروا في حجرة المعيشة. ظل رجل الشرطة واقفًا لدى الباب، وصار يتلفت حوله بفضول، أما الرجل الثاني فقد جلس لدى الطاولة، وأخرج من حقيبة جلد بنية اللون حافظة أوراق. وأخذت السيدتان تتجولان في الفضاء الضيق للبيت، خرجت بعدها أطولهما قامة إلى الحديقة، ثم ظهرت من خلف النافذة وهي تدور حول البيت من الخارج متجهة صوب الحظائر.

استدارت المرأة الأقصر قامة فجأة نحو دورا متسائلة: أين تنامون؟ كانت تشير بفضول إلى التنور وإلى الفراش الخشبي الضيق المجاور للطاولة: أتصور أن السيدة سورمينا تنام هناك. وأنتما الاثنان تنامان هنا في الجزء العلوى؟ مع أخيك؟

أومأت دورا بالموافقة.

استدارت المرأة وأخذت تتلفت حولها بانتباه شديد، وبنظرة فاحصة راحت تحصي أعداد زجاجات الخمر المرصوصة على الرف، ثم توقفت بالقرب من الرجل الجالس يملأ خانات النماذج التي انسابت من حافظة الأوراق لتغطي الطاولة بالكامل. كاد يعقوب يلتصق بدورا، كان يحتضنها محيطًا بطنها بذراعيه وقد دسَّ رأسه في حجرها. كانت تُحِسُّ برعشة جسده.

تساءلت دورا على استحياء: ماذا تريدون بالضبط؟ خالتي سورمينا ليست بالبيت.

رمقتها المرأة بنظرة خاطفة وأومأت برأسها:

- توفيت والدتك إيرينا إيديسوفا في عام 1966، أليس كذلك؟ ووالدك يقضي عقوبة الحبس. وقريبتك الوحيدة هي السيدة سورمينا، وهي حاليًّا محبوسة، أليس كذلك؟ أليس لديكم أقارب آخرون في جيتكوفا؟

دبَّ الرعب في نفس دورا. محبوسة؟ ماذا؟

فسألتها وقد بدا عليها الارتباك: محبوسة؟ في السجن؟

سألتك عما إذا كان لديكم أقارب في جيتكوفا؟

فأجابت دورا بفتور: عائلة باجلار.. هي عزَّابتنا، ثم...

سجل هذا عندك، سنُعْلِمهم بالأمر.

عادت دورا من جديد تكرر نفس السؤال: خالتي سورمينا محبوسة؟ لماذا؟ ماذا فعلت؟ لكن أحدًا لم يُعِرْها اهتمامًا.

كان جسد يعقوب ينتفض أكثر وأكثر كلما مر الوقت.

عندما عادت المرأة طويلة القامة، قوية البِنية، قالت: خلف الدار توجد بقرة وعجل، وحوالي خمس عشرة دجاجة وديك، وسرب من البط. مُرْهُمْ أن يقتادوها بأسرع وقت ممكن إلى أسفل ثم إلى الجمعية التعاونية الزراعية.

بدأت أنفاس دورا تلهث. لا يمكن أن يسلبونا إياها، وخاصة في غياب خالتي.

ومرة أخرى راحت تعيد عليهم نفس السؤال، لكن هذه المرة بنبرة أكثر حدة: أين خالتي سورمينا؟

ومن فوق حجرها راح يعقوب يكرر السؤال وراءها مذعورًا وكأنما يُرجِع صوتها: أين خالتي؟ أين خالتي؟

لم يجيبوهما بشيء وكأن على رءوسهم الطير.

لم تعد دورا تحتمل المزيد من استخفافهم بها، فصرخت فيهم قائلة: ألا يمكنكم أن تقولوا لنا أين ذهبت خالتنا سورمينا؟

انقبض جسد المرأتين وتقطَّب وجهاهما. وعندها قالت تلك العائدة من تفقُّدِ فناء البيت وهي ترفع يدها صوب دورا، مشيرة إليها بسبَّابتها المفرودة حتى كادت تخز جبهتها: ألا ترون، إنها تثير أعصابه؟ تتسبب في توتره، هذا الصبي يعاني من شيء ما.. أمسكه من فضلك.. ألا يمكنك أن تهدئ من روعه قليلًا؟

انتفضت عروق وجهها ورقبتها حتى كادت تنفجر، وقد هامت بعينيها وفغرت فاها،

فبدت لدورا لمَّا همَّتْ بالانقضاض عليها وكأنها ملك الموت. كانت تنوي إخافتها أو بالأحرى إسكات ذلك النشيج المنطلق من صدرها. لكنها بحركتها العنيفة تلك طرحت يعقوب أرضًا، فبدأ جسده يرتعش، ودخل في نوبة تشنج.

تسارعت وتيرة الأحداث على نحو مفاجئ، كما لو كانت بقية ذلك اليوم قد استغرقت دقيقة واحدة، فقد جرى كل ما تلا ذلك من أحداث بسرعة شديدة. أصيب يعقوب بنوبة وأخذ يتلوَّى عند أقدامهم، ولم يسمحوا لها بتهدئته، بل لم تكن هي نفسها متأكدة من قدرتها على فعل ذلك في ظل غياب سورمينا، وعندئذٍ قام ذلك الرجل الذي لم يرفع عينيه من فوق الاستمارات حتى هذه اللحظة، فأمسك به وانطلق معه إلى أسفل التل متجها إلى هروزينكوف، ومن خلفه ركضت على عَجَل المرأة التي كانت قبل قليل تحصي ممتلكاتهم، كانت تتعثر على الدرب الممهد داخل المرج وهي تحمل استمارات ملء ذراعيها. وعندما أرادت أن تلحق بهم من خلفهم أمسك ذلك الشرطي بذراعها بقوة وعنف وحسم. لم يسمحوا لها أن تنطلق خلفه، ربما إلى المركز الصحي، أو إلى دار الرعاية الاجتماعية، ربما يعتنون به هناك بشكل أفضل، ما دامت سورمينا لن تعود. لكن ما هو مصيرها هي؟ ماذا سيكون من أمرها؟ ستذهب إلى دار الرعاية الإيوائية، وستبقى تحت رقابة المربيات، ومع ذلك فإن أمرها هين، فهي على أية حال بعد بضع سنين ستبلغ سن الرشد. لكن ماذا عن سورمينا؟ ماذا عنها؟ لقد انتهت سورمينا، سورمينا القاتلة، المحتالة، وعميلة الطبقة البرجوازية الدنيا، سورمينا تقوض سلطة الجمهورية، لقد سقطت سورمينا من نظر المجتمع. سقطت سقوطًا سيمتد أثره لسنوات طويلة.

أُغلقت الأبواب المعدنية لمبنى دار المحفوظات خلف دورا في ذلك اليوم بعد تمام الخامسة بعشر دقائق، وكانت حتى الدقيقة الأخيرة من الوقت الذي قضته هناك تطَّلع على كل ما أمهلها الوقت للاطلاع عليه بالمجلد الخاص بسورمينا، مما حدا بموظف الأرشيف إلى حد دفعها بالقوة خارج قاعة القراءة. فتركت روحها معلقة بين ثنايا تلك الأوراق الرسمية المنسوخة على الآلة الكاتبة، ووقفت تحملق في الطريق وكأنما اكتشفت فجأة أنها لا تعرف إلى أين المسير.

كانت أشعة شمس أواخر الصيف تغمر الساحة المواجهة للمبني. انطلقت نحوها في طريقها إلى بِكَّة تحت شجرة الزيزفون في بستان يقع وسط الساحة. كانت تفكر في أنها بالكاد تمكنت من الاطلاع على ثلث ملف سورمينا، وأنها استطاعت أن تصل إلى الوقت الذي حدثت فيه الفُرقة بيهم. وبدا لها المساء والليل، أي الوقت الذي ينبغي عليها فيه الكف عن مطالعة الملف إلى أن يأتي الصباح فتكمل من جديد ما بدأته، بدا لها بلا آخِر.

بدأت تفكر في إمكانية السفر إلى برنو في رحلة تستمر لمدة ثلاث ساعات تقريبًا والعودة إلى هنا مرة أخرى في الصباح، ثم رأت عدم جدى الفكرة، فقررت البقاء في باردوبيتسه.

وجَّهَتْ وجهها مباشرة نحو الشمس، وأغمضت عينيها. كانت متعبه. أرهقت عينيها بمحاولتها المضنية نقش كل كلمة طُبعت على الأوراق المهلهلة في ذاكرتها. كانت تشعر بضغط في وجنتيها، كما لو أحدهم يضغط على رأسها بكماشة، وكذلك بتقلصات في معدتها، إما بسبب الجوع أو العصبية، أو ربما كليهما معًا.

أخذت تعد الأعوام التي كانوا يرصدون فيها تحركات سورمينا، كي يحكموا قبضتهم عليها في النهاية بسبب عملية الإجهاض التي أجرتها لإحداهن، فأحصتها عشرينَ عامًا. ما هذا الهراء؟!

كانت دورا واثقة أن شيئًا من هذا القبيل لم يحدث في بيتهم بالمرَّة، لم تكن سورمينا لتشارك في أمر كهذا. هزت رأسها باشمئزاز وتنهدت وهي تنهض من مكانها. كان عليها أن تبحث عن فندق لتنزل فيه، ثم تتناول عشاءها وتخلد للنوم. أخذت ترتب في رأسها كل المعلومات الجديدة وكذلك القصاصات داخل دفتر الملحوظات الأزرق الذي حفظته لسنوات برباطٍ مطاطي، حتى لا تتساقط الأوراق والقصاصات والملاحظات المدونة على الأوراق المحفوظة بداخله. أخذت إحدى الأوراق البيضاء النظيفة، التي عادة ما توجد في أدارج المكتب بالغرف الفندقية، والتي إما أن يكون بها هامش علوي أو تكون بلا هامش، وراحت تسجل بإيجاز التواريخ والأحداث التي صارت بدءًا من الآن ترسم خريطة جديدة لحياة سورمينا، وأرفقت بها أسماء الجواسيس الذين كانوا يراقبونها.

سارت على مهل حتى تجاوزت البستان وانعطفت إلى الشارع المؤدي إلى الساحة التي يتوسطها نصب تذكاري. كان ضجيج وسط المدينة يؤذيها، فاستدارت وعادت مرة أخرى إلى الشوارع الجانبية الضيقة.

كانت لافتة فندق „أو شامبيونا" تحمل صورة لحصان واقف. وكان الفندق يبدو كبيرًا إلى الحد الذي يضمن لها القدر الكافي من الخصوصية التي تنشدها في ليلتيها المقبلتين. فطلبت أن يحضروا لها العشاء في حجرتها.

تمددت مسترخية على الفراش وهي تتناول العشاء وأخذت تتصفح دفتر الملحوظات. يرجع زمن تدوين أولى الملحوظات إلى الثمانينيات، وهو الوقت الذي بدأت فيه تتبع آثار ساحرات جيتكوفا رويدًا رويدًا.

كان هذا الدفتر يمثل جزءًا متممًا لرسالتها للماجستير، حيث كانت تدوِّن فيه الحالات التي لم يتسع لها حجم الرسالة المحدود، كما سجلت فيه البيانات الإضافية، والإيضاحات، والمشاهدات، وشهادات الشهود ممن عاصروا الأحداث، وكذلك مجموعة الأسئلة التي لم تستطع الإجابة عليها قبل ذلك. والآن أضيفت إليها أسئلة أخرى لم تكن تخطر لها على بال في ذلك الحين.

انتهت من تناول العشاء ووضعت صينية الطعام أسفل الفراش ومدت يدها لتتناول الرسالة. كانت ثقيلة مجلدة بغلاف أسود، تدعو للوهلة الأولى إلى مزيد من التقدير

الذي لا يتوافر لدفتر الملحوظات المجعد ككراسات تلاميذ المدارس، المتسخ، والمكتظ بالأوراق المحشورة داخله. لهذا الحد يمكن أن يكون المظهر خدَّاعًا!

عدَّلت وضع الوسادة من خلفها، وبدأت تتصفح الفصل الأول.

مدخل إلى موضوع البحث: الثقافة الروحية بمنطقة كوبانيتسه بمورافيا وساحرات جيتكوفا:

لم تتم معالجة قضية ما يعرف بساحرات جيتكوفا معالجةً شاملة في أيٍّ من الأعمال العلمية حتى الآن، في حين أنها ظاهرة جديرة باهتمام العلوم الاشتراكية الحديثة، وخاصة أنها توفر لنا صورة عن قطاع غير معروف من الثقافة الشعبية بمورافيا.

كانت منطقة كوبانيتسة بإقليم مورافيا وتراثها الحضاري وفنونها الشعبية شديدة الثراء، وتتجلى بشكل كبير في فن التطريز الذي هو غاية في التميز، محل دراسة أعمال كثيرة، بما في ذلك عدد من أطروحات الماجستير التابعة لكلية الآداب بجامعة يان إيفانجليستا بوركيني ببرنو أو جامعة تشارلز ببراغ. وتُعد رسالة يوسف يانتشارج من أفضل الإسهامات العلمية في هذا المجال: الثقافة المادية لكوبانيتسه بمورافيا (1958).

لم تحظَ دراسة الموروث الروحي لكوبانيتسه بوصفها أكثر مظاهر الثقافة الروحية خصوصية بتلك المنطقة، بحظٍّ وافرٍ من الاهتمام العلمي الجاد.

تعمل الدراسة التي أقوم بها على سدّ تلك الثغرة، وتنطلق من البحث الذي أُجري في النصف الأول من الثمانينيات. وتستهدف على وجه الخصوص دراسة إشكالية الثقافة الروحية الراسخة التي تمثلها ساحرات جيتكوفا. تتَّبع الدراسة كل سيدات تلك العائلة في سياق تاريخي، وتتناول عدة أمثلة تعكس النشاط الذي قُمْنَ به في تلك الفترة.

وفي هذا الإطار سوف أُؤخر الجانب الأخلاقي والقانوني كالمصداقية وفاعلية الأنشطة لمزيد من البحث. وسوف أُركز على تصوير ووصف الممارسات المندثرة لظاهرة تلاشت تقريبًا بوصفها قضية جديرة بدراسة مُعَمَّقة من منظور علم الإثنوجرافيا المستند إلى المذهب المادي.

حدثتها نفسها وهي تُعَدِّل وضع الوسادة كي تتمكن من الاستلقاء على ظهرها، بأنه ربما يمكنها الآن كتابة الرسالة بشكل مختلف، بل حتى قبل ذلك كان يمكنها أن تكتبها بشكل مختلف، لكنها لم تفعل. وكثيرًا ما كانت تتساءل عما إذا كانت بذلك قد خانت مقصدها الأول، وأضرت بالمجتمع أو بشخص بعينه. وعلى الرغم من أنها لم تتوصل إلى نتيجة محددة أو تُشِرْ إلى أي إنسان على وجه الخصوص، إلا أنها كانت تحس بوخز الضمير كالغصة في حلقها، وخاصة عندما بدأت الآن وبعد كل تلك السنوات تتعمق من جديد في قراءة رسالتها للماجستير. استشعرت انقباض روحها لمَّا قرأت عناوين من قبيل „اهتمام العلوم الاشتراكية الحديثة"، والبحث المبني على „العلوم المادية" وهكذا... إلى آخره، وآخر هذه الأشياء وأهمها هو انحرافها عن هدفها الأساسي، أي رد الاعتبار لما كانت تقوم به سورمينا من أنشطة. كانت ترغب في التعريف بها من خلال دراستها، إلا أنها لم تنجح في ذلك، لا هي ولا مثيلاتها اللائي كان يُنْظَرُ إليهن من قِبَل الإنتاج العلمي الصادر في فترة ما بعد الحرب على أنهن مبتدآت ينشُرْنَ نظرية عالمية خاطئة سوف تتراجع تلقائيًّا بمجرد أن يفسر العلم تدريجيًّا الظواهر التي كان يغلفها الغموض ويجد علاجًا للأمراض المستعصية. وكانت الكتب الدراسية الجامعية إبان الاحتلال الروسي في السبعينيات تزعم أن زوال الخرافات وأعمال الشعوذة المرتبطة بها يُعَدُّ ضرورة تاريخية.

وعلى الرغم من أن إيمان سورمينا بالخرافات كان محطَّ سخرية دورا، فكانت تُعارضها وهي بعدُ طفلة، لأنها كانت ترفض الاستخفاف بالعقول، إلا أنها لم تكن مجرد خرافات، وهي التي بمقتضاها كانت الساحرات يعالجن المرضى! كانت تريد أن تثبت الأثر الاستشفائي لعلاج الساحرات استنادًا إلى ممارسات سورمينا. كانت ترغب في التوصل إلى حجم علمهن الذي لم يتم حتى اليوم تحديد مداه، والذي يتخطى معرفتهن بالطبيعة وجسم الإنسان إلى القدرات الخاصة التي لم تستطع هي نفسها أن تجد لها تفسيرًا مع أنها كانت شاهدة عليها. كانت تود أن تتوصل إلى حجم التفرد لديهن، وكانت تنوي أن تفرد فصلًا للنتائج التي تحصلت عليها من خلال لقاءاتها مع المتخصصين: عالم النفس، طبيب الأعصاب، أخصائي العقاقير، وآخرين غيرهم. أرادت أن تسلط الضوء على التفرد التاريخي للساحرات. لكن الأمر توقف عند آخر هؤلاء المتخصصين: أ. م.

ليندنير، المشرف على رسالتها، الذي أخذ ينظر إليها طويلًا عندما أَطْلعَتْه على الغرض من بحثها، وقتها كانت تغوص داخل الفوتيه القصير في حجرة مكتبه أثناء المقابلة الاعتيادية في السنة الأولى للماجستير. ولم تستطع تحمل نظراته، فأطرقت بعينيها إلى الأرض، ولم ترفع ناظريها إلا عندما سمعت طقطقة مفاصل أصابعه المتشابكة، عندما تنهد وهو يضع يديه فوق رأسه. بعدها قال باقتضاب: اكتبي:

بروكوفيف: العلم والدين، 1952

ناهوديل وريبيك: الخرافات الشعبية التشيكية، 1959

ريازانتسيف: هل يوجد شيء اسمه القدر؟، 1959

بيليك: الوسائط، الوسطاء والتخاطر، 1961

بروكوب: علوم الطب في مواجهة الخرافات والشعوذة، 1984

سيكون بوسعكِ في النهاية بعث الحياة مرة أخرى في هذا المجال الذي قررتِ التخصص فيه. وأنصحك بقراءة بحث هانا هينكوفا „الدور السياسي والفكري للإثنوجرافيا"، مع ملاحظة أنه لم يمر على صدوره وقت طويل، وأن قسمنا يعترف بنتائجه ويطبقها. ثم قال مازحًا: „أنا فقط أحميكِ؛ حتى لا تصبحي عرضة لتبني نتائج المؤتمرات المشبوهة عن التخاطر، التي فاقت أعدادها الحد هذه الأيام، أو اعتناق أفكار عن القدرات الخارقة لبعض الأفراد. الإثنوجرافيا علم وَصْفِيّ مبنيّ على الحقائق، ودوره هو تسجيل اللحظات الهامة في تاريخ ثقافتنا الشعبية، مراعيًا بأقصى ما يستطيع المساهمة في حل المشكلات الآنيَّة. وأنتِ بالتأكيد لا تُريدينَ أن تنخدعي بمثل تلك التيارات شبه العلمية الحديثة. وقد نما إلى علمي أن هناك ملتقيات دولية تُعقد في براتيسلافا حول ذلك الوَلَه بالغيبيات، الذي يخصصون لدراسته بعض المختبرات السوفيتية. إلا أن هذا الموضوع بالنسبة لرسالة ماجستير، يمكنني القول إنه يعتبر جديدًا تمامًا، وإن كنت في نهاية الأمر لا أعرف على الإطلاق إلى أي تيار ستنضمين في أطروحتك في إطار المهام العلمية المقررة، التي سيشارك فيها قسمنا العلمي.

احتارت دورا في أمرها، وذلك عندما أخذت في وقت لاحق تمحِّص من جديد قائمة الموضوعات البحثية المقررة التي سيكون عليها أن تسجل في إطارها موضوع رسالتها.

كانت ترى أنها لا تندرج بالكُلية تحت قائمة الموضوعات الخاصة *بثقافة وأسلوب معيشة العمال التشيك* أو *الثقافة الشعبية في فترة النهضة القومية* أو *بيبليوجرافيا الإثنوجرافيا التشيكية والسلافية*. ربما تنضوي تحت قائمة أساليب معيشة القرية الاشتراكية، ولكنها بعد مقابلتها مع ليندنير، لم تعد حتى متأكدة من ذلك.

وتابع ليندنير: أوصي بشدة بحصر إشكالية ساحرات جيتكوفا في حدود جمع المادة التاريخية والإثنية. وفي حال حصر زمن الدراسة في القرن العشرين يمكننا ضمها لقائمة موضوعات إثنوجرافيا الشعوب السلافية.

مرت عدة أسابيع كانت دورا خلالها تشعر بخيبة الأمل وهي تبحث في المراجع التي أوصاها بالرجوع إليها، وكانت تأمل في أن تجد لموضوعها هذا موطئ قدم. وفي نهاية الفصل الدراسي أغلقت آخر تلك المراجع المقررة عليها، التي جاءت في خاتمتها هذه المقولة لديدرو: «هل تعتقدون أن الإنسان يمكن أن يحيى بلا خرافات؟ الإجابة: لا، ما دام جاهلًا وجبانًا»[(2)]. بهذه المقولة حسم البروفيسور لوبومير هوبيك رأيه في إنكار فن السحر والمعتقدات الشعبية مستهدفًا التأكيد على تلك الثقافة الحقيقية، أي القومية شكلًا والاشتراكية موضوعًا.

كانت دورا، على الرغم من كل تحفظاتها القديمة حيال الخرافات الشعبية، ترى هذا الإنكار مجحفًا. هكذا كما لو كانوا يريدون أن يتخلصوا من الوليد مع الماء المتخلف في حوض استحمامه.. ما معنى الثقافة الشعبية إذا ما أُفرغت من خصائصها المُميَّزة، مهما كانت متخلفة؟ هذا هو ما بقي منها اليوم. كانت دورا ترتجف وهي تفكر في أن المهرجانات الشعبية الضخمة، التي تلعب دور فترينة العرض للثقافة الاشتراكية في المناطق الريفية، والرقص الشعبي داخل قصور الثقافة المبنية بالخرسانة، والتي تبرز وسط الساحات الخلابة، لم تكن جميعها إلا لتذكير السكان بمنجزات الحياة في جنة العمال. وكان هذا على وجه التحديد هو نتاج النظريات العلمية والتصورات الفلسفية للبروفيسور لوبومير هوبيك.

لم يبقَ أمامها سوى أن ترفض تعليمات ليندنير، أو أن تختار المنهج الوصفي

2- لم تشر الكاتبة إلى مصدر هذا الاقتباس.

الصِّرْف الذي لا يتسع أُفقه إلا للمسح التاريخي لموضوع الدراسة. فاختارت هذا الأخير. ومنذ ذلك الوقت ينتابها شعور بالذنب؛ لأنها بمحاولتها المرتعشة والمنافقة لإقامة علاقة ود متبادل مع النظام قد خانت سورمينا وميراثها. لكن ما كان عساها أن تفعل؟ هل كان عليها أن تبقى إلى الأبد في زي البائعة خلف فترينة للأطعمة الخفيفة؟ أَم تكتفي بالتطلع إلى لحظات خاطفة تقضيها مع يعقوب ظهيرة عطلة نهاية الأسبوع عندما لا يكون لديها وردية في عملها؟ أم أنه كان من الأفضل أن تدرس بالجامعة المسائية وتحاول ربط مستقبلها بالشيء الذي فُتِنَتْ به – بساحرات جيتكوفا؟

ومن فرط الإعياء وألم الإحساس بالمرارة أخذت تقفز فوق العديد من الفقرات. وبعينين أثقلهما النوم مرت سريعًا على آخر سطور الفصل الأول.

نجحتُ في تمديد زمن موضوع البحث إلى النصف الأول من القرن 17، الأمر الذي يُفترض معه أن تكون التقاليد التي بمقتضاها تناقلت الساحرات معارفهن، أكثر امتدادًا في عمق التاريخ. أما عن تاريخ نشأتها فلا نملك سوى التخمين.

ولكن توجد حقيقة مؤكدة، وهي أن الظاهرة كانت موجودة حتى النصف الثاني من القرن العشرين، بينما وصلت تلك التقاليد بصورتها الأصلية في الوقت الراهن إلى مرحلة الاندثار.

ونظرًا للمنحى التاريخي للبحث، وكذلك توافر المراجع الكتابية والمؤرشفة، فقد عملت على دراسة الفترة الزمنية من عام 1630 الذي ظهرت فيه أولى الإشارات عن نشاط ساحرات جيتكوفا، التي وردت في كتاب الدم بمدينة بويكوفيتسه، وصولًا إلى عام 1925 الذي شهد نهاية المرحلة الأساسية من نشاطهن.

رأتها كما لو كانت تقف أمامها، طويلة، نحيلة، هزيلة، شحيحة اللحم. جلد ذراعيها اللتين كانتا يومًا قويتين صلبتين، متدلٍ وقدماها ملتويتان. لم يتبقَّ من شعرها المجعد الكثيف الغامق سوى شعر خشن قصير، وقد اختفت معظم الأسنان من فمها الذي كانت تتمتم به شيئًا ما. لم تفهم دورا قولها، وتعذر عليها سماعها. لم تكن في حاجة إلى سماعها، فقد كانت تعلم ما تود قوله، فهي تعرف أدق تفاصيل قضيتها.

كان عليها العودة إلى جيتكوفا، حيث كانت تعيش أمها، شعرت سخانيلكا بالندم حيال قرارها القديم الخاطئ. ربما كان عليها أن تلحق بشقيقتها كونا في برود. كان بقاؤها وحدها بالبيت خطأً لا سيما بمدينة لا تعرف فيها أحدًا عن قرب، ولا حتى عائلة المرحوم ميخائيل الذي جاء بها من كوبانيتسه. انفضَّ عنها الجميع، ولم يشفع لها أحد، ولو بكلمة واحدة، ناهيك عن الشهادة لصالحها هي وستة أرواح بريئة معها. لم يكونوا يعرفونها، وكانوا يخشونها، حيث كان يشاع عنها أنها قادرة على عمل المعجزات. ولم يكن ذلك ليزعجهم، ما دامت تفيدهم به، والعكس بالعكس. فها هي مرة تشفي بقرة أحدهم، وأخرى تتوصل إلى أشيائهم الضائعة. كانت كذلك تشفي من الأمراض، وكان الجميع يذهبون إليها طلبًا للأعشاب، وكانوا يتقبلونها في هذا الإطار.

كفَّ الجميع عن التعامل معها منذ ذلك الوقت الذي تشاحنت معها فيه فوتسيمانكا، وقد أخبرتها أنتشا بكل ما يتردد عنها، إلا أن ذلك جاء متأخرًا، لأنهم كانوا قد وصلوا إليها بالفعل.

رأت دورا كيف انتابت خلجات وجهها رعشة الْتَوَتْ معها شفتاها فأسفرتا عن تكشيرة ساخرة متألمة، كانت موجهة إلى موظفي البلدية الذين جاءوا يفتشون بيتها بحثًا عن كسرة خبز مسروقة أو عظام بشرية مفقودة، إلا أنهم لم يجدوا شيئًا. مجانين! وماذا كان عساها أن تفعل بتلك العظام البشرية!؟ كل ما وجدوه كانت هي الأعشاب، وجدوا منها الكثير مجففًا على الأرض، وكانت قد فرزت بعضها ووضعته في أكياس من القماش وعلقتها على عوارض خشبية. لكن مَن منا لا يوجد ببيته أعشاب، أو على الأقل القليل

منها؟ لماذا إذن يهتم هؤلاء بأعشابها هي بالتحديد؟ كانوا بالفعل مهتمين بها. قاموا باقتلاعها، وقذفوا بها في جوال من الخيش، وألقوا بالمرأة تحت أقدامهم بالعربة حتى لا يطأ نعل حذائها أرض بويكوفيتسه. هكذا كانت تساق الساحرات.

حبسوها في قلعة سفيتلوف، في سراديب القلعة حيث كانوا يقتادون القتلة واللصوص جنبًا إلى جنب مع سيدات فقيرات متهمات بوأد أطفالهن، في زنزانة ضيقة لا تزيد مساحتها على طول ذراع إذا ما مُدَّتْ إلى الأمام، إلا أنها لم تستطع حتى أن تمدها، كانت مقيدة الأيدى في دلو حديدي مثبت بسلسلة حديدية في الجدار أسفل فتحة الإضاءة. مكثت هناك عدة أيام بدون تحقيق. لم يخبرها أحد ماذا تنتظر. لم يقل لها أحد أى شيء، فقط كان مساعد السجان يدس في الزنزانة من وقت إلى آخر إناء به ماء وكسرة خبز. في البداية كانت تنام، ولكنها بعد ذلك لم تكن تستطيع حتى أن تغمض جفنيها. اختلط الليل بالنهار وغاب الصباح، أو على الأقل لم تَعُد هي تميزه.

بعد ذلك أخرجوها من زنزانتها، ولمَّا خرجت إلى الهواء الطلق أدركت كم كانت تفوح من تلك الزنزانة رائحة كريهة، بل ومنها هي نفسها، من تنورتها الملطخة ببقايا الغائط الذي علق بالناحية الداخلية منها وبأطرافها السفلية.

هل صحيح أنكِ كنتِ تبخرين بقراتك بالدخان المتصاعد من الغائط البشرى كي تستولي على حليب أبقار بعضهم؟ هكذا سمعت دورا. هل صحيح أن ذلك الغائط كان لـ أدمتسوفا، وأنكِ أمرتِ تلك الفتاة أن تأتيكِ به، لمَّا خرجت إلى الخلاء لقضاء حاجتها، وأنها امتثلت لما طلبتِه منها؟ هل صحيح أنكِ قمت بتحضير دهان سحري لعائلة فوتسيمان، وكان من المفترض أن تحمل على أثره السيدة فوتسيمانكا، ولكنك تسببت به في ضياع رجولة زوجها، فوتسيمان العجوز؟

لا ولا ولا.. هزت سخانيلكا رأسها نافية كل ذلك. أليس هذا جنونًا؟ ما حاجتها إلى الغائط البشري؟ وما هي فائدته بالنسبة لبقراتها؟ وماذا حدث لفوتسيمانكا؟ اعترضت سخانيلكا وهي تضع يدها المرتعشة على دورا، كما لوكانت تلجأ إليها طلبًا للعون: كيف كان لها أن تحمل وهي متزوجة برجل فقد السيطرة على أعضائه منذ زمن بعيد؟ ومن ذا الذي يتعجب من ذلك وقد اقترب الرجل من الثمانين؟ وأنَّى لهذا أن يعينه على ذلك دهان؟! لا يمكن! لم تجد عند دورا ما كانت تنشد، فلم تستطع دورا أن تتحرك على

الإطلاق، وكل ما استطاعت فعله هو متابعة سخانيلكا وهم يسحبونها نحو السد المقام عند البركة، كي يخضعوها للمرحلة الأولى من – تحقيقات أوهيرسكى برود، محاكمة الساحرات باستخدام الماء.

كان الأمر واضحًا وضوح الشمس، ذلك أنها لن تغرق، حين يلقونها في البركة وهي مرتدية تنوراتها الثلاث. لأن فقاعات الهواء سوف تعمل على انتفاخ القماش فتُبْقِي سخانيلكا فوق الماء، في حين أخذت هي تلوح بذراعيها مذعورة من الماء الذي كان يمكنه ابتلاعها في أية لحظة. لم تكن تجيد السباحة، إلا أن مياه البركة كانت هادئة وراكدة. وقبل أن تسقط أمسكوا خصرها بإحكام من خلال حبل شدوها به، فرفعت بصرها في هلع نحو الرجال الواقفين عند السد. استطاعت أن تلمح من بين خصلات شعرها المبتلّ وجوههم الغاضبة وأيديهم التي تلوح بعنف نحوها:

– لم يبتلعها الماء! إنها تسبح! يبتلع الماء فقط كل ما هو طاهر!

ثم رأتها دورا ترقد عارية على الطاولة ويداها مكبلتان خلف رأسها وكاحلاها المتورمان محاطان بمعدن بارد باعد بينهما. وبين فخذيها انكفأ خمسة رجال، بينهم جلاد. كانوا جميعًا ينظرون إلى هناك، إلى حيث كانت سخانيلكا تحذر حتى زوجها الراحل من النظر، كانت تشعر بأصابعهم في كل مكان، حتى في الأماكن التي لم تكن تصل إليها إلا عند الاغتسال من الدورة الشهرية.

وعلى الرغم من أنها راحت تجذب جسدها بعيدًا عنهم، فقد طوقوا خصرها وأسفل صدرها، ولأنها كانت تصرخ، فقد عصبوا فمها بشال، وغطوا رأسها بجوال. استطاعت دورا قبلها أن تلمح دموع القهر تتدفق من عينيها.

– ها هي! هنا! شارة السحرة! إنها هنا!

كانت دموعها قد جفت بالفعل قبل المثول أمام المحكمة. جلست على دكة خشبية، جسدًا بلا حياة ورأسًا خاليًا من أى فكرة، كما لو كان قد انعقد لسانها جراء ما حدث عند فحصهم لجسدها، ومنذ ذلك الحين ماتت فيها الروح. كانت تنظر، تدقق النظر، تحدق في ذلك المشهد الغريب. وكانت دورا تعتقد أن هذا هو جُلُّ ما كانت سخانيلكا تستطيع فعله في تلك اللحظة. لم يكن ممكنًا بأى حال أن تجيب على أسئلة ذلك الرباعى

من رجال بويكوفيتسه الموقرين وعلى رأسهم عمدة المدينة ورئيس دير الدومينيكان في برود. كانت أسئلة التحقيق تتكرر بلا نهاية، وذلك فيما يتعلق بما إذا كانت قد أمرت فتاة عارية بجمع الأعشاب ثم الاستحمام بها، كي يزداد جمالها، وما إذا كانت ليلة عيد القديسين فيليب ويعقوب قد أمرت أحدهم بالقفز فوق صخرة القديس بيتر، كي يتواصل مع الشيطان في الجحيم عند أدائه لصلاة القداس، وما إذا كانت...

– لا، كانت سخانيلكا تهز رأسها في ضجر.

لذا أدخلوها إلى غرفة التعذيب حيث يوجد المسمار اللولبي (آلة سحق الإبهامات)، والحذاء الإسباني، والسُّلَّم، فغُشي عليها. ماذا كان عليها بحق الرب أن تقول؟ تعلقت عيناها بدورا تستعطفانها. هل كانت عشيقة الشيطان؟ ما هذا الهراء؟ كيف يمكن أن يصل تفكيرها لشيء كهذا؟ وماذا ستقول عن ذلك أمها، وشقيقتها كونا، وأسرة المرحوم زوجها؟

– لا!

أرادوا إثبات قدرتهم من خلال قانون التعذيب، فسحقوا إبهامها بالمسمار اللولبي، على الرغم من بكائها وتوسلاتها إليهم طلبًا للرحمة، وسال الدم من أقدامها الحافية، فتشربته الأرضية العارية لغرفة التعذيب بنَهَم الجائعين.

سمعتهم دورا بعدها يسألونها لماذا أعطت فوتسيمانكا ذلك الدهان؟

أجابت سخانيلكا بأنها كانت تريد لها أن تسفر علاقتها بزوجها عن ذلك الطفل الذي كانت تتمناه.

– وبأي سحر صَنعتْ ذلك الدهان؟ من أعطاها الوصفة؟

– ليس للسحر أية علاقة بالأمر، صَنعَتْه من الأعشاب التي يجمعها الناس من أية غابة أو مرج، ثم يتم غليها مع دُهن الخنزير، ثم تستخدم كدهان يعيد للرجال قدرتهم الجنسية. لم يدلّها أحد بعينه على تلك الوصفة، فالجميع ممن لديهم أية دراية بالأعشاب يعرفونها، فليسألوا القابلات أو مُجبّري العظام.

– أية قابلة، ومن هم مجبرو الكسور هؤلاء؟

في تلك اللحظة خنقت سخانيلكا العبرة، لكنها بدلًا من أن تجيبهم، أطرقت بعينيها إلى الأرض وهزت رأسها في إشارة إلى أنها لا تعرف.

- هل استخدمتِ جثث الأطفال في صناعة هذا الدهان؟ كم من النساء ساعدتِ في التخلص من حمل غير مرغوب فيه؟ وهل تحتفظين بظفرك الطويل هذا من أجل أن تتمكني من ثقب غشاء كيس الماء المحيط بالجنين؟

- لا تقلقي، المحكمة عادلة ولا ترغب في سفك دمك! اعترفي وسيُعفَى عنكِ!

رأت دورا كيف كانت مشوشة، لكن كيف خطر لها أن تعترف ثم تتراجع عن أقوالها؟ وبماذا تعترف؟ ربما تستطيع بذلك أن تنقذ نفسها من الحذاء الإسباني والتعذيب بالحرق. على جانبي ثدييها بقيت جروح متقيحة من آثار الحرق. انفجرت البثور والتقرحات فبللت بلوزتها. لم تعد تحتمل المزيد، لذا وقّعت لهم على كل ما دفعوا به إليها. وقّعت بإرادتها الحرة ودون إكراه على كل ما كانت تؤمن به من قبل وما تريد أن تعيش وتموت عليه؛ وذلك لأنها في اليوم الذي وقعت فيه على ما أراوده، توقف خضوعها لقانون التعذيب. أمسكوا بها من ذراعيها، ولأنها لم تكن تجيد الكتابة، فقد أخذوا بيدها المرتعشة فوق ورقة بيضاء تركت عليها أثر بقعة بنية من دم جف على إبهامها المسحوق.

من يخرج على تعاليمي، سوف يُلفظ كفرع شجرة ذابل، بعدها سيأخذونه ويلقون به في النار ويتركونه يحترق! سمعت دورا ورأت كيف كانت تلتفت إليها في ذعر، وقد امتلأت روحها بالخوف فجأة. كانت مرعوبة؛ لأن تلك الكلمات، كلمات الرب يسوع المسيح، التي لم تخالفها يومًا، خرجت من فم رئيس البلدية لتتوعدها بأسوأ عاقبة. وبعدها انتابتها رعشة لعدة مرات، عندما انتبهت فجأة إلى ما هو آت. وأخذت عينا وجهها النحيل تلمع من شدة الخوف، وينفرج فمها الخالي من الأسنان لتنطلق منه صرخة متوحشة مرعبة تدوي في الغرفة التي تنام بها دورا.

****

استيقظت من نومها قبل أن يَلُوح الصباح، وقد سرت بجسدها قشعريرة. دفعت جانبًا رسالة الماجستير التي نامت عليها، أضاءت النور وبدأت من خلال الضوء الوهاج

البارد تتحسس الطريق إلى الحمام. كان البقاء في غرفة الفندق التي لم تألفها يزعجها.

مرة أخرى يعاوها ذلك الحلم عن محاكمة كاترشينا سخانيلكا. مرة أخرى. كم مرة حتى الآن؟

ظل ذلك الحلم يعاودها منذ ذلك الوقت الذي اكتشفت فيه وثائق كتاب الدم الخاص بمدينة بوكوفيتسه عن مصيرها المأساوي الذي انتهى بإعدامها لممارستها السحر والشعوذة. ووصلت إلى قناعة بأن نهايتها كانت تؤرخ لبداية نهاية سلسلة طويلة من الساحرت. ومهما حاولت دورا التعمق في دراستها إلى زمن أبعد من ذلك، لم تصل بها محاولاتها إلى أي شيء. كانت تقف أمام مرحلة جرداء لا متناهية، ليست لها ملامح زمنية، ولا يمكنها أن تتعلق بأي خيط قد يوصلها إليها. لم تكن مجلدات الكنيسة من زمن حروب الثلاثين عامًا مكتملة، ولم تكن توجد حينها سجلات مدنية، ولا سجلات للإقطاعيات، لا توجد إشارات أخرى. انتهى الأمر. لا يوجد ما يمكن الرجوع إليه بالبحث والتنقيب.

لكن دورا كانت تعاني من شعور بعدم اكتمال البحث، وذلك على الرغم من أنه لم يعد يوجد ما يمكن الرجوع إليه. كان عقلها الباطن ينبئها بأن سخانيلكا لم تكن أول من حمل ذلك الميراث الغامض الذي كان ينتقل على مدار مئات السنين من الأم إلى الابنة. لكن ما كان عسى ذلك الاحساس أن يجدي، ما دام لا يوجد حيز لتنتقل إليه وتتوغل فيه؟ فانطلقت نحو الخيوط التي تشعبت لتنتقل من سخانيلكا إلى أختها كونا وإلى ابنة عمها كاترشينا مرازكا التي أفلتت بأعجوبة بعد خمس سنوات من مثل تلك المحاكمة، كي تقبع على منصة الإعدام زوزكا أورشيدنيتشكا التي أقامت ضدها الدعوى. تسلسلت الخيوط لتصل إلى محاكمة أخرى من تلك التي أقيمت للساحرات في بويكوفيتسه، ولم تفلت فيها كاترشينا ديفوكا، وهي إحدى حفيدات كونا، من جلاد أوهيرسكي برود الذي جاء إلى بويكوفيتسه لتنفيذ أحكام الإعدام، ولم تنتهِ حياتها - بفضل سماحة رئيس البلدية- بالحرق، وإنما أسفل شفرة السيف.

عندما أغمضت دورا عينيها في محاولة للتركيز، استطاعت أن تسمع هسهسة بلطة الجلاد التي اخترقت الهواء الذي لم يتردد فيه حرف واحد، على الرغم من أن الساحة المواجهة لبلدية بويكوفيتسه كانت ممتلئة عن آخرها، فقط آهات وعويل كاترشينا

ديفوكا التي كان على الجلاد بعد ضربة غير دقيقة أن يعيد ضرب عنقها. شعرت بخروج عَرق بارد من جسدها، تمامًا مثل عرق الجلاد. كان يسيل منه أسفل ثنية حمراء تمتد من وجنتيه إلى عينيه. أكان عرقًا أم دموعًا؟ يصعب القول؛ لأن اجتزاز رقبة شخص كان يعرفه منذ مولده هو أيضًا أمر لم يكن يحدث معه كل يوم.

أخذت دورا تهز رأسها علَّها تتخلص من تلك الأفكار. اتكأت على الحوض وحاولت أن تفتح عينيها الناعستين لتنظر إلى نفسها في المرآة. لاحظت أثر كدمات على وجهها خلَّفه حرف غلاف رسالة الماجستير عند نومها عليه، فتسبب في انضغاط بشرتها الشاحبة الجافة التي كانت تبدو أكبر من عمرها بكثير، لكن ربما أرضاها شعرها البني الفاتح الكثيف المنسدل على كتفيها. فقد تخطت الأربعين ولم يعرف الشيب طريقه إلي مفرقها، وكانت نفسها تحدثها بأنه حتى لو ظهر، فلا شيء في ذلك، كما أن غيابه لن يكون محل اهتمام أي أحد.

فتحت الصنبور وغسلت وجهها في تيار الماء البارد. فشعرت ببرودة محببة تسري في وجهها وبالدم يندفع في وجنتيها. تناولت من على الرف كأسًا، وصبت فيه الماء، وشربت، وقد جافاها النوم.

استلقت على الفراش، ومن جديد فتحت المجلد الأسود. كانت قد قرأت حتى الفصل الخاص بكاترشينا سخانيلكا وكاترشينا ديفوكا. أخذت تقلب صفحاته ببطء حتى وصلت إلى ملحق الصور.

كانت به نقوش ترجع إلى تلك الفترة ومشاهد من التعذيب: تعذيب بالمسمار اللولبي، تعذيب بالحذاء الإسباني، تعذيب بالسُّلم، كيٌّ بالنار. ونقش لساحرة من ذلك العهد تدهن جسمها بمرهم طيار. وكذلك نسخة مصورة من سجلات محاكمة كاترشينا ديفوكا تعود إلى عام 1667، كُتِبَ أمامها بخط مائل من الطراز القوطي المتأخر.

اعترافات كاترشينا ديفوكا والحكم الصادر بحقها

صدر في الحادى عشر من يونيو عام 1667 بمدينة بويكوفيتسه

بالنظر إلى أن كاترشينا ديفوكا متهمة بالتعاون مع الشيطان، وأنهما يأتيان معًا

السحر، فقد تم استجوابها بموجب قانون التعذيب واعترفت بما يلي:

1) أنها ذهبت بعد منتصف الليل إلى المقابر، وقامت بمفردها بتقطيع أعضاء أطفال حديثي الولادة، كي تستخدمها في التركيبات التي تُعدها بهدف إيذاء جيرانها. أقرَّ بهذا النجار يورا من بلدة لوهاتشوفيتسه، وقد رآها عندما كان في إحدى الأمسيات يمر من هنا عائدًا من الحانة.

2) وأنها قامت بتحضير تلك التركيبات العجيبة التي كانت تُجبر العذارى على تناولها، والتي كانت تتسبب في افتتان الرجال بهن، فيركضون وراءهن في كل مكان دون تفكير. وقد شهدت بذلك ماركيتا ابنة تاجر الأجواخ المحترم ببلدية بوكوفيتسه، والتي رفضت سحر ديفوكا الذي يجلب الحب.

3) كما أنها تأتي في بيتها أفعالًا غريبة من قبيل أنها قامت بوضع وعاء مقلوب على الطاولة ووضعت تحته أعشابًا في سلطانية صبت فيها شيئًا ما من قميص تالاش الذي سرقته من قبل من على السياج، وقامت بتلاوة تعويذة ما، بدت كما لو كانت جزءًا من صلوات الشيطان، وذلك من أجل أن تسحر بحبها تالاش الذي أُغرم بها بالفعل على غير رغبته، ولم يجد لنفسه من ذلك مخرجًا. أكدت ذلك ماريا كرشيستنيتشكا التي رأت كل ذلك بحكم أنها جارة ديفوكا.

4) كذلك عرضت ديفوكا أعمال السحر التي تقوم بها على نساء بويكوفيتسه الفُضليات، على سبيل المثال أن تخلص ماريا كرشيستنيتشكا من زوجها (وهو ما نفت ماريا رغبتها فيه)، رقية ابن روزينا كودليتشكا الصغير (وهو ما رفضته روزينا)، علاج أنَّا روكيتاتشكا من مرضها العضوي (الأمر الذي لم توافق عليه أنَّا)... إلخ.

وحيث إن المدعوة ديفوكا اعترفت بعد التعذيب بالكي بتجاوزها لتعاليم الرب وبسوء مقصدها، وأقرت بأن هذا ما كان منها وما تنوي أن تموت عليه؛ لذلك وجب صدور ذلك الحكم عليها. وعلى الرغم من كونها، وفقًا لنصوص القانون الصارمة، كانت تستحق أن تُحرق حية على سبيل الردع لمن تسول له نفسه ارتكاب نفس الفعل، إلا أنها بفضل رحمة القانون ستموت تحت حد السيف وسيسكن جسدها جوف الأرض. صدر المرسوم النهائي بتاريخ الحادي عشر من يوليه عام 1667.

مرت دورا سريعًا على بضع صفحات تالية.

مذكرة بشأن الاعتذار عما بدر من الجلاد:

السادة المحترمين، الحكماء، النابهين، أصحاب الحظوة! طبقًا لأحكام القانون الأعظم والعقاب المُنفذ بحق سيئة الذكر كاترشينا من قِبَل الجلاد الذي أمرناه بتنفيذ الإعدام بحد السيف، إلا أنه لم يتصرف بالطريقة التي تليق بجلاد؛ ذلك أنه لم يجتز رأسها بشكل صحيح، ولم يقطع الرأس كاملًا، واضطر لضربها مرة أخرى ليكمل تنفيذ الحكم. وقد اعترف أمام القانون في خضوع، ونحن من جانبنا نشفع له طالبين من عظمتكم أن تأخذوه بعين الرحمة وأن تعفوا عنه.

أما بالنسبة لتلك السيدة المتهمة، فعندما أُحضرت إلى مكان تنفيذ الحكم، وكان قد تم التنبيه عليها من قِبَل رئيس البلدية أن تعلن في النهاية توبتها أمام الناس وأمام الرب، تراجعت ديفوكا عن كل ما اعترفت به، وما استحقت عليه الحكم بالإعدام قائلة إنها لم ترتكب خطأً في حق أحد، وإنه إذا كانت المعرفة بطب الأعشاب والإيمان بقدرة تلك الأعشاب على مساعدة سكان المنطقة وأطفالهم المرضى تُعَدُّ ذنبًا، فلكم أن تعتبروني مذنبة، أما اتهامي بأني كنت أمارس في بيتي الشعوذة، أو السحر بالمحبة لرجال المنطقة، وأني أصيبهم باللعنة، فأنا لست مذنبة. طالبت بالعدالة، وإن كانت لم تنشدها لدى المحكمة الموقرة، بل عند الجلاد، حيث إنه كان يعرف المتهمة؛ ولذا لم يوفق في تسديد ضربتة بدقة. وتجدر الإشارة بالإضافة إلى أن إعدام ديفوكا تم بموافقة ورضاء المواطنين، إلا أنها في ذلك اليوم بدأت تتصرف كما لو كانت شهيدة وقعت ضحية لشهادات مغرضة ونسي الجميع كل ما أسْدَته لهم من جميل الصنع، استطاعت من خلاله أن تنقذ حياة العديد من الأطفال. نشكركم على العفو عن الجلاد ي. إم. وهو مستعد لتلقي العقاب المناسب من قِبلنا جراء سوء أدائه لعمله.

في الثالث عشر من يونيه 1667. سنبقى نحن رجال القانون وعمدة بويكوفيتسه على

بدأ نور الصباح يلوح من وراء نافذة غرفتها بالفندق. وبدأ ضجيج الشارع المتزايد يصل شيئًا فشيئًا إلى سمع دورا، ويطرد ظلال الليلة التي استحضرت مصائر المرأتين. أخذ وجها كاترشينا سخانيلكوفا وكاترشينا ديفوكا يتلاشيان بالتدريج من مخيلتها حتى اختفيا تمامًا.

تعلق بصرها بضوء النهار الذي بدأت أول خيوطة في الظهور، وهي تغلق المجلد الأسود بقوة، وقد حان الوقت كي تنهض وتعود لقضية سورمينا.

قسم المحفوظات: اليوم الثاني

وقفت في تمام الثامنة أمام باب غرفة القراءة. دقت الجرس مرتين، قبل أن يأتيها صوت عبر الميكروفون: قسم المحفوظات، وقد اختفت أحرف الكلمة وسط اللقيمات التي كان المتحدث يبتلعها بصوت عال.

انحنت دورا ووضعت فمها على الميكروفون:

- أتيت قاصدة قاعة المطالعة.

سمعت أزيز الباب، ركضت إلى الدور الثاني عبر دَرَج لولبي، ووضعت معطفها في الخزانة، وسجلت اسمها في سجل الزائرين.

قالت لموظف الأرشيف، الذي كان ينظر إليها من وراء الكابينة الزجاجية: دورا إيديسوفا. كانت توجد أمامه على المكتب ورقة منتفخة ملوثة بالدهن، ومن حوله تتناثر أرغفة الخبز المقضومة، وبجانبه زجاجة حليب بلاستيكية ملطخة، ووسط كل هذا توجد علبة سجائر.

استدار الموظف صوب رف خلف مكتبه وأعطى دورا ملف سورمينا، ومن فوقة وضع كارت الاستعارة قائلًا: وقّعي لى هنا.

بعد لحظات كانت تجلس في مقعدها في زاوية الحجرة، وبدأت تتصفح أوراق الملف الموضوعة أمامها حتى وصلت إلى المستند الذي توقفت عنده في اليوم السابق.

95

الإدراة المحلية لأمن الدولة

أوهيرسكي هراديشتي، القسم الثالث

ليد الموظف المختص: العراف

تعليمات خاصة بقضية تيريزيا سورمينا:

تمثل المذكورة خطرًا على المجتمع، فقد مارست الاحتيال على مواطني جمهورية تشيكوسلوفاكيا الاشتراكية على مدى عشرين عامًا، وقامت بنهب الممتلكات العامة، وهدم المؤسسات الاشتراكية. ونظرًا لما تقوم به من أنشطة ولمسلكها الحالي، يمكننا القول إنها فعلت ما فعلت نتيجة لمرض نفسي. ولهذا السبب عليك إيداعها تحت الملاحظة في مصحة كرومنيرشيجه للعلاج النفسي، وينبغي التنبيه على العاملين بالمصحة بمراعاة ما يلي: ألَّا يقترب منها أحد إلا في حراسة خاصة، فرض قيود على اتصالها بأي مخلوق سوى العاملين بالمصحة، بما في ذلك أفراد عائلتها، وذلك لدواعي المصلحة العامة.

عليك موافاتي فورًا بكل ما تقوم به سورمينا من أفعال وأقوال، أو أي ملابسات أخرى ترتبط بإقامتها بالمصحة، وعليك أن تعمل على تجنيد عميل للقيام بهذه المهمة.

الموظف المسئول: يندرشيخ شفانتس

بتاريخ 17/6/1974

اشتدت دهشة دورا، فقد كانت تنتظر أن يكون أول شيء تجده بعد رحيل سورمينا هو استمارة ترحيلها إلى السجن، محضر استجواب، أو محضر جلسة محكمة، لكن شيئًا من ذلك لم يكن موجودًا بالمرة بالملف. أخذت تقلب صفحات الملف قليلًا إلى الخلف، ثم مرة أخرى إلى الأمام، لكنها لم تجد شيئًا. عجبًا! التفتت دورا وقد تقطب جبينها للملف التالي.

96

المصحة النفسية العامة في كرومنيرشيجه

عنبر 5 أ للأمراض النفسية

تقرير العيادة النفسية الخارجية: تيريزيا سورمينا

تاريخ العائلة المرضي: جنون الارتياب (بارانويا) في فرع عائلة والدتها (تحدثت المريضة عن نفس النوعية من الأوهام التي كانت تعاني منها الأم والجدة). الأب مدمن للخمر.

التاريخ المرضي للمريضة: لم تصب بأمراض خطيرة، لم تتعرض لإجراء أية جراحة، في عام 1945 تعرضت لكسر في عظمة الكاحل الأيسر ومفصل القدم. وأصيبت بالعرج نتيجة لخطأ في التحام الأربطة.

تعاطي المخدرات: تنحدر من بيئة جرت فيها العادة على تناول المشروبات الكحولية القوية، وقد ظهر بوضوح بعد ذلك إدمانها للكحول. غير مدخنة.

الحالة الاجتماعية: لم تتزوج وليس لديها أبناء. تنحدر من عائلة بسيطة تعمل بالزراعة، من بيئة اجتماعية فقيرة، ليس لديها حرص على الانفتاح على المجتمع. شديدة الإيمان بالله (تعتنق المريضة الديانة الكاثوليكية)، وهو ما أدى بجلاء بالإضافة إلى معدل ذكائها إلى إفساد شخصيتها. أفادت المريضة بأنها ليس لديها علاقات بالجنس الآخر، وأنها تعيش مع ابني أختها اللذين ضُمَّتْ حضانتهما إليها.

التاريخ الوظيفي: لم تكمل تعليمها الأساسي. كانت تتكسب قوتها حتى عام 1974 من عملها بالزراعة في أرض تملكها. ومنذ عام 1952 تتقاضى معاش عجز.

العلاقة بالمؤسسات الاشتراكية: سلبية.

الحالة عند دخول المصحة: تم إحضار المريضة بمعرفة الأمن العام في 17/6/1974؛ لأنها كانت تتصرف بطريقة عدوانية خلال الاستجواب وكذلك أثناء الحبس الاحتياطي، وكانت تتوعد رجال الأمن بالويل. وقد اتضح من أقوالها أنها تعاني من الأوهام الذهانية. وقد لفتَ رجال الأمن العام إلى أعراض جنون الارتياب في سلوكها، وأفادوا كذلك بأن الماثلة للاستجواب قد تبولت عدة مرات في الأماكن العامة بالمحطة. كان مظهرها عند وصولها غير مهندم بالمرة. متقلبة الانفعالات تنتقل من حالة الغضب المصحوب بألفاظ نابية إلى حالة التفكير الانسحابي الذي يصل إلى حد الاكتئاب المتمثل في الانزواء جانبًا ورفض التواصل مع الآخرين. دخلنا عليها عدة مرات بغتة فوجدناها تصلي. لديها ارتباط مَرَضِيّ بالدين. سلوكها فوضوي.

التحليل النفساني: اضطراب ذهاني مصحوب بأوهام جنون الارتياب وتصورات غريبة ممنهجة، فهي مقتنعة أن بوسعها أن تشفي من المرض عبر استخدام الأعشاب التي يقال إنها موجودة لديها بالبيت، وأنها تستطيع جبر الكسور باللمس. كما أنها مقتنعة بأنها تستطيع معرفة المستقبل، وكذلك تغيير حالة الجو. لديها تصورات متجذرة بأن رجال الأمن العام يتعقبونها، وأنهم يرغبون في إلحاق الأذى بها، ويتجلى ذلك في أنهم أخذوا منها الطفلين المحضونين لديها، وأنهم سوف يتسببون في خسارتها للقضية، وأنهم سوف يقتادونها إلى السجن. وهي معتقدة أنها تتعرض لمؤامرة. وليست لديها دراية بأي من التهم الموجهة إليها. ونظرًا للاشتباه في وجود مرض ذهاني فقد تقرر بدء المعالجة الوقائية.

العلاج: 18/6/1974: عند دخولها المصحة تم إخضاعها للعلاج بمهدئ بليجومازين 2 أمبول عن طريق العضل. وفي 20/6/1974 وصلت الجرعة إلى 3 أمبولات 6 مج. المريضة غير متعاونة في تناول العلاج عن طريق الفم. تم استخدام هالوبيريدول كمضاد للذهان 3 مرات بمعدل 6 مج في العضل، ومنذ 24/6/1974 تم زيادة الجرعة إلى 6 مرات بمعدل 8 مج. النتيجة سلبية. لذلك تم تغير العلاج من 1/7/1974 إلى خلوربرومازين 3 مرات بمعدل 8 مج. لم يطرأ بعدها تغير على حالة المريضة والتخيلات الذهانية ما زالت مستمرة، واستمرت المريضة في نهجها غير المتعاون. ظهرت على المريضة أعراض الاكتئاب. ترفض الطعام والتواصل مع الآخرين.

107

الإدارة المحلية لأمن الدولة

أوهيرسكي هراديشتي، القسم الثالث

ليد الموظف المختص: شفانتس

أعد التقرير: الاسم الحركي/المجلد: العراف/15701

نوع التعاون: موظف تنفيذي

إدارة السجلات التابعة لأمن الدولة بـ: أوهيرسكي هراديشتي

محضر اجتماع مع العميل „كلوزيك":

انعقد الاجتماع مع المرشح لدور العميل السري، واسمه الحركي „كلوزيك"، في التاسع عشر من يونيو 1974، وذلك في استراحة „مير" على الطريق السريع شارع رقم 47، ناحية كرشينوفيتسه. وصل المذكور في الموعد المحدد، وذلك بعد تواصل سابق معه في محل عمله. كان يتصرف بشكل طبيعي أثناء المقابلة، ولم تظهر علية أية أمارات للعصبية، وكان يتحدث بطلاقة.

تركَّزَ الجزء الأول من الاجتماع على ظروفة العائلية، ومركزة الوظيفي، وتبين أن ظروفه العائلية جيدة، وأن حياته الزوجية طبيعية، ولديه طفل وحيد، وفي المقابل لديه مشاكل في عمله تسبَّب له على ما يبدو إحباطًا.

وأخبرناه أن اختيارنا قد وقع عليه بعد دراسة صفاته الشخصيه، والبيئة التي ينحدر منها، ومواقفه الوطنية، وذلك باعتباره مواطنًا مسئولًا يمكننا الوثوق به، بصفتنا أحد أهم أركان دولتنا. لم تكن لدى „كلوزيك" أي ملاحظات تُذكر، فقط قال إن ذلك يسعده. كذلك أخبرناه بأن هذا التعاون سيكون مرضيًا للطرفين بكل تأكيد، وسيسهم كذلك في حل المشكلات التي تواجهه في محل عمله. وقد أبدى „كلوزيك" حماسًا شديدًا عند سماعه لهذا النبأ، وقال إن د. دانوشه ريزكوفا نائبة كبير الأطباء د. فورمانيك ليست الشخص المناسب في المكان المناسب، وإنها وصلت إلى ذلك المنصب بسبب علاقتها الشخصية، الأمر الذي اعتبره „كلوزيك" غير مهني.

قلنا له كذلك إن تلك المقابلة لا تتعلق فقط ببدء التعاون المتبادل والمثمر بيننا، ولكن أيضًا بتعريفه بأهمية أمن الدولة. وذكرنا له أنه ضمن مجموعة المرضى الموجودين داخل المصحة التي يعمل بها توجد شخصية معادية للنظام، إحدى عناصر الطبقة البرجوازية الدنيا المُخَرِّبة التي اغتنت بشكل عمدي على حساب العشرات من المواطنين عديمي الوعي نتيجة لممارسة مهنة الطب بشكل غير قانوني، والذين تسببت مرارًا في إلحاق الضرر بهم. تم شرح قضية „سورمينا"، وقد أُحيط „كلوزيك" علمًا بالأمر؛ لأنه هو الطبيب المشرف على علاج سورمينا، ووعد بأنه سيعيد النظر في طريقة علاج المريضة، وذلك نظرًا لخطورة المعلومات التي حصل عليها مؤخرًا.

وطُرحتْ عليه مسألة ما إذا كان باستطاعته أن يقدم لنا صورة موجزة عما يحدث في المصحة النفسية العامة في كرومنيرشيجه خصوصًا بين القاعدة الشبابية. ومن هذا السؤال أجاب „كلوزيك" بأن كل ما سنكلفه به ويكون في مقدوره، سيخبرنا به. ثم أبدى اهتمامًا بمعرفة نوعية المعلومات التي نريدها. وجاءه الرد بأننا سنناقش ذلك على وجه التحديد في الاجتماع المقبل، وكذلك مسألة وضعه الوظيفي.

وانتهت المقابلة على ذلك مع الاتفاق على أننا سنبقى على تواصل، وأني سأقوم بالاتصال به قريبًا بنفس الطريقة التي حدثت اليوم.

<u>الخاتمة</u>: أعتقد أن „كلوزيك" يصلح أن يكون عميلًا سريًا، وهو مدفوع بأهدافه الخاصة التي تتوافق كذلك مع مآربنا نحن.

انتهى اللقاء في 19/7/1974 الساعة السادسة وخمس دقائق مساءً

التكلفة الكلية: 247 كرونًا

<u>الملحق رقم 1:</u>

قال العميل السري عن نفسه، إنه وُلد في 17/3/1944، ينحدر من عائلة عاملة، كلا والديه يعملان. يعمل والده عامل صيانة بالخدمات الفنية بالبلدية، بينما تعمل والدته محاسبة بنفس المكان. ليس لوالديه أي نشاط سياسي. ليس لديه أشقاء. أنهى تعليمه الأساسي، ثم حصل على الشهادة الثانوية من مدرسة كرومنيرشيجه الثانوية الحكومية، وفي عام 1969 تخرج في كلية الطب جامعة يان إيفانجليستا بوركيني بمدينة برنو. أدى الخدمة العسكرية الإلزامية بمدينة براخاتيتسه. متزوج (زوجته تدعى إيفا، لقبها قبل الزواج بوردوفا، وهي الآن في إجازة رعاية طفل)، الابن إيفان. يهتم بممارسة لعبة الكرة الطائرة.

توصلت تحرياتنا إلى أنه كان يتردد على منظمة بيونير، وأنه كان أحد أعضاء الاتحاد الاشتراكي للشباب، ومن خلاله انتظم في صفوف فريق كرومنيرشيجة للكرة الطائرة – للأطفال والمراهقين، وأصبح في الفترة من 1961-1959 رئيسًا لمجلس إدارة الفريق. توصلنا أيضًا إلى أنه عضو فاعل وموالٍ فكريًا للاشتراكية. أصبح أثناء دراسته بالجامعة عضوًا باللجنة الطلابية، وقد ظهرت من خلالها مواقفه المستنيرة، وأظهر تفهمًا لخطر الثورة المضادة، كما

أنه أعلن عن موافقته على دخول الجيوش الحليفة في أغسطس 1968. مُرشح الحزب الشيوعي التشيكي منذ عام 1972.

لم يستطع الوصول إلى منصب نائب كبير الأطباء بقسم النفسية 5أ بالمصحة النفسية العامة بمدينة كرومنيرشيجه، الذي ترشح له عام 1972.

ناضج سياسيًّا، ومستوعب بشكل جيد لمجمل القضايا المجتمعية.

111

الإدارة المحلية لأمن الدولة

اوهيرسكي هراديشتي، القسم الثالث

ليد الموظف المختص: شفانتس

تقرير موجز: قضية سورمينا تيريزيا

أعد التقرير: العميل السري „كلوزيك"

استجابة لطلبكم أوافيكم بالمعلومات الكاملة بخصوص حالة المريضة سورمينا تيريزيا. تم إدخال المريضة إلى المصحة بعد تشخيص الحالة بأنها اضطراب نفسي مصحوب بأوهام ذهانية – ذُهان تخيلي، حالتها متوسطة. ما زالت تنتاب المريضة اضطرابات في النشاط الجسماني وبخاصة اضطراب الإدراك والتفكير، فهي مشتتة الفكر، تزعم أن لها ابنة، وتقول إن „ابنتها تدعى دورا"، في حين ذكرت التقارير أن ابنيها الاثنين اللذين وضعتهما في عامي 1939/1942 قد توفيا. فاقدة للثقة في الجميع وغير متعاونة.

كانت استجابتها للعلاج طوال شهر أغسطس سلبية، ونظرًا لأن المريضة ترفض تناول العقاقير الصيدلانية؛ تم إخضاعها في سبتمبر للمعالجة بالجلسات الكهربية، وذلك بواقع 6 صدمات كهربية مرتين في الأسبوع ببنج كُلّي. بعد السلسلة الأولى من الصدمات الكهربية صارت حالة المريضة أفضل، وأصبحت أكثر هدوءًا.

وفي نوفمبر عادت الأعراض للظهور من جديد، متمثلة في انعكاس معاناتها الداخلية بصورة سيئة في شكل سلوك عدواني. وأحيانًا تغمغم بكلمات غير مفهومة كما لو كانت تؤدي صلوات، اتضح بعدها أنها كانت نوعًا ما من الرُّقية حافظت المريضة على ترديده بلا توقف حتى يغالبها النعاس. وتقرر إخضاعها للمعالجة بسلسلة أخرى من الجلسات بعد أن خفَّت الأعراض قليلًا. وانسحبت أعراض الاكتئاب أثناء فترة النقاهة.

ومنذ يناير 1975 لُوحِظ مرة أخرى تصاعد وتيرة الهياج مصحوبة بمظاهر الشعور بأوهام الاضطهاد - تحاول المريضة إقناع طاقم التمريض والأطباء بأنها مضطهدة من قِبَل السلطات العامة بجمهورية تشيكوسلوفاكيا الاشتراكية. وأحيانًا أخرى تذكر أسماء الرفاق العاملين بالمحكمة الجزئية أو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي التشيكي، على سبيل المثال الرفيق م. زيلينكا أو الرفيق ي. بِراك، وغيرهما، باعتبارهم كانوا يترددون عليها للاستفادة من خدماتها على حد زعمها.

خفَّتْ حدة الأعراض بعد العلاج بالعقاقير المسكنة مع وجود ردود فعل مختلفة. وبالنظر إلى حالة المريضة بعد السلسلة الأخيرة من الصدمات الكهربية فإني أوصي بإيقافها.

112

الإدارة المحلية لأمن الدولة

أوهيرسكي هراديشتي، القسم الثالث

ليد الموظف المسئول: العراف

<u>توجيهات خاصة بقضية سورمينا تيريزيا:</u>

مرة أخرى أؤكد أن الأمر في حالة تيريزيا سورمينا يتعلق بشخصية خطيرة على المؤسسات الشعبية الديموقراطية، وشخصية تسببت بامتياز في الإضرار المنظم بالمواطنين، وهو ما أدى إلى خضوعها للعلاج بالمصحة. ومن الواضح أن حالتها تسوء كما يتضح من الأكاذيب والاتهامات الوقحة لأشخاص أبرياء يبذلون الجهد في خدمة مؤسساتنا الاشتراكية والحزب

الشيوعي التشيكي، الأمر الذي بموجبه ترتكب سورمينا فعلًا مُجَرَّمًا قانونًا وهو هدم الدولة.

ولأن الأمر يتعلق بشخصية مختلَّة نفسيًّا، فإننا نعتقد أن الحل ليس العقاب القانوني، ولكن إخضاع المريضة لطرق علاجية أكثر فاعلية من مجرد العلاج بالعقاقير، من شأنها أن تعيد مواقفها إلى المسار الطبيعي. وُجِّه عميلنا السري في مصحة كرومنيرشيجه للأمراض النفسية في هذا الاتجاه، وأوصيه بمنع كل الزيارات، فقد تؤدي إلى نشر معتقداتها الخاطئة التي تفسد أخلاقيات المواطنين.

الموظف المختص ي. شفانتس

في 2/3/1975

116

الإدارة المحلية لأمن الدولة

أوهيرسكي هراديشتي، القسم الثالث

ليد الموظف المختص شفانتس

تقرير موجز: قضية سورمينا تيريزيا

أعد التقرير: العميل السري „كلوزيك"

بناء على توصياتكم تم إجراء فحوصات خاصة، تبين من خلالها أن حالة المريضة سورمينا تتقدم تدريجيًّا، ورأينا أن العلاج الحالي غير فعال بالقدر الكافي؛ لذلك تقرر إعادة العلاج بالصدمات الكهربية – 8 صدمات كهربية مرتين أسبوعيًّا.

أغمضت دورا عينيها في ألم، وراحت تتخيل جسد سورمينا متشنجًا يرسم منحنًى غير طبيعي، كانت ترى كفيها المقبوضتين والمربوطتين بحبل متين في الفراش، ويداها تحتضنان رأسها حتى لا تتسلل إليه عبر وجنتيها الشحنات التي يضخُّها التيار الكهربي والتي جعلت جسدها يتشنج ويرتجُّ عشر ثوانٍ، عشرين ثانية، ثلاثين ثانية...

مالت دورا على ذراع الكرسي وهي تلهث، وقد تسارعت دقات قلبها.

قبل لحظات قليلة كانت تعتقد أن ما حدث لسورمينا كان بسبب عدة مصادفات مأساوية لعب فيها الدور الرئيس انحياز الشرطة وغباء مسئولي النظام الذين عملوا على استبعاد كل ما لم يستطيعوا فهمه من على الطاولة، لذلك قذفوا بسورمينا ككرة اللهب في أيدى الأطباء. كانت ترى أن هناك حقيقة قد لعبت دورها في ذلك السياق، ألا وهي كون سورمينا في ذلك الموقف العصيب قد فقدت القدرة على التحكم في الذات، وذلك بالإضافة إلى انهيار حالتها النفسية، ففي النهاية لا أحد محصَّن من الضعف. أما الآن فقد تغيرت وجهة نظرها فجأة.

توقفت عن لوم نفسها بسبب الفكرة التي أخذت تتسلل بالتدريج وبإلحاح إلى عقلها منذ الأمس. فجأة شعرت بأنها تعاني من الشك بكل شيء، لأنها منذ البداية كانت ترى الأمر عبارة عن سلسلة من المصادفات. أما الآن فقد أصبحت ترى أن الأمر كله عبارة عن عملية مدبرة للتخلص من سورمينا. لكن لماذا؟ كادت تلك الفكرة أن تعصف برأسها وهي تتعثر في طريقها خارجة من غرفة القراءة.

ولم تعد من المرحاض إلا بعد أكثر من ساعة، حينما بدأ الرجل خلف اللوح الزجاجي للمكتب يشعر بالقلق.

121

مرسل للإدارة المحلية لأمن الدولة

أوهيرسكي هراديشتي، القسم الثالث

ليد الموظف المختص شفانتس

تقرير موجز: قضية سورمينا تيريزيا

أعد التقرير: العميل السري „كلوزيك"

مرسل إليكم بناءً على طلبكم معلومات عن الوضع الحالي للمريضة سورمينا تيريزيا. يمكن القول أن إقامة المريضة حاليًا في قسم 5 أ للأمراض النفسية سيدات في كرومنيرشيجه

منذ 12/7/1975، تسير بشكل مماثل لأقرانها من المرضى الذين يعانون مثل ذلك المرض.

بعد دخولها المصحة تم إيداعها في حجرة بها عشرة أَسِرَّة مع سيدات تتراوح أعمارهن بين 69-27 عامًا، جميعهن يعانين نفس الأعراض سواء بدرجة أكبر أو أقل (أوهام ذهانية، أو ربما فصام). تخضع المريضات للرعاية الدائمة التي تقوم بها ممرضات متخصصات، وتحت إشراف فريق من الأطباء يرأسهم الرفيق كبير الأطباء د. فورمانيك. توجد سورمينا في القسم المفتوح الذي تتاح فيه الزيارة لأقارب المريضات دائمًا بعد ظهر الأحد، حيث يتم نقلهن إلى حجرة الزيارة بعد إقرارها من قِبَل رئيسة الممرضات، وذلك طبقًا لتعليمات كبير الأطباء. وفي حالة سورمينا ينبغي الحد من الزيارة، إلا أن احدًا لم يطلب زيارتها حتى الآن.

العلاقة بين المريضات بشكل عام طيبة. أما سورمينا فتُظهر ميلًا للوحدة، ولا تربطها بأي من نزيلات القسم أية علاقة قوية تنطلق من رغبة شخصية. وإذا وُجدت تلك العلاقة، فإنها تتجه نحو الاعتراف بسطوتها التي تخضع لها حتى المريضات المُسِنَّات. تأكد ذلك بشكل كبير بعد الموقف الذي حدث يوم 21/3/1975، عندما نشب خلاف تسبب فيه اقتراب موعد عيد الفصح، حيث كان يُسمح لبعض المريضات في الأعياد بالعودة بشكل مؤقت إلى منازلهن. نشبت في الحجرة رقم 17 التي تقيم بها سورمينا مشاجرة، وصلت إلى حد العراك بالأيدي بين اثنتين من المريضات، روجينا دِرمولوفا وإيرينا كوتشيروفا، وأدى ذلك إلى إصابة الثانية أثناء العراك الذي انضمت إليه تدريجيًّا مريضات أخريات، بجروح قطعية بالجبهة والصدغ الأيسر نتيجة لاصطدام رأسها باللوح الحديدي لمقدمة السرير، وكذلك كدمات بالرقبة نتيجة لتعرضها للخنق، ثم أصيبت بنوبة صرع قوية مصحوبة بتشنجات. وعندما استطاعت الممرضات فتح الباب الذي أوصدته المريضات بالقوة والدخول إلى الغرفة، وجدوا كوتشيروفا التي تعرضت للاعتداء مستلقية في حجر سورمينا، تحيط رأسها وصدرها بيديها، وهكذا أخذت تهدأ التشنجات التي كانت تدفع بجسدها في مساحة صغيرة من الأرض كان من الممكن أن تتسبب بسهولة في تعرض المريضة للأذى. كانت سورمينا تضع ظهر كفِّها بين أسنان المريضة كوتشيروفا، الأمر الذي أدى إلى إصابتها بجروح مؤلمة، إلا أنها بذلك منعتها من أن تقطع لسانها أثناء تلك النوبة. شرعت بعدها في تلاوة رُقية بصوت عالٍ وإن كانت غير مفهومة، وامتد تأثير سورمينا ليشمل بقية المريضات اللواتي تفرقن في زوايا الغرفة، وهو الوضع الذي وجدهم عليه القائمون على رعاية المرضى. إلا أن الشيء المثير للعجب بحق هو أن سورمينا

خضعت في صباح ذلك اليوم للسلسلة الثالثة والأخيرة من الصدمات الكهربية، وأثناء المتابعة التي أُجريت لها قبل وقوع تلك الحادثة تقريبًا بنصف ساعة، كانت ترقد في حالة قلَّ فيها وعيها ووصلت إلى حد عدم الإدراك لما يدور حولها؛ وفي هذه الحالة عادة ما تفقد المريضات القدرة على التواصل اللفظي، فضلًا عن المشي والنشاط البدني العنيف. أما كون سورمينا تنهض من الفراش، وتُحكم قبضتها على كوتشيروفا التي تزن تسعين كيلوجرامًا وهي تتلوى نتيجة للتشنجات، وتُفَرِّق جماعة من النساء بلغ عددهن ثمانية وهن في حالة هذيان عصبي، فإن هذا يبدو بالنسبة لنا طاقة مُحَرِّكة غير مفهومة لم نشهدها نحن الأطباءَ ولا الممرضات أثناء فترة عملنا. وبعد تدخل الممرضات والمسئولين عن رعاية المرضى دخلتْ مرة أخرى في حالة من فقد الإحساس بمحيطها، وهو أحد مظاهر فقد الذاكرة. إلا أنها منذ ذلك الوقت قد حازت احترام زميلاتها من المريضات، الذي وصل إلى حد التقديس المشوب بالرهبة. وأشد ما يزعجنا في هذا الأمر هو أن طاقم التمريض يتبنى جزئيًّا ذلك الموقف، على الرغم من أنهن على علم بردود الأفعال المرضية في حالة العلاج بالصدمات الكهربية، إلا أنهن انْحَنْنَ في نهاية المطاف لموقف الطب الحديث.

وأجدني مضطرًا في هذا السياق إلى إرسال تقرير تالٍ، يتناول أوضاع بعض الفرق العاملة في المصحات النفسية العامة في كرومنيرشيجه.

على الرغم من أن سورمينا كانت تحاول تجنب طاقم التمريض، فقد صارت مقصدًا لكل الممرضات وليس فقط الرفيقات الممرضات من القسم 5أ. وقد حدث ذلك بعد أن انتشر خبر (بالطبع تم نشره عبر المريضات النفسيات) أن سورمينا تتمتع بقدرات خاصة، ونستدل على ذلك برحيل الممرضة ك. يركوفا التي حصلت على إجازة مرضية بسبب الحمل، وذلك خوفًا من مخاطر العمل بالقسم 5أ. فعلى الرغم من أنه عُرف عنها أن لديها مشاكل في الإنجاب، فقد ذكرت الرفيقة الممرضة لودميلا كوباتشكوفا في هذا السياق أن سورمينا نصحت الرفيقة الممرضة يركوفا بعمل نوع ما من الكمادات الساخنة، وبعض التمارين البدنية، وبتناول خليط ما من الأعشاب، فحملتْ بعدها وهي في التاسعة والثلاثين من عمرها. والدليل الآخر الذي انتشر خبره هنا في المصحة يتمثل في أن سورمينا كما يزعمونَ قد تنبأت بمشاكل صحية تقع للرفيقة الممرضة ترنيكوفا التي هي الآن في إجازة مرضية بسبب القصور الكلوي المزمن الذي وصل لديها إلى مراحله النهائية، ومن ثم كان عليها أن تخضع للغسيل الكلوي المنتظم. ويقال

إن سورمينا حثتها على أن تمتنع تمامًا عن إضافة الملح إلى طعامها، وأن تقلع عن تناول البيض واللحوم، وأن تُكثر في المقابل من تناول الحنطة السوداء والثوم والبصل.

وبعد مراجعة الطبيب المعالج للرفيقة ترنيكوفا، ومراجعة رئسيه الممرضات الرفيقة ليدفيكوفا، التي أخذت على عاتقها تتبع الأمر، فقد ظهر لدى الرفيقة ترنيكوفا في الشهر الأخير وجود قصور تدريجي متزايد بالكلى، أخذ يتصاعد حتى أصبحت كفاءة الكُلَى أقل من ثلاثين بالمائة. في حين أنه قبل شهرين فقط، أي في شهر مارس كان اتِّباع نظام غذائي متوازن كفيلًا بمنع الوصول إلى تلك الحالة. وهنا أرى من المناسب القول بأن النظام الغذائي المناسب في مثل تلك الحالات يتمثل أساسًا في الحد من تناول ملح الطعام والبروتينات. وقد حملت تلك الحادثة معها لسورمينا أيضًا إعجابًا لا محدودًا من قِبَل فريق العمل بالقسم 5أ وبقية الأقسام بالمصحة.

أعتقد أنه سيكون من المفيد اتخاذ التدابير حيال مثل تلك السلوكيات المجافية للمنطق، وتزويد بعض الممرضات الواقعات تحت تأثير سورمينا بشكل خاص بمعلومات تركز على مزايا الطب الاشتراكي، وعلى النهج السليم والحديث في التعامل مع المشعوذين، كما أُوصي بالتنبيه عليهن أنهن إذا لم يقمن بتعديل سلوكهن الودي تجاه المريضة فسيتم نقلهن على الفور إلى موقع آخر. وبذلك نتجنب الأفكار الخاطئة من مثل تلك الأخبار التي تنتشر بين مريضات وطاقم تمريض القسم 5أ، المتعلق بحالة المبنى والمناخ.

معروف عمومًا أن الحالة الفنية لمباني المصحات النفسية العامة بسبب قِدَمها غير مطابقة للمعايير المتعارف عليها منذ زمن طويل. وفيما يتعلق بمبنى القسم 5أ، فقد تم عرض المشكلة على إدارة المصحة؛ ذلك أن بها تسريبًا وأن المرجل الذي عفا عليه الزمان لم يعد قادرًا على التدفئة. ولذلك تم التقدم بطلب في بداية عام 1975 للحصول على مرجل جديد ماركة برتش، وبناءً عليه كان من المقرر افتتاح مبنى المرجل الجديد وخزانات الوقود في الأشهر القليلة القادمة. كما أن الطقس كان قاسيًا بشكل غير عادي في نهاية عام 1974 ومطلع عام 1975، مما تسبب في تكسير أنابيب التدفئة المركزية التي لم يتم تغييرها منذ فترة طويلة (بسبب الصقيع في يناير وفبراير)، كذلك تم إدخال تغيرات عديدة واضحة للعيان على حالة المبنى (أتت عاصفة مارس على جزء من السقف فحطمته، كما تسبب هطول الأمطار في إبريل ومايو في حدوث رشح بالمبنى، وهو ما انعكس على جدران حجرات المرضى، ونحن حتى الآن

نكافح العفونة المترتبة عليه). أصابت تلك الحوادث المحدودة فقط الجناح الخاص بالقسم 5أ، وهو أمر منطقي، حيث إنه واحد من أقدم أجنحة المصحة النفسية الحكومية وأقلها تعرضًا للصيانة. وقد صارت هذه الواقعة بكل أسف تربة خصبة لنمو تصورات خيالية أخرى لها علاقة بسورمينا، التي تستطيع ابتزاز المرضي وإيهامهم بأن الطقس يتحدى إيداعها المصحة النفسية بتلك الظواهر المناخية غير المألوفة في كرومنيرشيجة. وبسبب تصاعد الاضطرابات بعد انتشار تلك الشائعة، فقد أمرتُ بنقلها إلى غرفة بها خمس مريضات في مراحل متقدمة من العمر، وهو المكان الذي يمكن أن تكون فيه سورمينا بمعزل عن الآخرين بالقدر المطلوب. أما هي فكان رد فعلها سيئًا إزاء نقلها من الغرفة رقم 17 التي كانت حتى الآن تقيم بها: كانت عدوانية وأخذت تهدد الطبيب المعالج، أى أنها هددتني شخصيًا، فأصابت المريضات بالذعر، بل حتى الممرضات العاملات بالمصحة، وقد ذكرن لي ما قالت، وهو ما أسوقه هنا على سبيل الطرفة: „لن يسامحك الرب، أنت تخصم من عمر طفلك بنفس القدر الذي تخصم فيه من عمري من سنين".

وبسبب العنف المتزايد الصادر من المريضة تجاه محيطها، وكذلك بسبب تدهور صحتها؛ قررتُ إعطاءها السلسة الرابعة من العلاج بالصدمات الكهربية، وأتوقع أن تؤدي إلى تهدئة المريضة بشكل كامل، وأن تنعكس بالإيجاب على حالتها الصحية وعلى المحيطين بها.

خرجت دورا من دار المحفوظات مذهولة، لا تستطيع أن تقتلع من رأسها الصور التي تسللت إليها أثناء قراءتها لملف سورمينا.

كانت تدور بعقلها عشرات الأسئلة، التي كان معظمها يصبُّ عند دكتور كالوسيك الذي كان يتوارى تحت اسم كلوزيك الذي يشي بعدم القدرة على الابتكار.

كانت بالأمس فقط تتذكره بمنتهى العرفان.

كان ذلك هو صاحب النهج العطوف المقنع والمعلومات الوفيرة التي يقدمها لها بدون تردد، كي يشرح لها تطورات حالة سورمينا الصحية، وكان الوحيد الذي يستطيع بصوته العذب العميق أن يهدئ مخاوفها. كانت مكالمتهما الهاتفية بالنسبة لها بمثابة الغفران بعد الاعتراف.

اليوم فقط فهمتْ كيف كانت تجري الأمور، فَهْمًا كاد يدمرها، وقد غمرتها موجة من الشعور بالذنب لكونها لم تكتشف ذلك. كم كانت غبية! كانت تتعذب. لم تعلّمها حتى السنوات الأربع التي أقامت فيها بالمؤسسة الداخلية أن تكون أكثر حذرًا وحيطة، وابتلعت الخيط بل والبكرة التي لُفَّ عليها.

لكن من كان يمكن أن يخطر على باله ذلك؟ من كان يظن أن الطبيب المسئول عن علاج سورمينا، الرجل الذي أقسم أن يفعل كل ما يستطيع من أجل صحة الإنسان، استطاع أن يتظاهر بمعالجة امرأة لا يعرفها، وفوق كل هذا استطاع أن يجد في نفسه القدرة من خلال مكالماته الهاتفية المفعمة بالأحاسيس أن يجعلها تقف هي وشكوكها على مسافة آمنة؟

كانت تشعر بالاشمئزاز وكانت تحس برجفة تسري في جسدها.

وبمجرد أن وصلت إلى الفندق، اتجهت إلى البار. كانت بحاجة إلى تناول شيء يهدئها، ولم تكن تتخيل أن بوسعها الآن أن تبقى وحدها في سكون غرفتها بالفندق.

اختارت طاولة منعزلة في زاوية الحجرة، وقبل أن يُحضر لها النادل الشراب المطلوب،

وضعت أمامها رسالة الماجستير وجهاز الكمبيوتر المحمول؛ وذلك حتى لا تلفت الأنظار نحوها. لم تكن الساعة قد وصلت إلى السادسة بعد، ولم تكن ترغب على الإطلاق في ملاحظة نظرات أولئك الذين قد يلتفتون متعجبين إلى امرأة تشرب وحدها.

بشكل عام كانت رسالتها تحوي الكثير. كانت تحتوى على مادة علمية غزيرة، استطاعت دورا جمعها أثناء قيامها بعمل الدراسة، وهو كل ما أمكن استخراجه من دور المحفوظات التشيكوسلوفاكية في الثمانينيات. حصلت عليها على الرغم من أن الأمر استغرق منها وقتًا طويلًا للغاية حتى تمت الموافقة على طلباتها، واستطاعت تخليصها من أيدي الموظفين الجالسين في دهاليز المبنى الضخم لدار محفوظات مقاطعة مورافيا. وقد استطاعت تمرير معظم مطالبها؛ لأن محاكمات الساحرات، مثلها مثل نزاعات العجائز مع القساوسة القرويين في مراحل لاحقة، كانت تتماشى مع أهداف النظام الذي كان يرمي من خلالها إلى استعراض قوة الكنيسة الخبيثة والمدمرة والتي انتصرت على مدى العصور في صراعها *الطبقي المستغل ضد طبقات المضطهدين*.

أمَّا ما لم تستطع التوصل إليه، فقد استجلت حقيقته تدريجيًّا بعد الثورة؛ لأن مجلات الجمهورية الأولى، التي كانت تعتقد أنه من الصعب الوصول إليها، لأن الإثنوجرافين التابعين للحكومة البرجوازية اليمينية قد توصلوا فيها إلى نتائج ملوثة بأفكار الرأسمالية، وهي الدوريات العلمية التي كان أمناء المكتبات وموظفو الأرشيف يزعمون أنها فُقدت أو سُرقت، إذا بها فجأة تظهر في قواعد البيانات. فخرجت كتب الأبرشيات إلى النور، وقد كان يُقال لها من قبل إن رجال الكنيسة فضلوا تدميرها على تسليمها لدور المحفوظات. ووصلت إلى مكتبة المعهد إصدارات أجنبية دون أن يسرقها أحد أو يحتفظ بها للأبد قبل أن تصل إليها أيادي الباحثين.

سهولة الوصول إلى مصادر المعلومات القديمة والحديثة والعصر الجديد الذي لا يجبرها فيه أحد على تقديم تنازلات تتعلق بأهداف البحث، ولا إلى نفاق الآخرين، قد فتح الطريق أمام دورا للوصول إلى هدفها الأصلي، ولإنجاز عمل ضخم سيصبح عما قليل أهم إنجازاتها. وسيصبح بمثابة إعادة لحقوق الساحرات، كل الساحرات، وفي مقدمتهم سورمينا. فبمجرد أن تنتهي من قراءة ملف سورمينا، سوف تشرع في إعادة كتابة رسالة الماجستير، وذلك من خلال نصوص جديدة ستضاف إلى فصول جديدة. لم تعد

تطبيق الانتظار.

أدخلت دورا في الحاسوب أسطوانة سوداء وأخذت تتصفح الفصل الأول، وبجوار مرفقها كان هناك كأس بها سائل شفاف.

لو كان الأمر بيديها في ذلك الوقت، لبدأت هذا العمل بوصف المكان، فالكل يُجمع على أنه ذو طابع خاص، لأنه يُخَرِّج مواطنين ذوي طبيعة خاصة. ربما ذهب سكان كوبانيتسه إلى ذلك القول لأنهم لا يملكون سوى ذلك الشعور الخاص. فصغار النفوس وذوو العُقَد النفسية الذين لم تلبِّ تربة كوبانيتسه القاحلة احتياجاتهم، دمروا أنفسهم منذ الصغر ليس فقط بالعمل الشاق، ولكن أيضًا بالبراندى المُركز الذي كان يُصنع بالمنازل. بقيت علاقة هؤلاء بالدين ولم تنكسر، ولكنهم لم يكونوا قادرين على احترام مبادئه الأخلاقية، فكانوا يُعْرَفون خارج أراضيهم بأنهم بلطجية ولصوص. وهم كذلك محتالون لم يجنوا من وراء محاولاتهم خداع الآخرين، التي عادة ما كانت تنكشف بسهولة، سوى السخرية. والأمر هنا يتعلق بالتعليم، وهو ما لم يكن له أية قيمة في عيون سكان كوبانيتسه. كانت المدرسة بالنسبة لهم مضيعة للوقت الذي يمكن استغلاله بشكل مختلف، بشكل أفضل، بالعمل في الحقل أو بالبحث عن مصدر للرزق.

أولئك هم من ظلوا يعملون بلا أجر في أراضي النبلاء ببلدة سفيتلوف حتى بعد مرور خمسين عامًا على إلغاء العبودية؛ لأن أحدًا في كوبانيتسه لم يكن يجيد القراءة والكتابة ناهيك عن مطالعة الصحف؛ لذلك لم يصل إليهم خبر إلغاء العبودية. ولم يتغير ذلك الوضع إلا بعد تدخل المحامي فيتشرشا، رائد السياحة وعاشق طبيعة الكاربات الأبيض البكر، وكاتب مقال „عبيد مودرن" بجريدة *ساموستانوست*، وقد هالَهُ الوضع هناك فقام بإبلاغ أهل القرية الذين فوجئوا بالأمر، وبعد ذلك في عام 1896 التقى في فيينا رئيس الوزراء ليغير تلك الأوضاع. لكن ماله مال وعرق وجهد جيلين من أهل كوبانيتسه الكادحين بغير وجه حق. لا شيء. ربما استفزه الشعور بأنه لا يمكن أن يوجد ذلك الكم من غياب الوعي العميق والجهل في نهاية القرن التاسع عشر بموراڤيا صاحبة الحضارة، الأمر الذي يُمَكِّن للعبودية. لكنها كانت موجودة، بل إنها استمرت لبضع سنوات تالية. حتى في الخمسينيات عندما كان الشيوعيون يتباهون بأنهم استطاعوا محو الأمية، لم يستطع ثلث سكان كوبانيتسه بإقليم موراڤيا قراءة هذا الخبر.

وعلى الرغم من ذلك فقد استمر لديهم الإحساس بأنهم أصحاب طبيعة خاصة، لأنهم يعيشون في بيئة ذات طبيعة خاصة. كانت دورا في تلك اللحظة تتمنى أن يكون هذا هو ما تُصَدِّر به دراستها. إلا أن افتتاح رسالة علمية بمقال عن الريف الجبلي الذي تنمو فوق منحدراته غابات الكاربات الزاخرة بأشجار الزان والبلوط، التي لا يمكن أن يستوعب جذوعها حضن إنسان، والذي توجد به المنحدرات ذات المروج التي تتألق فيها زهور الأوركيد النادرة وزهرة السحلب وشقائق النعمان في فصل الصيف، ومن بينها من أعلى ومن أسفل تمتد الحقول الضيقة والبيوت الريفية منخفضة السقوف، يُعَدُّ أمرًا غير معقول. لا يمكن أن تبدأ نصًا علميًّا بوصف الصيف المنعش في المناطق الجبلية، والذي يمكن أن يتحول في لحظة واحدة إلى عاصفة هوجاء جهنمية تحيط بقمم التلال وسط الغيوم الكثيفة التي لا يمكن اختراقها، أو بوصف قسوة الشتاء الذي تعلو فيه دوامات الثلج المناطق الممتدة بين التلال، والتي يمكن أن يتوقعها المرء في سيبيريا، لكن بالقطع ليس في جنوب مورافيا. لا يمكن رسم قمر ضخم مستدير تغيب معالمه خلف قطع من غيوم الليل من فوق قمم التلال الراسخة، على صفحات مثل ذلك العمل العلمي. كما لا يصلح أن يُكتب كلام من قبيل أنه عندما يكون الليل صافيًا، يمكن رؤية الطريق عبر منحدرات التلال تقريبًا كما لو كنا في وضح بالنهار، وأن المرء عندما يقف في هذه اللحظة في شرفة بيته الريفي الذي يقبع فوق قمة التل، يشعر كما لو أنه بلغ عنان السماء، لأن العالم بأسره ينفتح من تحت قدميه. وعلى المنحدر المقابل تضيء المصابيح المتناثرة داخل البيوت الريفية، ومن الوادي بين التلال تنظر إليه هروزينكوف كطفل في مهده، وبالرغم من بعد المسافات، يتعارف الجميع، كل منهم في مكانه ولكنهم معًا.

البداية الحقيقية لدراسة الماجستير الخاصة بها كان ينبغي أن تكون هكذا. كان من الضروري أن تُلقي الضوء على الموقع الساحر لكوبانيتسه على منحدرات الكاربات الأبيض؛ لأنه بالتحديد في هذا الموقع يمكن أن يُولد شيء مختلف وأن يُطور قوته. إنهن الساحرات.

إلا أن شيئًا من ذلك لا يدخل في نطاق العمل العلمي المُقيد بالقواعد الصارمة الخالية من الجمال. لم تكتب عن شيء كهذا؛ لأنها لا تستطيع أن تكتب عن ذلك، بالذات عندما

تتذكر أن لجنة مُحكمين مكونة من خمسة من الرفقاء، ومن بينهم على الأقل واحد يعرف جيدًا تاريخها الوظيفي: مع كل الاحترام لشعبنا العامل، أيها الرفاق، صدقوني أنا لا أقول ذلك نتيجة لعدم تقبُّل وجهة نظر فئة أخرى، بل على العكس تمامًا. لكن هذا غير مقبول، ويُعَدُّ خروجًا عن أُطُر التقييم الموضوعي، فلا يوجد هنا أى تطبيق لمعايير العمل العلمي. ربما يمكن أن تكتب هذا، نعم بالفعل، يمكن تكتبه إحدى البائعات. مع احترامي الكامل لعملها المحترم من أجل وطننا الاشتراكي.

لذلك جاءت البداية مختلفة تمامًا.

ظل الدين، وكذلك الخرافات، حتى اليوم محلًّا للعديد من الانتقادات في سلسلة دراسات لنقاد الإثنوجرافيا والإثنولوجيا الرواد، الذين استطاعوا إلى حد كبير من خلال مادية العلم، أن يثبتوا زيف الاعتقاد في قوى الطبيعة الخارقة. وساقوا أدلة تكشف بوضوح أن فكرة وجود قوى عليا لها قدرات خارقة (وهي الرب في حالة المسيحية وقوى الطبيعة في حالة السحر) تعني نبذ التفكير العلمي ومن بعده العدالة، الأمر الذي يؤدي بالضرورة إلى استعباد الجنس البشري.

ولتحديد أبعاد قضية ساحرات جيتكوفا ينبغي دراسة تلك الأجناس، ولخدمة هذا الغرض، يتوجَّب التميز بين الدين والسحر. بعدها فقط نصبح قادرين على فهم اندماجهما معًا فيما تقوم به الساحرات من أعمال ترتبط بالسحر، وكيف كُنَّ يستدعين رب المسيحية فيما يقمن به من طقوس[3].

وعلى الرغم من أن هذه الفكرة تبدو متعارضة، إلا أنها صارت اليوم معروفة بفضل الدراسة الشاملة التي قام بها د. تشينيك زيبرت[4]. بل على العكس، يمكننا من خلال أبحاثه أن نعزو إليها كل أشكال التداخل بين العقيدة المسيحية والوثنية في جميع عصور الثقافة الأوروبية.

يمكننا القول إن الأمر منذ البداية كان يتعلق باختلاط العقيدة الجديدة بالديانة الوثنية الأصلية (انظر محاولة الربط بين أعياد الكنيسة كعيد القيامة بانقلاب الشمس في الشتاء، وعيد الفصح بالاعتدال الربيعي... إلخ)، وعندئذ فقط بدأت الكنيسة بدعم من الطبقة الحاكمة تفرض بشكل دراماتيكي فكرة مختلفة عن العقيدة، وكذلك متطلبات جديدة غير مألوفة، وشبكة صارمة من المبادئ الأخلاقية تتضمن فيما تتضمن كذلك رفض العادات والطقوس القديمة. لكن زيبرت يدلّل على بقاء عائلات بأكملها في أوروبا

3- ومن هنا أيضًا تأتي تسمية كل ما يتصل بأعمال السحر بالتنبؤ (الرجم بالغيب). وعلى هذا الأساس يتم تقديم النصح وتحديد أسباب المشكلة. وتسمى هذه العملية التأله. وتعني التضرع إلى الرب لكشف ما يرغب السائل في معرفته.

4- زيبرت. تشينيك: قائمة الخرافات والعادات الوثنية في القرن الثامن. أكاديمية الإمبراطور فرانتيشيك يوسف. براغ. 1894.

لزمن طويل قررت الاحتفاظ بالتعاليم الأصلية لأسلافهم ولم ينسوا حكمة الأجيال التي تناقلوها من جيل إلى جيل حتى لو وُصفت بأنها وثنية وبالتالي تعد هرطقة.

ولم يمر ذلك على رجال الكنيسة مرور الكرام. نعرف ما قاموا به من إجراءات لتوحيد الشعوب تحت مظلة العقيدة الواحدة، وذلك بالتحديد من خلال سلسلة من المحظورات القاسية في بعض الأحيان، والمدهشة في أحيان أخرى، والتي حُفظت في سجلات غير مكتملة ترجع إلى العصور الوسطى المبكرة. وقد تم توجيه تلك الإجراءات على وجه التحديد ضد المتمسكين بالتقاليد الوثنية، الذين كانوا يمثلون خطرًا على الكنيسة؛ وذلك بالأساس لأن الناس كانوا يقصدونهم معتقدين أن لديهم قوة تنبع ليس فقط من معرفتهم بالأسرار القديمة، ولكن لقدرتهم على إدخال قوة الله المسيحية التي تم التعرف عليها (حديثًا) إلى ما يقومون به من أعمال. هي إذن معرفة مزدوجة ومَقْدرة مزدوجة أكسبتهم أهمية أكبر بكثير من رجال الكنيسة المعترف بهم رسميًا من القساوسة والرهبان[(5)].

ولهذا السبب ترجع المؤلفات التي تناولت تفسير طقوس السحر بطريقة خاطئة؛ وذلك لكونها تمثل خطرًا على مجتمع الكنيسة بأكمله، والذي هو في غالبيته ينتمي إلى أدنى مستويات التعليم، ويسعده أن يصدق التصورات المروعة عن تسخير علماء الوثنية للشيطان.

ويعد ماليوس ماليفيتساروم أو مطرقة الساحرات، من تأليف راهب الدومينيكان هينريخ كرامير أنستيتوريس[(6)]، من أشهر المؤلفات المشار إليها، ومع ذلك فقد تم رفض كتابه من قِبَل جامعة كولين (كان المؤلف يسعى إلى نشر كتابه تحت رعايتها) بوصفه رجل دين مختلًا عقليًا، وقد انتشر منذ صدور طبعته الأولى في عام 1486 على مدار مائتي عام حيث أُعيدت طباعته 28 مرة في جميع أنحاء أوروبا. ولم يمضِ وقت طويل حتى استُخدم محتوى الكتاب في أوقات الكوارث الطبيعية أو الأوبئة للحث على الهستيريا التي تسعى للبحث عن الجناة. وليس من المستغرب أن يكون من بين أصحاب التقاليد الوثنية، بوصفهم مساعدين للشيطان، سحرة وساحرات يفرضون إرادته على

5- انظر: باروبا، ي. س. موت هكيبسن و ايهر ويلت. دار إرنست كليت للنشر شتوتجارد. 1967.

6- هينريخ كرامير (أنستيتوريس) (1430- 1505). رئيس دير الرهبان الدومينيكان في شليتستات ومؤلف «مطرقة الساحرات». وهو عمل مكون من ثلاثة أجزاء. تم دحض فكرة اشتراك رئيس دير الدومينيكان بمدينة كولين ناض رينيم مع أستاذ علوم اللاهوت بجامعة يعقوب سبرينجر المحلية (1437- 1495) في تأليف الكتاب.

دعنا نقول إن هناك شيئًا لافتًا. بوسع دورا أن تتصور أنه عندما يقترن ما عرفته عن فنون نساء جيتكوفا بالخطب التحريضية المُعَدَّة بشكل جيد، بالإضافة إلى قطرة من الهستيريا والخوف والغباء، فالنتيجة يمكن أن تكون خلطة متفجرة يمكن أن تلقي بمثل هؤلاء النساء، كما هو الحال مع الساحرات، في النيران أو على مقصلة الإعدام، وهو ما حدث مع كاترشينا سخانيلكا وكاترشينا ديفوكا.

حُمل رأسأهما إلى السلة المُعَدَّة لذلك واندفعت دماؤهما على مسافة متر إلى الأمام، وتحوَّل جسداهما إلى رماد، وقد حدث ذلك أيضًا مع مجموعة أخرى من ضحايا محاكمات الساحرات. لكنْ هناك فرق واضح بين تلك الساحرات ونساء جيتكوفا، وهو ما تجلَّى أمام عيني دورا، عندما اطَّلعت على كتب الدم المحفوظة في مدن مورافيا. وقد دُونت في سجلاتها الأحكام الصادرة ضد النساء اللاتي لم يُعاقبن غالبًا لمجرد ممارستهن السحر فقط، لكن كذلك على جُرم إضافي عقوبته الإعدام: وأد الأطفال، الإجهاض، التسميم، السرقة، الزنا، تعدد الأزواج، وزنا المحارم، وكلها جرائم ارتكبتها نساء من قاع المجتمع، إما متسولات او مختلات عقليًّا. وكانت هناك بالطبع استثناءات من أشهرها قضية فيلكي لوسيني ومحاكمات شومبرسكو التي أطلقها السيد بوبليج ايديلستاد الذي أدي سلوكه المختل إلى اصطفاف عشرات الجثث المتفحمة على الحدود، كانت في معظمها لرجال ونساء محترمات من الطبقة البرجوازية.

وتعد سيدات جيتكوفا أيضًا جزءًا من تلك الاستثناءات، وقد تأسست الأحكام الخاصة بهن على قائمة من الخطايا التي كانت في جوهرها أفعالًا مجردة انطلقت من خيال جامح للمدعين بُني على أساس وعيهم الفعلي بفنون الساحرات، وقد لاحظت دورا ذلك ليس فقط من خلال قراءة كتب بعينها، ولكن أيضًا من خلال خبرتها الشخصية. فالنساء اللواتي وقفن أمام محكمة بويكوفيتسه لم يتم توجيه الاتهام لهن من أجل لا شيء، اللهم إلا إذا كان العلم بما خفي على الآخرين هو كل جريمتهن، عندها يصبحن مذنبات.

ضغطت دورا على زر جهاز الكمبيوتر، وبينما كانت تنتظر حتى ظهور اللون الأزرق

الداكن على شاشته، أشارت للنادل، وطلبت كأسًا أخرى. أخذت تتفتح أمام عينيها بالتدريج كل المجلدات حتى ضغطت بالمؤشر على ذلك الملف الذي يحمل عنوان *العلاج*. بدأت تبحث بين الملفات المختلفة قليلًا حتى فتحت ذلك الملف الذي يحوي ملاحظات قديمة عن وصفات طبية شديدة القدم كانت تتناقلها الأجيال، وكانت قد دوَّنتها من خلال لقاءاتها مع شهود العيان. راحت تبحث بعينيها بين ثناياها لبعض الوقت، حتى وجدت ما كانت تبحث عنه. إنها وصفة سورمينا التي أعطتها لباجلاركا.

إذا أردتِ إشعال رغبة زوجك، وبالتالي حدوث الحمل، فقومي بعمل الخلطة التالية: خذي قشرة من جذع شجرة البلوط حديثة العمر اجتُزَّتْ في الربيع قبل أن تتفتح الأوراق ويرتفع النسغ، ثم اسحقيها حتى تصير مسحوقًا ناعمًا، ثم أضيفي إليها قطعًا من جذور نبات قرن الغزال، ثم اصحني عنقودًا من نبات البتولا وأضيفي ملعقتين من أوراق نبات الحسك المحمصة مع عشر نقاط من الخل، اخلطي كل هذا بدهن الخنزير ثم اغليه واتركيه حتى يتماسك قوامه. ادهني به زوجك مساءً، وكذلك اسقيه منقوع سيقان نبات الحسك مرتين في اليوم. وإذا شعر بأن مذاقه لاذع، فامزجيه بالبراندي.

كانت تلك هي نفس الوصفة التي أعطتها سخانيلكا للسيدة فوتسيمانكا، وقد آتى ثماره في حالة باجلاركا، وصارت أمًّا لثلاثة أطفال.

كان ملف العلاج مليئًا بمثل تلك الإرشادات والنصائح. ففي الماضي كانت هناك طرق محددة للتداوي في كوبانيتسه. للأسف تحولت في عقول الناس في إطار الهستيريا التي تسببت فيها مطاردة الساحرات إلى ممارسات خبيثة ينبغي القضاء عليها بأسرع وقت ممكن. إلا أن هذا قد اختلط بالاحترام والتقدير لأولئك الذين يجيدون هذا الفن، أي الساحرات اللواتي صرن في عيون جيرانهن كحوريات الغابة. وقد أسهم في ذلك بالتأكيد بقية ما كن يتمتعن به من قدرات كانت على ما يبدو مصدر سطوتهن.

ضغطت دورا على الزر لتفتح ملفًا بعنوان „ *السحر الأحمر*".

بدأت تنفتح أمامها على شاشة الكمبيوتر نسخة فوتوغرافية من الحكم الصادر على كاترشينا ديفوكا حفيدة أخت سخانيلكا التي أوقعت أحدهم بسحرها في شراك حبها ويدعى تالاش. هل حدث ذلك بسبب صب الشمع والتعاويذ؟ أم هو الخداع بواسطة

الأعشاب، والاحتيال باسم الحب؟ تعتقد دورا أن كاترشينا فعلت كل هذا، إلا أنها لم تكن تستحق الإعدام. وترى دورا أنها فعلت ما فعلته زوزكا بولاشكا، حفيدتها، التي اعترفت بعد ذلك بأكثر من نصف قرن أمام محكمة بويكوفيتسه بأنها تسببت في جنون يورا رشيهاك *"الحداد الماهر الشريف الذي أصابته بالجنون وأخذته من زوجته مارينا ثم قتلتها"*. ولم يستطيعوا إسناد جريمة قتل زوجة رشيهاك التي ماتت بالسل إليها، لكن بسبب الاشتباه بارتكابها لجريمة القتل وإتيانها أعمال السحر الأخرى حُكم عليها بغرامة قيمتها خمس قطع ذهبية. كان ذلك في عام 1741. وبحلول ذلك الوقت لحسن الحظ اختفت محنة وعذابات وإعدام الساحرات المشتبه بهن من سجلات محاكم مورافيا، وهكذا استطاعت بولاشكا أن تنجو بحياتها على عكس سابقاتها.

وتعتقد دورا أن كلتيهما مذنبتان مثلهما مثل بقية الساحرات. تعلم ذلك، لأنه كانت تأتيهم في بيدوفا فتيات يرغبن في سلب عقول وقلوب محبوبيهن.

وتذكر دورا أنهن كن يأتين سورمينا مساءً، تحت جنح الظلام، حتى لا يتعرف عليهن أحد إذا ما تمكن من رؤيتهن. كن يأتينها على استحياء، ولكن كان يحدوهن الأمل، وكانت سورمينا تأخذهن إلى الخارج حيث يسود الظلام حاملة معها مشعل الكيروسين ذا الضوء الخافت الذي كانت دورا تتابعه من النافذة حتى يختفي خلف قمة التل.

وكانت سورمينا دائمًا تغلق البيت على يعقوب ودورا حتى لا تحدثها نفسها بأن تتَّبعهم، لم يكن ممكنًا أن ترى ما كان يحدث. إلا أن دورا كان لديها فضول شديد، لم تكن معه تستطيع النوم قط حتى تعود سورمينا ومعها الفتاة مرة أخرى. لكن بدلًا من أن تعرف ماذا كانتا تفعلان معًا في الخارج، كانت تسمع حفيف الأعشاب المجففة، عندما كانت سورمينا تسكبها في الكيس وكلمات الشكر من الفتيات التي تختفي سريعًا في الظلام.

واستمر الأمر إلى أن أخطأت سورمينا ذات مرة ونسيت أن تغلق باب البيت. كانت دورا قد غفت بجوار التَّنُّور الدافئ وقد لفَّتْ نفسها بشال من الصوف، وإذا بها تستيقظ على صوت طرقات على باب البيت. بالكاد استطاعت سورمينا أن تصب الأعشاب المغلية التي فارت على الموقد وأن تضع الأشياء في كيس من القماش. وفي تلك العجلة ركضت إلى الخارج حيث الظلام، ونسيت أن تتأكد من إغلاق الباب، أما دورا التي جافاها النوم

كالعادة فقد انطلقت وراءهما. اختبأت بالظلام وأخذت تتبع الضوء الخافت خطوة بخطوة، حتى أوصلها إلى حافة الغابة حيث يتدفق النبع الذي كان يصب في فتحة البئر.

عندما اقتربت دورا بالقدر الذي يمكِّنها من أن ترى وتسمع جيدًا، وقعت عيناها على فتاة كانت تعرفها من هروزينكوف، تجلس القرفصاء عارية في النبع وسورمينا تصب عليها خلاصة الأعشاب الممزوجة بماء النبع.

- سأغسل لك أصابعك الخمس وكفَّك، كي يأتيكِ من عليه العين مذعنًا. كي تصبحي أغلى إنسان لديه، وأحبَّ إلى قلبه من كل العذارى، كي لا يستطيع أن يأكل أو يشرب أو ينام ولا أن يدخن التبغ ولا يهنأ بحياته، وأن يسعى فقط نحو هانا إلى أن يدخل بها إلى عش الزوجية.

انحنت سورمينا على النبع ثم نهضت مرة أخرى، كي تغمر جميع أجزاء جسم هانا بما يكفي من الماء، فغسلت لها شعرها، وأخذت تفرك يديها وقدميها.

- أن يفقد إحساسه بالزمان، بأسرته، بأخته، بأخيه، بأمه وأبيه، وألَّا يكون شيء أحبَّ إليه من تلك الموعودة له بعون الرب، وألَّا تفارق صورتها عينيه.

وهنا بدأت هانا تصلي.

- والآن سأرقيك. تابعت سورمينا وهي تطوف حول النبع وترسم فوقه صليبًا كبيرًا، وعندما انتهت من ذلك لفَّتْ جسد الفتاة بأوراق التوت التي أحضرتها في كيس القماش، ثم جففت جسدها، وبينما كانت الفتاة ترتدي ملابسها، سألتها:

- متى ستأتيك الدورة الشهرية؟

فأجابتها هانا على استحياء وهي تتلعثم: بعد أسبوع.

- حسنًا. إذن تُقطِّرين من الحفاض ثلاث قطرات من الدم في اليوم الأول للدورة الشهرية وتضيفينها إلى عجينة تعجنينها وتضعينها في صاجات الفرن وتضيفين إليها واحدة من شعر العانة، وتتركينها تخمر جيدًا. وبعد ذلك تدخلينها إلى الفرن ثم تأخذين أفضل هذه الصاجات، وتحتفظين به قليلًا تحت إبطك. يكفي عدة دقائق وهو ما زال دافئًا، المهم ألَّا تضعيه وهو ساخن، حتى لا تنكمش

ويتقلص حجمها. ثم ترصينها على طبق، وتقدمينها للمدعو ليبتاك عندما يأتي، واحرصي على أن يأخذ منها أكبر قدر ممكن إذا ما راق له طعمها. لكن ليس إلى الحد الذي يجعلها تفيض فيعطي منها لأحد غيره؛ لأنه لابد أن يأكلها وحده، لعلك تفهمين قصدي.

جذبت هانا بلوزتها وتنورتها إلى أسفل، وهي توماً برأسها كلما تلقَّتْ كلمة من كلمات سورمينا، عساها تنفذ المطلوب بشكل جيد.

- وسأعطيك عندما نعود إلى البيت عشبة رِجْل الذئب وأيضًا أعشاب المحبة تحملينها معك، وسترين كيف ستكون رائحتك عطرة، وسأعطيك مثلها تمامًا له.

ابتسمت هانا ابتسامة رضا، وبصوت خفيض راحت تدندن بإحدى أغنيات كوبانيتسه:

- يا رفاق لعلكم لا تدرون/ لكنكم ستركضون خلفي/وأنا أحمل عشبة المحبة/ أربطها خلف مئزري..

- حسنًا، هزت سورمينا رأسها.

كان الضوء المنبعث من موقد الكيروسين المعلق فوق النبع يكشف بوضوح فضاء ذلك المشهد العجيب وبطلتيه الوحيدتين. فأخذت دورا تحدق بهما وقد غمرتها البهجة، ومكثت لبضعة أشهر تالية لا تكاد تصدق ما رأت عيناها، حتى جاء يوم تقدم فيه أحد أبناء عائلة ليبتاك إلى مذبح هروزينكوف ومعه هانا مرتدية ملابس الزفاف مع تاج عالٍ من الورود فوق شعرها. وبدا لها حينها أن سورمينا وهانا كانتا تتبادلان ابتسامة مختلفة عن تلك التي يتبادلها الآخرون.

عادت تلك الذكرى إلى ذهن دورا عندما قرأت الحكم الصادر بحق كاترشينا ديفوكا، وكذلك زوزكا بولاشكا. وكانت تعاودها كلما واجهت حالات مماثلة تؤكد قدرة سيدات جيتكوفا على السحر الأحمر.

حدث ذلك على سبيل المثال عندما وجدت على صفحة السجل المدني وثيقة تحكي عن حفيدة زوزكا بولاشكا، ماريا يوراتشكا، التي تزوجت في بلدة تُسمى هانا، حيث ذهب بها الفلاح الثري الذي تعرفت عليه في أحد الأسواق.

وكذلك عندما توقفت عند وثيقة تتعلق بنقل رفات أختها التي كانت تدعى برخانيا، حيث توفيت قبل حبيبها الشاب وظلت تأتيه في المنام وتعذبه طويلًا إلى أن قاموا بإخراجها من قبرها وأخذوا يضربون قلبها بالعصا؛ لأنهم كانوا يعتقدون أنها مصاصة دماء. ويقال إنهم وجدوا وجنتيها متوردتين وإن شعرها وأظافرها كانا ينموان في التابوت على الرغم من أنها دُفنت منذ أكثر من ثلاثة أسابيع. كما عاودتها تلك الذكرى عندما سمعت ما كان يُروى عن ابن أحد أصحاب المصانع في مدينة يهلافا الذي استدعوا له ذات مرة الأم العزباء، دوركا جابرهيلوفا، ابنة ماريا بنت كاترشينا كي تعالجه، فصار بعدها يذهب إليها صيفية كل عام، ولم يستطع أن يفارقها حتى ماتت. وما زال أهل كوبانيتسه يذكرون حتى الآن كيف كان يركض خلفها كالكلب، لم يكن يرى ولا يسمع لامرأة سواها، كما لو كان مسحورًا. ويُروى أيضًا أنه عندما ماتت دوركا جابرهيلوفا، كانت ابنتها وخليفتها أنكا تحفر حول الدار لتضع حوضًا جديدًا للزهور، وأنها أخرجت من المكان المواجه لمدينة يهلافا جديلة من الشَّعر تماثل شعر ذلك الرجل من يهلافا الذي لم يتوقف نزوعه إلى كوبانيتسه، إلا بعد أن أحرقت الشعر.

ضغطت دورا مرة أخرى على ذر الكمبيوتر، فظهرت سريعًا في ملف آخر على الشاشة صورة شجرة العائلة.

وراحت تنتقل بالمؤشر على مهل من كاترشينا سخانيلكا مرورًا بكاترشينا ديفوكا وصولًا إلى زوزكا بولاشكا ومنها إلى ماريا يوراتشكا التي عادت بعد وفاة زوجها إلى جيتكوفا كي تسلم الراية من بعدها لابنتها كاترشينا، وذلك في نهاية القرن الثامن عشر، ثم تنتقل إلى ابنتيها، مارينا جورتشيكوفا ودوركا جابرهيلوفا. وتمتد خيوط شجرة العائلة بعد ذلك إلى القرن التاسع عشر حيث تئول إلى إبنة مارينا، أنَّا ستروهاركا، التي عُرفت باسم خوباتا، والتي ذاع صيتها كقابلة حتى تخطَّى حدود كوبانيتسه. وكانت تلك هي من أنجبت إيرما التي فرقت بين زوجها يان وبين عائلته، وهو ما لم تنسَه لها بالمرة ساحرات عائلة هودليك، وهي تقيم حتى الآن بتلّ تشيرني الذي كانت تمر به دورا في طريق عودتها إلى بلدتها بيدوفا في كل جمعة.

أما الفرع الثاني من شجرة العائلة فيمر عبر الأم العزباء دوركا إلى أَنكا التي كان يُروى عنها أنها لم تخطئ قط في نبوءة لها. وقيل إنها تنبأت بوقوع الحرب العالمية

الأولى، وذكرت بالاسم جميع عائلات هروزينكوف الذين سيفقدون أبناءهم في الحرب. وقد رَوت باجلاركا لدورا ذات مرة أن تنبؤاتها كانت تتحقق بدقة. كما يُروى عنها أنها حددت أسماء صبيان هروزينكوف الذين كان بعضهم ما زالوا أطفالًا والبعض الآخر لم يكونوا قد ولدوا بعد - واليوم نجد أسماءهم مسجلة على النصب التذكاري للجنود الذين قضوا في ساحة الحرب، ذكرت أسماءهم جميعًا إلا قليلًا - وهؤلاء هم زوج ابنتها وأحفادها. وكان يُحكى عن ابنتيها بجاتشينا ويوستينا أنهما لم ترثا من أمهما فن العلاج فقط، ولكن أيضًا كان يكفيهما النظر في عيني أي إنسان ليعرفا كل شيء. ويزعم البعض أنه لم يكن بمقدور أحد أن يُخفي عنهما سِرَّه. وعندما تستدعي دورا صورة عيني سورمينا، التي كانت تشبه تمامًا عيني أمها يوستينا، وكانت تستطيع اختراق النفس البشرية كعلقتين سوداوين، تقتنع بأن الأمر حق.

اتجهت عينا دورا مرة أخرى نحو شجرة العائلة، حيث يتفرع من اسم يوستينا روخاركا آخر خطين لينتهيا عند ابنتيها سورمينا وإيرينا إيدسيوفا.

وتحت اسميهما يوجد اسم دورا. أخذت تنظر إليه في ارتباك. وماذا عنها هي؟

ربما تكذب لو ادَّعت أنها كانت تعرف مكانتها الحقيقية في تلك السلسلة الطويلة المتشعبة على مدى قرون. وعلى عكس ما يبدو، فقد كان الأمر معقدًا. قد يقول أحدهم إنها آخر من بقي حيًّا من نسل الساحرات المباشر. لكن ذلك ليس صحيحًا تمامًا، فلا يكمن بداخلها، بداخل دورا، أي شيء مما اشتهرت به نساء تلك العائلة، فهي، أي دورا، لا تعرف سر الأعشاب المجففة، ولا تستطيع أن تعالج الناس، ولا أن تكشف الغيب. لم تشأ سورمينا أن تتخذ منها خليفة لها، ولَم تعلمها أي شيء مما كانت تجيده هي؛ لأن دورا كانت مختلفة، كانت مرتابة وروحها تعج بالأسئلة التي تحمل في طياتها الشك والتي انتقلت إليها أسفل التل، في مدرسة هروزينكوف. لذا كان عليها أن تجتهد في البحث عن دورها في القصة برمتها. مرت عليها سنوات طوال وهي لا تعلم، كانت تتخبط، حتى أنارت لها الأحلام الطريق بعد ذلك وبمرور الوقت.

خطر لها ذلك عندما استيقظت ذات مرة قبل أن يطلع الصبح وكانت صرخات كاترشينا سخانيلكا ما تزال تدوي في رأسها. أخذت تحملق في سقف الغرفة المظلمة، وقد أعياها السؤال: لماذا لا يتركها ذلك الخيال الجامح لتنعم بنومها. وبمجرد أن بدأت

تنشغل بتلك المسألة، فجأة راحت ترى أن الأمر يتخطى كونه مجرد تخيلات، فقد كانت ترى في تلك الأحلام الكثير من التفاصيل، وتحس بقوة وبدقة بما كان يكابده أناس وافتهم المنية منذ عدة قرون مضت. وسألت نفسها عندئذ للمرة الأولى: ماذا لو لم تكن هذه مجرد أحلام عادية؟ ماذا لو كان ما تراه ليس خيالاً جامحًا؟ وماذا لو كانت تلك بقايا ما كانت تحوزه سابقاتها، نزر يسير من فنون الساحرات؟ ماذا لو كان ذلك صدى الإرث المشترك، الوعي المشترك، الذي انتقل من كاترشينا سخانيلكا على مدار عدة قرون ومر بسورمينا وبأمها وامتد حتى وصل إليها؟ وفي اللحظة التي دارت فيها تلك الفكرة بعقلها، شعرت كأنما وجدت مفتاح الباب المغلق منذ أعوام طويلة. وبمجرد أن انفتح الباب، تجلى لها دورها الحقيقي، وبدأت فجأة تستشعر ما يجب عليها فعله، وكيف يمكن أن تكون فاعلة في هذا الأمر. فهي الوحيدة التي تقف على أعتاب عالمين جِد مختلفين، إحدى قدميها منغمسة داخل العلم، ولكنها في نفس الوقت منخرطة بشدة داخل أعماق حياة الساحرات. وراحت تحدث نفسها بأن دورها سيتمثل في معرفة مصير كل سيدات عائلتها، ستنتزع قصصهم من ظلمات التاريخ، والأهم أن تُعَرِّف العالم بفنونهم الفريدة، التي سعى أعدائهم على مدار العصور أن يمحوها من أرض كوبانيتسه. هذا هو دورها، عليها أن تحول دون اندثار تراثهم.

في تلك الليلة شعرت براحة غير عادية. فقد عرفت منذ تلك اللحظة أن وجود اسمها في ذيل شجرة العائلة لم يكن هباءً.

ألقت دورا نظرة ثانية على شبكة الفروع المتشعبة إلى مختلف الأسماء.

كان ذلك النَّسَب الشريف هو سر أسرار دورا الذي لم يطلع عليه غيرها حتى الآن.

في البداية كانت تستكمل تفاصيله لأغراض تخص دراسة الماجستير، لكن بعدما رأت اسمها يقف بارزًا في السطر الأخير، رفضت فكرة إضافته للرسالة، وذلك ليس فقط لأنها لا تريد أن تنشر غسيل عائلتها القذر على العامة، لكن بالأساس لأنها لم تشأ أن تُعرِّض رسالتها والهدف الذي من أجله قامت بعمل البحث لأن يُتَّهَم من قِبَل اللجنة العلمية المنوط بها تقييم البحث بالخوض في الأمور الشخصية، وربما بالتحيز.

كانت مقتنعة بأنها على صواب، عندما احتفظت بسرها لنفسها.

قاطع صوت النادل أفكارها. فهزت رأسها ردًّا على سؤاله المهذب، وطلبت كأسًا أخرى. بعدها فقط أدركت كم تؤلمها عيناها من متابعة القراءة طوال اليوم ومن تعرضها للإضاءة المنبعثة من شاشة الكمبيوتر. فأخذت تفركها في إعياء.

وما كادت ترفع عيناها، حتى لمحت رجلًا في الركن المقابل من الحجرة يحدّق بها. شعرت بخوف في البداية لمَّا أطال النظر إليها، ثم ما لبث ثغرها أن انفرج عن ابتسامة خجولة.

للأمانة كانت ستتعجب إذا ما تحقق لها ما كانت ترنو إليه، أو على الأقل كانت ستشتد دهشتها. ثم كم مرة في حياتها حدث أن استيقظت من نومها ولم تكن مُحبَطة؟ على أقصى تقدير: ربما مرتين، ثلاث مرات؟

إلا أنهم ربما كانوا يفعلون ذلك معها متعمدين، كلهم، كل واحد منهم كان يسعى وراء مقاصده، وبمجرد أن يُغلَق عليهما باب غرفة النوم، يتحولون إلى جنود يتصرفون بطريقة آلية فيقهرون جسدها ويعانقونها بشكل سمج ووضيع كما لو كانت قطعة من عجين. وبدون ذرَّة خيال يهزون جسدها بعنف ببراثنهم، يبذلون جهدهم للولوج بسرعة إلى الداخل ككلاب السباق. فتتبدد بعدها توقعاتها المتفائلة في استثارة رغبتها، وتتلاشي كندفة ثلج فوق اللهب، ويحل محلها شعور بالحرج يتبادلانه بسبب جسد رجلٍ منهك القوى تفوح منه رائحة العرق لا يحمل معه أدنى درجات التجديد أو الابتكار، وهو لا يريد حتى أن يحاول أن تتلاقى أردافهما بشكل متناسق، ما قد يؤدي بها إلى الوصول إلى يقين أن الأمر ممكن، بالفعل ممكن، نعم ممكن. إلا أن أيًّا منهم لم يحاول أن يصل بها إلى ذلك اليقين، فالأمر لا يعنيهم، هم فقط يرغبون في أن تكون هي موجودة، مجرد جسد بفتحه أنثوية ولا شيء أكثر من ذلك.

وهكذا كانت الأمور تسير في كل مرة تقريبًا، وبعد ذلك، وقبل أن يحدوها الأمل ينتهي كل شيء. عندها يلملمون أشيائهم ويتقلبون على الفراش ثم يشعلون سجائرهم أو يداعبون فخذها بزهو منتشين من فرط إحساسهم بالنجاح في إنهاء المهمة. أما هي فتظل تحملق بالسقف ويتولد داخلها غضب شديد مما فعلت، لماذا ترضى بهذا لنفسها؟ ولماذا لا تكون كبقية النساء؟ لماذا لا تقنع بما يقدمه لها الرجال، بل تفضل لو أنها قامت وخرجت بسرعة من الحجرة، من ذلك المكان الذي تفوح منه رائحة الإفرازات التي خرجت من كليهما؟ تفضل لو أنها استطاعت أن تركض وبسرعة تشعر معها بالإرهاق إلى حد يجعلها تكف عن التفكير حتى في ذاتها، وفيما وصلت إليه من انحطاط وشذوذ تشعر معه بالاشمئزاز، وفي أولئك المساكين الذين يثبتون مرة تلو الأُخرى أن الأمر لا

إلا أنها تظل مستلقية تحملق في السقف وتحاول التغلب على إحساسها بالغضب، وهو ما كانت تنجح فيه أحيانًا، وتفشل فيه كثيرًا؛ لأن ذلك الرجل بجوارها والذي انسلت من داخلها لتوه، والذي يشعل الآن سيجارته، غالبًا ما سيقول شيئًا ما كي يقطع الصمت، وهذا الشيء الذي سيقوله سيتسبب في خروج الغضب المتردد داخلها، والذي كانت قبل قليل تريد الفكاك منه، فينطلق كزوبعة هوجاء تتحطم فوق جبل اللحم ذي الرائحة الكريهة الجالس بجوارها. والعجيب أن ذلك المسكين لا يبتلع عندها سيجارته، ولكنه غالبًا ما يخرج مسرعًا من الباب لا يملك حتى أن يزرر قميصه أو أن يكمل ارتداء التي شيرت، فيخرج وهو يصرخ: «يا لك من امرأة غبية!" أو ما شابه مما يتفوهون به إذا ما استشاط غضبهم لكونها لا تشاطرهم الرأي فيما قاما به معًا من أداء فائق، وهو ما يعني بالضرورة أن يكون هذا هو آخر لقاء بينهما.

حدث ذلك معها في باردوبيتسه، وهكذا لن يزعجها مرة أخرى؛ لأنها لن تلقاه بعد اليوم، وسيكون عليها فقط أن تحتفظ بشعورها بالنفور من ذاتها، سيتبقى لها الإحساس بازدراء جسدها ممزوجًا برغبة شاذة ومثيرة للاشمئزاز. وحتى لو اغتسلت حينها بأكملها بصابون الفندق المعطر، الذي تتخلل رغوته ما بين أصابع قدميها، فلن يصل هذا إلى ذاكرتها التي ستبقى ملوثة موصومة بالخزي، لذلك ستنطفئ فيها، في دورا، الرغبة في البحث عن صيد جديد، وستتوقف عن التفكير في ذلك الأمر مرة أخرى لمدة أسبوع، أسبوعين، ثلاثة، إلى أن تجنح بها الرغبة من جديد، فتلتقي أحدهم ذات مساء وتلقي بنفسها بين أحضانه مرة أخرى، وستتشبث بالأمل في أن تكون هذه المرة مختلفة عن سابقاتها، وأن الشرارة ستنطلق، فتشتعل وتضيء بداخلها ثم تحترق، وأنها ستستسلم للرجل كأي امرأة طبيعية، بشكل عادي، بشكل سليم ونهائي.

دار المحفوظات: اليوم الثالث

كانت أول من يصل إلى دار المحفوظات صباح يوم الجمعة، وأول من يسجل اسمه في دفتر الزوار. وكان موظف الأرشيف قد أعدَّ لها ملف سورمينا.

قالت له دورا: سأبقى اليوم حتى الظهيرة فقط. هز الموظف كتفيه بلا اكتراث. جلست مسرعة في مكانها المعهود وشرعت في القراءة. كان عليها أن تنتهي من أكبر قدر ممكن من محتويات الملف، قبل أن تلحق بقطار الظهيرة كي تصطحب يعقوب.

126

الإدارة المحلية لأمن الدولة

أوهيرسكي هراديشتي، القسم الثالث

ليد الموظف المختص شفانتس

تقرير موجز: قضية تيريزيا سورمينا

أعد التقرير: العميل السري „كلوزيك"

دونت الممرضة النوبتجية الرفيقة كودلوفا فرانتيشكا يوم الأحد الحادي عشر من عام 1976 ملاحظة عن محاولة لزيارة المريضة سورمينا. حاولت فتاة في العشرين من عمرها، متوسطة الطول، شعرها بُني فاتح طويل وعيناها بنية اللون، حاولت الوصول إلى المريضة، وقالت إنها قريبة تيريزيا سورمينا، إلا أنها لم تقدم أى مستند يؤكد صدق ما تدَّعيه.

لم تَنْفِ الممرضة وجود سورمينا بالقسم، إلا أنها رفضت أن تسمح لها بالزيارة في غياب المستندات المطلوبة. فطلبت الفتاة تعريفها بماهية تلك المستندات التي يحتاجونها، فقامت الممرضة بإطلاعها على ما طلبت، ثم انصرفت.

أنا في انتظار تعليماتكم في أسرع وقت ممكن لإحاطة الممرضات علمًا بما عليهن فعله في حال ما إذا كررت المذكورة المحاولة مرة أخرى.

142

الإدارة المحلية لأمن الدولة

أوهيرسكي هراديشتي، القسم الثالث

ليد الموظف المختص شفانتس

أعد التقرير: الاسم الحركي/المجلد: العراف/15701

طبيعة العمل: موظف تنفيذي

إدارة سجلات أمن الدولة: أوهيرسكي هراديشتي

محضر لقاء بالعميل السري „كلوزيك":

جرى اللقاء بالعميل السري صاحب الاسم الحركي „كلوزيك" في العاشر من ديسمبر عام 1976 كالعادة في استراحة „مير" على الطريق السريع رقم 47 باتجاه كرشينوفيتسه. وكان يبدو خلال المقابلة لطيفًا ومتعاونًا.

خُصصتْ بداية اللقاء لمناقشة حالة تيريزيا سورمينا. ولمَّا سألت مستفسرًا عن حالتها، أجاب „كلوزيك" بأن حالة سورمينا مستقرة منذ انتهت المرحلة الرابعة من العلاج بالصدمات الكهربية، وأنه لا داعي على الإطلاق لأن نقلق بشأن حالتها الصحية، وأضاف أن المريضة حاليًا تعاني متاعب صحية طبيعية كآثار جانبية مترتبة على العلاج، على سبيل المثال نوبات صرع، ولكنها تحت السيطرة.

كان „كلوزيك" حريصًا على معرفة كيفية التصرف بشأن الزيارات. وقد أوضح في هذا السياق أن سورمينا توجد بالقسم المفتوح، وأن حالتها تسمح بالزيارة، كما أن كبير الأطباء اطَّلع على حالتها بالفعل عدة مرات، وأنه تحدث أكثر من مرة بشأنها مع „كلوزيك" باعتباره

الطبيب المباشر لحالتها. والآن كما يعتقد „كلوزيك" عندما تستوفي قريبتها شروط الإذن بالزيارة، يمكنها أن تذهب إلى كبير الأطباء وعندها لن يستطيعوا منعها. كما أنه استبعد إمكانية نقل سورمينا للقسم المغلق مع الحالات الخطرة، حتى لا يثير الريبة.

وأضاف أنه لا توجد مخاوف من الزيارات في الوقت الحالي؛ لأن المريضة من بعد العلاج بالصدمات الكهربية أصبحت غير قادرة على التركيز في الحوار، وهو ما يمكن تعميقة قليلًا بطرق علاجية أخرى. وينتظر „كلوزيك" رأينا في هذا الصدد.

واستُكملت المقابلة بشرح طبيعة علاقاته الشخصية بمحل عمله، وقد أشار إلى تحسنها، حيث تمت ترقيته إلى منصب نائب كبير الأطباء. وردًّا على سؤال عما إذا كان هناك شيء غير عادي يحدث في دائرة فريق العمل أجاب بالنفي، وبأن كل شيء الآن على ما يُرام، وأن الجميع يعملون طبقًا للوائح المعمول بها. وأستدرك قائلًا إنه .ربما فقط الزميل الرفيق د. بروسيك لا يُظهر ولاءه لنظامنا الاشتراكي بالقدر المتوقَّع من طبيب في مثل قدره، وإن آراءه في بعض القضايا الفكرية تبدو غير تقدمية. وردًّا على سؤال عما يقصده بالتحديد بقوله „إن آراءه غير تقدمية" أجاب أنه على سبيل المثال يتحدث عن أوضاع الأطباء في البلدان الرأسمالية، بالتحديد في فيينا، وذلك باعتبارها أفضل منها هنا، ومن هنا استنتج „كلوزيك" أن علاقته بالطب الاشتراكي ليست على المستوى المطلوب، وأنه يفضل النظام المستغل للغرب الإمبريالي على نظام الصحة الوطنية، كما تطلق عليه وزارة الصحة بجمهورية تشيكوسلوفاكيا الاشتراكية. وألمح كذلك إلى أنه يرغب في معرفة كيف وصل الرفيق بروسيك إلى مثل تلك المقارنة، وأجبناهُ بأننا سندرس هذه المسألة.

الخلاصة: ما زال „كلوزيك" يؤكد بسلوكه أنه عميل سري مناسب، كما أن حماسه ورغبته في التعاون عاليان.

انتهت المقابلة الساعة السابعة إلا الربع بتاريخ 10/12/1976

إجمالي التكلفة: 162 كرونًا تشيكيًّا

145

مجلس اللجنة الوطنية المحلية في جيتكوفا
الإدارة المحلية لأمن الدولة
أوهيرسكي هراديشتي، القسم الثالث
ليد الموظف المختص شفانتس

مرسل لسيادتكم بناءً على طلبكم صورًا من وثائق السجل المدني التي تثبت صلة القرابة بين المُسْتَعلَم عنها دورا إيديسوفا وتيريزيا سورمينا، وهو ما تقدمت دورا إيديسوفا بشأنه بطلب إلى اللجنة الوطنية المحلية في 26/11/1976 ومحل إقامتها جيتكوفا رقم 28. ونؤكد في هذا المقام على أننا سوف نقوم بناءً على توصياتكم بإصدار المستند الذي يثبت صلة القرابة بينهما في 01/05/1977. ونفيد سيادتكم أيضًا بأن المستعلَم عنها دورا إيديسوفا قد تقدمت كذلك بطلب استصدار وثيقة تثبت صلة القرابة بينها وبين يعقوب إيديس المقيم بمؤسسة رعاية الشباب المعاقين ذهنيًا في برنو – خيرليتسه، وذكرت أن السبب من وراء طلبها هذا هو ضمه إلى حضانتها بشكل جزئي.

الموظف المسئول: تشيرماتشكوفا

تحريرًا في: 17/01/1977

148

مكتب الخدمات الاجتماعية العامة ببرنو
رقم التسجيل: الرعاية 124007/ي م ك ب و 02
الإدارة المحلية لأمن الدولة
أوهيرسكي هراديشتي، القسم الثالث
ليد الموظف المختص شفانتس

بناءً على طلب سيادتكم نوافيكم بالتقرير التالي عن حالة نزيل دار الرعاية، القاصر يعقوب

إيديس، المولود في 16/02/1961.

المذكور عاليه مقيد لدينا كحالة اجتماعية أقرب إلى اليُتم تعاني إعاقة ذهنية وجسمانية. انتقل بعد وفاة والدته هو وشقيقته دورا إيديسوفا إلي حضانة خالته تيريزيا سورمينا بناءً على طلب تقدمت به في عام 1966. وبناءً على إعلان وزارة العمل والشئون الاجتماعية بجمهورية تشيكوسلوفاكيا الاشتراكية رقم 182/1961، فقد تقرر صرف إعانة شهرية قيمتها 498 كرونًا تشيكيًّا لسورمينا؛ لكونها ترعى شخصًا معاقًا، بالإضافة إلى معاش لليتيمين قيمته 456 كرونًا تشيكيًّا كان يتم صرفه شهريًّا بموجب إيصال صرف لسورمينا بصفتها وصية عليهما، وذلك حتى تاريخ 30/06/1974. وبعد دخولها المصحة النفسية العامة في كرومنيرشيجه، وبناءً على طلب المدعي العام، تم تسليم الوصاية عليه في 18/6/1974 لمؤسسة الرعاية الاجتماعية للشباب المعاقين ذهنيًّا، حيث يقيم حتى الآن بدار برنو – خيرليتسه المستقلة.

وفي 04/05/1977 تلقى مكتب الخدمات الاجتماعية العامة ببرنو، المركز التابع لإقليم جنوب مورافيا طلب ضم للحضانة الجزئية يخص حالة القاصر المدعو يعقوب إيديس تقدمت به دورا إيدسوفا، مواليد 30/10/1958، مقيمة في 28 جيتكوفا. وقد أرفقت المذكورة بالطلب شهادة ميلاد كدليل على بلوغها سن الرشد، وكذلك وثيقة تثبت صلة القرابة التي تربطها بالقاصر يعقوب إيديس، بالإضافة إلى شهادة من جهة عملها تفيد بحسن السير والسلوك، وذكرت أنها قريبته الوحيدة التي تستطيع حاليًّا العناية به.

مُرفق بناءً على طلبكم تقرير الصحة النفسية الصادر من قسم خدمة الفحص الطبي بمؤسسة الخدمات الاجتماعية العامة ببرنو.

الموظف المسئول: مَجدالينا كافكوفا

تحريرًا في: 07/05/1977

ملحق

تقرير الصحة النفسية

يعقوب إيديس، مواليد 16/02/1961

تاريخ العائلة المرضي: توصلنا إلى وجود مرض الذهان في العائلة (خالة الطفل نزيل المؤسسة توجد حاليًا بمصحة كرومنيرشيجه النفسية العامة على إثر إصابتها باضطرابات ذهانية حادة). والده مدمن كحول.

التاريخ المرضي للحالة: العمليات والأمراض الخطيرة، لا يوجد. بعد الفحص تم التوصل إلى وجود ضعف في نمو الشخصية، وتخلف عقلي متوسط الدرجة، عجز تعلم عام مع معدل ذكاء 46. غير قابل للتعلم وغير قادر على ممارسة الأعمال اليدوية المكثفة أو التعامل مع الأوساط المُعقدة التي تتسبب عادة في إرباكه. وهو يعاني بالإضافة إلى ذلك من متلازمة آبرت المصحوبة بتَعَظُم دروز الجمجمة المبكر ونقص في نمو الجزء الأوسط من الوجه. عيناه مصابتان بالحول، لديه ارتفاق في أصابع اليدين والقدمين مما يؤدي إلى صعوبات في الحركة. لديه قابلية عالية للإيحاء.

حالة المريض ثابتة ولا يُتوقَّع حدوث تحسن ملحوظ.

تعاطي المخدرات: لا يوجد. لا يتعاطى الكحول. غير مدخن.

التاريخ الاجتماعي: ينحدر من أصول اجتماعية فقيرة، تُوفيت والدته عام 1966، والده يؤدي فترة عقوبة بالسجن. انتقل مع أخته إلى حضانة خالته في الأعوام 1974-1966. عالمه محدود ويقتصر على أخصائي الرعاية، ولم نتوصل إلى وجود أية صلات أو علاقات شخصية أخرى. لديه نزوع إلى الايمان بوجوه الله.

التعليم والوظيفة: غير قابل للتعلم، لكنه معتاد على خدمة نفسه بنفسه، غير كامل الأهلية. معظم احتياجاته البيولوجية مشبعة.

علاقته بالنظام الاشتراكي: غير موجودة على الإطلاق.

الحالة عند دخولة المؤسسة: تم إدخاله إلى المؤسسة في صحبة أخصائي مكتب الخدمات الاجتماعية العامة في 18/06/1974. كان يعاني من تورم دموي وقيء. وكان يبدو

مشوشًا، قلقًا، غير قادر على التواصل أو فهم ماهية مؤسسات الرعاية. لم يكن متجاوبًا. وقد نبَّه أخصائي مكتب الخدمات إلى إصابته بنوبة مصحوبة بفقد للوعي وتشنجات، كما أضافوا أنه من وقت لآخر تنتاب سلوك المريض هبَّة تؤدى به إلى حالة من الإثارة وفقدان السيطرة على الذات (شبهوها بالغضب الشديد).

العلاج: حتى الآن لم يوصف الدواء، والآن يخضع للعلاج بالهرمونات مثل تسيبروتيرون 2مج للحد من الرغبة الجنسية وديازابيم في حالة تعرضة للنوبات.

كانت دورا تعرف المستندات التي اصطفَّت خلف التقرير، لأنها تحتفظ بنفس الأوراق في قاع درج مكتبها بالبيت، وهي التي جلبت لها يومًا ما الكثير من السعادة؛ لذا كانت مترددة في التخلص منها. أخذت تتصفحها على مهل، وما إن أمسكت بآخر تلك الأوراق حتى طال مكثها بين يديها.

161

مكتب الخدمات الاجتماعية العامة ببرنو

دورا إيديسوفا، 28 جيتكوفا، مقاطعة أُوهيرسكي هراديشتي

القرار:

طبقا لأحكام المادة 45ب/1963 من قانون الأسرة يُصرح بتحويل وضع رعاية القاصر يعقوب إيديس المولود في 16/02/1961 بمؤسسة الرعاية الاجتماعية للشباب المعاقين ذهنيًّا – طوال العام إلى رعاية اجتماعية أسبوعية للشباب المعاقين ذهنيًّا. كما تقرر أن يقوم برعايته:

دورا إيديسوفا، المولودة في 30/10/1958، والمقيمة 28 جيتكوفا، مقاطعة أُوهيرسكي هراديشتي، شقيقة القاصر يعقوب إيديس.

ونظرًا لأن المذكورة قد اجتازت دورة إجبارية للتعامل مع المعاقين ذهنيًّا بما في ذلك كيفية التصرف في حالة الطوارئ، وأنها وقَّعت على التزامها باحترام „نظام المؤسسة"، كما

تم شرح حالة القاصر يعقوب إيديس، وعلاجه، ونظامه الغذائي اليومي، فقد أُسندت إليها رعاية المعاق جزئيًّا بدءًا من 01/06/1977.

وسوف يُصرَّح بخروج القاصر يعقوب إيديس، نزيل مؤسسة برنو - خيرليتسه للرعاية الاجتماعية للشباب المعاقين ذهنيًّا في يوم الجمعة من كل أسبوع الساعة الواحدة مساءً على أن يعود للرعاية المؤسسية مرة أخرى يوم الأحد الساعة الخامسة مساءً.

توقيع الموظف المسئول: مهندس فلاستيميل كوفارش

تحريرًا في: 07/05/1977

173

الإدارة المحلية لأمن الدولة

أوهيرسكي هراديشتي، القسم الثالث

ليد الموظف المختص شفانتس

أعد التقرير: الاسم الحركي/المجلد: العراف/15701

طبيعة العمل: موظف تنفيذي

إدارة سجلات أمن الدولة: أوهيرسكي هراديشتي

محضر تحريات عن دورا إيديسوفا:

تولت المُتحرَّى عنها في شهر يونية 1977 رعاية أخيها القاصر المعاق ذهنيًّا يعقوب إيديس، وذلك في الأيام من الجمعة إلى الأحد. وهي تصطحبه بانتظام يوم الجمعة في الساعة الواحدة، وفي الساعة الثانية وعشرين دقيقة تستقل القطار المتجه إلى أوهيرسكي هراديشتي، ومنها تنطلق في الخامسة والربع بالحافلة صوب ستاري هروزينكوف وصولًا إلى محطة جيتكوفا. وتقوم المتحرَّى عنها بتسليم شقيقها للمؤسسة يوم الأحد في الساعة الخامسة تمامًا. وفي أيام العمل الأسبوعية تقيم المتحرى عنها في شقة بالإيجار ببرنو عنوانها 112

ش فرانتسوزيسكا، وبخلاف عملها في وحدة تسيل بشارع تسيل رقم 72، تداوم كذلك على حضور دورة لتعلم اللغة الألمانية بمدرسة اللغات العامة في 1 ش كوليشتي وذلك في مساء الثلاثاء من كل أسبوع. بخلاف ذلك علاقاتها محدودة، الأمر الذي يرجع إلى كونها انتقلت إلى برنو حديثًا.

الخلاصة: أؤكد على فرضية أن لوجيستية وحجم العمل الذي تبذله دورا مع شقيقها المعاق يجعل التواصل بينها وبين سورمينا غير ممكن، نتيجة لعدم قدرتها على الوصول لسورمينا في الأوقات المخصصة للزيارة.

انتهت التحريات في 30/09/1977.

كان الجميع حينها يقولون لدورا، الله وحد يعلم لماذا أنزل بشقيقها يعقوب تلك المصيبة، وأنه تعالى لا يفعل شيئًا إلا لسبب، ربما يتضح لاحقًا. وكانت هيئتهم وهم يقولون ذلك واحدة من أولى الذكريات التي استقرت في مخيلتها.

كانت سورمينا بطبيعة الحال هي من قامت بتوليد أمها، ومن عساه يكون غيرها؟ كانت دورا ووالدها حينها ينتظران عند مدخل البيت ملتحفين بمعاطف ضخمة حتى سمعوا أمها في النهاية وهي تصرخ، كانت صرخة واحدة، بعدها دوى بكاء، وإن كان بكاءً خافتًا مرتعشًا، ثم ساد الصمت. ظل أبي لبعض الوقت يدور حول البيت في قلق، بعدها فقدَ كل قدرة على التحمل واندفع إلى الداخل، فاصطدم بسورمينا لدى الباب، فقالت له:

- عليك أولا أن تسرع إلى إيرما جابرهيلوفا.

لم يستجب أبي، فقد كان يريد أن يلقي نظرة على الوليد، لكن سورمينا لم تسمح له بالدخول. لم يكن مخمورًا، ولم تكن لتعتمد عليه بالتأكيد إذا ما كان سكران. وهكذا ذهب، وكان واضحًا أنه لن يعود قبل مرور ساعتين؛ لأن الطريق إلى تل تشيرينسكا حيث تقيم إيرما يستغرق ساعة تقريبًا وهي قابلة للزيادة الآن مع تكدس الثلوج المعتاد على الطريق خلال شهر فبراير.

وهكذا كانت دورا وأمها وسورمينا أول من رأى يعقوب.

بكت أمها.

كانت تحتضنه بعد أن تم تحميمه وتقميطه. وكان ينام على صدرها في إعياء، بينما أخذت تتساقط على رأسه الصغير دموع سالت من عيون أمه المجهدة. لماذا؟ لم تستوعب الأمر إلا عندما شبَّت لتصل إلى أعلى لوح السرير الخشبي. ارتعدت أوصالها لمَّا رأت وجه الطفل في تقميطته، فلم تكن حتى ذلك الحين قد رأت طفلًا حديث الولادة، كما أنها لم ترَ يوما شيئًا غريبًا كهذا.

وأخذت تتساءل بعد ذلك: لماذا لديه ذلك العدد القليل من الأصابع؟ فقد كان في كفه المفرود بجوار رأسه فقط ثلاث أصابع بلا أظافر. أما أمها فقد علا صوتها بالنحيب. فأبعدت سورمينا دورا عند الطاولة، وقالت لها:

- قدر الله وما شاء فعل، وعلينا أن تتحمل ما قدره الله علينا. ونحن، أنتِ وأنا وأمكِ وأبوكِ سنتحمل قدرنا بشجاعة، عِديني بذلك.

أومأت دورا برأسها في امتثال للأمر، وإن لم تكن متأكدة بالمرة من استيعابها لمعنى „التحمل بشجاعة".

أما معنى عدم القدرة على التحمل بشجاعة فقد عرفته لمًا رأت رد فعل أبيها.

في البداية بكيا معًا، هو وأمها.

وراحت إيرما وسورمينا تروحان وتجيئان في الغرفة، بينما جلست دورا على المقعد وهي في حيرة من أمرها. كانت تحاول فك شفرة ذلك المشهد الغامض، إلى أن غلبها الدفء المنبعث من الفرن، فبدأ رأسها يسقط على صدرها وقد غلبها النعاس.

ربما كانت تستيقظ من نومها للحظات تحملق فيها فيما حولها، ربما كانت تحلُم. لا تعرف.

كانت تعتقد أن والدها قد تناول من على الرف زجاجتين من البراندي وذهب ربما إلى الغابة. وجلست سورمينا وإيرما إلى جوار الأم المنتحبة وطفلها الهادئ، وكانت هيئتهما الجادة والحزينة تُذكِّر بجنيتين من جنيات الأقدار. فقط من آن لآخر كانتا تتلفظان بكلمة. تذكر دورا الكلمة التي سمعتها حينها: وغد!

لم تستطع التخلص من ذلك الشعور في مساء ذلك اليوم، عندما كن جالسات وهي نائمة بجوار الفرن، بأن هذا هو ما كانت تريده أمها أيضًا، أي أنه كان من الأفضل لو لم يأتِ إلى الدنيا ذلك الطفل ذو الرأس المشوه والوجه المضغوط من منتصفه حتى يكاد يختفي منه الأنف، بينما تباعدت عيناه إلى الحواف.

كانت إيرما أو ربما سورمينا التي قالت بعد همس ينضح بالانفعال وصل صفيره إلى سمع دورا بوضوح: هل كان هذا بسبب إثم ارتكباه؟

وما عساه أن يكون ذلك الإثم؟

وعندما أفاقت من غفوتها، ذهبت خلفهن في هدوء إلى الفراش، حيث انكبَّ الجميع على الطفل الراقد في حجر أمه. لم تستطع أن ترى شيئًا مما يحدث هناك عبر مؤخراتهن العريضة، فكان عليها أن تنحشر وسطهن، وأن تباعد بين هذين الجسدين المتلاصقين حتى تتمكن من الرؤية.

أهو ولد أم بنت؟ تساءلت فجأة فأصابتهن جميعًا بالذعر حتى صرخن، وعندها صرخ يعقوب صرخة جوفاء، لأنهن كن يلقين على وجهه بقطعة قماش مطوية، سقطت من فوقه، عندما بدأ يتلوى، وكانت تلك هي المرة الأولى التي شعرت فيها بأنه ينظر إليها، نظرة سريعة قبل أن يُحِيل البكاء فتحتي عينيه الزقاوين كزرقة السماء إلى خطين ضيقين مبللين بالدموع.

إنه صبي، همست أمها وهي تضم الطفل الباكي إليها، بينما راحت سورمينا وإيرما تبتعدان عن الفراش.

الآن صارت دورا تعرف أن الطفل عندما يولد لا يمكنه أن يرى، وأنه حتى لو كان يمكن أن يفعل، فإن يعقوب بالذات لم يكن بمقدوره يقينًا أن يراها بعينه اليمنى؛ لأنه كان طوال عمره بالكاد يرى بها، لكنه كان يرى جيدًا بعينه اليسرى ويستطيع أن يلاحظ بها حتى الأشياء الصغيرة، التي يمكن أن تمر على دورا من غير أن تلحظها. وهو بعينه اليسرى تلك الغائرة في أعماق جمجمته قد يزعج الغرباء، وقد يسخرون منه. وكان يفعل ذلك دائمًا عندما كانت تأتي إلى المؤسسة لتصطحبه في ظهيرة الجمعة، حيث كان ينتظرها في حجرة الانتظار الباردة برودة الثلاجة. كان يبتسم لها بعينه اليسرى تلك، ثم يسحب جَدْعَة أنفه الصغير، فيصير وجهه أكثر بشاعة، حيث يغوص إلى الداخل من منتصفه، ثم يشهق قبل أن يقول شيئًا من نوعية: أخ-ي-رًا، أو حتى مجرد أن يردد اسمها. دو-ا، هكذا كان يناديها، لأن سقف الفم لديه غير مكتمل النمو مما يستحيل معه النطق بشكل سليم.

اليوم عرفَتْ أن هذا كله كان جزءًا مما يُعرف بمتلازمة آبرت.

ولم يكن أحد منهم هناك في جيتكوفا في ذلك الحين يعرف ذلك، ولم يكن أى أحد

غيرهم يعرفه حتى وصل أخصائيو مكتب الخدمات الاجتماعية ليقتادوها هي ويعقوب. وكان يقال له في بلدتهم حتى ذلك الحين: مسخ.

****

دو-ا، دو-ا! هكذا كان يصيح عندما تلوح له عند باب حجرة الانتظار بالمؤسسة ظهيرة كل جمعة. لكن دورا تلك المرة كانت أكثر منه ابتهاجًا. كانت بحاجة إلى أن تنشغل عن الأفكار المزعجة التي تدور بها في دائرة لا متناهية تتعلق بملف سورمينا الذي لم تنتهِ منه بعد. وكان قضاء عطلة نهاية الأسبوع مع يعقوب منفردين في هدوء بـ جيتكوفا يمثل الخلاص من ذلك العبء.

كان يعقوب جاهزًا وبصحبته ممرضة متبسمة.

تساءلت عندما كانت تسلمه ليد دورا: ستعودين به مرة أخرى في الخامسة من مساء الأحد، أليس كذلك؟ تعانقا وقبَّلته دورا على جبينه، وظل قابضًا عليها يجذبها نحوه بشدة، ولم يتوقف عن قوله:

دو-ا، دو-ا!

وأخذت تقول لنفسها في سعادة: على الأقل هذا التغيير. فقبل ذلك كانت تسلمها يعقوب ممرضة جافة لا تعبأ بشكوى المريض العصبي، غير المهندم الذي يبدي شعوره بالسعادة عندما يعلم بأن دورا ستأخذه من تلك البيئة البغيضة بمؤسسة الرعاية الاشتراكية. عندما توقف التعيين بعد الثورة حل الشباب والمربيات المتمرسات على عدة مراحل محل تلك الكائنات الشرسة، وهم إن لم يكونوا أكثر تميزًا، فهم على الأقل ودودون. أما إذا ما كانوا قد اختاروا ذلك العمل طواعية مع علمهم بمدى صعوبته، أو أنهم يعملونه لأن الرأسمالية تجبر الناس على العمل لكسب العيش وليس مجرد الوجود، فهذا ما لا تعرفه دورا. وقد تأكدت عمومًا من أنه بمرور الوقت لم يعد يتجهَّم عندما كانت تدخل به مبنى المؤسسة مع اقتراب نهاية يوم الأحد، بل ربما كان يتهلل فرحًا. وقد جاء ذلك التغير ليحمل معه راحة البال لدورا. فهي وإن كانت في البداية تخشى أن يلقى يعقوب نفس الظلم الذي لقيته في المؤسسة الداخلية بـ هراديشتي، الآن وبعد مرور أعوام على قيام الثورة صارت مرتاحة البال تمامًا، بل إنها سعيدة؛ فقد تبدَّد إحساسها

بوخز الضمير، لأنها لا تستطيع أن توفر ليعقوب رعاية يومية، وذلك لعلمها بأنه سعيد بوجوده بالمؤسسة، وبأنه لا يعاني. وهكذا قررت أن تتوقف معاناتها هي أيضًا، ما دامت حياتهما قد بدأت تسير على الطريق الصحيح، وهو ما بدأ كلاهما ينعم به.

تحركت بهما الحافلة من محطة زفونارشكا القريبة بعد أربعين دقيقة. كان لديهما وقت كافٍ للذهاب إلى محطة القطار سيرًا على الأقدام وتناول بعض الحلوى. وقد اعتادا شراء البوظة من كشك قريب عندما يكون الجو حارًّا، وعندما يكون باردًا كانت دورا تُخرج له من حقيبة الظهر الصغيرة الشوكولاته. كانا يستمتعان بكل ما أوتيا من إحساس باللحظات الأولى لكل لقاء يجمعهما.

والآن في الخريف صارا يصلان إلى هروزينكوف مع حلول الظلام. حتى في ذلك الوقت كانا يستطيعان الاسراع إلى السوبر ماركت الموجود هناك في آخر لحظة قبل أن يغلق أبوابه. وقف يعقوب كعادته عند مقبض عربة السوبر ماركت وبدأ في تحريكها يمينًا ويسارًا بشكل متقطع إلى أن جاءت دورا كي تساعده على إخراجها من صف العربات. ثم بدءا يتحركان ببطء بين الأرفف المحملة بالأطعمة. وكانت تعيد إلى الأرفف في صبر الأشياء التي لا تحتاجها، والتي كان يلقي بها يعقوب إلى العربة في حركة منتظمة، وبالكاد أمسكت ببرطمان زجاجي للخضر المخللة الذي لم يكن يتحمل الاصطدام ببقية المشتريات.

نادتها السيدة تيخاتشكا من خلف طاولة تقطيع اللحوم: هذا الفتى جبَّار، ألا ترين ذلك؟

هزت دورا رأسها مبتسمة: آه.. نعم.

- ألا تريدين قطعة اللحم المدخن هذه؟ أخذت تصيح وهي تشير بآخر قطعة لحم من فوق رأسها: إنها آخر قطعة لحم خنزير مُدخن لديّ، انظري، إنها مُشَفَّاة.

- نعم بالفعل.

- إذن سألفُّها لك. ولا تنسوا حضور صلاة القداس! أخذت تلفُّ اللحم وهي تشير بسبابتها متوعدة وتقول: لقد لاحظت غيابكم عن الكنيسة على الأقل منذ شهرين.

- تعرفين أن الأجواء هناك لا تروق له، وهو يشتت الجميع. قالت دورا بنبرة تحمل معنى الاعتذار، وهي تضغط برفق على ظهر يعقوب كي يتحرك بالعربة نحو طاولة

تقطيع اللحوم.

- أعرف، ولكن يمكن احتمال ذلك ولو لمرة واحدة كل فترة، ألستِ معي؟

- بلى. ابتسمت دورا في حرج، عندما مدت يدها لتتناول اللحم.

- إذن نلتقي يوم الأحد. إياكِ ألّا تأتي، سأحضر لكما الكعك المحلّى لتتناولاه في رحلة العودة.

أرادت دورا أن تعتذر بأدب، ولكنها بدلًا من ذلك ألقت بلفّة اللحم في العربة وهزت رأسها مودعة إياها. وكانت يانيجينا تقف خلفها في الصف، لكن دورا لم تستدر كي تعرف لمن يكون ذلك الظل الضخم الذي لمحته بطرف عينيها وتلك الرائحة الغريبة النفاذة.

- أهلًا. همست دورا وهي تحاول أن تمر بأقصى سرعة من أمام جارتهم من تل بيتينسكي البعيد. غمغمت يانيجينا في حرج ردًّا على التحية، وكانت تيخاتشكا ترقب المنظر بفضول من خلف طاولة اللحم.

استدارت دورا ووجهت العربة نحو الخزينة وتبعها يعقوب مذعورًا، وزادت حيرته عندما دفعت دورا الحساب بسرعة وبدأت تلقي بمحتويات العربة في حقيبة ظهرها.

في المرات السابقة كان هو الذي يقوم بنقل الأشياء من العربة، وذلك حينما كانت تشتري الشنط البلاستيكية، التي يحملها بعد ذلك بحرص إلى أعلى وصولًا إلى جيتكوفا. لكن دورا لم تفعل ذلك اليوم. ألقت بالحقيبة المنتفخة على ظهرها، وأمسكت بيد يعقوب وجذبته إلى الخارج. توقفا بالقرب من المقابر حيث يبدأ الطريق الشاهق المؤدي إلى تلّهم.

كان يعقوب متجهمًا.

- حسنًا. قالت في إعياء وهي تنزل الحقيبة من على ظهرها.

تهلل وجه يعقوب، وأخذ الحقيبة ووضعها بمساعدة دورا على كتفه. وبدأ يلهث من ثقل حِمله ولكنه لم يفقد حماسه للمهمة. كانت دورا تعرف السبب: إنها زجاجات اللبن.

كانا سعيدين عندما وصلا إلى أعلى حيث يوجد بيتهم. وبدأت عطلة نهاية الأسبوع بنفس التفاصيل التي لا تتغير قط.

دار المحفوظات: اليوم الرابع

بعد مرور ثلاثة أيام، وفي صبيحة يوم الاثنين، دقت جرس باب غرفة القراءة من جديد، ورد عليها صوت صارت تعرفه، وكالعادة صعدت إلى الدور الثاني.

قالت لموظف الأرشيف، عندما كانت تأخذ منه ملف سورمينا: ربما تكون هذه المرة هي الأخيرة. وبعد لحظات بدأت تقرأ الصفحات الأخيرة التي لم تكن قد اطلعت عليها بعد.

192

الإدارة المحلية لأمن الدولة

أوهيرسكي هراديشتي، القسم الثالث

ليد الموظف المختص شفانتس

تقرير موجز: قضية تيريزيا سورمينا

أعد التقرير: العميل السري „كلوزيك"

أحيط سيادتكم علمًا بأنه في يوم الأحد العاشر من أكتوبر 1977 قامت ابنة أخت المريضة سورمينا، دورا إيدسوفا سالفة الذكر بزيارة المريضة. جاءت ومعها جميع الأوراق المطلوبة التي جعلت الممرضة الرفيقة إيفا فرولكوفا تسمح لها بزيارة المريضة. حالة المريضة مستقرة منذ فترة طويلة في ضوء النتائج المُرْضية للصدمات الكهربية.

استمرت الزيارة 40 دقيقة (وصلت إيديسوفا قبل انتهاء مواعيد الزيارة بثلاثة أرباع الساعة)، وانقضت في هدوء. التقت المريضة والزائرة في حجرة الزيارة وخضعتا للرقابة الكاملة من فريق العمل. تحدثت إيديسوفا إلى سورمينا لبعض الوقت، إلا أنها لم تستطع أن ترد بفعل العقاقير المهدئة التي تتناولها دائمًا في أيام العطلات. وبحسب شهادة الممرضة

النوبتجية كانت تنتاب المريضة حالة من الهدوء غير المعتاد. غادرت إيديسوفا وهي في حالة صدمة كبيرة لمَّا رأت حالتها، وطرحت على الممرضة أسئلة، تلقت عليها إجابة مفادها أن سورمينا تعاني ذهانًا حادًّا، وأنه من المتوقع أن تتحسن حالتها. لم تقتنع بإجابتها؛ لذا كان على الممرضة أن تُجري اتصالاً هاتفيًّا بالطبيب المعالج كي تحدد موعدًا تلتقيه فيه إيديسوفا بنفسها. وتم تحديد موعد يوم الاثنين. وخلال لقائها بالطبيب شرح لها خلفية المرض النفسي الخبيث الذي تعاني منه سورمينا، وهكذا تبددت شكوك السائلة. وبعد انتهاء موعد الزيارة وصل هياج المريضة إلى ذروته؛ لذا تم إعطاؤها حقنه مهدئة أُخرى. وقد لوحظ بوضوح زيادة اضطراب المريضة في الأيام التالية مباشرة لزيارة إيديسوفا. أما بالنسبة للعلاج فهو يتناسب مع تطورات الحالة.

من جديد يهاجم دورا إحساس رهيب بالذنب، نجحت في التخلص منه خلال عطلة نهاية الأسبوع التي قضتها مع يعقوب. وكان يكفي مطالعة مستند واحد حتى يعاودها ذلك الإحساس مرة أخرى.

كانت ترى سورمينا أمام عينيها، بعد كل هذه السنوات تراها لأول مرة، امرأة عجوزًا ترتدي زي المستشفى الأزرق بدلاً من زي كوبانيتسه الذي كانت تعرفها به، امرأة مُسِنَّة تقلَّص جسدها، لا تستطيع بدون مساعدتها أن تصل حتى إلى الطاولة وسط حجرة الزيارة.

شعرت دورا حينها بالذعر. كانت تنتظر أن ترى إنسانًا مريضًا، ولكن بدلاً منه جلس أمامها بقايا إنسان له وجه لا يشبه كثيرًا وجه سورمينا. كانت تبدو وكأنها لا تشعر بوجود دورا، التي جاءتها أخيرًا، عثرت عليها، واستطاعت في النهاية وبعد كل تلك السنوات أن تصل إليها، وبالصدفة. فلو لم يتوقف باجلار لزيارتهما في بيدوفا في طريقه إلى برنو بسيارته، لم تكن لتتمكن من إعادة يعقوب إلى المؤسسة مبكرًا وأن تركض مسرعة لتستقل وسيلة أخرى إلى كرومنيرشيجه. وبعد تلك الرحلة القصيرة وفي طريق عودتها إلى برنو لم تكن تفكر في شيء سوى ذلك الذي يمكن أن يكون قد حدث في تلك الأعوام الأربعة التي لم تلتقيا فيها. أخذت تحسب عمر سورمينا، عمرها الآن سبعة وستون عامًا. ليس بالضرورة أن يحدث ذلك للمسنين وإن كانت السن من ناحية أخرى يمكن أن تجعل

المرء يبدو وكأنه صورة باهتة لذاته، مجرد خيال لما كان عليه يومًا ما.

أخذت تتذكر صوت كلوزيك المتعاطف الناعم، الذي كان يتحدث معها في اليوم التالي على الهاتف كما لو كانت طفلة.

- يبقى العلم عاجزًا أمام تلك الحالة، صدقيني، هناك العشرات من الفرق الطبية التي تقوم على دراسة الأمر هنا وفي الاتحاد السوفيتي. أنا شخصيًّا كان يسعدني التوصل إلى نتائج محددة. لا تستطيعين تخيُّل مدى سعادتي لو حدث ذلك. كنت سأتمكن من إخبار أهلنا بدقة بكل شيء. أتعتقدين أن الأمر بهذه البساطة؟ أن تمر الأيام يومًا تلو الآخر ولا نجد تفسيرًا شافيًا يُهدئ من روع الأُسَر المعذَّبة؟ ألَّا نجد ما نريح به المريض الضعيف بخلاف الأدوية؟ يظل مخ الإنسان دائمًا للأسف لغزًا كبيرًا. كل ما أستطيع قوله هو أن حالة خالتك هي حالة شائعة، يتحول فيها المريض تدريجيًّا من إنسان عادي إلى شخص آخر، لا يلبث أن يتقدم به المرض الذي تكون وتيرته أسرع في بعض الحالات، بينما يكون بطيئًا في حالات أخرى.. ودور العلاج في هذه العملية ربما يكون محدودًا. كما أن الأمر يتوقف على المريض وعلى الأدوية التي يستطيع أن يتقبلها. وأحيانًا كما هو الحال في مثل حالة خالتك، يمتنع المريض عن تناول الأدوية بالشكل المطلوب؛ ولذا ستصل حالتها قريبًا إلى آخر مراحل هذا المرض. فقد رأيتِها بنفسك، وبالتأكيد لاحظتِ حالات مماثلة موجودة بالقسم، أليس كذلك؟ بالفعل. لكن الشيء الوحيد الذي استطيع أن أؤكده لكِ، هو أن خالتك لا تشعر بأية معاناة. لم تعد في هذه اللحظة تهتم بأي شيء ولا حتى بكِ، وأصبحت فاقدة القدرة على التفكير المنطقي، ولم تعد تشعر بالوقت ولا بالمحيطين بها، لم تعد تأبه بالعالم من حولها. هذه هي الحقيقة. ولن تتحسن حالتها. يؤسفني أن أقول ذلك، لكن عليكِ أن تنظري إلى الجانب الإيجابي في الموضوع: أنها بالفعل لا تشعر بالمعاناة. فالمرض الذي تعانيه رحيم في هذه الجزئية. ولا أملك هنا إلا أن أقول لكِ ببساطة تلك هي الحياة.

يا له من وغد! استطاع إقناعها، ولم تكن هي لتتواني لو لم يقنعها بما قال. كانت ستتوصل إلى المراجع المتاحة، وساعتها لم يكن من الصعب الوقوف على حقيقة مرض سورمينا.

وهكذا تقبَّلت الأمر.

ربما حدث ذلك قبل الأوان، لكنها حينها بخلاف مرض سورمينا كانت مثقلة بالكثير من الهموم، العمل الجديد والحياة في مدينة لا تعرفها، التعايش مع يعقوب وتنقلاتهما الصعبة ما بين المؤسسة وبيتهم الريفي بجيتكوفا.. كانت بالكاد تستطيع تحمل كل ذلك. باختصار لم يتبقَّ لها من القوة ما يدفعها للشك في أقوال كلوزيك.

****

تبعت زيارتها الأولى هذه عدة زيارات، كان آخرها في ربيع عام 1979.

كانت الشمس مشرقة، والمرضى يتنزهون بمفردهم أو بصحبة ذويهم في الحديقة المحيطة بمبنى المصحة في أرواب المستشفى شديدة النظافة. لم تستطع دورا مقاومة المشهد، فطلبت من الممرضة أن تسمح لسورمينا كذلك بالخروج، وهو ما حدث بالفعل. كانوا يعرفون بكل تأكيد أنه ليس لديهم ما يخشونه في مثل حالتها.

أخذت تسير معها ببطء نحو المصعد، نزلتا إلى أسفل ثم سارتا على طريق من الحصى إلى حيث توجد دكة تحت شجرة الزيزفون المزهرة. كان الجو يفوح عطرًا وأصوات الحشرات تدوي على قمم الأشجار فوق رأسيهما. تتذكر كم كانت سعيدة لمجرد أنهما جالستان هكذا بجوار بعضهما، لأنها تستطيع أن تقبض بكفيها على يد سورمينا المرتعشة، بينما تستنشق عطر شجرة الزيزفون، وتستمتع بأشعة الشمس الدافئة التي راحت تستوعبها بكل يحويه جلدها من مسام.

لم تكن تنتظر مطلقًا أن ينبعث في نفس سورمينا شيء من حياة.

بدأ الأمر برجفة، لم تكن منتظمة، وتُعرف علميًّا بـ باركنسون أو الشلل الرعاش، أخذ يهز أطرافها بشدة وبإيقاع منتظم، ثم تبعتها رجفة أخرى كانت أكثر عنفًا أخذت تسري في جسدها في موجات متتالية أجبرتها على أن تقبض بقوة على مفاصل أصابع دورا. أفاقت دورا في ثانية من سحر اللحظة، وأخذت تنظر إليها مذعورة.

بدأت بعدها التشنجات الخفيفة تشق طريقها إلى وجه سورمينا، تباعدت جوانب فمها لتُسفر عن ابتسامة ساخرة غمرت وجهها سريعًا ثم ما لبثت أن اختفت. جثَتْ دورا على ركبتيها كي تتمكن من رؤية سورمينا، وسألتها ماذا بها، وأخذت تكرر السؤال عدة مرات، كما لو كانت تنتظر من سورمينا التي لم تتفوه بحرف حتى الآن أن تجيبها. لكن

لشدة دهشتها أجابت.

- ابقي مكانك. هكذا نطقت، أو ربما وضعت دورا المفتونة بدفء الربيع حينها تلك الكلمات على لسانها، لم تعد تستطيع أن تحدد.

- ابقي مكانك. هكذا تخيلت سورمينا تقول، ولم تكن هي تنوي المغادرة، فقد أقعدها ذلك التغير المفاجئ في حالتها عن الحركة. لكن من يدري؟ ربما لم تكن حالة سورمينا هي وحدها التي تغيرت، ربما تغير حالها هي أيضًا، فوقعت أسيرة حلم، هذيان داخلي، جعلهما تقتربان من بعضهما، كي تتمكنا من قول ما استقر اليوم في صفحة من مذكرات دورا بحروف دقيقة مائلة توحي بغضب كاتبتها. من يدري؟ لكن في النهاية هذا هو ما حدث، وفي الدقائق القليلة التالية التقطت دورا كلمات خرجت من فم سورمينا، وقد بدأت تشعر بالخوف من ذلك الصوت الأجش المتسلل من فتحة شفتين منقبضتين بحكم العادة، كلمات تخرج بشكل متقطع، كما لو كانت سورمينا تدفع بها من داخلها في دفقات متتالية. كان الوقت المخصص للزيارة قد انتهى منذ مدة، وقطعت الممرضة والتمرجي اللذان كانا يبحثان عنهما كلمات سورمينا. والواقع أن الحديقة كانت قد خلت ممن كانوا فيها، ودخل المرضى إلى المباني، ولكنها لم تدرك ذلك كله إلا في هذه اللحظة. بعد أن تمكن التمرجي من سورمينا على الرغم من صراخ دورا فيه كي يتركها. أمسك بها، وقذف بها بين أحضانه كما لو كانت جوالًا، من دون أن يُعير دورا أي اهتمام، حمل سورمينا إلى المبنى، في حين وقفت الممرضة في طريق دورا وأخذت تصرخ في وجهها بصوت عالٍ بأنها خرقت قواعد الزيارة والنظام الاعتيادي للمريضة، وأنها تسببت في إثارتها وإصابتها بنوبة عصبية، كما تسببت في... وفي تلك الأثناء اختفت سورمينا خلف ثنية الطريق بحيث استحالت على دورا رؤيتها، وقد انكمش جسدها بفعل التشنجات واتسعت عيناها، وامتدت يداها في عجز نحوها، نحو دورا.

اقتادت الممرضة دورا تقريبًا بالقوة بعد ذلك نحو صالة الاستقبال، حيث دفعوا بها خارج البوابة التي أغلقوها من خلفها محذرين إياها من العودة.

وبعد خطوتين خلف الجدار العالي انهارت قوى دورا، وهكذا فاتتها الحافلة المتجهة إلى برنو. استطاعت دورا بصعوبة التغلب على تلك الذكريات الأليمة، على الرغم من قدرة الدهر العجيبة على مفاجأتها. وهكذا مدت يدها لتلتقط الوثيقة التالية.

207

الإدارة المحلية لأمن الدولة

أوهيرسكي هراديشتي، القسم الثالث

لِيد الموظف المختص شفانتس

تقرير موجز: قضية تيريزيا سورمينا

أعد التقرير: العميل السري „كلوزيك"

الوفاة في مصحة كرومنيرشيجه النفسية العامة:

في الثاني عشر من مايو 1979 الساعة العاشرة مساءً، توفيت المريضة سورمينا تيريزيا بالقسم 5أ بمصحة كرومنيرشيجه النفسية العامة، والتي بدأت إقامتها الداخلية بها في 17/06/1974.

سبب الوفاة: سكتة قلبية.

تم فحص جثمان سورمينا تيريزيا في 13/05/1979 في الساعة السابعة والنصف من قِبَل طبيب مصحة كرومنيرشيجه النفسية العامة د. بيتر بافيل (ويعمل طبيبًا بالقسم 5أ) وتحررت شهادة فحص بمعرفته وتم إرسال إعلان لطبيب أوهيرسكي برود بالوفاة، وآخر لمحل إقامتها، وثالث للجنة القومية المحلية في جيتكوفا. ويوجد الجثمان الآن بمشرحة مصحة كرومنيرشيجه النفسية العامة، وسيتم نقلها في الأيام التالية إلى المحرقة أو للدفن بالمقابر.

216

الإدارة المحلية لأمن الدولة

أوهيرسكي هراديشتي، القسم الثالث

ليد الموظف المختص شفانتس

كتب التقرير: الاسم الحركي/المجلد: العراف/15701

طبيعة العمل: موظف تنفيذي

إدارة سجلات أمن الدولة: أوهيرسكي هراديشتي

محضر دفن تيريزيا سورمينا:

في 19/06/1979 تم استلام جرَّة تحمل رفات سورمينا تيريزيا مرسَلة من قِبَل اللجنة القومية المحلية بـ جيتكوفا، وفي الساعة الحادية عشرة من نفس اليوم تم إيداعها مقابر ستاري هروزينكوف بناء على رغبة ابنة أختها دورا إيديسوفا.

أدار مراسم الجنازة القس شيستاك أنتونين من ستاري هروزينكوف، بحضور مسئول الشئون الكنسية باللجنة القومية المحلية، وشارك في الجنازة واحد وعشرون شخصًا.

بعد انتهاء مراسم الجنازة تقدمت ابنة أختها دورا إيديسوفا بالشكر للحضور قائلة: „أشكركم جميعًا يا من جئتم لمرافقة خالتي إلى مثواها الأخير، على الرغم من مرور سنوات طوال لم تلتقوا بها فيها. كانت ستسعد يقينًا لو علمت بأنكم لم تنسوها. تعرفون جميعًا بالتأكيد أين كانت لسنوات طوال سبقت وفاتها. وفي هذا السياق أود أن أقول لكم شيئًا واحدًا: أرجو ألَّا يتصور أحد منكم أنها كانت مجنونة، ولكنها كانت إنسانًا يرغب في مساعدة الكون بأسره..". بعدها لم تعد دورا قادرة على مواصلة الحديث؛ ولذا قامت سيدتان في الزي التقليدي (إيرما جابرهيلوفا وألجيبيتا باجلاروفا) تمسكان بها وتغطيان فمها ووجهها بمنديل، وهكذا لم تتبع كلمتها بكلمات أخرى في تأبين المتوفاة.

لم يتم رصد أي شيء يعكر صفو الجنازة. وبعد انتهاء مراسم الجنازة تفرق المواطنون، واستقلت دورا إيديسوفا الحافلة إلى برنو مع أخيها، الذي عاد إلى المؤسسة بحسب القواعد المعروفة.

انتهى الحدث في 19/06/1979 الساعة السادسة إلا الربع

قيمة المصروفات: 96 كرونًا تشيكيًّا

أخذت دورا تتأمل صورة شهادة الوفاة وإيصال تكاليف المحرقة الذي كان مرفقًا بها. كانت تراهما للمرة الأولى.

لم تعلم بوفاة سورمينا إلا بعد مرور أسبوعين، لم يخبرها بذلك أحد. كانت يومها تقف أمام غرفة التمريض، يملؤها الغضب، قبل أن يصفقن الباب في وجهها. فصرخت فيهن وراحت تلكمهن بقبضة يديها: لا، لا يمكن أن يكون هذا قد حدث!

بعدها دوت صرخة من حجرة خلفها بالردهة الطويلة.

ومن جديد راحت تكرر وهي تدق الباب بعنف جعله يندفع بقوة، استطاعت معها بالكاد أن تقفز كي لا تسقط: أنتم تكذبون!

لماذا تصرخين هنا؟ ألا تعلمين في أى مكان أنتِ؟ عليكِ بالتزام الهدوء هنا، ألا ترين؟ أشارت الممرضة بيدها إلى لوحة على الجدار.

أخذت دورا تكرر: لا يمكن أن يكون ما تقولونه الآن صحيحًا، لا يمكن.

- هذا ما حدث بالفعل. وقد رأيتها أنتِ أيضًا، عندما كنتِ هنا.

أخذت الممرضة تستدعي ما جرى في زيارتها الأخيرة لها. تعازينا، ولو كان لديك أي شيء تودين الاستفسار عنه، اتصلي غدًا بالطبيب!

مرة أخرى أغلقت الممرضة من خلفها الباب الذي استطاعت دورا بالكاد أن تضع قدمها في فتحته كي تَحُول دون إغلاقه.

- وأين هي؟

- من؟

- أين يرقد الجثمان؟ أين رفاتها؟

أُحرقت، يوجد قانون ينظم الأمر بالنسبة للأفراد الذين يعيشون بمفردهم وليس لديهم أقارب من الدرجة الأولى. ربما يمكنك استلام الجرَّة من المحرقة. تواصلي مع اللجنة القومية المحلية، بالتأكيد لديهم معلومات عن هذا الموضوع. وأبعدي قدمك هذه

عن الباب من فضلك، فأنا لا يمكن أن أظل هكذا أتحدث معك طوال اليوم!

سحبت دورا قدمها وقد غمرت كيانها موجة من الإحساس بالعجز. إلى هذا الحد لم تكن سورمينا تعني بالنسبة لهم أي شيء، ولا حتى أن يقوموا بعمل اتصال هاتفي واحد أخير بها، بـ دورا.

حدث هذا وهي في العام الواحد والعشرين من عمرها. ولم يكن لديها في ذلك الحين أية فكرة عما يجب عليها عمله، ولا إلى من تلجأ، ولمن تشكو. ماتت سورمينا، حتمًا كان ذلك سيحدث يومًا ما، وهي، دورا لم تكن تشك في ذلك بعدما رأتها آخر مرة في تلك الحالة المزرية. لكن ليس لهم أي حق في أن يحرقوا جثمانها. كان ينبغي أن يُقام لها، لـ سورمينا، قداس جنائزي يلتقي فيه كل أهالي كوبانيتسه ويقبضون على يدها مودعين إياها، وأن يمتد طابور المشيعين بطول القرية. أن يذهب معها الجميع إلى مثواها الأخير، أن يتحدث القس وتشرئب أعناق الصبية كي يروا ما إذا كانت هذه الساحرة ستطير من نعشها كما فعلت كل الساحرات من قبلها، وكانت آخرهم كراهولكا التي رأتها دورا بأم عينها. وكيف لا تفعل وقد أخذت سيقان حاملي النعش تلتف ببعضها من فرط العصبية وبتأثير جرعة الكحول الزائدة، التي كانوا يستهدفون منها التغلب على شعورهم بالخوف. بالتأكيد تعثروا، أقصد العم روخار أو بورجيت، أحد هؤلاء الذين كانوا في المقدمة تعثر وسقط النعش على الأرض بجوار القبر وطار غطاء النعش، وخرج نصف جسد كراهولكا من النعش وبقي متدليًا فوق الحفرة. وأخذت يداها المتصلبتان تميلان بعيدًا عن كتفيها. صرخ الجميع حينها من هول ما رأوا، وظلت الكوابيس تطارد أطفال هروزينكوف بما فيهم دورا لمدة شهر بعد تلك الحادثة.

لكنهم لا يريدون لسورمينا أن تُدفن بهذه الطريقة. بل إنهم لا يريدون أصلًا أن يُوارَى جسدها التراب. أحرقوا جثمانها واختفت معالم جسدها، وهو ما لم تكن سورمينا تريده بكل تأكيد. كان إيمانها بفكرة البعث قويًّا، كما أنه ليس بوسع أحد أن يقنع أهالي هروزينكوف بأنهم لن يعودوا من جديد ليحلوا بأجسادهم الأرضية. كانت تلك الفكرة بالنسبة لهم شديدة البديهية تمامًا كما كانوا يُخرجون المعطف من خزانة الثياب في الخريف ويتسللون بخفة داخله. كلهم يستطيعون فعل هذا، وسورمينا وحدها لا تستطيع أن تفعل.

ما زالت دورا حتى اليوم تشقى بتلك الفكرة.

كم كان محزنًا أن تُستبدَل الجنازة بمجرد جرة، ذلك الشيء الرمادي الصغير، الذي اختفى الرماد المتخلف من جسد سورمينا في تجويفه. كانت على يقين بأنهم لم يفكروا حتى في إقامة جنازة محدودة.

تُرى مَن يكون العراف مِن بين ذلك الحشد الذي التفَّ حول قبر سورمينا؟ كانت وجوه المُعَزين قد اختلطت في ذاكرتها ببعضها منذ زمن بعيد، كما أن دورا لم تكن حينها في حالة تسمح لها بسؤال من لا تعرفهم، من يكونون. كانت تعتقد بأنهم ربما كانوا أقاربهم من بعيد، أو بعضًا من أولئك الذين قدَّمت لهم سورمينا يومًا يد العون.

أخذت تتنهد وهي تضع تقرير العراف الخاص بما جرى في الجنازة فوق الكومة العالية من الوثائق التي انتهت من قراءتها.

لم يبقَ في تلك الكومة على اليمين سوى بضعة مستندات. أخذت تمر سريعًا على المحاضر الرسمية الخاصة بقضية تركة سورمينا، والتي كانت تعرفها، وكذلك خطاباتها التي كانت تفاوض فيها السلطات الرسمية للحصول على بيتهم الريفي المتهدم في بيدوفا، وأخذت تنحّي جانبًا ردودهم الرافضة. مرت بعينيها سريعًا على تلك المكاتبات، لم تكن ترغب في أن تتجرع من جديد ما استطاعت في الماضي ابتلاعه بصعوبة. حتى ذلك القليل الذي تبقى لهم بعد وفاة سورمينا، أخذوه وطرحوه عليهم للإيجار كما لو كانوا غرباء. في النهاية لم تحتمل المزيد، فتخطت بقية الوثائق لتصل إلى نهاية الملف.

279

الإدارة المحلية لأمن الدولة

أوهيرسكي هراديشتي، القسم الثالث

التقرير النهائي في قضية „تيريزيا سورمينا":

افتُتح ملف المواطنة التشيكوسلوفاكية رقم ب و- ك ت3 30987 في 10/09/1953:

سورمينا تيريزيا، مواليد 24/07/1910، مقيمة في 28 جيتكوفا، مقاطعة أوهيرسكي هراديشتي (أوهيرسكي برود سابقًا) بسبب ممارستها غير المشروعة لمهنة الطب، والتي تهدد حياة مواطني تشيكوسلوفاكيا، وذلك مقابل مبالغ مالية تتقاضاها بدون وجه حق، وتقوم من خلال أنشطتها بالاستيلاء على المال العام لجمهورية تشيكوسلوفاكيا وعلى أموال مواطنيها، وبذلك تكون قد ارتكبت فعلًا مُؤَثَّمًا طبقًا للمادة 221/1 من قانون العقوبات.

أثناء استلام نتائج التحقيقات من مكتب الأمن العام بـ أوهيرسكي برود تم التحقق من أن سورمينا هي نفس الشخص الذي بدأ تتبع نشاطه في الأعوام 1953-1945 في إطار العملية التي تحمل اسم „الساحرات". وفي إطار تلك العملية بدأ التحري عن الأشخاص المشتبه بممارستهم أنشطة داخلية عدائية واعتناقهم أفكارًا مُناهضة لجمهورية تشيكوسلوفاكيا الشعبية الديمقراطية، وذلك بسبب علاقتهم بالسلطات الألمانية المعادية أثناء الاحتلال بإيعاز خاص من الوحدة الوقائية[7]، والذين لم يتم التحقيق معهم كما ينبغي من قِبَل المحكمة الشعبية في عام 1945.

وفي إطار عملية الساحرات وجَّهت السلطات جهودها بالأساس نحو التحقق من شخصيات بعض الزوار السابقين والحاليين. وثبتَ أن هناك ما يدعو للريبة لوجود إمكانية لقيامهن بنقل معلومات إلى قوى معادية، وذلك في إطار شبكة العملاء التي تكونت من خلال أنشطة سورمينا وبقية الأفراد المنتمين لمجموعة الساحرات المُتحرَّى عنهن. وربما يتم ذلك عن طريق نقل المعلومات التي يقوم بإيصالها الأشخاص الوافدون إلى جيتكوفا من مختلف أنحاء الجمهورية لأجانب يُفترض فيهم إمكانية أن يكونوا أعضاء في خلية استخباراتية معادية. ومن بين الزوار في النهاية تم تحديد شخصية دبلوماسية تابعة للهيئة الدبلوماسية لجمهورية النمسا (زار جيتكوفا في عام 1948)، كما جاءت عدة زيارات من جمهورية المجر الشعبية (في الأعوام 1945- 1949)، ومن جمهورية بولندا الشعبية (في الأعوام 1950-1946)... إلخ، وللأسف لم نستطع أثناء العملية التوصل إلى معلومات موثوقة تتصل بموضوع لقاءات الأشخاص المتحرَّى عنهن مع المشتبه بقيامهم بأنشطة تخريبية؛ لأن المعلومات، عند تسليمها، تتسم بالسرية والشفوية؛ ولهذا السبب لم يكن ممكنًا التحقق منها (لم نتمكن من زرع أجهزة تنصت

7- منظمة تابعة للحزب النازي الألماني تأسست في عام 1925. وكانت تسمى شوتس شتافيل أو إس إس. ومهمتها حماية أدولف هتلر. في عام 1939 أصبحت وحدة شبه عسكرية تقوم بمهام بوليسية داخل إطار الحزب النازي. ومنذ عام 1945 أصبحت محظورة بسبب دورها الإجرامي في المحرقة.

داخل منازل المُتحرَّى عنهن). تم التحقق فقط من واحدة من المُتحرَّى عنهن واسمها الحركي „العرافة"، وقد أُدينت بسبب قيامها بنشر أخبار كاذبة تتعلق بقيادات الاتحاد السوفيتي وتشيكوسلوفاكيا من شأنها إثارة الذعر، وقد أفصحت عنها من خلال نبوءتها التي اعتمدت فيها على الشمع المصبوب (زعمت في نبوءتها قرب وفاة الرفيق ستالين والرفيق جوتفالد).

ونظرًا لعدم كفاية الأدلة المتعلقة بأنشطة المتحرَّى عنهن في فترة الاحتلال الألماني، وبالنظر إلى قيام المتحرَّى عنهن بالتضييق من نطاق أنشطتهن بعد انكشاف أمر „العرافة"، وأيضًا بسبب انقطاع زيارات الأجانب إلى جيتكوفا؛ توقفت التحقيقات في عام 1953.

وبعد شهر من التاريخ السابق ذكره بدأت التحقيقات بشأن بسورمينا، التي استمرت في ممارسة أنشطتها الرجعية المتعلقة بممارسة مهنة الطب بطريقة غير مشروعة.

لم نستطع إثبات صحة ما جاء ببعض تقارير اللجنة القومية المحلية – قسم صحة أوهيرسكي برود، التي سلطت الضوء على ممارسات سورمينا الاحتيالية حتى عام 1974، حين أخبرنا مصدرنا الذي كان يتعاون معنا بشكل نشط في عملية „الساحرات" واسمه الحركي „الساحرة"، بما فعلته سورمينا في إطار ما تقوم به من أنشطة أدت إلى وفاة الحالة التي أجرت لها عملية إجهاض غير مشروعة.

وعند مثول سورمينا للتحقيق بشأن هذه الحادثة، رفضت التعاون وأظهرت قدرًا عاليًا من العدوانية، لدرجة أن سلطات التحقيق ألمحت إلى أنها مختلَّة عقليًّا؛ ولهذا تمت إحالتها في آخر الأمر للعرض على المصحة النفسية العامة بـ كرومنيرشيجه. وثبت أن سورمينا تعاني من مرض نفسي تطور تدريجيًّا حتى توفيت على إثر سكتة قلبية في عام 1979.

نجحنا في الفترة من عام 1974 إلى 1979 في حجب الزيارات عن سورمينا باعتبارها حالة خاصة؛ كي لا تتمكن من متابعة أنشطتها التخريبية. ولذا نعتقد أن أي نشاط تخريبي للشخصية المرصودة قد توقف في عام 1974 وبشكل نهائي في عام 1979.

التقييم النهائي: تُعد تيريزيا سورمينا واحدة من الشخصيات صاحبة المواقف المعادية للنظام الاشتراكي، ويرجع السبب وراء صعوبة الكشف عن الأنشطة التي كانت تقوم بها، إلى أنها كانت تؤديها بطريقة شديدة الخصوصية مع الالتزام باتباع إجراءات أمنية متعددة الأشكال. ولهذا استغرق الأمر عدة سنوات لإثبات قيامها بهذا النشاط، لكن في النهايه تم

استئصالها بنجاح من المجتمع السليم، وهكذا حيل بينها وبين الاستمرار في الإضرار بالمجتمع التشيكوسلوفاكي. ولم تتمكن من نقل آرائها وأفكارها الرجعية وكذلك علاقتها بممارسة مهنة الطب من غير ذي صفة إلى الطفلين المحضونين لديها في الأعوام 1974-1966؛ لأنهما في ذلك الوقت كانا ما يزالان في سن الطفولة المبكر، ولهذا لم يدركا ماهية ما كانت سورمينا تمارسه من أنشطة ولم يتعلما منها تلك الممارسات. والآن تعمل دورا إديسوفا بائعة بسوق تسيل للأدوات الرياضة في برنو، حيث نقلت محل إقامتهما لتكون قريبة من أخيها يعقوب إيديس المقيم بمؤسسة برنو - خيرليتسه للشباب المعاقين ذهنيًا، وهي تعيش حياتها في سكينة وهدوء. وقد تأكدنا من عدم خطورتها أثناء سير القضية التي من أجلها تم رصد تحركات سورمينا؛ ولذلك توقفنا عن مراقبتها.

وهكذا يمكن القول بأن قضية العدو الداخلي „سورمينا" قد انتهت بنجاح، ولذلك أتقدم بـ:

اقتراح بإيداع الملف رقم ب و- ك ت3 30987 دار محفوظات اللجنة المحلية

الموظف المختص: ي. شفانتس

في 15/07/1979

قضية "الساحرات"

وضعت الوثيقة الأخيرة على ظهرها على سطح المكتب بعد أن انتهت من قراءتها، فأخذت الحروف البارزة على ظهر الوثيقة تتلألأ. أما دورا فكان يعتريها الحزن كما لو كانت نهاية سورمينا تعاد كتابتها الآن من جديد، وإن كانت هذه المرة بشكل مختلف.

لكنها من ناحية أخرى كانت سعيدة. فقد فاض بها الكيل من كل تلك التقارير والأخبار الملفقة التي ليس لها آخر، ومن كل هذه المعلومات الجديدة الخاصة بحياة سورمينا بداية من أبنائها وانتهاءً بملف „الساحرات". ثم من هي تلك العرافة، من هي الساحرة؟

كانت تمر بأصابعها على الحروف البارزة على ظهر الصفحة الأخيرة وهي غارقة في أفكارها.

والآن لم يتبقى سوى الاطلاع على ملف أزرق نصف خاوٍ يحمل عنوان *قضية الساحرات* (وهي مقتطفات وثيقة الصلة بقضية سورمينا) ويوجد في آخر المجلد وقد حُفظت أوراقه بمشبك مكتبي. مدت يدها تجذبه في حركة بطيئة يملؤها الإعياء، ثم فردت سطح الطاولة لتسكب فوقه بعد ذلك بعض قصاصات الجرائد وعدة أوراق كُتبت بخط اليد أو بالآلة الكاتبة، وراحت تمر بعينيها سريعًا على قصاصات الجرائد، حتى علقت بأصابعها تلك القصاصة الأخيرة.

كانت تلك قصاصة من جريدة يتصدرها عنوان „ساحرات جيتكوفا"، وتظهر فيها صورة لساحرتين إحداهما هي أنَّا ستروهاروفا والأخرى ماريا ماهدالكا.

هكذا إذن كانت تبدو والدة إيرما، الساحرة والقابلة الشهيرة أنَّا ستروهاروفا، والتي كتب المحرر اسمها خطأً. لكن من كان يهتم بذلك في هذا التوقيت؟ ثم إن أنَّا نفسها لم تكن تعرف كيف يُكتب اسمها بالضبط، من يدري إن كانت أصلًا تعرف القراءة والكتابة؟ وأخذت تتأمل تفاصيل وجهها المليء بالتجاعيد. وعلى الرغم من عدم الثقة التي تملكتها إزاء عدسة المصور المجهول، إلا أنها كانت ترى أنها تفيض برهافة الحس والتمييز. وقد كانت أنَّا ستروهاروفا تمامًا مثل ابنتها إيرما محلًا لثقتها.

أما ملامح المرأة الثانية التي تظهر في الصورة، ماريا ماهدالكا، فقد كانت تعرفها. كانت في طفولتها تراها أحيانًا في أيام الأحد بالكنيسة. وعلى الرغم من أنها من سكان الجانب السلوفاكي، من بوتوتشنا، إلا أنها كانت تتردد على كنيسة هروزينكوف؛ لأنها كانت الأقرب إليها. وكانت معتادة الجلوس مع جميع أفراد عائلتها في الصفوف الأخيرة. تتذكر دورا قامتها النحيلة والضجيج الذي كان يحدثه أبناؤها فيشوشون به على صلاة القداس. كما تذكر عينيها الداكنتين الثاقبتين. وعندما كانت تمر من جانبها بالصدفة، كان ينتابها شعور بأنها تسخر منها، فكانت دورا تقول لنفسها دائمًا، وكانت مقتنعة بما تقول، إن هذه الساحرة الغريبة ليس لديها أي سبب يجعلها تسخر منها. انتقلت من الصور إلى أسطر المقال، وأثناء قراءتها لها ضحكت من إشارتها إلى السحر الأسود، وراحت تذكر كيف حكى لها ذات مرة أحد الجيران أنهم عندما كانوا صبية تجسسوا على إحدى الساحرات، فاندفع بعدها، بمجرد خروج العميل من عندها، من مدخنة بيتها شيطان، كان يتلألأ ويصدر شررًا حتى صرنا نتعجب حينها أن رءوس الصبية لم تصطك ببعضها وهم يفرون من أمام بيتها.

ذلك هو السحر الأسود!

وضعت دورا المقال والتقطت قصاصة أخرى، وكانت عبارة عن مخطوطة قديمة كُتبت عليها ملحوظة:

مراجعة:

قسم محفوظات متحف مورافيا المحلي - برنو: البوليس السري الألماني (الجيستابو)، المرجع ب-340 (البوليس السري النازي بـ زلين)

دار المحفوظات القومية السلوفاكية - براتيسلافا: البوليس السري الألماني، المرجع ن س-42 (مقر أمن الدولة بـ برسبورج)

1) نشاط الساحرات في الفترة: 1939- 1945

2) توجهاتهن السياسية بعد الحرب، بشكل أساسي علاقتهن بالفاشية والرأسمالية البرجوازية.

هزت دورا رأسها: مرة أخرى ذلك الربط غير المنطقي بين الساحرات وسياسات حكومة الوصاية والاحتلال. أحقًا كانوا يعتقدون ذلك أم أنهم كانوا يحتاجون ذريعة يتعقبون على أثرها آثار الساحرات؟

لا تتذكر دورا أن سورمينا سألت يومًا زوراها، من هم، وما هي جنسياتهم أو قناعاتهم السياسية. لم تكن تهتم بشيء من هذا، فهي بالكاد كانت تعرف اسم الرؤساء الذين حكموا في زمانها، أما الحكومة ومن يديرها، فلم تكن تعرف عن ذلك شيئًا بالمرة. وأما السبب وراء ذلك فهو أنها لم تكن تحتاج إلى تلك المعرفة في عملها، فعندما يأتيها أحدهم وهو في ضيق، كانت تقدم له يد العون بغض النظر عن كونه تشيكيًا أو ألمانيًا، سوفاكيًا أو مجريًا. وتستطيع دورا أن تقسم على أنه لم يحدث بين سورمينا وبين زوارها أي شيء آخر سوى تلقي العلاج، سواء أثناء الحرب أو بعدها. لذلك فإن التهمة الموجهة إلى سورمينا بالتعاون مع شبكات مخابراتية معادية، والتي أتى ذكرها في التقرير النهائي، كانت تبدو بالنسبة لدورا مغلوطة تمامًا. ولو لم تقع عيناها على تلك التهمة، لما صدقت مطلقًا أن مثل هذا التلفيق يمكن أن يجد له أي سند واقعي. إلا أنه وجده وقامت على أساسة قضية „الساحرات" تحت إشراف الموظف المتصلب فكريًا، وآتت ثمارها كذلك في قضية تعقب سورمينا.

أخذ موظف الأرشيف الشاب يتفقد غرفة القراءة بعناية، وينحني على أجهزة الكمبيوتر في زاوية الغرفة فيغلقها الواحد تلو الآخر. ومرة أخرى اقترب موعد إغلاق دار المحفوظات.

أعادت دورا المقال وقصاصة الورق والمخطوطة المدون عليها الملحوظة إلى الملف كما أخذت تعيد إليه بالتدريج عدة وثائق أخرى، ملاحظات دوَّنها صحفي ذهب إلى سورمينا لعمل ريبورتاج، وتقريرًا من عدة صفحات. وكان آخر ما وصلت يدها إليه هو نسخة مصورة من وثيقة خاصة – كان ذلك خطابًا حكوميًا كُتب باللغة الألمانية تم إرساله إلى رجال شرطة الاحتلال على الحدود. كان يتعلق بإحدى الساحرات، يوسيفينا ماهدالكا، التي تذكرت دورا قبل قليل كيف كانت تبدو. إلا أن ما أثار اهتمام دورا بهذه الخطاب كان شيئًا آخر، كانت تحدق متعجبة في لقب المرأة: سورمينا. ثم أخذت عيناها تجري على السطور:

الموضوع: يوسيفينا ماهدالكا، لقب الميلاد سورمينا، ولدت في 20/09/1893 بـ جيتكوفا، محكمة بويكوفيتسه، محل الإقامة 269 درايتوم، بوتوتشنا، ساحرة:

طبقًا للمعلومات المتوافرة لدينا بحكم الخبرة، فإن المذكورة أعلاه معروفة باسم „الساحرة" في المنطقة الواقعة على الحدود بين سلوفاكيا ومنطقة الوصاية، ويسميها المواطنون „العرافة" أو „الساحرة".

معروف عن ماهدالكا أنها تقوم بعمل ما يُعرف بـ"تعويذة الموت". وقد أرسلوا إليها في إحدى الحالات التي عملت عليها رسالة مجهولة بها خصلات من شعر مجعد لفتاة مع وعد بمكافأة سخية ورجاء من صاحبة الخطاب بالتخلص من الفتاة، أي أنها ترغب في موتها.

ونظرًا لأن بيت عائلة ماهدالكا يقع بضيعة بوتوتشنا بالقرب من الحدود مع منطقة الوصاية الألمانية، فإن ثمة خطورة من أن تقوم ماهدالكا بممارسة نشاطها داخل أراضي منطقة الوصاية. لذا يُرجى اتخاذ ما يلزم من إجراءات لمنعها من ذلك في حالة وصول نشاطها لأراضي منطقة الوصاية والتدخل السياسي والشرطي الجاد.

عندما كانت دورا تقلب الخطاب لترى ما كتب على ظهره، قطع صوت جاد الصمت في غرفة القراءة.

- بقيت خمس دقائق على الإغلاق!

أخذت دورا تنظر بعصبية إلى الساعة المعلقة على الجدار. حقًّا، لم يتبقَّ لها سوى خمس دقائق. وبسرعة انكبَّت على قراءة الأسطر المتبقية من نص الخطاب.

قمنا بإطلاع إدارة معهد أهنين إرب التابع للوحدات الخاصة المسئولة عن ملف الساحرات على أنشطة المدعوة ماهدالكا، فقامت الوحدة بدورها بإجراء بحث شمل أراضي دولة سلوفاكيا، وطلبت منا إبلاغها بالحالات المماثلة. توقعوا بالتالي في الأيام المقبلة زيارة من القيادة في

مهمة خاصة.

المفتش العام: إيجناس مايلك

مقر أمن الدولة في بورسبرج

عندما انتهت دورا من قراءة الخطاب أخذت تنظر إليه متعجبة. وهنا بدأت تدرك: هكذا إذن تمكنت الساحرات من التواجد على مقربة من رجال الوحدات الخاصة. ثم إذا ما كانت تلك القيادة الخاصة قد وصلت بالفعل، فإن تعقب أمن الدولة لساحرات جيتكوفا بسبب علاقتهن بالألمان، وقضية ,,الساحرات" برمتها لم تكن محض افتراء!

قطع سعال موظف الأرشيف المتعجل أفكارها، فقامت بإعادة الخطاب إلى مكانه بالملف في تردد. أخذت الأفكار تعصف برأسها. ما مغزى ذلك الخطاب؟ لا يوجد به ما يدل على أن سورمينا كانت تتعاون مع المُحتل، فالمَعنية بالخطاب كانت ساحرة أخرى. لكن لماذا وُضع هذا الخطاب في ملفها؟ أيكون ذلك بسبب لقب عائلة ماهدالكا، سورمينا؟

أخذت تفكر قليلًا، ماذا تفعل؟ لكنها حسمت أمرها بعد ذلك، فنهضت مسرعة وأخذت تطرق النافذة التي يجلس خلفها موظف الأرشيف في مكتبه، وفي يدها المجلد والملف الأزرق، ثم قالت وهي تنظر إليه متوسلة عندما كانت تعطيه الملف وتضع في نفس الوقت المجلد على رف الملفات المرتجعة بعد الاستعارة: هل تسمح بنسخ صورة من هذا؟ إنها مجرد بضع صفحات، ولا أريد أن أتجشم عناء السفر من برنو من أجلها، تفهمني بالطبع...

أخذ الموظف يتلفت حوله في تردد. غير مسموح بعمل نسخ من الملفات الشخصية. لكنه بعدها أشار بيده قائلًا: هاتيه، فلن يطلق عليَّ أحدهم النار من أجل بضع وريقات.

أرسلت الإضاءة تحت غطاء ماكينة التصوير وميضها في وجهيهما أربع مرات. وكانت الساعة تشير إلى دقيقة واحدة بعد تمام الخامسة، عندما انطلقت لتهبط السُّلم الحلزوني، ثم تركض حول البستان لتلحق بالقطار المتجه إلى برنو.

الجزء الثاني

لا يستطيع أحد أن يتخيل ذلك الإحساس بالعجز، حينما لا يعرف الإنسان إلى أين ذهب أقرب المقربين إليه. خرجت سورمينا في ذلك اليوم من شهر يونيو عام 1974 ولم تعد، ثم أخذوا يعقوب، ورفض الجميع رفضًا باتًّا إعطاءها أية معلومة مفيدة عنهما. وذهبت كل محاولاتها هباءً أمام حاجز صمت المربيات. وعبثًا حاولت التواصل مع اللجنة القومية بـ جيتكوفا. كما ذهبت محاولاتها إجبار باجلاركا على أن تخبرها بمكانهما سدى، وذلك من خلال رسائلها اليائسة إليها. فلم ترد يومًا على رسائلها، أو ربما كان موظفو الاستقبال في السكن الداخلي يحجبون عنها تلك الرسائل. ولم تكن لتستغرب ذلك عليهم.

في البداية كان الامر أسوأ بكثير من قدرتها على التخيل في أي وقت مضي.

حبسوها في غرفة ضخمة داخل جدران خضراء شاحبة مدهونة بطلاء لامع وفيها ثمانية أَسِرَّة مبيت حديدية متعددة الطوابق تخترق أرجلها المتهالكة الأرضية الحجرية، وست عشرة خزانة معدنية، كان ما يخصها منها هي الخزانة قبل الأخيرة في الصف. وكان يوجد بتلك الخزانة الصغيرة رفان علويان وآخران سفليان، أما أبوابها فكانت مقشرة الطلاء يتدلى منها قفل فيه مفتاح. وكان عليها أن تُحشر فيها بقايا حياتها.

وضعت في قاع الخزانة المعدنية حقيبة واحدة استطاعت أن تجمع فيها أشياءها تحت بصر الشرطي وموظفة الشئون الاجتماعية المتعجلين. أُغلق باب الخزانة على ممتلكاتها المتواضعة محدثًا صريرًا. وفي هذه اللحظة كان هناك خمسة عشر زوجًا من العيون الباردة تحدق بها من خلفها.

نامت باكية. أخذت تنتحب تحت غطاء خشن الملمس به علامات زرقاء على الحواف وهي العلامة المميزة لأثاث الدار، وبقية الفتيات يصفرن في وجهها ويشتمنها حتى جاءت المربية المسئولة عن الفترة المسائية. كان اسمها هيرتونيوفا، وكانت هي من جعلتها تُقلع بسرعة عن البكاء ليلًا. فكانت تقوم بإخراج دورا إلى الردهة التي يغمرها الضوء المنبعث من وميض مصباح الفلوريسنت الأبيض وتتركها تقف هناك، أول مرة

لمدة ساعة، وفي الثانية ساعتين، وآخر مرة حتى الصباح. والويل لها إن هي اتكأت على الجدار.

لم تكن تعرف حينها لِمَ استحقت منها كل هذا العداء. لكنها، دورا، دائمًا كانت هي من يلفت انتباهها ويثير غضبها. كانت دورا في زوبعة الحيف والظلم تلك تجاهد لمجرد الاحتفاظ باحترام الذات، وكان جهادها يبدأ مباشرة منذ الصباح.

وقد اعتادت هيرتونيوفا أن تذهب لإيقاظهم قبل أن يرن جرس المنبه بثوانٍ، وكانت تجعله يطلق صفيره بجوارها مباشرة. فتفتح باب حجرتهم، وتتسحب على أطراف أصابعها إلى حيث يوجد سريرها ثم تسحب من فوقها الغطاء بكل عنف وهي ما تزال نائمة. ولم تكن تنسى قط أن تُسمعها ما لا ترضى من القول عن الرائحة الكريهة التي خلفتها دورا وراءها، عن الطريقة التي تنام بها، وبشكل أساسي عما كانت تفعله أثناء الليل. كانت تصرخ فيها، وهي بعد لم تستفق من نومها، فتجعل منها أضحوكة أمام الأخريات. وكانت هي تحاول التفكير في كيفية الرد عليها، لكنها في البداية لم تكن تفهم ما كانت تقوله المربية. ثم فهمت، وإن كان ذلك قد استغرق منها وقتًا طويلًا، فهمت أنها كانت تقصد التنهد والأنين الذي كان يصدر بالليل من أسِرَّة الفتيات الأكبر سنًّا، واستغرق منها الأمر وقتًا أطول كي تدرك أسبابه.

كانت تعبث بخزانة ملابسها، فتأخذ منها الفوط الصحية وتضع مكانها قطع القطن العادية، ثم تعاقبها لأنها لطخت الملاءة بالدماء. لم تكن دورا في ذلك الحين تعرف ما الذي جعلها تحبسها في الحمام وتصيبها بالذعر عندما تطفئ الأنوار. ثم ما أدى بها إلى أن ترفع عنها قميص النوم لتفحص عضوها التناسلي ومقعدتها، لتتأكد من نظافتها الشخصية، وعندما كانت تظن أنها ليست على المستوى المطلوب، كانت تدفع بها إلى الحمام مرة أخرى لتضخ عليها ماءً باردًا كالثلج إلى أن يزرقَّ جسدها بالكامل من شدة البرودة. ولم تكن تعلم لماذا كانت هيرتونيوفا تستثمر كل ما كان يحدث طوال تلك السنوات التي قضتها بالسكن الداخلي لتحوله ضدها. مثلًا عندما جاء لـ أنَّا سولارشوفا طرد، ثم اختفى في اليوم التالي من خزانتها، اتُّهمت هي بأنها من فعلت. وعندما اختفى حذاء لينكا ريبارشوفا الرياضي الذي أرسله لها والداها من كندا، تحملت كذلك وزر تلك الفعلة، كما أنها هي وليس أي أحد غيرها من سرق نقود مايكا.

كانت في ذلك الوقت تعتقد أن السبب وراء كل ما يحدث هو أنها تخالف قواعد الدار لكونها كانت ترفض أن تلعب معهن لعبة السيد والتابع. أو لأنها أيضًا واحدة من الفتيات القليلات اللاتي تبقين بالدار في عطلة نهاية الأسبوع في حين تعود معظم الفتيات الأخريات إلى منازلهن.

واليوم بعدما اطلعت على محتويات ملف سورمينا، عرفت لماذا صارت هي بالذات الشرارة التي تثير غضب تلك السيدات البدائيات اللواتي كان يُوكل إليهن مساعدتها حتى تصل إلى سن البلوغ. كان ذلك بسبب رسالة في حافظة الأوراق تحمل رقم 82 حُفرت في ذاكرتها إلى حد أنها تستطيع أن تردد محتواها ولو في منتصف الليل „عليكم باتباع طريقة خاصة في تربيتها"، هذا ما كتبه شفانتس حينها، فاتبعت المربيات أوامره؛ لذلك كان ما كان من أمرهم معها.

وخلال تلك السنوات تعلمت حتى العراك. لم تكن الفتيات بعد إطفاء الأنوار يتركن ما نُسب إليها من خطايا يمر هكذا مرور الكرام. وهي تعرف تمامًا لماذا لم تكن أي من المربيات تأتي في مثل تلك الليالي مهما بلغت حدة الشجار. تعرف تمامًا لماذا كن يوقظنها من نومها بتلك الابتسامة الخبيثة: أما زلت تعانين؟

نعم كانت تعاني الكثير والكثير، ولذلك أيضًا هربت إلى بلدتها، جيتكوفا. لكنها لم تجنِ من وراء ذلك خيرًا. قضت بضعة أيام مختبئة في بيتهم أو كانت تتسكع في محيطه، إلا أنها بمرور الأيام كانت تشعر بالضياع أكثر وأكثر. لم يكن لديها من تلجأ اليه، كما أن الخوف من الوحدة التي ليس لها حدود مع عدم وجود آفاق واضحة للمستقبل كان يصيبها بالذعر أكثر وأكثر. كما أنها لم تجد ما تأكله، حتى إنها في النهاية لم تكن مستاءة عندما أمسك بها في مكتبه ذلك المسئول، الذي سعت إليه كي تعرف منه شيئًا عن سورمينا ويعقوب، وأمر بإعادتها إلى الدار. وبعد ذلك حرَّموا عليها كل شيء لمدة ستة أشهر. كانوا يصطحبونها من وإلى المدرسة كما لو كانت سجينة. فتخلت عن الجهاد، بل لم تعد ترى له داعيًا، لِمَ الكفاح؟ ولماذ أساسًا تحيى؟ وهكذا توقفت عن مقاومتهم واستسلمت لقدرها كالشاة.

وبدأت في فترة ما في ذلك الوقت تكتب يومياتها، حيث لم يكن لديها من تلجأ إليه، وكان ذلك الفراغ اللانهائي والوحدة يثقلان كاهلها، فلم تعد تطيق أن تحملهما بداخلها.

كان الورق في هذا الإطار مثاليًّا، فقد كان يستوعب كل آلامها، ولم يكن يتضرر من تكرار ذات الشكوى دائمًا. كانت تشعر تجاهه بحب يصل إلى حد الارتباط الجسدي؛ لذلك أصيبت بصدمة عنيفة عندما أخذوه منها.

هل كانت تترك خزانة ثيابها مفتوحة، أم أنهم هم من كانوا يقومون بانتزاع القفل؟ هل كانت المربيات يعبثن بيومياتها، عندما تكون بالمدرسة، ويلقين به في الحجرة، أم كانت إحدى الفتيات هي من تقوم بإخراجه؟ المؤكد هو أنها عندما دخلت ذات مرة إلى الحجرة، وجدت الفتيات كلهن منحنيات فوق صفحات مذكراتها، ولم يتبقَّ لها منها سوى الغلاف الخارجي. فككوها صفحة تلو الأخرى وأخذت تلك الصفحات تدور لفترة طويلة من حجرة إلى حجرة، وكانت تلك اليوميات تحوي أشياء مروِّعة، عنها، عنهن، عما كان يعجبها في إحداهن، وما كان يجذبها نحو الأخرى. دونت فيه أفكارها ومخاوفها التي كانت تشقى بها والتي اختلط فيها الأسود بالأبيض. ولم تكن تعرف ما إذا كانت مخاوفها تلك طبيعية.

كان في مقدورها التغاضي عن الغضب والازدراء. إلا أن السخرية كانت تحرقها كالملح فوق جُرح مفتوح يزداد عمقًا واتساعًا كلما أطلقوا عليها أحد الألقاب الجديدة. يالها من فتاة شاذة! رجولية! لوطية! مثلية! وكانت المربيات ترددها مصحوبة بابتسامة خبيثة.

لكن ما دامت دار رعاية القاصرات هي المكان الوحيد الآمن بالنسبة لها، فلن تجد مكانًا غيره يمكنها أن تخفي فيه يومياتها؛ لذا لم تكتب بعدها سطرًا واحدًا. وكل ما كانت تحتاج لقوله، كانت تدفنه في أعماق نفسها فيما بقي لها من شهور وسنوات هناك.

لكنها في المقابل وجدت لنفسها متنفسًا آخر. كانت تسرق وتدمر أثاث الدار والأشياء الخاصة بالفتيات الأخريات أو حتى المربيات، وهو ما كانت تفضله. ولم تكن تفعل ذلك في البداية إلا نادرًا، ثم نشطت كثيرًا في هذا الاتجاه كلما مر الوقت. أي أنها بدأت تفعل كل ما كانوا يلصقونه بها من اتهامات من قبل. وكانت بعدها تتابع هذه الأشياء بسعادة وهي تحترق داخل سلة المهملات والجميع من حولها يركضون ويصرخون كما لو كان السقف هو الذي يحترق وليست السلة.

أحرقت الكثير من الأشياء، ومزقت أشياء أخرى أو خرقتها أو سقطت منها عن غير قصد، على سبيل المثال عندما حطمت تمثال كومينيوس بالقرب من هرتونيوفا فراحت تلك الأخيرة تهرول مع رفيقاتها إلى أسفل الدار وهن يلهثن. ولم يستطعن إثبات أنها فعلت ذلك عن عمد، كما لم يستطعن الايقاع بها إلا عندما كانت تفسد تلك المصابيح التافهة، فصفعنها على وجهها، وكنَّ على حق. وكانت هي من قام بسد الأحواض بالفوط وإغراق الحمامات وغرفة الطعام من تحتها حتى كدن يبعثن بها حينها إلى الطبيب لتشخيص حالتها، ولكنها لم تكن تأبه لذلك. لم يكن يعنيها إلا شيء واحد، وهو ألَّا يمسكوا بها متلبسة بأحد هذه الأفعال، فهذا هو ما لم تكن تحتمله.

وكانت إذا ما حدث ذلك تعاقب نفسها بطريقة تفوق طرق العقاب المألوفة حينها، وذلك لأنها أعطتهم الفرصة كي يوقعوا بها. لم تكن تلجأ إلى تعصيب ساعدها بأستيك اليد حتى تصير زرقاء، ولا البقاء طوال الليل بلا نوم، ولا بابتلاع البصاق، ولا الاغتسال بالماء المثلج لمدة ربع ساعة، ولا التجويع. لا شيء من ذلك. ولكنها كانت تجرح نفسها ثلاثة جروح على شكل حرف إتش، جرح رأسي، وآخر أفقي، وثالث رأسي: حرف إتش لأنها كانت مغفلة عندما تركتهن يمسكن بها، وحرف إتش آخر لأنها كانت غبية وتركتها تمسك بها وتحتجزها فصارت في قبضتها هي بالذات، وإتش ثالثة من أجل هرتونيوفا التي لم تكن تتركها تغيب عن ناظريها فكانت بذلك تزعجها أيما إزعاج. كان يكفيها البقاء مساءً في دورة المياه تضع كعب إحدى قدميها فوق ركبة رجلها الثانية وتحفر جلد فخذها بالمبرد محدثة خطًا رأسيًا وآخر أفقيًا وثالث رأسيًا. ومع الدماء التي كانت تتساقط في قاع حوض الماء كانت تتخلص من الشعور بالغضب من الذات ومن الآخرين لبعض الوقت. الغضب من كل أولئك الذين غابوا عن المشهد – من أمها.

وخلال تلك السنوات الطوال التي قضتها بالدار، والتي كانت تبغض فيها الكون بأسره، كانت تتذكرها أكثر من ذلك الوقت الذي كانت تعيش فيه مع سورمينا. وراحت تتخيل مرات ومرات كيف كان الأمر عندما اخترق نصل البلطة الحادة جمجمة المرأة التي أحبتها حبًا جمًّا، والتي كانت تتنفس من أجلها، وكانت مستعدة أن تفعل من أجلها أي شيء، إلا أنها لم تفعل شيئًا من أجلهم، ولم تحمِهم كي لا يحدث لهم ما حدث. كانت على يقين من أنه إذا كان لأحد أن يتحمل وزر المصير الذي انتهوا إليه، فلن يكون أحدًا سواها.

لم تعرف إيرينا في حياتها سوى الشقاء.

كانت شمس الظهيرة تسطع فوق التلال، والظلال تضيع تحت الأقدام، والجو يشع حرارة، ولا يكدر سكون الفضاء الواسع سوى نقيق الصراصير الدءوبة وتغريد القُبَّرة الذي لا يقاوم. وكانت دورا حينها، في آخر أيام الدراسة في شهر يونيو الرهيب، الذي لم يبقَ لها فيه من عائلتها سوى أشلاء، عادت مسرعة تحمل شهادتها. ربما نسيت أن تقول لسورمينا، ربما نسيت سورمينا. لم يأتِ إليها أحد إلى أسفل التل، فأخذت هي تركض إلى أعلى وحدها، وعثرت عليهم داخل المطبخ حيث لجئوا إلى ظله بعيدًا عن الحر. وقبل أن تدخل توقفت بالقرب من النافذة، حيث وصل إلى سمعها حديث يدور بين اثنين. هل كانوا حقًا يتحدثون عن أمها؟

– لم تكن صبورة. رفضت أن تتعلم، كما لو كانت لا تحتاج للعلم. كانت واثقة من نفسها لدرجة أنها لم تكن تسمع لأمها كلمة. كانت تزعم أنها ليست مضطرة إلى ذلك. كانت لديها إرادتها المستقلة، وكان لديها آخرون تأخذ بمشورتهم، تعرفين ذلك.

ومن داخل المطبخ جاء صوت صرير الكرسي وهو يزاح لعدة خطوات بعيدًا عن الطاولة وجلجلة المجرفة وهي تصطك بدلو من الألومينيوم به ماء من البئر.

– اشربي، فالجو حار.

سمعت صوت امرأة تقول بصوت خفيض: كنت أخاف إيرينا عندما كنت طفلة. كانت تخيفني بما كانت تأتي به من أفعال غير متوقعة. لم يكن أحد يعرف قط ما الذي يدور برأسها وكيف ستصل إليه، فهي تارة ودودة عطوفة وتارة أخرى همجية متوحشة. ثم قصة هؤلاء الملائكة، إلى اليوم لم أستطع أن أستوعب هذا.

ردت سورمينا: نعم.

مرة أخرى تسمع صرير الكرسي.

– كانت تزعم أنها تستطيع أن تكلمهم.

- هل كنتِ تصدقينها؟

ساد الصمت قليلًا.

- نعم، كان فيها شيء غريب، وهذا الشيء تجاوز الحد، وهنا كانت تكمن صعوبة المشكلة. وأتصور أنها هي نفسها لم تكن تفهم نفسها. وكان الأمر يبدو مقبولًا عندما كانت تتكلم مع الملائكة، أما الأسوأ فكان عندما تبقى مع نفسها.

تساءل ذلك الصوت النسائي مرة أخرى في دهشة: وهل كنتِ تصدقينها؟

أخذت سورمينا تسعل، ثم قالت: كنت أصدقها. أقصد ما تعايشه سواء كان هؤلاء الذين تتكلم معهم ملائكة أو أي شيء آخر.

صرخت المرأة متعجبة، وعندها استطاعت دورا أن تميز من نبرة الصوت أن المتحدثة هي باجلاركا.

- ما هذا الذي تقولين؟ أعتقد أن إيرينا كان بها مسّ من جنون. أتذكرين عندما انتشر ذلك الخبر؟ كان الجميع يهمسون بأنها أصيبت بالجنون. تُكلم الملائكة! لقد جُنَّت، طاش عقلها، طار صوابها. وكاد القس يُجن. ما هذا الكفر؟!

تخيلت دورا شكل باجلاركا حينها وهي تتعوذ برسم الصليب.

- وظل لثلاثة أسابيع بعدها لا يتكلم في عظاته في إلا عن التواضع والعقيدة الحقة، ومنذ ذلك الحين لم يدعها وشأنها. فكم من مرة رأيته وهو يردد أقوالها من بعدها، وكانت هي تغادر باكية، وكانت تذهب للاعتراف كما لو كانت تُساق إلى الإعدام.

قالت سورمينا في تذمر: كان ذلك الرجل هو القس هوركا، أليس كذلك؟ كان موقفه صعبًا في ذلك الحين، لكنه اخطأ التصرف، فمهما كان من أمر إيرينا، لا يمكنه أن يصلح ذلك بالضغط والوعيد، كما لم يكن أبي على حق حين كان يكبلها بالحبال. لذا كان طبيعيًا أن تنطوي إيرينا على ذاتها.

لم يَرُقْ لـ باجلاركا ما كانت تسمع، لكن سورمينا تابعت حديثها:

- إلى الآن لا أعرف السبب، لكن كانت دائمًا بينها وبين أمي هوة عميقة. لا أعرف إن كانت قد بدأت قبل أن تتراءى الملائكة لـ إيرينا، وإن كنت أرجح ذلك. لم تكن

تسمع لأمي كلمة. كانت شاردة الذهن، مَلولة، لا تطيق جمع وتصنيف الأعشاب، لم يكن يعنيها شيء، ولم تكن ترغب في تعلم أي شيء. كان لها عالمها الخاص، ولم تكن تحتاج فيه لأحد، اللهم إلا الكلب الذي كان يوجد ببيتنا في ذلك الوقت، يسير معها عبر منحدرات التلال، وتجلس معه وتتحدث إليه بجوار شجرة الزيزفون القائمة عند التقاطع أو على الأحجار فوق قمة التل. كنا نعتقد حينها أنها تحادثه، إلى أن أفصحت هي فيما بعد عن أنها كانت تتحدث مع الملائكة. ربما ظنت أمي أن أبي والقس يمكنهما كبح جماحها من خلال الوعيد والضرب المبرح، وأنها ستعود إليها بعد ذلك مذعنة. لذا لم تتدخل في الأمر. لكن كل شيء انتهى إلى عكس ما أرادوا. خرجت إيرينا تمامًا عن نطاق السيطرة، ولم تكن تُرى هادئة إلا بعدما تعود من حديث الملائكة. حتى أنا لم أكن أفهمها.

أخذت تخبط بقعر الكوب الفارغ فوق الطاولة الخشبية.

- وبمرور الوقت ساء الحال، وخاصة بعد وفاة والدينا. كانت تركض خلف الشبان من بيت إلى بيت وتُمضي الليل بطوله خارج البيت، وكانت تأتي بأفعال شائنة في حفلات الرقص بالبلدة، ثم تعود في النهاية مع طلوع النهار. وعبثًا كنت أحاول ردها عن غيِّها. لم تكن تسمع لي بزعم أنها صارت كبيرة بالقدر الذي يسمح لها بأن تفعل ما تريد. وظننت وقتها بأنها ستضع لنا بالدار مولودها، ويعود بعدها كل شيء إلى ما كان عليه. ثم أُعلن زواجها في الأسبوع التالي، ولم أعرف بمَن إلا عندما أخبرني القس. صدقيني كنت أفضِّل مائة مرة أن تبقى معي في الدار بلا زواج من أن أعطيها لـ إيديس. إلا أن أحدًا لم يشاورني في الأمر. لكن على الأقل قاموا بإصلاح بيت لنا على التل المقابل كان والدنا قد تنازل عن ملكيته لـ إيرينا، وهكذا بقيا أمام عيني.

قالت باجلاركا: يا إلهي! لو فعلت معي بناتي مثلما فعلت هي لكنت قطعتهن إربًا. وبالذات إذا ما تزوجن برجل مثل ماتياش إيديس، فهذا وحده كان يكفي!

- نعم. أعتقد أنها كانت غلطة إيرينا الكبرى. وقد حاولت أن أثنيها عن عزمها، كما حاول الجميع معها، لكنها لم تكن تنصت لنصح أحد. ثم إني على ثقة من أن ملائكتها قد حاولوا إقناعها بتغيير رأيها، لكن حتى هؤلاء لم يفلحوا في ثنيها عن

موقفها. وربما كان ذلك هو السبب في انفضاضها عنهم ورفضها الحديث معهم، حيث تغير كل شيء منذ ذلك الوقت. وإذا ما كان لي أن أحكم من خلال زياراتها القليلة التي سمح لها بها إديس، فإن حياتها كانت أشبه بالسقوط إلى الهاوية. ولم يستطيعا حتى حماية أبنائهما من تلك الهاوية. ففقدت طفلها الأول وكذلك الثاني، ثم أنجبت بنتًا، دورا. وعندما ذهبتُ في اليوم التالي للولادة لتفقُّد أحوالهم والاطمئنان على أن أمورهم تسير على ما يرام، وجدت شفتيها مجروحتين ونصف وجهها متورم حتى إن عينها غاصت داخل هذا الورم فأصبحت لا تُرى. ضربها وهرب. ثم عاد بعد أربعة أيام. كان واضحًا أن إيرينا لم تكن لتستطيع تحمل ذلك العبء. وهل يوجد إنسان بوسعه تحمل ذلك التأرجح المستمر بين أساليب حياتية شاذة فرضتها معاشرة سكير. حتى ظهرها طويلًا حتى فقدت آخر ما تبقَّى لها من إرادة حرة، بل وحتى من عقل. كان بوسعه أن يضربها كيفما شاء، وأن يعود إلى البيت في حالة سُكر، وأن يخسر كل ما يملكون على طاولة القمار. وكانت هي تعرف أنها تدفع ثمن غلطتها. وأن ما حدث إنما حدث لأنها فاتتها أشياء، لم تفعلها، وأنها أفسدت حياتها. وأنها بالفعل أعطته طفلين، فتاة وطفلًا مخبولًا. كانت تذل نفسها أمامه، وتتصرف كالمجنونة، كالمخبولة. وكانت النهاية معروفة سلفًا.

أخذت دورا تلعق شفتيها الجافتين المتورمتين، وقد أحرقتها حرارة الظهيرة.

تنهدت باجلاركا قائلة: مسكينة إيرينا.

فردت سورمينا: بالفعل.. كان يجدر بأمي أن تمنحها مزيدًا من رعايتها عندما كانت صغيرة. لكنها لم يكن لديها وقت لتفعل. كانت تركض بين التلال لمعالجة المرضى، تارة تذهب إلى بيسكيدي، وأخرى إلى ترينتشين، أما نحن فقد أهملنا إيرينا بالمرة. كانت الأصغر بيننا، ولم تكن تستطيع أن تحسن ما يوكل إليها من عمل، وهكذا تركناها لحالها فوق المنحدرات. لكن من منا كان يمكنه أن يتخيل أن ينتهي أمرها بهذه الطريقة المأساوية؟ وحينما أدركنا ذلك، كان الأوان قد فات.

هل كانت تتخيل، أم أن باجلاركا بالفعل كانت بالفعل تشهق؟ هل كانت تبكي؟ ربما كانت هي، دورا، هي من كان يبكي. تبكي على إيرينا، على أمها التي لم تكن في حقيقة

الأمر تعرفها. فقد كانت في ذاكرتها شخصًا آخر. كانت جميلة، شديدة الجمال، وشعرها بني مجعد لا يكاد يبين من تحت القلنسوة والإيشارب المطرز. لكنها كانت غامضة. كانت حنونة تفيض حبًّا عندما كانت تركض معهم بالحجرة، وعندما تخرج معهم للتشمس، أو تكون معهم بالداخل مرة أخرى وسط ضجيج الأغاني، أو كانت على النقيض من ذلك عندما ينتابها غضب مفاجئ فتقذفهم بالأواني وتصرخ بعبارات لم تكن دورا تفهمها.

قولى لي بربك يا سورمينا، لماذا لم تحذريها؟ كان يكفي أن تسكبي الشمع وأن تشاهدا معًا ما ينتظرها، كان يمكنها أن تعيش! كانت بالتأكيد ستعيد حساباتها فيما يتعلق بـ إيديس، لو عرفَتْ ما سيحدث. كنتِ تستطيعين أن تفعلي، وأن تحافظي عليها من أجل أسرتها!

لم يصل إلى سمعهما من المطبخ رد.

- لا يمكن. لا تستطيع أي منا أن تفعل ذلك. فنحن لا نستطيع أن نطَّلع على أقدارنا وأقدار أفراد عائلاتنا. كما أن إيرينا لم تكن لتتقبل مني قراءة طالعها، فقد كانت هي الأخرى ساحرة.

- خسارة.

- لا شيء. هذا قدر مقدور. لم أكن أستطيع أن أَحُول بينها وبين قدرها، حتى لو كنت أعرف ما سيحدث لها. فقد خرجت عن المسار السليم في وقت مبكر جدًّا ولم تقدّر قيمة النعمة، مما تسبب في هلاكها. وجهت قدراتها ضد نفسها وليس خارجها، فكانت النهاية المحتومة. كان لا بد أن يحدث شيء ما. ولم يكن بملكنا أن نمنعه. لكن يمكنني أن أستدرك ذلك مع دورا. فربما تحمل بداخلها شيئًا من ذلك؛ لذلك سأحرص على أن تتعلم كيف تتعامل مع هذه المنحة. أو ربما أقنعها بأن ترفضها ولا تقبلها، فأنا لم أصل بعد إلى قرار نهائي.

عاد الصمت من جديد لبعض الوقت، ثم سمعت باجلاركا تتحدث من جديد.

- هل فكرتِ يومًا في هذا؟ تعرفين ما أردت قوله.. هل فكرت يومًا في علاقة ماهدالكا بـ إيرينا؟

لم تكد تتم كلامها حتى غطى على كلماتها الأخيرة الضجيج الذي أحدثه صوت ارتطام

كرسي على الأرض كما لو كان هناك شيء ما يحدث في الداخل، وفجأة سمعت دبيب خطوات على الأرض، ثم جاءها صوت يعقوب المذعور وكلمات سورمينا المتسارعة الغاضبة. وبدا واضحًا أن الحديث عن أمها قد انتهى.

لا تدري دورا إن كان ما سمعت هو ما قيل بالفعل، كما كانت تحاول أن تتذكره في وقت لاحق. فمن المحتمل جدًّا أن تكون قد رددته في ذاكرتها عدة مرات وفي كل مرة بشكل مختلف، وقد أضفى خيالها صورة جديدة على الصورة الحقيقية لأمها كما كانت تحتفظ بها في ذاكرتها. والمؤكد أنه كلما مر الوقت كانت ذكراها تتقلص بداخلها بحيث لم يبقَ منها سوى بقايا امرأة مجنونة كانت منذ طفولتها تعاني حديث النفس، امرأة تاهت داخل عالمها الخاص. وربما يقولون في نهاية المطاف إن هذا شيء وراثي ينتقل من جيل إلى جيل في عائلتهم وعلى رأس كل مائة عام يطفو على السطح في صورة شخص مجذوب، وإلّا فما هو تفسير وجود شخص مثل يعقوب؟ وكم كان عددهم من قبله؟ بالتأكيد يذكر الناس شخصيات أخرى حيث كانوا يقولون إن عائلتهم ضمت عددًا من النساء غريبات الأطوار، وكذلك العديد من الرجال المجاذيب. ويقال إن شقيقاتهم وأمهاتهم قمن بامتصاص قوتهم ثم حولوها بعد ذلك إلى فن السحر. أما في حالة والدتهم فقد التقى كل ما سبق، كانت غريبة الأطوار، ثم انتهى بها الحال بمس من جنون.

عثروا عليها، على دورا، أسفل نافذة المطبخ وهي تهذي بعد أن جف جلدها من شدة الحر والعطش وغُشي عليها. واستغرق الأمر ثلاثة أيام قبل أن تتغلب على ضربة الشمس التي أصيبت بها، وكانت سورمينا حينها تقول إنها لو بقيت هناك لبضع دقائق أخرى لاحترقت على عتبة الدار.

متجر السيد أوشتيبكا للكتب المستعملة

لا تدري كيف كان يمكن أن تمر الفترة التي قضتها بمؤسسة الرعاية بدون السيد أوشتيبكا والعالم الذي اكتشفته على يديه. إنه ذلك العالم الهادئ لمحل الكتب القديمة التي يغطيها التراب، القابع بالشارع الضيق المؤدي إلى المعبد اليهودي. منذ ذلك اليوم الذي دخلت فيه إليه وفر لها ملجأ سريًّا بعيدًا عن أعين المربيات. كانت تختبئ هناك يوميًّا لبضع ساعات بعد عودتها من المدرسة وقبل موعد العودة إلى المؤسسة.

لم يكن يتواجد هناك غيرهما. فقط هي والسيد أوشتيبكا. كان يجلس خلف طاولة مرتفعة اصطفت فوقها أكوام من الكتب القديمة وتناثرت عليها بقايا وجبته الخفيفة التي كان يلوكها في فمه دائمًا في الوقت الذي تأتي فيه. كانت ترى على المفرش المهترئ الملطخ بالدهون قطعًا من بقايا الطعام وقد غطى السلامي العادي أو المجري برائحته النفاذة الكريهة على رائحة التراب الناعم فوق الكتب القديمة.

في البداية كانت تحاول أن تدخل المحل دون أن يشعر بها أحد، وتحرص على ألَّا يُحدث باب المحل صريرًا، وتختبئ بين الرفوف التي تحمل الكتب دون أن ينتبه السيد أوشتيبكا إلى وجودها. كانت تخشى أن يطردها، وكيف لا وهي تجلس وتتصفح الكتب ثم لا تشتري منها شيئًا؟ لذلك الغرض جُعلت المكتبات وليس محلات الكتب القديمة. لكن أنَّى له أن يفعل! لم يكن السيد أوشتيبكا يبدي حرصًا على بيع الكتب، تمامًا كما كان يستوي لديه أن يأكل السلامي داخل ساندويش البيتبان أو أن يتوسط السلامي شريحتين من الخبز الأسمر. كل ما كان يعنيه هو العائد المادي. وإذا ما بقيت له كتبه الحبيبة فالخير يكون أعم. كان يتقاضى راتبه بانتظام حيث كانت يد السوق الاشتراكي سخية، ولم يكن هو يهتم بأكثر من هذا.

وقد أوضح لها كل ذلك فيما بعد، عندما أخذ ذات يوم يتجاذب معها أطراف الحديث الذي دعاها في نهايته إلى عالمه حتى ترى من منظوره كبائع كل ما يحويه المتجر المترب من ثراء. لم يَطُل الوقت كثيرًا حتى صارت تلك البقعة من الأرض خلف طاولة الكتب مملكتها هي أيضًا. كانت بعدها تجلس بانتظام على درجات السلالم الخشبية

السفلية خلف السيد أوشتيبكا تقرأ الكتب وتستمع إليه في سعادة عندما يبدأ في مضغ طعامه على مهل وفي هدوء.

وفي حين كان الطيران شغله الشاغل، المجال الذي من أجله كان يكدس بشغف شديد أعدادًا هائلة أسفل الطاولة من الكتب وكذلك المجلات المفككة التي تعج صفحاتها برسومات بالونات الهواء الساخن ومختلف أنواع الحوامات والطائرات، صارت دورا هي المتحكمة في منطقة الأرفف التي تحمل كتب الإثنوجرافيا. وبالرغم من أنه كان لديها دراية بالكثير من مجالات المعرفة، إلا أن دنيا الفنون والعادات الشعبية كانت هي ما يستهويها. كانت معجبة باستنساخ صور الأزياء الشعبية من قرى مورافيا القريبة والبعيدة، كما كان يدهشها اختلاف العادات من مكان لآخر. وقد تكدست في الكومة الخاصة بها كتب زيبرت، نيدرلي، أو فاتسلافك الذي كان السبب في استرجاعها لذكرياتها في جيتكوفا.

وكان السيد أوشتيبكا من وقت لآخر يُخرج من مكان ما كتابًا ويقول لها: إليك هذا الكتاب الذي يتكلم عن بلدتك. وكانت دورا تتناوله منه في سعادة. وهكذا وضع أمامها ذات يوم رزمة من الأوراق المفككة المغلفة بورق الجرائد محفوظة داخل حافظات أوراق اختفت حواشيها منذ أمد بعيد.

انظري، ساحرات جيتكوفا! قالها كما لو كان وجده بالصدفة، وابتسم لما رأى اللهفة الشديدة التي تلقفت بها دورا الكتاب.

بدأت دورا على الفور في قراءة مؤلَّف هوفر. وكانت تظهر استياءها مما ترى فيه من اساءة غير مبررة للساحرات اللائي كان الكاتب يسوّي معهن حساباته، كما كانت تبتسم في المواضع التي يظهر فيها شيء مميز تعرفه عن سكان كوبانيتسه. وكأنما كانت تربطها بهؤلاء الاشخاص جميعًا رجالهم ونسائهم علاقة حميمة. كانوا يتصرفون كما اعتادت هي التصرف، ويلبسون بالطريقة التي كانت تتمسك بها بعض سيدات القرية في ذلك الوقت، ويتكلمون بالطريقة التي كانوا حتى ذلك الوقت يتكلمون بها في جيتكوفا. وقبل أن تغادر كانت قد قرأت نصف الكتاب. وتلك كانت هي المرة الأولى التي تفتح فيها سحَّاب جيب النقود الصغير لتُعيد ترتيب قطع النقود الصغيرة أمام السيد أوشتيبكا، وأخذ هو يلوّح بيده، فكان ذلك أجمل ما استطاع أن يفعله من أجلها أحد طوال

تلك السنوات التي قضتها في بيت القاصرات بـ هراديشتي.

****

استمرت إقامتها الجبرية هناك ثلاث سنوات. في البداية لم تكن تتصور أن تطول تلك الفترة لأكثر من بضعة أيام، أو ربما أسابيع. ولم يكن يخطر لها أن تبقى حبيسة جدران المؤسسة حتى سن البلوغ، إلا أنها كانت مخطئة في ظنها. وبينما كانت تنتظر، مرت الأسابيع والشهور، وفي النهاية اجتازت الأسوار الحديدية لمبنى المؤسسة.

ما زالت تتذكر جيدًا تلك اللحظة. كان ذلك في اليوم قبل الأخير من شهر أكتوبر، عندما بلغت سن الرشد. يومها استيقظت علي صباح ملبَّد بالغيوم وهي تشعر وكأن ما فات لم يكن مجرد عدة سنوات كبيسة، بل قرنًا بأكمله. وعلى الرغم من أن عهد الطفولة بالنسبة لها قد انصرم بالتحديد في ذلك اليوم، إلا أنها كانت تشعر بأنها لم تعشه، وبأنه ابتعد عنها كثيرًا.

أشياء كثيرة تغيرت في ذلك اليوم. وكان انتهاء سطوة قانون المؤسسة الصارم هو أهم تلك المتغيرات. فجأة أصبحت شخصًا كامل الأهلية تمثل جدران المؤسسة بالنسبة له، حتى تنتهي من أداء امتحان الشهادة الثانوية، مجرد زمن مضى، وبعدها تتركها الدولة أخيرًا تواجه مصيرها بنفسها. لأول مرة لا يحسب عليها أحدهم الدقائق التي تأخرت فيها على موعد العشاء الجماعي، ولا يقوم بنفسه ليتأكد من وجودها أثناء العشاء. من اليوم لا توجد محظورات، ولن يملي عليها أحد ممنوعات أخرى جديدة. منذ يوم الأربعاء الذي وصلت فيه سن البلوغ ببساطة لم يعد لأحد سلطان عليها. كانت تنتظر يوم الجمعة بفارغ الصبر.

وصلت إلى جيتكوفا في أول حافلة بعد الظهر. صعدت متجهة نحو مبنى اللجنة القومية وقلبها يدق بعنف. وفي طريقها إلى هناك كانت تنظر إلى منحدرات التلال الواسعة التي جفت من فوقها الأعشاب وأخذت تعبث بها رياح الخريف، وإلى الغابات الكثيفة على التلال المقابلة، والمنازل المتناثرة عبر المنحدرات.

فقط لم يستطع بصرها أن يصل إلى بيتهم، بيت سورمينا، عبر قمة التل.

كانت عصبية؛ لأنه لم يعد يفصلها عن معرفة الحقيقة سوى دقائق معدودة. لم يعد

بوسعهم تجاهلها، لن يفعلوا، لن يحدث ما حدث في مرات عديدة من قبل، لن يرسلوها إلى مكان آخر، لن يقوموا بتحويلها إلى خط آخر ينتهي عند شخص ليس لديه أية معلومات يفيد بها. لن يستطيعوا أن يتملصوا منها بهز أكتافهم في حرج كانت تحسه حتى عبر الهاتف الذي كانت تثبته فوق أذنها بلا حول ولا قوة لمرات عديدة في السنوات الثلاث الأخيرة وهي محشورة داخل كابينة الاتصال بمكتب البريد.

- دورا، ربما تعرفين كل شيء عندما تبلغين. كررت جورتشيكوفا التي كانت تعمل باللجنة مرتين ذلك القول في نهاية إحدى المكالمات.

في تلك الجمعة بلغت سن الرشد. لديها تحدٌّ أكثر من أي وقت مضى. ولن يستطيع حتى زوج من الثيران إخراجها من هنا قبل أن تعرف مكان سورمينا ويعقوب. كانت تحدث نفسها قائلة: „ولا حتى زوج من الثيران" وهي تدق باب مكتب جورتشيكوفا ومن بعدها مباشرة تتجه نحو رئيس اللجنة، وبعد أقل من نصف ساعة خرجت من عنده مرة أخرى.

سألتها جورتشيكوفا وهي تجذب لها الكرسي كي تجلس وتشرب عصير الخِمَّان: ماذا حدث؟ هل عرفتِ ما كنتِ تودين معرفته؟

أومأت دورا برأسها.

لم تكن تتصور أنها بعد كل تلك المحاولات اليائسة والفاشلة ستعرف كل شيء دفعة واحدة دون أن تُضطر إلى صب الغضب المتراكم بداخلها، وبدون مشاجرات كانت قد أعدت عشرات الحجج للرد عليها. لم يكن عليها سوى أن تجلس وتنصت إلى رئيس اللجنة الذي كان على ما يبدو قد استعد جيدًا لمجيئها.

- لن أطيل عليك يا دورا، لم يكن أي منا يستحق ما جرى. وعلى كل حال يمكنك معرفة كل شيء في المحافظة أو على الأرجح في الوحدة المحلية أسفل التل. ولك أن تعلمي أن يعقوب موجود في مؤسسة للرعاية بـ برنو، وسورمينا في مصحة علاجية بـ كرومنيرشيجه. وأن منزليكما شاغران، لم يرغب الحي فيهما، فماذا عساه أن يفعل ببيتين خربين وسط الجبال؟ يمكنك الانتقال إلى أيهما شئتِ، وقد احتفظنا لك عندنا بالمفاتيح، خذيها.

لم تنطق دورا بكلمة واحدة. خرجت من الباب وجلست على الكرسي أمام جورتشيكوفا. ويدها تقبض في ارتباك على سلسلتي مفاتيح.

- تماسكي يا فتاة، شدي حيلك وتماسكي، أنت محتاجة للتشبث بالقوة. قالت جورتشيكوفا وهي تُملس على ركبتها وتدس في يدها كوب العصير.

كانت تحتاج للقوة؛ لأن معاناتها في البحث عن مكان سورمينا ويعقوب لم تنتهِ بعد. وقد استغرق الأمر بعض الوقت قبل أن تتمكن من زيارتهما في أيام الآحاد، حتى أصبحت تلك السويعات القليلة من بعد ظهر الأحد، التي كانت تتمكن فيها من رؤية أحبابها، أصبحت مركز الكون، الوقت الوحيد الذي يستحق أن تحيى من أجله في الفترة المتبقية لها في الدار. ومضة الضوء القصيرة وسط أسبوع يغلف أيامه الظلام، التي كانت تمدها بالقوة والأمل. الأمل في أنه ما دامت قد عثرت عليهما، فإنه يمكنهم يومًا ما أن يجتمعوا وتعود الأيام لسابق عهدها. كانت مصممة على جمع شملهم مرة أخرى. فقط كان عليها أن تفكر في الوسيلة.

كلفها ذلك السهرَ لعشرات الليالي تتقلب في فراشها وسط الفتيات النائمات، عشرات الساعات لم تستطع فيها التركيز في دروسها، وساعات طوالًا من الأيام التي كانت تهيم فيها على وجهها بالمدينة وهي غارقة في الأفكار.

ولكنها في اللحظة التي تركت فيها مبنى دار القاصرات في نهاية العام الدراسي وهي تحمل شهادة الثانوية العامة في حقيبة بنفس حجم الحقيبة التي جاءت بها إلى الدار، كانت بالفعل قد عرفت الطريقة التي ستصل بها إلى هدفها. كان ذلك هو أهم قرار اتخذته في حياتها. لن ترحل إلى كرومنيرشيجه لتكون على مقربة من سورمينا. بل قررت الانتقال إلى برنو وضم يعقوب إلى حضانتها مهما كان الثمن، والعودة به إلى جيتكوفا، وعندما يكتمل شفاء سورمينا تأخذها هي الأخرى إلى هناك.

وعندما أغمضت عينيها، رأت صورة بيتها الريفي، كانت الصورة واضحة وكان يعقوب يجلس على عتبة الباب ومن خلفه تقف سورمينا وكلاهما يلوح لها في سعادة. لم تكن تعرف في تلك اللحظة أنها تستطيع أن تستدعي فقط الصور الراسخة في أعماق الماضي.

لعب ذلك الكتاب دقيق الحجم المغلف بورق الجرائد الذي أهداه لها السيد أوبتيشكا دورًا كبيرًا في حياتها بعد ذلك. حملته دورا معها إلى برنو وحفظته بعد ذلك على رف الكتب في حجرتها الصغيرة الباردة حيث كانت تقيم لعدة سنوات تالية. كان بمقدورها تلاوة ما يحويه الكتاب من حكايات من الذاكرة. تلك الحكايات التي كانت في ذلك الوقت تعني بالنسبة لها تماسًّا مباشرًا مع فترة طفولتها التي قضتها مع سورمينا، استطاعت من خلالها أن تشكل فسيفساء حياتها وكذلك حياة جدتها يوستينا روخاركا وأختها وبقية الساحرات اللاتي صنع يوسف هوفر منهن بطلات شريرات لحكاياته.

كان ذلك الكتاب هو أول مادة علمية تقرؤها. بعدها توالت الكتب، وخلال بضع سنوات لم يزاد حجم معرفتها فقط، ولكنها رسخت في نفسها الرغبة في تحويل الميول الشخصية إلى مهنة، فقررت الالتحاق بالدراسة بالجامعة المسائية التابعة لجامعة برنو/ والتي أنشئت بهدف التقريب بين طبقتي المثقفين والعمال.

وكانت علاقة قس ستاري هروزينكوف يوسف هوفر بالساحرات هي موضوع واحد من أوائل أبحاثها المستقلة التي وجهتها لخدمة أهداف رسالة الماجستير.

- اذهبي إلى لوهاتشوفيتسه حيث يقيم أبناؤه، أو إلى برنو فربما تجدين تراثه في إحدى دور المحفوظات هناك. هكذا قال لها القس الحالي الذي كان يعمل يومًا ما مساعد كاهن لدى سلفه القديم، عندما سألته عنه.

بحثتْ طويلًا حتى توصلت إلى تراث هوفر. عثرت عليه في أرشيف معهد الإثنوجرافيا، بالتحديد في الدور الذي خصصوا لها فيه مكتبًا بعد ذلك بعدة سنوات.

وأخذت تفرز صناديق عليها ملصق كُتب عليه يوسف هوفر (1871-1947) ومكثت ساعات طوالًا تطلع على وثائق رسمية، ومسودات لخطب ومقالات، بالإضافة إلى مراسلاته الخاصة ومذكراته. واستطاعت من خلالها التوصل بسهولة إلى معرفة مصيره.

احتفى الكون بقدوم يوسف هوفر، وهو الابن الثاني من بين سبعة أشقاء، هم أبناء

فلاح كان يعيش في سنوفيتكي بجنوب مورافيا. وهو يقول عن نفسه في مؤلفاته، إنه ورث عن أبيه صلابة الرأس والغضب الجامح. وإذا كان بوسع دورا، من خلال الصور العائلية، أن تضيف إلى ما قاله شيئًا، فسيكون ذلك الأنف المعقوف الذي كان يبرز من وجهه بشكل قبيح. بالتأكيد لم تكن حاسة الشم لديه جيدة؛ لأن أنفه هذا كان يصرفه فجأة عن المسار القويم. في البداية أبعده عن الدراسة عندما فر من معهد تعليم الكاثوليكية. هذا أمر يمكن أن يحدث مع أي شخص قد يعتريه الشك. هكذا قال الجميع حينها بما فيهم والداه اللذان تنفسا الصعداء عندما عاد للدراسة من جديد بعد ذلك. والواقع أنه لم يكن لديه اختيار، فقد كان أخوه الأكبر يدير مزرعة العائلة، وكان على بقية أشقائه أن يدبروا شئونهم بأنفسهم. كانت الدراسة بالنسبة له هي الفرصة الوحيدة المتاحة؛ لذلك كان عليه أن يتمها بنجاح وبكل امتنان حتى وصل إلى منصب قس بولانكا، وبعدها بعدة أعوام صار القس الخاص في زابرشيخ ناد أودرو. وقد لحقت به إلى هناك بعد ذلك أستاذكا، كبرى شقيقاته الصغيرات، وتبعتها بقية شقيقاتها، إلا أنهن لم يتوافقن مع شقيقهن، أو بالتحديد مع زوجته الجشعة، وهو ما أمكن استنتاجه من المراسلات.

لو كن قد وصلن في وقت مبكر، ربما لم يكن ليفعل ما فعل، ربما لم يكن ليتجرأ على التمرد بالطريقة التي كانت تُمليها عليه طبيعته الشرسة. ففي الوقت الذي طرقت فيه أستاذكا بابه كان كل شيء قد بدأ بالفعل، ولم يعد بوسعه ايقافه، بل لم يكن هو نفسه يرغب في عكس ذلك. كانت دورا ترى بوضوح أن النجاح قد ابتلعه، أذهله، فكانت يده تلح عليه إذا ما عجز عن أن يمسك بالقلم ذات مساء، على أن يقوم ليكتب نقدًا لاذعًا جديدًا. يد يوسف هوفر واسمه المستعار يوسف هرشيفا، يعقوب بوسولدا، أو ريكتوس أو „الصالح"، كانت يد إنسان متعدد الوجوه، كي يستطيع بلسانه الحاد وعبر صفحات المجلات، التي كانت مجلة „بوزور!" الصادرة في مدينة أولوموتس أكثرها شراسة، يستطيع أن يصل إلى هدفه بإبعاد ذلك الكلب اليهودي الذي استطاع عبر الرشاوى والتسيس أن يصل إلى منصب رئيس الأساقفة.

قرأت دورا في مذكراته: كوهين هذا يشغل المنصب الذي كان ينبغي أن يصل إليه أولئك الذين هم أفضلنا وليس ذلك المغرور الذي كان يعمل باليومية، والذي كان جده يعمل ختانًا! كان هوفر ينتفض في سطور مذكراته ومقالاته النقدية المنشورة

بالمجلات، ولم يكن وحده الذي يفعل. فقد كان ما يدفعه وبقوة على أن يقول ما يقول عن كوهين هو على الأرجح سخرية رئيس الوزراء النمساوي الكونت تاف، عندما أخبروه من أبراشية أولوموتس باختياره رئيسًا للأساقفة فسأل: وهل تم تعميده بالفعل؟

وتلك الجملة من خطاب مانليخ صديق هوفر المقيم بفيينا، التي وُضعت أسفلها خطوط حمراء كما ذُيلت بالعديد من علامات التعجب، ولم يكن لدى دورا أي شك بأن هوفر هو من قام بوضع تلك الخطوط والعلامات.

ومن خلال مجموعة القصاصات التي أخفاها القس، والتي كان موضوعها السيرة المهنية لرئيس الأساقفة كوهين، أدركت دورا أنه حتى البحث الذي أثبت من خلاله كوهين ولاءه لمجتمع الكنيسة لم يستطع أن يوفر له القبول الحسن، وكان يحمل عنوان معصومية بابا روما. وقد سخر منه هوفر وازدراه هو وجميع رفاقه، واعتبروه نموذجًا للتملق. وقد كتبوا عنه أن كوهين تجنب فيه كالثعبان الجدلَ الذي كانت تحركه توجهات رجال الكنسية منذ نهاية القرن الماضي، وبدلًا من الولوج في هذا الجدل خطف الأضواء بعمله الذي مكّن به لنفسه لدى البابا.

كتب هوفر ذات يوم وقد تملكه الغضب: عار عليه! وأخذ يعنِّفه لأنه يتنقل بين الأبرشيات وينتقد أولئك يحملون على عاتقهم مسئوليات العمل بمكتبه، ويقوم بالتوقيع على إيقاف العشرات عن العمل، ويوقع المزيد من العقوبات غير المألوفة بعد صدور بروتوكول استجواب الكهنة، ولأنه يضع العراقيل أمام صدور كتاب تعليم المسيحية، وفي النهاية لأنه مصدر إزعاج لكل المحيطين به من رجال الكنيسة. كما أنه أصبح مزعجًا حتى بالنسبة للمواطنين العاديين، لأنه حظر عليهم السير في الطرقات التي تتقاطع مع حقول الأبرشية، بل حتى عن حمل فرع من أشجار الغابة التابعة لها. كان هوفر يعتقد أن اليهودي داخل كوهين ما زال حيًّا ينبض، فأمطره بوابل من مقالاته الحادة الموقعة باسم ريكتوس، وكان عددها يتزايد كلما مر الوقت.

وربما كان سيظل يكتبها ويتبعها بمقالات تالية بدون صدى كبير ما لم يُولِه بالفعل كوهين اهتمامًا واسعًا. حدث ذلك عندما أرسل من يقتفون أثر كاتب المقالات النقدية المطولة، وبناء على تحليل الخطوط قام باعتقال كاهن أبرشية فيلكي كونتشيتسه، فرانتيشيك أوتساسيك البريء وإلقائه في السجن الملكي بدلًا من هوفر. وعندما علا من

جديد صوت ريكتوس منتقدًا قسوة رئيس الأساقفة التي جعلته يعاقب الأبرياء، سُمعت أصداؤه في روما، فقامت البعثة البابوية بفيينا بإطلاع الكرسي المقدس على الأمر وتم استدعاء كوهين في ديسمبر من عام 1903 للقاء البابا شخصيًّا. وكتب هوفر في مذكراته أنهم يتهامسون بأنه لو لم يستقلْ بنفسه بعد عودته، فسوف يتم عزله من منصبه.

احتفل ريكتوس بانتصاره. ريكتوس الصالح! ريكتوس العصي على الفساد! ريكتوس القادر على كل شيء! انتشى هوفر فرحًا في مذكراته لدرجة جعلت دورا تشمئز منه.

إلا أن الأمر لم ينتهِ عند هذا الحد. كان ذلك مجرد انتصار في أول معركة. وبمجرد أن تخلص هوفر من كوهين، وجد في انتظاره منافسا آخر، وفي هذه المرة قرر إيصال الأمر إلى روما. وهل من الممكن أن يتحلى الإنسان بالأخلاق بدون وجود الرب وبدون وصاياه؟ كرامة الكنيسة الكاثوليكية تُمتهن. روما والعدو التشيكي. بدأت مثل هذه المقالات وغيرها تظهر في مجلة „بوزور!". كان واضحًا أن هوفر لم يعد شريكًا مفيدًا، وأنه تحول إلى شخص غير مريح كثير الشكوى. والحل كما فهمت دورا لم يكن مستعصيًا. سيُعلمونه الدرس بالفعل في جبال الكاربات الأبيض، حيث تعيش أناس غريبة الطبع، متصلبة الفكر، وحيث لا يصل إليها من بويكوفيتسه أي شيء آخر غير الشكاوى!

وصل إلى هناك في شتاء عام 1910، وذلك في الوقت الذي بسط فيه صقيع يناير سلطانه على الأرض بشراسة. توقفت ثلاث عربات تجرها الخيول أمام أبرشية ستاري هروزينكوف وقفزت منها خمس شابات ملتحفات بغطاء الرأس، بحيث لا يُرى منهن سوى العيون، ورجل يرتدي معطفًا فضفاضًا. وتوقف من كان يمر بجوارهم في ذلك الوقت حتى صاروا جماعات أخذت ترتفع حلقات البخار المتصاعد من أفواههم، حين كانوا يتهامسون فيما بينهم. وأُخرجت من العربات ستة ألحفة، خزانة ثياب، سريران خشبيان، وعدة صناديق مختلفة الأحجام. وأغلقت الأبواب فورًا من خلف سكان هروزينكوف الجدد، واستدارت العربات سريعًا استعدادًا للعودة من حيث جاءت. وانفض الجمع بالتدريج بعد أن علموا بمجيء الكاهن الجديد وأنه شخص ليس بالقليل، فهو الذي استطاع إزاحة رئيس أساقفة أولوموتس من منصبه.

وهكذا أخذت تحدق فيه عشرات بل مئات العيون وهو يقف خلف المذبح في أول يوم أحد من شهر فبراير. امتلأت الكنيسة عن آخرها. أكان هذا هو القس المتمرد الذي

أُرسل إلى هنا بالأمر، لأنه لا أحد يرغب في العمل هنا طواعية؟ أكان هذا هو ذلك الثائر الذي خلع رئيس الأسافقة من منصبه؟ هذا النحيف الجاف ذا الشعر المنحسر إلى الوراء والنظارة فوق أنفه الضخم؟!

انطلق سيل من الأفكار داخل رأس هوفر. بحسب مذكراته، كان مرعوبًا. فمن بين الحشود أسفل منبر الوعظ كانت تحدق فيه وجوه نساء ترتدي زيًّا رائع التطريز ولكنه ينمُّ عن الفقر، وبعض الأطفال كانوا يلبسون ملابس ممزقة، وبدلًا من الأحذية كانوا ينتعلون خرقًا بالية. والرجال، هؤلاء كانوا يأتون لصلاة القداس وهم سكارى.

أخذ هوفر يتفقد وجوه كهنته الجدد باستياء متزايد، وكان يتوقف عند أولئك الذين يبدو عليهم تبلد الإحساس. ولم يكن عددهم بالقليل.

ربما بدأ في تلك اللحظة يتولَّد بداخله الاحتقار لأهل كوبانيتسه، وهم من كان يجب عليه أن يتعايش معهم، والذين لم يُظهروا أية كرامات، اللهم إلا وهن الأخلاق، وإدمان الخمر، والأطفال غير المتعلمين. كان ذلك احتقارًا لكل تلك المنطقة التي غابت عنها عناية الرب، احتقار أدى في النهاية إلى عواقب وخيمة.

وجود الساحرات هو نتيجة طبيعية لغبائكم! فهم يستفيدون منه وبسببه يعشن حياة أفضل من حياة الكثيرين منكم، أي من أولئك الذين يعملون بشرف! هكذا دوى صوت هوفر من فوق المنبر.

يوميًّا، أقول لكم يوميًّا، يذهب إلى الساحرات خمسون شخصًا طالبين المساعدة في أمور مختلفة. يذهب إليهن المساكين ممن يلبسون القمصان البسيطة، والأسياد من أصحاب السلاسل الذهبية، والسيدات في ملابسهن الحريرية وعلى وجوههن تنسدل الخُمر. وساحراتنا صاحبات المشاعر الفياضة لديهن لكل محتاج كلمة طيبة، نصيحة „جيدة"، دواء ناجع. الساحرات يفتحن أبواب الماضي، ويكشفن النقاب عن المستقبل، يستدعين الأموات من القبور المظلمة للشهادة. هكذا ببساطة وبدقة يعرفن „كل شيء" بعد دفع المقابل، ومقابل المال يفهمن في كل شيء. وأوعية الحكمة تلك، تلك السيدات البسيطات، يتحصلن بعملهن „بالشعوذة" على ما يحصل عليه أي موظف بالدرجة الثامنة، ويعشن في مستوى يتناسب مع دخلهن. هكذا كتب هوفر في النشرة المحلية

وكذلك في كتابة عن الساحرات.

غرس بين كهنته بذرة الكراهية، وكان يرعاها في أيام الآحاد، ويوسع مساحة التربة المنزرعة بها، حتى وصل نبتها إلى أبعاد غير مسبوقة. أما سكان هروزينكوف فقد اتخذوا من الساحرات موقفًا متحفظًا، بعد أن أشيع أنهن يعشن على مصائب الآخرين، كما توقفت العديد من العائلات عن الاستعانة بهن حتى لو كانت بها حاجة إلى خدماتهن.

حلت طوابير الوافدين محل الصفوف المعدودة للسكان المحليين، ولم يَقِلَّ عدد زوار الساحرات. لكنَّ حياتهن صارت أسوأ. فجأة لم يعد جيرانهن ينظرون إليهن نظرة تقدير وعرفان، بل نظرة حقد وحسد. صرن حينها يغلقن أبواب بيوتهن بإحكام، وكانت الساحرة تفكر كثيرًا قبل أن تسمح بدخول غريب إلى بيتها. وكان أحيانًا يحدث أن يكون الطارق شرطيًّا أخبره هوفر بعد جلسة الاعتراف عن إساءة ارتكبها أحد الكهنة، وبدلًا من أن يذهب إلى القسم لحل المشكلة راح يقف على أعتاب الساحرة. الساحرة تقول، الساحرة تفكر، الساحرة تنصح... هكذا كان يأتي أحيانًا صوت القس عبر الشبكة الخشبية لدى كرسي الاعتراف، وحينها كان القس، الذي اعتاد أن يكون دائمًا على حق، يكاد ينفجر من شدة النكد. هل يمكن أن تعلو كلمة نسوة لم يكملن تعليمهن الأساسي فوق كلمة الرب؟ فوق كلمة يوسف هوفر؟ هذا لن يكون!

وهكذا كان ينتقدهن، يشوه سمعتهن، ويرفض تعميد أبناءهن، ويرفض تسجيلهم بالكنيسة، ولا يباركهم بمسح أجسادهم بالزيت، وكان ذلك بالنسبة للساحرات المتدينات بمثابة كارثة جعلتهن يقفن في مفترق طرق: إما الانصياع لإرادة هوفر أو الموت.

انقبض قلب دورا بسبب ذلك الصراع المحموم، خاصة عندما قرأت مسودات الخطب التي كانت تحمل في طياتها السخرية والافتراء الذي بلغ مداه على الساحرات وعلى أولئك الذين ما زالوا يترددون عليهن. وانقبض قلبها كذلك عندما قرأت كتاب هوفر حكايات من كوبانيتسه، وكان موضوعها الساحرات ومصائرهن التي كان القس يفسرها بشكل يجافي الحقيقة. صدرت هذه الكتب تباعًا، وكنت تحكي للقراء عن الظلم الذي تمارسه نسوة محنكات ماكرات في حق أهالي كوبانيتسه المساكين البسطاء، وذلك باعتبارهن محتالات مخادعات بلا ذرة ضمير. وهكذا يستاء القارئ بشدة، وبعدها يكون من الطبيعي أن ينحاز إلى جانب الراوي الماهر المبدع، الذي كان ينهي كل قصة من

قصصه بمعاقبة إحدى الساحرات. ولم يكن ذلك الراوي العادل والبطل شخصًا آخر سوى يوسف هوفر قس أبرشية ستاري هروزينكوف.

أخذت دورا تبحث وتدرس كيف تمكَّن الغرور والحقد والغل والغطرسة من نفس ذلك الإنسان. وهذه الصفات في رجل نذر نفسه للرب لا تنشأ هكذا من تلقاء نفسها.

فتشت وبحثت واطلعت على المجلات المحفوظة بالأرشيف، التي كان يكتب فيها، وعلى التراث الأدبي لأصدقائه الكتاب، قرأت الخطابات التي كتبها لهم. ولم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا حتى توصلت إلى فرانتيشيك سوكول توما وروايته المنسية العزوبة. وهكذا انفتحت أمامها صفحة مجهولة من حياة هوفر.

فجأة لم يعد يقف أمامها ذلك الرجل الذي أساء استغلال وظيفته بشكل بغيض داخل مجتمع سكان الجبال الأميين، بل رجل لم يستطع أن يحقق ذاته، افتقد الجرأة على محاولة التحكم في أقداره والعيش وفقًا لمعتقداته. ولم تكن حكايته استثناءً من القاعدة، بل على العكس، كان مثالًا نموذجيًا على المصير الذي تقاسمته معه مجموعة من الرجال الموهوبين والفقراء في نفس الوقت، الذين انعطفت حياتهم في ظروف مختلفة إلى مسار آخر تمامًا، ونظرًا لضيق ذات اليد لم يُتَحْ لهم سوى طريق واحد. وقد اقترح أستاذه من بلدة سنوفيدكي على يوسف الذكي الموهوب، أو بالأحرى على والديه، أن يبعثوا به إلى أحد المعاهد اليسوعية، الأمر الذي من شأنه أن يرفع عن كاهلهم عبء مصروفات تعليمه.

ومهما كانت طبيعة علاقة الشاب هوفر بالعقيدة والالتزامات المترتبة عليها، فقد كان عليه أن يتأقلم بسرعة معها، إلا أنه لم ينجح في ذلك، وتشهد على ذلك مراسلاته التي أكد فيها أنه العزوبة هي أكبر عذاب للرجال الذين يتوقون إلى أن يكونوا خَدَمة مطيعين للرب من خلال أفعالهم. في البداية حاول الفكاك من نير التزاماته، عندما هرب من المعهد. ولكنه استسلم وبدأ يتقبل فكرة أن يكرس مستقبله للآخرين، أي لمجتمع الكنيسة، لمَّا لم يستطع أن ينجح في حياته بمفرده بلا مال. لكنه لم يهب مستقبله لمن تسبب في تجميد حياته هكذا بلا مقابل. فدعا الكنيسة إلى ساحة القتال، في البداية من خلال رئيس أساقفة أولوموتس، وفي النهاية عبر الكنيسة الكاثوليكية بأكملها. أما نهاية قصتة، فهذا هو ما كانت دورا تعرفه بالفعل. فهوفر الذي تم نقله إلى قمم جبال

الكاربات الأبيض، والمحكوم عليه بالنسيان، صب جام غضبه على أولئك الذين عارضوه. على الساحرات. شن عليهن الحرب وافتتح ساحة جديدة للقتال، وعزم على ألّا يخسرها، على الأقل هذه المعركة لا ينبغي أن يخسرها، بعد أن انهزم في كل معاركه الخاصة ضد التابعين للكنيسة الكاثوليكية، ولم يستطع الفوز مطلقًا في أي منها.

لكن كلمة „مطلقًا" كانت بالتأكيد تحز في نفسه. ولا بد أن وقعها عليه كان يزداد ضراوة كلما مر الوقت وهو يحسب الأعوام الخمسة، الأربعة، الثلاثة التي تفصله عن عامه الخمسين. تعتقد دورا أنه لو لم يمنحه القدر فرصة، لكان هوفر قد ناء بحمله. وربما جاء بفعل أحمق، لكن أفول نجم الإمبراطورية وقيام جمهورية تشيكوسلوفاكيا أنقذه في الوقت المناسب. فبمجرد أن حدث هذا ترك الكنيسة الكاثوليكية وانضم إلى الكنيسة الهوسيتية[8] التشيكوسلوفاكية، بل والأكثر من ذلك: أصبح الداعية الأبرز بالكنيسة.

وما إن انتشر ذلك النبأ في هروزينكوف حتي أثار هياجًا. كانت النساء تقف بالشوارع لملاقاة الرجال العاملين في كوبانيتسه، وكن يرسلن أطفالهن لاستطلاع الأمر، وامتلأت الحانة عن آخرها. تعامل الجميع مع الأمر على أنه خيانة. لم يطلقوا عليه لفظ: ثائر، بل قالوا: خائن.

مرت سنوات عشر كان يُعلّم فيها رجال أبرشيته كيف يصبحون كاثوليكًا صالحين، ثم أنيجكا التي جعل منها أمًّا عزباء، وربما لن تسامحه أبدًا على ما فعل. هوفر لن يكون الأول ولا الأخير بين القساوسة، لكن خيانة دينهم؟ وفوق ذلك يرغب بالزواج من امرأة أخرى كانت تنتظره رغمًا عن أنوفهم في أوهيرسكي برود؟

وراح أحد الكهنة عند الغروب يحذر هوفر من أن الشباب يستعدون للهجوم عليه، وأنه سمعهم في الحانة يتحدثون عن قطع الرقاب، وهكذا آثر القس الذي غيَّر ديانته أن يلملم أغراضه ويترك أبرشيته سرًّا، أن يتجنب غضب أتباعه، وألّا يعود إلى هناك مرة أخرى، أن ينجو بحياته. ولم يعد إلى هناك إلا بعد عدة سنوات، عندما كان يتنقل بين قرى جنوب مورافيا للعمل كمدرس. وبعد فترة مرض طويلة ودخل شحيح، جاءوا به في

8- كنيسة أتباع يان هوس. تأسست على أفكار المفكر والمصلح الديني التشيكي (1371-1415) الذي انتقد الكنيسة الكاثوليكية والقساوسة بشدة وعمل على إصلاح ما فسد من أمر الكنيسة. اتُّهم بالخروج عن مبادئ الدين. وبعد محاكمة غير عادلة حكم عليه بالإعدام حرقًا في عام 1415. فأشعل موته ثورة عارمة ضد الكنيسة والحكام المدنيين (1419-1434).

نعش حيث ذكر في وصيته أنه يرغب في أن يدفن بالتحديد هناك وليس في أي مكان آخر، في كوبانيتسه بين كهنة أبرشيته وبين الساحرات.

تعجب الجميع، جميع أفراد عائلته وأصدقائه، الكل ما عدا أهالي كوبانيتسه.

كان تراثه هناك حاضرًا دائما إلى الحد الذي جعلهم لا يتعجبون من تصرفه الأخير، بل إنهم كانوا يتوقعونه.

وعندما انتشر الخبر بأن جثمان هوفر في الطريق، وكان من المفترض أن يُوارَى الثرى في مقابر ستاري هروزينكوف في اليوم التالي، كان واضحًا أن أحدًا لم يستدعه إلى هناك سوى الساحرات اللواتى لاقين الأمرَّيْن بسببه، وكن قد توفين منذ زمن بعيد: بجاتشينا، يوستينا وخوباتا. حيث كان بينهن وبينه حسابات لم تسوَّ بعد. وقيل إن رجال القرية بعد انتهاء الغسل والتكفين أشاعوا أن الجثمان من عند القدمين وحتى الخصر قد اسودّ. ولم يكن لكل أهالي القرية من حديث في المساء إلا عن ذلك، كانوا يعبرون عن مخاوفهم من أن يسودَّ الجسد بالكامل، أو أن تخرج إليه الساحرات من قبورهن أو حتى أن يصل إليه الشيطان بنفسه.

ربما لا يعلمون أن هوفر مات بسبب الغنغرينا كما ذُكر في شهادة وفاته، لكن حتى لو علموا، كانت دورا على يقين من أن كل ما كانوا سيفعلونه هو أن يُشيحوا بأيديهم ويبقوا على قناعتهم بأنها مشيئة الساحرات، اللواتي انتقمن من مُعذبهن بهذه الطريقة. وكانوا، أهالي كوبانيتسه، يباركون هذا الانتقام بعد خطيئته بالخروج عن الدين.

وربما كانت دورا تباركه، وإن كان لديها أسباب أخرى. يوسف هوفر قس ستاري هروزينكوف تعدى على ثروة تلك المنطقة، على الساحرات.

****

لم يكن ذلك فقط بسبب دوره البائس في حياة الساحرات، ففي الأيام الأخيرة كانت دورا تتذكره بعد قراءة ملف سورمينا، وبالتحديد الملف الأزرق وتلك المقتطفات من كتاب „الساحرات". ظل ذلك الاسم يتردد في رأسها مرات ومرات، يوسيفينا ماهدالكا التي تحمل لقب سورمينا. لم تكن تلك هي المرة الأولى التي تقع فيها عيناها على ذلك

الاسم هناك.

عرفته في الجامعة، في الفترة التي كانت تجمع فيها المادة العلمية لبحثها الخاص بيوسف هوفر. ولم يكن في ذلك الوقت يثير ريبتها، فاسم سورمينا موجود بكثرة في كوبانيتسه، ودورا بالتأكيد لا تعرفهم جميعًا. والآن فقط وبعد قراءتها لتلك الوثيقة المحفوظة بالملف الأزرق، بدأت تفكر في أن هذا الاسم ربما تربطه بسورمينا علاقة وثيقة.

بدأ يوسف هوفر كتابة مذكراته في شبابه، وعلى الرغم من أن الجزء الأعظم مما دوَّنه بها يتعلق بمسيرته المهنية التي كان يعيشها بكل جوارحه، إلا أنه خص أحلامه فيها بجزء ليس بالقليل. كان يدونها بانتظام وثبات، تقريبًا يومًا بعد يوم، وكان يزودها بوصف مسهب للمكان، وألوانه، بل حتى الرائحة به. وكانت دورا قد قرأتها بعناية في وقت سابق؛ ولذلك علقت في ذاكرتها إحدى تلك المدونات، التي كتبها في العام الأخير من عمله في أبرشية ستاري هروزينكوف، لدرجة أنها تتذكرها أكثر من ملف سورمينا. وكانت كما يلي:

كان ضوء النهار يأخذ في المغيب والعتمة تسلل لتغطي وادي هروزينكوف من فوق رءوس التلال المحيطة به. وكنت أسير في الطريق الرئيس بـ بويكوفيتسه، وبمجرد أن تجاوزت المنحنى ووقع بصري على أجراس الكنيسة، لاحظت وجود شخص يرقد منكمش الجسد أمام البوابة. أخذت أدقق النظر لعلي أتمكن من رؤيته في الظلام بشكل أوضح، وأسرعت من خطواتي. ماذا لو كان ذلك الراقد أمام الكنيسة عابر سبيل جريحًا؟ وكنت كلما أسرعت الخطى، سمعت صوت حفيف ردائي ونباح الكلاب بوضوح أكثر. ففي كل بيت من بيوت القرية تقريبًا يوجد كلب بهدف حراسة المنزل، عندما يكون أصحابه بالخارج، لكن أيكون عددها من الكثرة بحيث تُحدث كل ذلك الضجيج؟ وأين هم أصحاب تلك الكلاب؟ كانت الشوارع خالية من المارة.

وعندما وصلتُ إلى مسافة تبعُد مئة متر عن الكنيسة، نظرت مرة أخرى إلى أبوابها، ولدهشتي تبينت أن عابر السبيل لم يعد موجودًا. أين ذهب؟ وأخذت أتلفَّت حولي بحثًا عنه بلا جدوى. وإذا بي فضلًا عن صوت حفيف ردائي حول أقدامي وأصوات الكلاب المفترسة، أسمع صوت استغاثة ضعيفة! استغاثة! هكذا يطلب سكان كوبانيتسه النجدة

من الآخرين، وبحسب الصوت لم يكن هناك من شك في أن المستغيث امرأة. تلفت حولي لعلّي أتوصل إلى مصدر الصوت، حتى رأيتها، ولكنها كانت على مسافة بعيدة مني خلف منعطف الطريق، هناك في المكان الذي يفصل ممر المشاة عن المقابر. فانطلقت بهِمَّة نحوها، ولم يكن لديَّ أي شك في أنها كانت جريحة.

وبمجرد أن اقتربت، بدأت تلك السيدة أولًا تزحف على بطنها، ثم أخذت تسير على أربع، ثم استدارت نحوي، ومن جديد أخذت تنظر أمامها كما لو كانت تخشى من أني أتعقبها كي أُلْحِق بها الأذى. بات واضحًا أن الذعر الذي انتابها كان بسبب اقترابي منها؛ لذا قلت: لن أوذيكِ، جئت لمساعدتك! ومرة أخرى جاءتني نظرة من عين امرأة شابة امتلأت بالرعب. كانت فتاة تحاول تقريبًا في يأس أن تنبش في التربة الطينية لممر المشاة لتصعد إلى المقابر. ربما كانت تبحث عن مأوى وسط الأشجار، حيث يمكنها أن تواري عذاباتها عن الناس. وفي تلك الأثناء كنت أنا قد وصلت عند حافة الممر وبدأت أصعد خلفها، وقد ملأني فرارها فضولًا، وفي نفس الوقت تأثرًا، ماذا حدث لتلك الفتاة الشابة وجعلها تخشى الناس إلى هذا الحد؟ من الذي أساء إليها؟ وقد انتابني الخوف أيضًا أن تكون وهي في هذه الحالة قد آذت نفسها أكثر وأكثر. كانت في هذه اللحظة قد وصلت إلى أعلى وأخذت تزحف خلف بوابة المقابر لتجد لها هناك ملاذًا يخفيها بعيدًا عن عيني. وبالطبع كنت أراها وأتعقبها. رقدت المسكينة المعذبة هناك، وفي نوبة بكاء صامت راحت تبتعد عني وقد بلغ بها الرعب مداه. انحنيت عليها واحتضنتها. ابنتي، ماذا حدث يا ابنتي؟ ولم تكن الإجابة سوى نحيب مرير وتشبث شديد بي. ربما استشعرتْ أني لن أوذيها؛ ولذا تخففت من يأسها وراحت تبكي بعد أن ضممتها إلى صدري. شعرت بانقباض في قلبي ورحت أملس على شعرها وأهدئ من روعها، وانتظرت في صبر حتى تهدأ، كي تُسرَّ إليَّ بما عندها. لا أعرف ما الذي حدث لي، غلبتني الرغبة في تلك اللحظة، رغبة جامحة، جارفة، ليس لها حدود. ربما كان السبب وراء ذلك هو فخذ الفتاة التي كانت تتلألأ من فرط بياضها وسط الملابس المهلهلة التي كانت عليها، ربما كانت رائحة حجرها الذي كنت ألمسه أثناء ذلك العناق القوي، وربما كان ذلك الجسد الدافىء المستسلم وثنياته الفاتنة التي لا يمكن أن تغفل عنها العين. والعجيب أنها لم تقاوم. صارت طيِّعة بين ذراعي، وكلما مررت بيدى بنعومة أملس عليها، هدأ بكاؤها، حتى حلت محله في النهاية تنهيدات شهوانية لم أتحمل سماعها. شعرت بضغط هائل في الجزء

الاسفل من جسدي، وكانت هي ترى ذلك مني، وعندما لمست ذاك الجزء من جسدي بيدها، خرجت من حلقها تنهيدة نشوة، فرجت على أثرها فخذيها وراحت تدعوني لأفعل ببراءة لم أستطع مقاومتها. وهكذا مارسنا الجنس معًا بقوة وشهوانية مختبئين خلف عمود بوابة المقابر المبني من الطوب اللَّبِن، وكنت أمسك بذراعيها اللتين كانت تتدلى منهما خرق من ملابس سوداء ممزقة تكشف عن صدر صغير ممتلئ، انحنيت عليه ورُحت أقبله.

كيف استطعنا أن نفعل ذلك في أرض فضاء كانت تضيئها أنوار البدر؟ لا أعلم. الأماكن تتبدل في الأحلام وليس للزمان فيها مكان. لكننا كنا هناك، في ذلك المكان الغريب، هذا ما كنت أعلمه يقينًا قبل أن يبتلع رحمُها ثوران رجولتي، وكان هائلًا وإلى حد ما مؤلمًا، كنت أشعر به في مغبني وبطني، ولكنه في نفس الوقت كان مريحًا للغاية. في تلك اللحظة تمددت من فوقي منتصبة الجسد وقد مالت برأسها نحوي، وأخذت تصيح من فرط النشوة حتى آخر لحظة. ثم انهارت فوقي ولامس وجهها وجهي. يا الله، يوسيفينكا! يوسيفينكا سورمينوفا! تلك الفتاة التي كانت تحدق فيَّ بارتياب وسط الصفوف أسفل المنبر، إنها هي! كانت تضحك بصوت عال. أخذت تضحك حتى أصبت بالذعر، وأخذت أتلفَّت حولي، وهنا أدركت أننا على رأس جبل أوبيتوفا، حيث كان الوثنيون يقدمون أضاحيهم، وأننا موجودون وسط دائرة تحيط بها النيران ويقف خلفها أشخاص تشابكت أيديهم، وأن يوسيفينا سورمينوفا ما تزال تجلس من فوقي وتحك فرجها بجسدي وهي تضحك، بينما راح الناس من خلف دائرة النار يصرخون بقوة ويرقصون. فقُمت من نومي وأنا أتصبب عرقًا.

تعويذة العاصفة

كانت حزم الأعشاب التي جُمعت في عيد القديس يان، المعلقة على عمود أسفل السقف، تتمايل مع الريح. كانت الرياح تتلاعب بها، فراحت تميل مرة نحو اليمين وأخرى صوب اليسار، وعندما تشتد الريح تميل حتى تصطدم رءوس الأزهار الجافة بجدران البيت. وكان يعقوب يجلس تحتها ويراقب حركتها. كان يجلس كل يوم في نفس المكان ما دامت حالة الجو تسمح بذلك، يجلس وينتظر عودة دورا من المدرسة. كان الوحيد الذي لا يفارق تلال بيدوفا، فهو طوال الوقت مع سورمينا التي لم تكن تنزل إلى هروزينكوف إلا نادرًا، حيث كان ترددها عليها لا يتعدى زيارة الكنيسة والتبضع. وكان الجميع يذهبون إلي هناك ويأتونها بما تحتاجه.

كانت دورا وهي تصعد إلى أعلى ترى يعقوب من بعيد يلوِّح لها وقد التصقت رُكبتاه بذقنه ولف حولهما إحدى يديه وراح يلوح بالأخرى بقوة في الهواء. وردت عليه دورا بأن لوحت له هي الأخرى، ثم أسرعت الخطى مدفوعة بقوة الريح التي كانت تدفع ظهرها إلى الأمام.

لاحت بوادر العاصفة، وعلى الرغم من أن الوقت كان ظهرًا، فقد غرقت جيتكوفا في الظلام. وكان الجو مهيأً لبداية سقوط الأمطار في أي لحظة.

وبدلًا من أن يلقي عليها يعقوب التحية، عندما دخلت حديقة البيت، قال: هـا-يي، وكان يحرك رأسه صوب هروزينكوف. استدارت دورا وقد أدركت ما كان يترقبه بكل هذا التركيز حتى ذلك الوقت. لم يكن ينتظر صعودها التل، بل تلك الدوائر المتشابكة من غيوم العاصفة اللامتناهية والآتية نحوه على مهل. غيوم ملبدة تدور وتغمر المكان، كانت تبدو ككائن حي، كحيوان متوحش يستطيع أن يدمر كل ما يقف في طريقه في الدقائق التالية. وكانت تلك الناحية من تلال كوبانيتسه هي التي تقف في طريقه: بيدوفا، كوبرفازي، هوداكل، روفني، وكذلك تشيرني.

- هووووو. تنفس يعقوب بعمق ثم دس ذقنه بين ركبتيه. وانعقد لسان دورا من فرط الدهشة.

عندها وصل إلى سمعيهما رنين جرس الكنيسة القادم من بعيد، والذي كان صوته الجهوري حريًّا أن يبدد العاصفة. لكنه لم يفلح، هذا ما كان يدور برأس دورا، عندما أحست بقبلة باردة من أولى قطرات المطر نزلت على ذراعها العارية.

قالت دورا وهي تحاول إجبار يعقوب على النهوض من مكانه: علينا أن ننتقل للداخل.

تطلع فيها متعجبًا وهز رأسه وأشار بالإصبع التي يتوسط أصابع يده الثلاث إلى الطريق الذي أتت منه قبل قليل وقد أعياها المسير. مرة أخرى نظرت خلفها، ووسط دوامة الغيوم التي كانت تدور فوق حشائش الغابة أسفل التل، وطيور السنونو التي كانت تطير بسرعة مذهلة، لمحت امرأة في زى أبيض زاهٍ. كانت تمسك بشال يتطاير من فوق رأسها وبالكاد كان يحميها من المطر.

كانت إحدى جاراتهم، بالتأكيد جاءت لسورمينا. دخلت دورا إلى الدار كي ترى إن كانت موجودة، لكن أحدًا لم يكن هناك. أنزلت الحقيبة من فوق ظهرها وعادت ليعقوب. وسألته: أين خالتي؟

هز يعقوب رأسه في ارتباك. وكانت الريح قد اشتدت إلى حد جعل شعره يدور كما تدور شعور قنديل البحر.

سورمينا! سمعا صوتا نسائيًّا ينادي.

وبعد قليل صعدت إليهما باجلاركا حتى وصلت إلى مدخل البيت وقد بدت عليها مشقة الصعود، وسألتهما: أين سورمينا يا أولاد؟

هزت دورا و يعقوب أكتافهما: لا نعرف.

أشارت باجلاركا برأسها صوب العاصفة وهي تقول إن هذا الذي يحدث لشيء فظيع. اقتلعت الريح كل شيء ولم يبقَ سوى أن تقتلنا كرات الثلج، وصارت بعدها تهز رأسها في حسرة. لو لم يكن المطلوب بذله كي نستأنف من جديد أعمالنا في الحقول مرهقًا للغاية ويستلزم الكثير من الوقت، لما اعترضت بالمرة، لكن ما دام مثل هذا الخراب قد حل بنا، فلن نستطيع في العام القادم أن نغرس البذور في الأرض. أين سورمينا يا أولاد؟ ألا يمكن أن تكون عند الماشية؟

لم تكن دورا واثقة من ذلك؛ لأنها لو كانت هناك لجاءت على أثر ندائهم عليها، وعلى الرغم من ذلك قامت ودارت حول الدار في طريقها إلى الحظيرة. ولم تجد أحدًا. وكانت البقرة تجوب الحظيرة في عصبية بينما يَحُك صغيرها جانبه بالجدار الداخلي المطلي بالجص الخشن. أخذت تملس على رأسيهما ثم خرجت وأغلقت الباب خلفها بإحكام، حتى لا تخرج الماشية إذا ما أخافتها العاصفة.

وعندما خرجت وقع بصرها على المنحدر الممتد فوق بيتهم، وقد وقفت في منتصفه امرأة نحيلة. صعدت دورا قليلًا فوق مستوى الحظيرة كي تتضح لها الرؤية أكثر، ركزت عليها بصرها، ولدهشتها رأت أن تلك الواقفة فوق المنحدر الشاهق المائل بشكل عمودي كما لو كان يمكن أن يرتد في أية لحظة ويتدحرج إلى أسفل، كانت بالفعل سورمينا.

كانت تقف هناك، وكان واضحًا أنها تتمايل، وتحافظ بصعوبة على توازنها في مهب الريح.

لم تنتظر دورا وانطلقت نحوها إلى أعلى وهي عاجزة عن فهم أسباب وقوفها هناك مكتوفة اليدين في مواجهة العاصفة القادمة، وانتظارها لطوفان المطر حتى يضربها. هل أصابها الجنون؟

أخذت تتسلق مستعينة بيديها، وكان جسدها يرتد من فوق المنحدر الشاهق، فراحت تتمسك بالحشائش في محاولة منها الصعود إلى أعلى.

وكانت في تلك الأثناء تصرخ فيها: خالتي!

لكن سورمينا كانت تقف هناك، في مكان يرتفع عنها كثيرًا، ولم تكن تراها على الإطلاق. كان بصرها مثبتًا نحو هروزينكوف، في قلب الطبيعة المظلمة. بدأت دورا تسرع من حركتها. كان واضحًا أن هبوب الريح الذي يدفع ظهرها ويساعدها على الصعود، هو نفسه الذي يحمل معه العاصفة. حاولت قدر جهدها، كانت تتسلق إلى أعلى باستمرار، وبعد لحظات وصلت إلى مسافة تمكّنها من تميز ملامح وجه سورمينا. لكنها أصيبت بالصدمة إلى حد جعلها تتوقف للحظة وتتابع باندهاش تعبيرات وجهها الصارمة، التي لم ترَها عليها مطلقًا من قبل.

نادتها مرة أخرى: خالتي! لم ترد. لم تكن تنظر إلى الجهة التي تقف فيها دورا.

وبدأت بدلًا من ذلك ترفع يدها، وبدا الأمر وكأنها تريد أن تحتضن الكارثة التي ستريهم قدرتها على التدمير والخراب في لمح البصر. وفي تلك اللحظة بدأت تتمتم بشيء، لكن الريح التقطت الكلمات من فوق لسانها، فلم يصل منها إلى سمع دورا شيء.

تقدمت بضع خطوات قبل أن تدور حولها الريح، وتحاول وبضربة غير متوقعة من الأمام أن تسقطها. جلست مذعورة على الأرض وهي تفكر في جسدها العاجز المنطرح على الأرض، والذي كان يمكن أن يتمزق فوق الأحجار والأعشاب قبل أن يتحطم على جذع شجرة الزيزفون أو أمام باب الحظيرة مباشرة. استمسكت بقوة بعيدان الحشائش وأخذت تنظر بثبات إلى أعلى حيث توجد سورمينا.

بدت وكأنها ترقص. وعلى ما يبدو فقد اعتادت على الريح ولم تعد تكافح من أجل الحفاظ على توازنها، ثم بدأت تهز خصرها وقد عانقت يداها مسار الريح. وفي بداية كل حلقة من حلقات الريح كانت تضم كفيها وكأنها تمسك بها ثم ترسلها مرة أخرى من حيث أتت في حركة تمتد حول رأسها. وبالفعل بدأ العشب حول سورمينا يتموج على شكل نصف دائرة تحاكي بذلك حركتها، وكان واضحًا أن الريح تدور حولها هي.

ولدهشة دورا بدأ مسار الريح العكسي يحمل بعض كلمات سورمينا، لكنها كانت كلمات غير مفهومة بالنسبة، تضرُّع لأحد لا تعرفه دورا، خرج في شكل غناء مُشفَّر لم يسبق لها من قبل أن سمعته.

- يا رب السماوات، ياقادر، احفظنا من تلك العاصفة، اكفنا شرها، أيها المسيح الإله حُلْ بيننا وبينها، وأبعدها عنا أيها الروح القدس! هاجيوس أوزيوس، إيسخيروس.. قدوس قدوس قدوس هو الله رب الناس.. لك المجد ولك ملكوت السماوات والأرض.

أخذت دورا تشحذ أذنيها بأقصى ما تستطيع، وهي تنظر غير مصدقة إلى أعلى حيث سورمينا، التي بدأت الآن بحركة يدها ترسم صليبًا كبيرًا من السماء إلى الأرض ومن اليسار إلى اليمين. واستمرت في تعويذتها:

- اللهم أجرنا من شرور تلك الغيوم، وأبعد عنا تلك العاصفة الهوجاء بكل ما تحمله معها من مهلكات، ومن شدة البرد، والرعد، والبرق.. أتوسل إليك يا قدير أن

تجنبنا إياها وتكفينا شرها!

أخذت الريح تدور وتصطدم بالمنحدر ثم تأخذ معها التربة وترتفع إلى أعلى مصطحبة معها سيقان العشب الجاف ورءوس زهور المروج التي اقتلعتها. فامتلأ فم وعينا دورا بالغبار.

- استعذت منكم باليوم الآخر، بالله القادر، أن توجهوا البرد القارس بعيدًا عن المحصول والحدائق نحو الصخور والغابات والماء، حيث لا يوجد من يزرع ويحصد أو يطعّم الأشجار.

ثم جاءت هَبَّة ريح قوية ضربت جسد دورا ولم يستطع حتى تمسكها بالعشب أن يمنع سقوطها. بقي في يديها، عندما طار ذراعاها في الهواء، وانزلقت على ظهرها بضعة أمتار إلى أسفل. أظلمت الدنيا أمام عينيها، ولم تستطع أن تفعل شيئًا سوى أن تصرخ من شدة الخوف. حدث ما كانت تخشاه، ستجرها الريح أمامها كحزمة قش، وستبقى أمامها عاجزة.. إلا أن حجرًا اصطدمت به أوقف انزلاقها، فتألمت من وقع الاصطدام وانهمرت من عينيها الدموع.

النجدة! كانت تحاول أن يعلو صوتها فوق صوت الريح. النجدة!

إلا أن سورمينا لم تتحرك خطوة واحدة، ولم يكن في المكان أحد سواها يمكن أن يساعدها. تمسكت بقوة بالحجر ووضعت رأسها بين ذراعيها في محاولة للاختباء من العاصفة ومن قطع العشب وفروع الأشجار المتطايرة، التي كانت تضرب وجهها كالسياط، كما كانت تختبئ من الخوف الذي أثارته فيها العاصفة. وفي عز ضعفها لم يخطر لها أى شيء آخر سوى الصلاة.

- أبانا الذي في السماء، تقدس اسمك.

أخذت تصلي وهي على وشك البكاء. ولم تتوقف حتى عندما ملأ الغبار فاها، وبدأت في السعال.

... في السماء والأرض..

وانحرفت نحوها دوامة من الغبار لتمر من فوق رأسها. لكن الكلمات كانت ما تزال

تنطلق من لسانها، في البداية بصوت منخفض ثم علا صوتها، وفي النهاية أخذت تصرخ بكل ما فيها من قوة، وقد خرجت عن شعورها: واغفر لنا خطايانا، كما نغفر نحن لمن اقترفوا في حقنا الذنوب.

ثم حدث أن ثارت الرياح من جديد، بعدها هدأت قليلًا ثم اشتدت مرة أخرى، وفجأة انعطفت بقوة تقريبًا ضد مسارها الأصلي وبعد هبَّة مفاجئة توقفت وهدأت.

اختلط صوت دورا بصراخ سورمينا في ذلك السكون فخرجا متطابقين:

- ... واكْفِنا كل الشرور.. الروح القدس، إله واحد، إلى الأبد. آمين!

وهكذا انتهى كل شيء، كما لو كان ذلك قد حدث بإشارة واحدة من يد أحدهم، ولم يعد للعاصفة أي أثر، فتراجعت الغيوم وتدحرجت الظلمة الحالكة المخيفة المصاحبة لها صوب الغابات المهجورة بجبل كيكولا خلف هروزينكوف، بعيدًا عن جيتكوفا.

أخذت تحملق في الغيوم المنسحبة في حيرة. ماذا يعني هذا؟

هيا تعالي، قومي، انحنت نحوها سورمينا وهي تتأوه. أخذت دورا تحت ذراعها وساعدتها كي تحرك قدميها. كانت يدها ترتعش، وعندما استدارت دورا نحوها، رأت كيف أخذ الإرهاق مأخذه من وجهها.

اتكأت إحداهما على الأخرى ونزلتا إلى أسفل. ووقفت باجلاركا عند الحظيرة تلوح لهما في سعادة، ومن حولها يعقوب يهتف.

فعلتِها يا سورمينا، فعلتِها! تصديتِ للعاصفة! كانت تصيح ناحيتهما في سعادة.

قالت سورمينا عندما احتضنتها باجلاركا وهي تومئ برأسها صوب دورا: هذه المرة كان لها هي الأخرى فضل.

وفي ذلك المساء أفرطت سورمينا في الشراب.

حدثت واقعة التصدي للعاصفة قبل ثلاثين عامًا. ثم تكرر حدوثها بعد ذلك عدة مرات، حتى اعتادت دورا على إيمان سكان جيتكوفا بقدرة خالتهم على التحكم بالطقس والتصدي للريح والمطر.

واليوم بالتحديد عاودتها تلك الذكرى من جديد. كالعادة في كل يوم جمعة يستقلُّون الحافلة إلى أعلى تجاه كوبانيتسه، لكنها هذه المرة أخذت تسوي الطريق برسم خط تتدفق فوقه أمطار الخريف التي لا تتوقف. وبدأت السماء المتلبدة بالغيوم تقترب من الأرض رويدًا رويدًا بشكل ينذر بالشر.

وظهرت المدقات التي بللتها الأمطار عبر نافذة الحافلة العريضة وكأنها أمواج متعرجة. وكان يعقوب يتابع حركتها بأصبعه، يحاول ملاحقتها بطرف سبابته واحدة تلو الأخرى، وراح يفعل ذلك من جديد بعد أن التقت جميع المسارات في طريق واحد. أما دورا فقد تخطى بصرها رأس يعقوب إلى الخارج لتشاهد المناظر الطبيعية التي تركض من وراء النافذة، وقد انحنت أمام الرياح العاتية، التي بدأ الركاب على متن الحافلة يستشعرون قوتها.

كانت تفكر، أكان بوسع سورمينا أن تفعل شيئًا ترد به تلك الأمطار الغزيرة؟ كانت منذ اللحظة التي رأت فيها سورمينا تصد تلك العاصفة، تقارنها بكل أمطار رأتها تسقط بعدها.

اندفعت الحافلة إلى أعلى لتصل إلى بانوف متخطية بيسترشيتسه بود لوبانيكم ثم تابعت صعودها لتصل إلى هروزينكوف. وفي ظل هطول الأمطار لم يستطيعا الصعود إلى بيتهما كما اعتادا، فاضطرا للبحث عن وسيلة مواصلات تقلُّهما إلى جيتكوفا.

ولم يعطيا للسائق الإشارة ليتوقف إلا عندما أصبحوا بالفعل أعلى التل، ومع ذلك كان عليهما السير لمسافة طويلة أعلى التل مرورًا بـ روكيتوفا وهوداكي وبيدوفا. أخذت دورا تعين يعقوب على حمل حقيبة الظهر التي وضعها على كتفه، علقت حقيبة الكمبيوتر

المحمول في ذراعها، وفتحت المظلة لتحتمي بها من هجمة الريح.

واختفى طريق الحصى تحت الوحل. سارا بجوار بعضهما مُنكمشي الجسد أسفل المظلة، حاولا تجنب الخوض في البرك، وكانا من وقت لآخر يوجهان ناظريهما إلى أسفل ناحية الجانب السلوفاكي، صوب منحدرات الجبال التي تعاود الارتفاع مرة أخرى على بعد مسافة قصيرة لتصبح تلالًا مرتفعة، يتجمع عندها بخار الماء المتصاعد من الغابة ويشكل سحبًا ما تلبث أن ترتفع إلى أعلى فوق الوادي الضيق حتى تكاد تقترب من أقدامهما. وعلى الرغم من أن حدة الأمطار قد خفت، إلا أنها ما زالت تتساقط بقوة على بنطاليهما. ولم يسعهما إلا أن يتوقفا ليتأملا هذا الجمال الفتان.

فاجأهما صوت باجلاركا وهي تقول: دورا، يعقوب، منذ زمن طويل لم أرَكما! لم يستطيعا رؤيتها من خلف حافة المظلة وهي تقترب منهما.

قالت دورا: نحن قادمان من برنو يا خالة، ثم تابعت بأنها سعيدة لرؤية باجلاركا، كما أنها ترغب في الحديث معها.

فأشارت إليها باجلاركا: غدًا.. ألا ترغبين في تناول الغداء معنا؟ ثم قالت وكأنها تقرأ أفكار دورا: لم تأتيا لزيارتنا منذ وقت طويل. وكانت حينها تشد معطفها الأصفر الواقي من المطر، الذي علق غطاؤه فوق جبينها.

استدارت دورا نحو يعقوب قائلة: بكل سرور، أليس كذلك؟

هز يعقوب رأسه في سعادة.

قالت باجلاركا وهي تبتعد مسرعة: غدًا إذن، وآمل أن ينتهي الطقس السيئ حتى لا تتعثرا في الوحل في طريقكما إلينا. تعاليا في الثانية عشرة.

ثم جاءهما صوتها من خلفهما، عندما راحت تختفي أسفل الطريق في طريقها إلى تل روكيتوفا حيث تقيم: هل فكرتِ في أن خالتك لم تكن لتسمح بحدوث ما نحن فيه؟ هكذا قالت، ثم ذهبت الريح ببقية كلماتها، فلم يصل لـ دورا منها بعد ذلك شيء.

وفي المساء عندما كان صوت أنفاس يعقوب الهادئة وهو نائم فوق التنور تصل إلى أسماع دورا، أخرجت من قاع صندوق الملابس مذكراتها القديمة، تلك التي تشجعت على

كتابتها بعد أن تركت دار رعاية القاصرات. وكان تاريخ المدونة التي تبحث عنها يرجع إلى اليوم التالي بعد عودتها من آخر زيارة لها لسورمينا.

أخذت تقلّب صفحاتها على مهل. وراحت تفكر في أن كل شيء حينها كان مختلفًا. شعرت بالراحة وقد سرحت بخيالها لترى الفرق بين اليوم وتلك الفترة التي دخلت فيها فجأة مرحلة البلوغ. وراحت تعيد قراءة الصفحات التي تسبق تلك التي تبحث عنها، ثم وقعت عيناها على الصفحة المقصودة، وكانت تسجل ما جرى في بداية مايو من عام 1979:

ما حدث كان مروِّعًا، مروِّعًا! كانت حالتها سيئة تمامًا كالمرة الفائتة، عندما اقتدتها إلى الخارج كما لو كنتُ أمسك بدُمية. لم تكن تلك هي سورمينا، كانت مجرد شبح، شخصًا آخر يشبه سورمينا من بعيد. جلسنا تقريبًا طوال الوقت في صمت بجوار بعضنا، ولم أكن أعرف حينها إن كان هناك أصلًا ما يستحق القول.

لكن شيئًا بعد ذلك حدث! بدا الأمر وكأن شيئًا ما تحرك بداخلها، أخذت ترتعد، تنتفض، وتتنفس بصَعوبة، ثم أخذت تنظر إليَّ نظرة جعلتني أشعر بالخوف. لكن ماذا قالت؟ التصقت أذناي بشفتيها، لكني لم أفهم كل ما قالت، لكن ماذا قالت؟

هل أخبرتني عن أولئك الذين ينبغي أن أبتعد عنهم، وعن هؤلاء الذين يمكنني أن أثق بهم؟ هل هم الموجودن هنا، أم أهل بلدتنا؟

وماذا كانت تعني بتلك الخطوط السوداء؟ ربما لم تكن تعني بها التنجيم؟ ما هذه السذاجة؟ لم يكن حتى القس ليدَّعي ذلك في عظته، إذن لِمَ قالت هي ذلك؟ وماذا قالت عن الساحرات؟ لماذا راحت تسرد أسماءهن؟ ولماذا ذكرت بالتحديد اسم ماهدالكا وفوكسينا اللتين لا أعرفهما ولم أرهما في حياتي! والطفل، أي طفل تعني؟ ولماذا يتوجب على إخفاؤه؟ وهل أنا من يجب عليها أن تخفيه، أم هي؟ وأين أخفيه؟ هذا ما لم أستطع فهمه. وأنه يمكنني استخدامه إذا ما ساءت الأمور.. كان ذلك مربكًا ومحيرًا، وهل هكذا كانت تقول بالفعل؟ لا أعرف، يصعب معرفة ذلك، فمع بقايا الذكريات القديمة والأفكار المشوشة ببساطة لا يمكن أنْ تتجلى الحقيقة. ربما فقط عندما أشارت إلى أولئك الألمان، كنت أعرف عن أي زمن تتحدث، لكنها لم تسمعني حينما قلت لها إنها

مخطئة؛ لأنها بالتأكيد لا يمكن أن ترى أيًّا منهم الآن، وأنها تخطت هذا الأمر ولم يعد هناك الآن ما يمكن أن يخيفها! لكني حتى بذلك لم أستطع إيقاف جريان سيل الرعب الجارف والخوف الذي انساب منها. كانت تلح عليَّ بجنون أن أكتب، وأنا لا أستطيع أن أصدق ما أرى. خالتي سورمينا، خالتنا سورمينا أُصيبت بالجنون؟ وهل يوجد اسم آخر لما حدث بالأمس؟

أشعر بقشعريرة في جسدي.. لم يعد أي شيء كما كان من قبل؛ لأنها هي لم تعد كما كانت من قبل. لن تسير الأمور كما كنت أود، لن تعود إلى سابق عهدها، ولن نعود نحن الثلاثة لنعيش معًا مرة أخرى في بيدوفا كما كنا نعيش في سابق الأيام؛ لأن سورمينا أصبحت تعيش في عالم خاص يطاردها فيه الخوف الذي لا أفهم أسبابه، وأشعر أمامه بالعجز. كيف يمكنني أن آتي بها إلى هنا، وأرعاهما معًا؟ ربما لن أستطيع تحمل ذلك.

وضعت دورا كفيها على وجهها، وبعد فترة ليست بالقصيرة ضمت راحة يديها وقد أخفت بداخلها أنفها وفمها، وظلت بلا حراك لعدة دقائق، وراحت تلوم نفسها وتتبع اللَّوْمَة بسابقتها. وكانت هي نفسها في ذلك الحين تعتقد أن سورمينا قد جُنت، وأنها انحدرت إلى أعماق المرض. أنها فقدت عقلها.

واليوم أصبحت تخشى أن تُصاب هي الأُخرى، دورا، بالجنون، بعد أن علمت بأنها صدقت الأكاذيب، وتركت نفسها للخداع بكل تلك السهولة، وبأنها تركت سورمينا تعاني وحدها. سورمينا التي فعلت من أجلهم الكثير!

بدأت تحرك جفنيها بقوة كي تتغلب على دموعها التي بدلًا من أن تترك لها العنان لتنهمر من عينيها، عادت من جديد للتركيز على المدونة وراحت تفتش عن ذلك الجزء الذي دونت فيه عبارات سورمينا الغامضة. ولكنها ما زالت، حتى بعد أن عرفت خلفية قضيتها عن قرب، لا تفهم على وجه التحديد ماذا كانت تعني بتلك الكلمات.

تجنبهم وعدم الثقة بهم. من هم؟ من كانت تقصد بذلك سورمينا؟ وماذا تعني تلك الإشارة إلى ماهدالكا؟ كانت إذن على علاقة بهم، كانت تستشعر ذلك بالفعل! ثم عن أي طفل كانت سورمينا تتحدث؟ وما هذا الذي عليها أن توظفه لمصلحتها؟ وكيف؟

تتابعت في رأسها أسئلة كثيرة جدًّا لم تكن تعرف لها إجابة، فأصابتها الكآبة

والإرهاق. وتعلقت كل آمالها في هذه اللحظة بـ باجلاركا؛ فهي الوحيدة التي يمكنها مساعدتها على إزاحة الضباب العالق بذاكرتها وفهم كلمات سورمينا التي استغلقت عليها.

****

أعدت لهما باجلاركا على الغداء كريمة الملفوف التي تشتهر بها. وبعد الغداء جلست دورا على دكة أمام البيت وهي تقبض بيدها على كوب كبير أخذت تحتسي ببطء ما به من مغلي الهندباء. كانت تتابع يعقوب وهو يقف بالقرب من الطريق أسفل التل. سمعت صرير الباب ثم ظهرت باجلاركا ومعها طبق به قطع الكعك. جلست وهي ترتعد من البرد، وقد ألقت على كتفها شال تريكو عريضًا وببطء أخذت تفرد قدميها اللتين غطتهما بجورب ثقيل، سمعت دورا صوت طقطقة خفيفة فقالت لنفسها: لقد كبرتْ في السن.

قالت باجلاركا وقد انطلقت من صدرها تنهيدة: شيء مروِّع. تقولين إن البوليس السري كان يراقب سورمينا؟ وهو الذي يقف وراء إيداعها مستشفى الأمراض العقلية؟ وأضافت وقد بدا عليها الهم: هل يمكن أن تكون كل تلك السنوات قد مرت عليَّ ولم ألحظ شيئًا كهذا؟

ظلت دورا تحتسي الهندباء في هدوء.

- لكنك تعرفين كم البشر الذين كانوا يأتون إلى هنا. ولم يكونوا يترددون عليها وحدها، كانوا يقصدون كذلك إيرما جابرهيلوفا، وكذلك كاترشينا هودوليكوفا وكراسنيتشكا عندما كانتا ما تزالان على قيد الحياة، وغيرهن.. من كان يستطيع معرفة ما إذا كان أحدهم يراقبها؟ أنا شخصيًّا لم أكن لأتساءل من هؤلاء الذين يسعون إلى الساحرات، وماذا يفعلون هنا، وما إذا كانوا قد جاءوا إلى سورمينا سعيًا وراء النصح أو طلبًا للمساعدة أو لسبب آخر. كنت مشغولة بأحوالي. ولكي تهدأ روحك، أقول لكِ أنا لم أسمع مطلقًا طوال عمري أن الشرطة كانت تتبع سورمينا.

صمتت باجلاركا قليلًا، ثم سارعت بالقول:

- حسنًا، كانوا يترددون عليها من وقت لآخر، حدث ذلك بالفعل. كان ذلك يحدث

مع كل الساحرات. قد تعرفين أن عملهن لم يكن محل رضاء الكثيرين، وخاصة أولئك الذين فضحت الساحرات شيئًا مما كانوا يفعلون من سرقة أو غش، كما أن اطلاعهن على الغيب لم يكن يروق لبعض الرجال من أزيار النساء. فكان هؤلاء يحرِّضون عليهن السلطات هنا وهناك. لكن مردود ذلك كان ضعيف الأثر، مجرد نزاعات محدودة لا يمكن أن تؤدي إلى أي شيء خطير، أعني بذلك تلك الخطورة التي مثَّلها وجود هوفر وكذلك الفترة التي تلت الحرب العالمية الأولى، كانت تلك الأحداث هي الأسوأ، أما ما عداها فلحسن الحظ لم له يكن أثر محسوس. في تلك الأيام كانت مهنة التنجيم أكثر خطورة، وكانت الساحرات يمكثن في الحبس عدة أسابيع كل عام. وربما كان على دورا جابرهيلوفا أن تشكر رجال البوليس والأطباء لأنها ماتت في شبابها. لكن بعد ذلك في زمان سورمينا... باختصار كنت أظن أن ذلك لم يعد يحدث.

أخذت دورا تسوي المفرش الصوف من تحتها. بالأمس تبدل الجو فصار اليوم خريفيًّا دافئا بعد أن كان سيئًا، إلا أن الشمس ما زالت على حالها واهنة عديمة التأثير. ثم تابعت قائلة: بالفعل، هذا ما حدث كما ترين. كانوا يرصدون تحركاتها، وفي النهاية استطاعوا أن ينالوا منها، ومني، ومنكِ، وذلك عندما أقنعونا جميعا بأنها مريضة.

ابتسمت باجلاركا في ارتباك وهزت رأسها، كما لو كانت تريد أن تهدئ من روع طفل غاضب، فاستدارت دورا نحوها في دهشة: أم تراكِ تعتقدين أن خالتي كانت بالفعل مريضة؟

تفهمين ما أعني.. هل كانت لديهم أسباب جعلتهم يحتجزونها هناك؟ سألتها باستياء. فقد جرح رد فعل باجلاركا مشاعرها.

حسنًا.. أخذت باجلاركا تشدد على الحروف، ثم قالت: أنا أعرف شيئًا واحدًا، وهو أن حظ هؤلاء الساحرات كان ببساطة عاثرًا. وعلى ما أتذكر، لم تنجُ أي منهن من ذلك المصير السيئ. فقد انتهت حياة والدتك النهاية التي تعرفينها، ولم تكن قد بدأت بالفعل في العمل بالتنجيم. أما إيرما فقد هربت ابنتاها حياءً من الشعوذة التي كن يمارسنها، وفقدت إيرما ولديها، ويقال إنها السبب في موتهما. وكان يكفيها ساعتها أن تسكب الشمع وتطلع على الغيب، وتمنعهما من ركوب هذه السيارة. مات ولداها وزوجتاهما في

تلك السيارة، وتركا من بعدهما أربعة أطفال أيتام. كانت فاجعة. وأذكر من حكايات أمي وجدتي أنه حتى الساحرات الأكبر سنًّا لم تستطع أن تنجو من هذا المصير. جميعهن انتهت حياتهن بهذه الطريقة، وكون سورمينا انتهى بها الحال في المصحة، فسواء وصلت إلى هناك لكونها مريضة أو لأن أحدهم حبسها هناك، فالأمران سيان. في كل الأحوال مصيرها كان محتومًا.

ارتعد جسد دورا عندما سمعت ما قالته باجلاركا. أكان الأمر يستوي إذا ما كانت حياتها قد انتهت بالمصحة لكونها مريضة أو لأن هذه هي إرادة البوليس السري؟ لا يمكن أن تكون تعي بالفعل ما تقول!

كانت تريد أن تعارضها، لكن باجلاركا عاجلتها بالقول:

- بالطبع المعرفة شيء هام، لكن ربما سمعتِ عن فوكسينا، أم أنك لا تعرفينها؟

توقفت دورا قليلًا تفكر. فوكسينا؟ ثم قالت في تردد: لديَّ بعض المعلومات عنها. ثم تابعت حديثها: جاءت سورمينا على ذكرها مرة، عندما ذهبت إليها في كرومنيرشيجه، لكنه كان كلامًا غير مفهوم. قالت لي شيئًا، وكأني بها تريد أن تحذرني منه. تعرفين أن تفكيرها كان مشوشًا بفعل الحبوب التي كانت تتناولها، لدرجة أنها لم تكن تدرك أن فوكسينا قد ماتت من زمن بعيد.

هزت باجلاركا رأسها.

وأضافت دورا: وبخلاف هذه المرة لم تذكرها مطلقًا.

قالت باجلاركا وهي تتحسس كلماتها: لا عجب. وبعد قليل بدا أنها لم تستطع أن تكتفي بما قالت، فتابعت قائلة: كان مصيرها خير شاهد على مدى سوء حظ الساحرات. فكلما كانت قدراتهن أعظم، كانت حياتهن أكثر مرارة ووفاتهن أكثر قسوة وسوءًا. توفيت فوكسينا في نهاية الحرب، لكن كيف ماتت! وهنا ظهر الامتعاض على وجه باجلاركا، حتى كادت شفتها من فرط السخط والعبوس تلامس أنفها وهي تقول: ضربوها مثل الكلب.

تعجبت دورا. فوكسينا توفيت أثناء الحرب؟ فوكسينا ضربوها كالكلب! لم تكن تعرف عن ذلك شيئًا.

تساءلت: ضربوها؟ من فعل بها ذلك؟

أخذت باجلاركا تتمعج في جلستها:

- بالفعل يا ابنتي، لا أحد يعرف. فقد كانت الوفود تترى من هذا الطريق، وكانت الغابة تعج بأناس عجيبة، كما أن أهل البلدة كانوا يرغبون في حل مشكلاتهم بطريق مباشر وليس عبر المحاكم. تعرفين ذلك.. ألم تسمعي عن تيرماليك الذي أشعل النار في جاره وهو نائم في فراشه، وكتبت الجرائد عن ذلك الرجل المحترق؟ حدث هذا قبل أقل من شهر. يمكن أن يحدث هذا فقط في كوبانيتسه. ربما هكذا يسوي البعض خلافاتهم. كانت فوكسينا تقيم مع عائلة ماهدال التي كان البعض ينظر إليها باعتبارها عصابة شريرة.

شحذت دورا أذنيها. عائلة ماهدال؟ ماهدالكا هو لقب يوسيفينا سورمينا بعد الزواج.

تساءلت وقد ملأها الفضول: هل كانت فوكسينا تعيش مع عائلة ماهدال؟ ثم من هي عائلة ماهدال هذه؟

قطعت باجلاركا كلامها لبرهة، ثم تابعت في ارتباك كما لو كانت تسمع هذا الاسم للمرة الأولى: عائلة ماهدال؟ بعدها قالت:

- لكن.. كانت عائلة غريبة الأطوار تقيم في بوتوتشنا.

انتظرت دورا قليلًا لترى ما إذا كانت ستتابع حديثها، لكنها عندما لم تفعل سألتها:

- وهل كانت عائلة ماهدال قريبة لعائلة سورمينا؟

تغيرت ملامح باجلاركا، ثم قالت بعد أن ظهرت أمارات العبوس على وجهها:

- أقارب؟ أنا لا أعلم أي شيء عن ذلك.. كل ما أعرفه هو أن سورمينا لم تكن تحب عائلة ماهدال، لكن لم يكن في ذلك شيء يلفت النظر، بالتأكيد لا. بخلاف ذلك بعض الساحرات كانت تربطهن ببعضهن البعض علاقة كراهية متبادلة، ثم إن عائلة ماهدال لم تكن محبوبة من أحد. كانوا حثالة ماكرين إلى أقصى درجة يمكنك أن تتخيليها. لا أعرف أكثر مما قُلته لكِ.

قطعت باجلاركا كلامها، ثم نهضت متثاقلة، أخذت تسوي تنورتها، ودخلت إلى الدار.

كانت دورا تشعر أن باجلاركا تخفي عنها شيئًا، كما لو كانت عائلة ماهدال تنطوي على سر ما، ومهما نفت باجلاركا علمها به، فإنها تعلمه. أرادت أن تسألها عنه، ولكن عندما عادت باجلاركا لتقف عند مدخل البيت، بادرت بالقول:

- كانت بين الساحرات نزاعات. كانت الواحدة منهن تحقد على الأخرى وتتقوَّل عليها، إنه تنافُس الأنداد. كن يتصارعن على العملاء، ويستخدمن في هذا الصراع كل الوسائل لتثبت كل واحدة منهن أنها الأفضل. تذكرين قصة إيرما وكاترشينا، كانت بينهما علاقة نسب ومصاهرة، وعلى الرغم من ذلك كانت إحداهما لا تطيق سماع اسم الأخرى ولم يضع لذلك العداء نهاية سوى وفاة كاترشينا.

كانت دورا تعرف أن إيرما وكاترشينا، آخر ساحرتين كانتا تمارسان مهنة التنجيم في جيتكوفا، لم تكونا تلقيان على بعضهما التحية. كانت تعرف كلتيهما، وهما سيدتان مسنتان، محدبتا الظهر، ودودتان، ومستعدتان دائمًا للمساعدة، لكن للأسف ما إن ينطق أحدهم اسم واحدة منهما أمام الأخرى حتى تسيل منها الكراهية سيلًا، حتى يبدو الأمر وكأنهما ستتقيئان سمًّا.

- وتسببتا بذلك في تفريق شمل العائلة، وتباغض الأبناء بسبب تلك المهنة. وكما تعلمين، لم يكن لهم في ذلك عذر. لا يمكن للمرء أن يزدري أمه من أجل سجلها المهني. وكما قلتُ لكِ كانت حياة الساحرات قاسية.

سكتت باجلاركا وقد اعتراها الحزن، وفجأة قالت وهي تتلعثم:

- لكن لا تخافي، فلن تلقي نفس المصير. وفضلًا عن ذلك أنتِ لا تجيدين الكهانة، أليس كذلك؟

هزت دورا رأسها بالنفي. كيف خطر لها ذلك على بال؟

هزت باجلاركا رأسها بسرعة، وعانقتها وكأن حملًا قد انزاح من فوق أكتافها، وهي تقول:

- حسنًا، حسنًا فعلت عندما نأيتِ بنفسك عن تعلمه. أنت لا تمارسين التنجيم؛ ولذلك فلن تلقي ذلك المصير الأسود. أنتِ تعلمين أنه من الأفضل ترك تلك الهبة الإلهية خاملة. ستكونين أفضل بدونها.

هزت دورا كتفيها، إذ لم يكن لديها مزيد من الاختيارات. لم تبادر سورمينا بتعليمها، وبعدها صار الوقت متأخرًا.

وظهر يعقوب وهو يصعد نحوهما. كان يُلوِّح في ضجر بفرع شجرة التقطه من مكان ما بالغابة، ولم يتوقف حتى بعد أن صرخت فيه دورا عدة مرات ليفعل. كان الوقت قد حان للعودة إلى البيت.

قالت لها باجلاركا وهي تودعهما وقد ألصقت طبق العكك بصدرها:

- لم أفيدك كثيرًا، أليس كذلك؟ لكن أتعرفين؟ إذا كنتِ ترغبين في معرفة أي شيء عن سورمينا أو عما كان يجري هنا من قبل، فاذهبي إلى إيرما. ما زالت محتفظة بكامل وعيها، على الرغم من كونها تقترب من عامها الخامس والتسعين. خذي معكِ من الضيعة بعض المخبوزات واللانشون واذهبي إليها وأسأليها، ولن تخذلك. فقد كانت على ما أتذكر على وفاق مع سورمينا.

جلست بالقرب من الطاولة رأسها مائل، وظهرها حناه المرض. كانت ترتدي زي العمل وقد ربطت فوقه مريلة، بينما غطى ما تبقى من شعرها غطاء رأس أحمر زاهٍ، يكاد يختفي بداخله وجهها الأسمر النحيل. وظهرت من تحت حافته عينان سوداوان عميقتان تتنقلان بحيوية هنا وهناك وتجذبان النظر كما لو كانتا قطعتي مغناطيس، تعبث أطراف أصابعها المرتعشة بطرف كُمها الذي بهت ما به من تطريز، وإن كان ما يزال يحتفظ بجماله، الذي أثارت دقة غرزته إعجاب دورا. في تلك اللحظة كانت تسمع صوت إيرما الخشن العميق، الذي لا يُتوقع صدوره من عجوز ضئيلة الجسم مثلها.

- كانت الحرب شيئًا مرعبًا، وبالذات في نهايتها. لكِ أن تعلمي أن الشك والقلق حينها كانا هما السائدين. كان المرء يخشى النوم ليلًا. والفدائيون أو المهربون أو رجال حرس الحدود يقرعون علينا الباب، كانوا يتوافدون أمام بابنا. وكان زوجي يعقد بعض الصفقات المشبوهة، تعرفين، كانت أيامًا صعبة، وكان عليه أن يوفر لنا العيش قدر الممكن، وكنا نَعُول في ذلك الوقت أبناءنا الخمسة الأُول، كما كان يقيم معنا بالبيت والده، وكان طريح الفراش. جاء زوجي يومًا مصطحبًا معه ذلك الحصان، فأصبت بالزعر. كان ذلك منتهى الجنون أن يتنقل بين الجبال بالأحصنة المسروقة على مقربة من حرس الحدود! كدت أطرده حينها من البيت، لكنه انصاع لكلامي، ومن بعدها اكتفى بمجرد الاتجار بالكحول، أو بأشياء تافهة لم أكن أهتم بالسؤال عنها، كالطعام والدخان، وهي البضاعة الرائجة في ذلك الوقت. كان الجميع حينها يقبلون على الدخان. وكان هو يخزنه في غرفة تجفيف الماشية، هناك في الغابة. أما شركاؤه من المهربين الشبان فكانوا يذهبون إليه هناك بعد حلول الظلام، وكانوا أحيانًا يأتون إليَّ وهم يجرجرون أحدهم، مرة يأتونني برجل مخلوع القدم، وأخرى بمصاب بطلق ناري، وكانوا على قناعة بأن الساحرة تستطيع أن تفعل المعجزات. وكان رجال حرس الحدود يقضُّون مضاجعنا، فلم يكونوا يتركون ركنًا بالبيت إلا ويفتشونه.

خرجت من إيرما تنهيدة حزينة وهي تقول: في سنة خمسة وأربعين أضيف إلى كل هذا الطيران المنخفض، جلبة بالليل، وصخب بالنهار، كانت فترة عصيبة.

بدأ ذلك الطيران المنخفض في التحليق في الصيف، وفي نهايته، أي في أغسطس حدثت الكارثة. أتذكّر ذلك بدقة كما لو أنها حدثت اليوم. كان ذلك في اليوم التاسع والعشرين، وكان الصيف يوشك على الرحيل، في الصباح كان الجو باردًا ، وعموما كان البرد قارسًا في ذلك العام، كما لو كان الخريف قد بدأ بالفعل. وكنا في ذلك الوقت قد بدأنا نعتاد التحليق المنخفض للطائرات وسماع صوت الطائرات هنا وهناك تلقي بالمنشورات مرة أخرى. لكن أن تحدث مذبحة في ظهيرة ذلك اليوم، هذا ما لم يكن يحسب حسابه أحد. في البداية أرعدت السماء قبل أن نتمكن من رؤية مجموعة نقاط صغيرة فيها تقترب، وأقصد بها قاذفات القنابل الأمريكية، وفي غمضة عين انطلق صوبها الألمان كما تنطلق الصقور من منطقة ترتشين بطائراتهم المقاتلة، وأصابوا بنيرانهم طائرات الأمريكان، فسقطت جميعًا. وصاروا يبحثون عن الضحايا من الأهالي بداية من بلدة بوشاتسكي وصولًا إلى سلافيتشين لمدة أسبوع بعد ذلك. ويُروى أن عددهم قد تجاوز الأربعين، ولقي أكثر من نصفهم حتفهم، مات بعضهم محروقين، وظلوا لمدة يومين يتأرجحون فوق قمم الأشجار، يتدلون من مظلات الهبوط. كان الكل يبحث عنهم في الغابة. وجاءت الشرطة الألمانية من منطقة زلين، ورجال الشرطة التشيك، وبحث عنهم الفدائيون، وحتى أهالي بلدتنا كانوا يشاركون معهم في البحث، وأعني بهم أولئك الذين لم يكن لديهم هموم أخرى تشغلهم في ذلك الحين. فقد حمل هذا الصباح معه لـ هروزينكوف بحرًا من الأحزان.

كانت أندولكا زيندولوفا من بلدة فيشكوفتس على سبيل المثال يومها على موعد مع القدر. كانت تعمل مع أبنائها جميعًا في الحقل كالمعتاد، فجرفتها الطائرات المحطمة، ولم يستطيعوا إخراجها من بين حطامها إلا مع حلول المساء. وقبل أن يتمكنوا من الذهاب لإحضار الماء للإطفاء وإخلاء المكان، أخرجوا منه مجرد أجزاء من أجساد محترقة. وبعد مرو عامين، عندما كان أحدهم يحرث أرضه، وجدوا هناك يد إنسان، مجرد عظام. وقتها لم يكونوا يعرفون إن كانت بالفعل يد أندولكا، أو أحد هؤلاء الذين كانوا على متن الطائرة ممن احترقوا معها. لذلك حفروا أسفل النُّصب التذكاري للقتلى الأمريكيين المقام بمقابر

بلدة سلافيتشين، التي تم نقل رفات جميع الجنود منها في عام ستة وأربعين إلى ما وراء المحيط. وبقيت تلك اليد أسفل النُّصب.

ولا يقل عن هذا فظاعة ما حدث كذلك لعائلة شوبيك، التي كانت تقيم هناك على الطريق المؤدي إلى بوشاتشكي، حيث يوجد أكبر عدد من النصب التذكارية للأمريكيين، كان عددها ثلاثة بالتمام. تقف جميعًا هناك حيث سقطت تلك الطائرات، بالتحديد في تلك الأماكن التي سقطت فيها لتسكن باطن الأرض. يومها شق جناح الطائرة سقف بيت عائلة شوبيك فدفن تحته اثنين منهما، لا أذكر الآن أيهما، لكن أحدهما كان شابًّا صغيرًا جدًّا؛ لأن نعشه كانت تحمله العرائس المتشحة بالسواد. أذكر أنهم استدعوا أُمي إلى هناك، وكان الناس يطلبونها أكثر مني عندما كانت ما تزال على قيد الحياة، ولم يكن بين الساحرات من هي أفضل منها. لكن لم يكن بوسعها فعل أي شيء. وعندما أطفئوا النيران المشتعلة في البيت، لم يجدوا سوى بقايا محترقة من أجساد اثنين من أسرة شوبيك والطيار.

ولكِ أن تعلمي أن أحدهم ويدعى هاري قد سقط ببيتنا أيضًا. وكان اسمه هو الشيء الوحيد الذي نعرفه عنه على وجه اليقين. وما عدا اسمه لم نكن نفهم منه كلمة واحدة، ثم إننا لم نكن نحتاج أن نفهم كلامه كي نعرف ما به. فقد كان وجهه محترقًا بالكامل، وشعر رأسه لم يعد له وجود، بينما انتشرت الخدوش في جميع أنحاء جسده، وكان مصابًا بجرح عميق في ظهره وآخر في قدمه، ولا يستطيع حتى المشي. وكان من حسن حظه أنه سقط على مقربة من بيت أمي. فأخذ يزحف ليلًا حتى وصل إليها، فأدخلته إلى بيتها. في تلك الفترة كانت تقيم في البيت بمفردها، حيث كان والدي قد توفي، وكنا جميعًا قد انتقلنا إلى بيوتنا. فقالت لنفسها إنه لا يوجد بالخارج أي أحد يمكن أن ينشر الخبر. تعلمين، كان إيواء جندي أمريكي مغامرة لا يُقدم عليها إلا القليل. أما أمي فقد فعلت. كانت شجاعة بحق، بالإضافة إلى أنها كانت مشفقة عليه. كانت حالته مزرية، لم يكن يدري حتى أين يوجد. وعندما وصلتُ إلى هناك كان يهذي. حدث ذلك في ضحى اليوم التالي، يومها ذهبت لزيارة أمي من طريق هروزينكوف، حيث أرسلتْ الجيران في طلبي. وبمجرد وصولي، عرفت أن في الأمر شيئًا. كان الباب مغلقًا بالدرباس، وهو ما لم يكن يحدث قط، ولم تخرج أمي على أثر الطرق، وعندها بدأ الخوف يتسرب إلى

نفسي، ثم فتحت وبمجرد أن رأتني جذبتني إلى الداخل. وكان الرجل يرقد هناك في زاوية الغرفة فوق كومة من القش وقد تجرد من ملابسه، حيث لم يكن يومًا في بيت والديَّ فراش، كنا دائمًا ننام فوق الفرن أو على الأرض. كان راقدًا يتأوه من شدة الألم، حتى يكاد قلب المرء ينفطر لرؤيته وهو مشوه يعاني الآلام. قالت لي أمي وقتها إنه قد أصابه ما أصابه من أجلنا نحن التشيك. وهكذا أرسلتني إلى سورمينا حتى تأتي لتعالج له عظامه. فانطلقت من فوري إليها.

وبمجرد أن وقعت عينا سورمينا على ذلك الأمريكي، جثت على الأرض بجواره، وأخذت تتحسس قدمه بأصابعهما، وطلبت منا زجاجة كحول، وتصورنا أنها تريدها لنفسها، فقد كانت تحب الشراب، ولكنها على خلاف ذلك رفعت رأسه وسكبت فوق رقبته نصف الزجاجة. وتركته قليلًا، وعندما سكن جسده، أخذت قدمه وأسندتها فوق كتف أمي حتي تتحكم في حركتها بشكل أفضل، وجلست هي القرفصاء واحتضنت ركبته، وأخذت تفردها وتثنيها، حتى عاد المفصل إلى مكانه. وكان الأمريكي مذعورًا لدرجة جعلته لا يتمكن حتى من الصراخ، فقط كان ذلك يعتمل بداخله، وبعدها سكت فجأة. على الأقل شعر بقليل من الراحة. وشربنا بقية الزجاجة في ذلك الوقت من النهار. تعرفين، لم يكن الأمر هينًا بالنسبة لنا، فقد كانت أمي وسورمينا تتصببان عرقًا من شدة الإرهاق، وكنت أنا أتصبب عرقًا خوفًا من أن يمر أحدهم بجوار البيت ويسمع شيئًا. وبعد قليل بدأنا في الخطوة التالية، وكانت أمي قد حممته في الليلة السابقة، ووضعت له على الجروح مسحوقًا من الأعشاب، لكنه كان محمومًا، وكانت البثور تغطي جلده، وكان لابد من ايقاف كل هذا. كنت أسنده وسورمينا ترفع أطرافه، وأمي تغسلها وتزيل قشور الجروح الجافة، فكان يعوي كالجرو. لا يزال الألم يعتصرني كلما تذكرته، عندها قمنا بتغطيته ووضعناه كي ينام، كان واضحًا أن ذلك المريض لن يُشفى. كانت أمي تقول إن الأمر لن يتعدى بضعة أسابيع. وكانت في غاية الهم، لأنه كان عليها أولًا أن تعمل على شفاء ذلك المريض، وثانيًا أن يبقى ذلك في طي الكتمان. أخذت تبحث مع سورمينا ما عساه سيكون من أمر ذلك المسكين، وفي تلك الأثناء أرسلوني لإحضار الأعشاب، ولكي أطعم الدجاج بالحظيرة. وعدت مع هبوط الظلام. استغرق ذلك مني زمنًا، لأني كان لابد أن أقوم بإعداد ما يلزم من متطلبات لأبنائي، كما أن الطريق من تشيرني إلى بيتي يستغرق أكثر من ساعة. وعندما عدت كان الظلام يغطي المكان. دخلت إلى البيت

في لمح البصر. كانت الدجاجة المذبوحة تتدلى من خصري، بينما أحمل بالسلة كيسًا به الأعشاب والبراندي. لكن كل هذا ذهب هباء، فلم يتبقَّ في المكان الذي كان يرقد فيه الأمريكي سوى بركة صغيرة من الدماء، أما الرجل فلم يعد له وجود. كانت أمي وسورمينا تجلسان بجوار التنور صامتتين وممسكتين بيد بعضيهما، فتساءلت متعجبة: أين هو؟ فلم تجيباني. فأخذت أهزهما بقوة لتستفيقا. ثم حكتا ما كان من أمرهما بعد أن تناولتا جرعة من الشراب. كدت أسقط على الأرض، فقد كنت حينها ما أزال مرهفة الحس، ولم أكن قد رأيت من الدنيا شيئًا بعد. وفي ذلك المساء شربنا كل ما كان لدينا من الكحول، وأصبحت في اليوم التالي في أسوأ حال.

وإذا كان ذلك الأمريكي قد استطاع أن ينام حوالي ساعة بعد رحيلي، فقد كان ذلك بتأثير الكحول، ولأنه أستطاع على الأقل التخلص من آلام قدمه. وعندها جلست أمي وسورمينا تفكران كيف يمكنهما دفعه على الأرض لينقلاه بعيدًا بعض الشيء بحيث لا يكون هكذا في مرمي البصر، إذا ما دخل أحدهم، وفي تلك الأثناء سمعتا أصوات محركات سيارات. فلم يكن بوسعهما عمل أي شيء، كل ما استطاعتا فعله هو أن تلقيا فوقه قطعة كبيرة من الخيش، قامتا بانتزاعها من فوق التنور، وفي تلك اللحظة كانوا بالفعل قد دخلوا إلى البيت. إنها لجان التفتيش. كانت تتفقد الغابة، والمراعي والبيوت الريفية بحثًا عن الطيار. إنهم رجال المباحث الجنائية الألمانية في زلين.

تجمد الدم في عروق أمي. فجأة وقف أمامها رجل وثلاثة آخرون من رجال الشرطة، حيث لم يتسع المكان لأكثر من هذا العدد، وأخذوا يحدقون فيها. كان الارتباك الرهيب هو سيد الموقف. وكان يتناوب على حراسة الأمريكي اثنان مع آخرين يقفون بالخارج، كانوا يصيحون في أمي وسورمينا، وإن كان صراخهم قد ذهب أدراج الرياح، فلم تكن أي منهما تفهم كلمة مما قالوا. فدفعوا إليهما برجل، وحكت أمي أنها تذكر أنهم كانوا ينادونه بـ „شفانزا"، ما يعني غالبًا بالألمانية „أبله". وكان شفانزا هذا يجيد اللغة التشيكية، فأدار هو الحوار معهما. كيف توصلتا إليه، وممَّ يعاني، وما هو العلاج الذي أعطياه إياه، وماذا قال لهما؟ أدلت أمي وسورمينا بكل ما لديهما من معلومات، لم يكن الإنكار واردًا، فكل شيء كان واضحًا من أول وهلة. فقط لم تشيرا إلي معرفتي بالأمر. وقالتا إنه لم يقل شيئًا؛ لأنه كان محمومًا، وإنه حتى لو كان قد قال فلن تفهما قوله، لأنه

أمريكاني. وبمجرد أن انتهتا من الإدلاء بأقوالهما، حدث ما هو أسوأ. قام أحد هؤلاء الذين يلبسون الزي الرسمي بشد قطعة الخيش من فوق الأمريكاني، وبمجرد أن رأه يرقد عاريًا، بدأ يصرخ: يهودي! إنه يهودي!

حكت أمي بعدها أنها كانت تعتقد في تلك اللحظة أن أمرهما قد انتهى لا محالة، وأنهما لن يبقيا على قيد الحياة حتى المساء. أخذت إحداهما تعانق الأخرى وبدأتا تصليان، بينما يصرخ أحدهم بالخارج معطيًا أوامره، فبدءوا يصوبون فوهات بنادقهم نحو ذلك الأمريكي الذي كان قد استرد وعيه وأخذ يحدق مذعورًا في البنادق المصوبة نحوه، حتى إنه لم يكن لديه فرصة لتوديعهما. ثم التفتوا مباشرة إلى أمي وسورمينا وبفوهات بنادقهم دفعوا بهما إلى خارج البيت لتجدا نفسيهما وسط تلك الجماعة الغاضبة من الألمان، ولم تفهما من إعصار الأسئلة الذي نزل بهما أي شيء، إلا عندما أخذ شفانزا يصرخ فيهما، عندما صدرت له التعليمات بالترجمة. وكان متورد الوجه أكثر من الضابط الذي هبط من السيارة. هل كانتا تعلمان أنهما تساعدان جيش الأعداء؟ هل هما على علم بأنهما تعاونتا مع سلالة محكوم عليها بالفناء؟ هل تعلمان ما ينتظرهما لقاء ما فعلتا؟ لاذت أمي وسورمينا بالصمت، حتى بدأ شفانزا يضربهما لحثهما على الرد؛ لأن أسئلة الضابط لا يمكن أن تبقى بلا إجابة، عندها أجابتا بما خطر على بالهما في تلك اللحظة. وظلت أمي حتى وفاتها لا تعلم جيدًا بمَ أجابت. لكن سورمينا قالت شيئًا، توقفت بعده قذائف الصفعات والركلات والصيحات. ربما ترجم شفانزا مقولتها بشكل عابر، لكن الضابط صاح فجأة: توقف! فتجمد الجميع في أماكنهم. ثم قطع الصمت الذي ساد عقب ذلك، عندما سأل المدعو شفانزا الذي كان يترجم لأمي: هل أنتما ساحرتان؟ نهضت أمي من الأرض، ولكبر سنها وقتها سقطت مرة أخرى ولم يكن بمقدورها حينها سوى أن ترد وهي تلهث: نعم. نعم أنا ساحرة، وتلك سورمينا وهي أيضا ساحرة. أومأ الضابط برأسه، فانحنى عليها رجلان في زيهما الرسمي وساعدها على القيام. بعدها بدا أنه يسأل شفانزا عن شيء ما وذلك بطريقة غريبة، وبشكل جاد وفي هدوء، أجابه الرجل بشيء ما، فحرك الأول رأسه موحيًا بأنه غير مصدق لما سمع، بدا معترضًا وأخذ يشير بيديه في غضب، فشعرتا بالخوف منه أكثر مما كانتا تخافان ذلك المترجم الألماني شفانزا.

أما عن فحوى ذلك الحوار الذي دار بينهما، فهذا ما لا يعرفه أحد حتى الآن، لكن المؤكد أن المدعو شفانزا بعدها أخذ يصرخ في أمي وفي سورمينا، بأنه ممنوع عليهما مغادرة بيتيهما إلى أي مكان؛ لأن التحقيقات لم تنتهِ بعد، وانتهى الأمر عند ذلك الحد، حتى إن أمي وسورمينا لم تصدقا عينيهما. صحيح أنهما تعرضتا للضرب، ولكنهما حيتان ترزقان. وبعد أن دفعوهما بعنف صوب جدار البيت، حمل اثنان من الجنود الأمريكي المصاب بالطلق الناري من صالة البيت وألقيا به داخل السيارة التي كان يوجد بها شخص آخر مقيد في حبال مظلة الهبوط التي انكمش جسده تحتها، ثم قفزوا إلى السيارة وأداروا محركها وانطلقوا. وأخذ ذلك الضابط يتلفت خلفه ويتأملهما. لم تفهما شيئًا، فدخلتا إلى البيت، جلستا وبقيتا على هذا الوضع حتى عُدت أنا. ومكثتا بعد ذلك تنتظران وتنتظران، ولم يحدث شيء. لم يأتِ إليهما أحد طوال الشتاء، فقد كانت تشغل الألمان على ما يبدو أمور أخرى أهم من سيدتين مسنتين مخرفتين. وكانوا حينها يتعقبون الفدائيين باستمرار في مناطق الكاربات وبيسكيدي، ثم امتد الأمر ليصل إلى بلوشتينا وبرلوف المجاورة لكوبانيتسه، وهي الناحية التي دخل منها الروس فجأة بعد ذلك. وانتهى الأمر عند ذلك الحد. ولم تعش أمي بعد هذه الحادثة سوى عام واحد. في الشتاء التالي كانت ترقد في قبرها.

ارتعش صوت إيرما من التأثر، فصار يضعف على نحو متزايد، حتى صمتت تمامًا. كانت دورا تنصت إلى العجوز بلهفة، فلم تجرؤ على قول كلمة واحدة. كانت تنتظر حتى تعاود إيرما الرغبة في مواصلة الحديث.

بعد قليل عادت إيرما لتستكمل حديثها، فقالت: كنت دائمًا أتساءل، ما الذي كان يدور في رأس ذلك الضابط الصلب جعله يترك المرأتين حيتين؟ لم أجد أي تفسير، والشيء الوحيد الذي خطر على بالي هو أن فرديناند وروديولف قد لعبا دورًا في هذا الأمر، وكانا رجلين أنيقين لم يتركا من قبل موضعًا في كوبانيتسه إلا وتواجدا فيه. مكثا هنا طويلًا، ثم عادا من حيث أتيا. كانا أعلى رتبتين مرتا على بلدتنا على الإطلاق. لكني لا أعرف عنهما الكثير. كل ما أعرفه هو أن الجميع كان ينحني لهما بداية من حرس الحدود وصولًا إلى الجستابو في زلين، أما هما فكانا يخضعان لسلطان الساحرات، بالذات ماهدالكا وفوكسينا. آه نعم، عائلة ماهدال! تنبهت إيرما فجأة وأشارت بكفها

كأنما تبعد ذكرى أمها، خوباتا. لقد أتيتِ بالفعل من أجلها، وأنا أواصل الحديث عن الحرب.. نعم، تعلمين أن لدى ما أقوله لكِ. فأنا أعرف عنهم بعض الأشياء، لكنها حكايات سيئة، شريرة. أترغبين بالفعل في سماعها؟ تساءلت إيرما وقد بدا عليها التجهم.

هزت دورا رأسها بانفعال واضح.

قالت وهي تتنهد: اهدئي، لكن قبل أن أواصل القصة ضعي الشاي لنفسك وصبي لى أنا أيضًا. إنه شاي عشبة الأزهار التسعة. سيفيد صحتك. ثم قالت وقد دب فيها نشاط مفاجئ: وماذا عساي أن أقدم لكِ سوى مشروب المُحبين؟ ربما يركض خلفك أحدهم. ألن نصب الشمع؟ ما رأيك؟ الآن لا يوجد أحد غيرى يمكنه أن يقوم بصبه، لم يعُد يوجد من يجيد ذلك غيري، حاولي أن تستفيدي من ذلك ما دام الوقت يسمح. كان من المفترض أن تكوني متزوجة منذ فترة طويلة، فلا تمتنعي. سننظر إليه، إلى ذلك الموعود الذي ينتظرك في مكان ما. هكذا قالت إيرما وقد ظهرت في عينيها علامات المرح.

كانت دورا تستشعر طعمًا لاذعًا في فمها من ذلك الشاي المحلَّى، فاستوقفتها في النهاية وأخذت تستعطفها: في البداية قصي عليَّ يا خالة حكاية ماهدالكا وفوكسينا!

آها.. قالت إيرما، وكان كوبا الشاى ما زالا ممتلئين: إن أشد ما يثير العجب في تلك العائلة كانت فوكسينا ذاتها، تعرفين بالتأكيد من هي فوكسينا، أليس كذلك؟ وأن أمها هي بجاتشينا؟ نعم، تلك الساحرة الشهيرة، التي لم تكن تلد سوى الذكور، وكادت تفقد الأمل في وجود وريثة لعلمها. كانت ذائعة الصيت لدرجة أن البعض كانوا قبل الحرب العالمية الأولى يأتونها من فيينا ومن بودابست وكراكوف. وكانت قد سافرت في البداية إلى هناك للعمل بالمزارع، وتركت هناك سمعة طيبة، ثم عادت إلى كوبانيتسه مرة أخرى وتزوجت فيها. وكانت تتردد أقاويل عن كيفية وصولها لتلك المكانة، وكانت أمي نفسها تردد تلك الأقاويل، ولكنها الغيرة، حيث لم يكن يأتيها أحد من تلك الأقطار البعيدة كما يترددون على بجاتشينا، لكني أذكر أن هذا كان يحدث بالفعل.

أذكر على سبيل المثال كيف جاء إليها صاحب مصنع من فيينا في عربته التي تجرها الخيول، وظلت تعالجه لمدة شهر بالصوم عن الطعام، وبسببه وضعوها في السجن لمدة ثلاثة أسابيع، ولم تشفع لها حتى وساطة ذلك الرجل بعد أن ساعدته على الشفاء.

ما زلت أذكر هذا، وربما تكونين قرأت عنه، فقد كتب عنها هوفر، طيَّب الله ثرى ذلك النذل! فقد شتتنا وعذبنا، فعل ذلك على الأخص مع أمي وأم سورمينا وبجاتشينا، هؤلاء الثلاثة هن أكثر من سُمعت أخبار ما فعل بهن، وأكثر من كن يعانين بسببه. وكان معنيًّا بذلك الأمر أكثر من عنايته بما يقول في عظاته، التي كان موضوعها دائمًا يدور حول الظلامية والخرافات والبدع التي تنتج عن سكب الشمع الذي نقوم به كي نحتال على الشرفاء والسذج من الناس. أما أهم ما كان يعنيه في الأمر، وكان يفصح عنه بعلو صوته من فوق المنبر، فهو ما تجنيه الساحرات من مكاسب. بالطبع كن يحصدن الأموال، فكم من نفس تم إنقاذها على أيديهن! بالتأكيد كن يحصلن على المقابل! لم يستطع ذلك الخارج على الكنيسة المقدسة، الذي ترك من خلفه أربعة أبناء، لم يستطع أن ينسى لهن أنهن كن يعشن في مستوى أفضل مما يعيش فيه. قالت ذلك وهي تهز رأسها في غضب.

تعرفين، كان لديه أيضًا بعض الحق، فلم تكن كل الساحرات يؤدين المهنة بطريقة شريفة. يمكنني أن أروي لكِ كم مرة ذهبت إلى فتاة فشلت إحداهن في مساعدتها في التخلص من جنين لا ترغب فيه، وأحيانًا كنت أصل بعد أن يكون الوقت قد فات. وكم مرة سمعت أن خلافات الجيران قد وصلت إلى المحاكم، لأن إحدى الساحرات أخبرتهم بأن الجار سَحَرَ بقرة جاره، أو أنه سرق منه شيئًا. نعم بالفعل، مثل تلك الساحرات كن موجودات أيضًا. وكانت إحدى هؤلاء تُدعى روبريختكا، ولم تكن تنحدر من أي فرع من فروع عائلات الساحرات، كل ما في الأمر أنها كان لديها خادمة، وكانت ترى عدد البشر الذين يتوافدون عليها وما كانت تجنيه من مكاسب مقابل ذلك، فقامت بطردها، وبدأت تمارس أعمال السحر والكهانة بنفسها، وكان موقع بيتها يساعدها في ذلك كثيرًا، فكانت تلتقط كل ذاهب إلى الساحرات قبل أن يصعد التل إلى جيتكوفا. أما عن كم الخسائر الي تسببت فيها فحدث ولا حرج! كما قلت لكِ، كان عددهم... إلا أن هوفر لم يفرق بين ساحرة وأخرى. كان يعتبرنا جميعًا محتالات، ويتعامل معنا على هذا الأساس. بالتأكيد قرأتِ كتابه، أليس كذلك؟ أكيد قرأتِ فيه عن بجاتشينا، المسكينة التي تسبب في معاناتها، كما لو كان ما لاقته في حياتها لم يكن فيه الكفاية. فقد اضُطرت للهرب من المنزل في شبابها؛ لأن أباها كان مدمنًا للكحول. ولم يكن هذا شيئًا غريبًا، فلن تجدى هنا شخصًا واحدًا يمكنه الامتناع عن تناول الشراب، حتى الأطفال يبدو أنهم ماضون على نفس الدرب، وقد قلت لهم هذا، لرجالهم ونسائهم، لا تكثروا من تناول

الكحول وبخاصة في فترة الحمل. ولكنهن كن يتعللن بأنهن لا يشربن إلا القليل منه كي يألفها الطفل. ثم يعودونه عليها كي ينام جيدًا، ثم ماذا بعد ذلك، يمكنك أن تري النتيجة بنفسك. عندما أنظر اليهم، أشعر بالأسى حيال بعضهم لما هم عليه من بلادة الحس. لم يستجيبوا لي ولا لأمي ولا حتى لجدتي. ولا أكاد أذكر أن واحدة من عائلتنا لم تنصحهم هنا نفس النصيحة. ولا أقول هذا لأننا لا ننزع إلى الشراب مثلهم، فالكحول الطيب يعدل الحياة ذاتها. لكن تلك السيدات الحوامل، وأولئك الشيوخ، ماذا أقول لهم؟! أعُود إلى والد بجاتشينا، فقد كان يُحكى أنه لم يكن فقط يشرب، ولكنه كان يحوم حولها بطريقة غير لائقة. وقد حكت لي أمي بنفسها ذات مرة أن العجوز أنا جابرهيلوفا، والملقبة بـ روخاروفا من بعد زواجها من روخار، وكانت كذلك ساحرة، كانت تضع المولود تلو الآخر، وقد فاض بها الكيل من العجوز روخار، حيث كان عليها أن تغمض عينيها عن أشياء كثيرة لا يعلم مداها إلا الله. لكنها لم تكن أشياء طيبة؛ ولذا فرت بجاتشينا إلى المجر بمجرد أن واتتها الفرصة، وعملت هناك كخادمة. وقد أعادها يورا إلى هنا بعد أن التقى بها في بيشت في طريق عودته بعد انتهاء فترة تجنيده. اتفقا على الزواج وبمجرد أن كتب لها أنه استطاع تدبير بيت في كوبانيتسه، عادت إليه وبمجرد عودتها أقيم العُرس. كان ذلك وقتها حدثًا جللًا، حيث لم يذهب أي منهما يستجدي المساعدة من أهله. ولم تنتهِ القصة عند ذلك الحد، بل إنهما عاشا حياة سعيدة، ونشأ أبناؤهما في كنف حب حقيقي. ولم يكن يولد لـ بجاتشينا سوى الذكور، الواحد تلو الآخر، وكان يورا يباهي بهم ويقول مزهوًّا إنه سيشكل منهم فرقة عسكرية. آه لو كان المسكين يدري أنه سيصدُق فيما يقول، لما نطق بها قط. فقد اقتادوهم جميعًا إلى الحرب، ومات يورا مباشرة في بداية الحرب. وبقي أبناء بجاتشينا في بقعة ما من منطقة بيافا، ولم يعودوا ثانية. ولكنها لم تنتظر لتعلم بما كان من خبرهم، لأنها ماتت كما كان يقال من الغم في السنة الأخيرة من الحرب. وكنت وقتها طفلة صغيرة، لكني أتذكر جنازتها، التي أفسدها هوفر، حتى صاروا يوجهون إليه سهام النقد واللوم لمدة طويلة بعد ذلك.

فقد حدث وقتها أن هبت ريح هوجاء غير مألوفة على الإطلاق في فصل الصيف حتى كان الناس يتشبثون ببعضهم البعض كي لا تلقي بهم العاصفة من المقابر أعلى التل إلى أسفل. وأخذت الريح تتلاعب حتى بحاملي النعش، فاندفع أحدهم إلى الأمام، ولم يلحق به آخر من الخلف، فطارت قبعته، وبدأ الأمر. سقط التابوت في عرض الطريق،

وطار الغطاء من فوقة وخرجت بجاتشينا من التابوت، وكان معروفًا أن كل الساحرات الكبيرات يخرجن هكذا من نعوشهن. وبدلًا من أن يقوم هوفر بوداعها باحترام نيابة عن الجميع، وقف على قبرها يلقي عظة موضوعها الخرافات والاحتيال. وأخذ يسخر من أولئك الذين يعتقدون بأن قوى الطبيعة كانت تودع الساحرة، كما سخر من هؤلاء الذين كانوا قبل قليل يرتعدون من شدة الخوف، على الرغم من أنهم كانوا يقفون تمتلئ أعينهم بالدمع لفراق جارتهم الطيبة بجاتشينا التي كانت دائمًا تمد يد العون للجميع في الولادة، والعلاج، واتخاذ القرارات. وكانت فوكسينا تقف بينهم، وعمرها آنذاك حوالي خمس سنوات. لكِ أن تتخيلي تلك الطفلة الصغيرة اليتيمة وهي تتطلع في القس الذي وقف يسب ويلعن فوق قبر أمها. ما زال قلبي حتى اليوم ينقبض حينما أتذكر ذلك.. وكان يقال عنها في ذلك الوقت إنها ستصبح أعظم ساحرة في جيتكوفا؛ لأنها وُلدت في ليلة عيد الميلاد وولدت ملفوفة بالكيس السلوي، كان الكيس المائي يغلف جسدها بالكامل، وكادت بجاتشينا وهي تلدها أن تفقد حياتها. حسنًا، وماذا حدث؟ ماتت بعدها بخمس سنوات، وكان موتها خسارة كبيرة! ولكنها حتى وإن لم تتمكن من تعليمها، فلم تستطع فوكسينا أن تهرب من مما كتبته عليها الأقدار. فأخذتها ماهدالكا، وكانتا على ما يبدو على وفاق، ونقلتها لتعيش معها في بوتوتشنا، ولم يكن ذلك بالأمر الحسن، كان بالفعل سيئًا. ثم قالت وهي تتحسر: كانت تلك خسارة لا تُعوض، ضمتها إليها قبل أن تفعل ذلك جدتك، يوستينا روخاركا، وكانت خالة فوكسينا.

تعجبت دورا مما سمعت، فتساءلت قائلة: ولماذا كان ذلك خسارة ياخالة؟

إيه، تنهدت إيرما وبعد لحظات تابعت قائلة: كان يشاع عن سيدات عائلة ماهدال أنهن ساحرات شريرات. وكان الناس يخشون ماهدالكا الأم، أي يوسيفتشينا، فلم تكن تعويذتها تخطئ هدفها قط. كانت بعدها الأبقار تتوقف عن إدرار اللبن، أو بالعكس تدر لبنًا يعادل ما يخرج من بقرتين مجتمعتين، أو يصاب الناس بتقرحات في أطراف أيديهم، أو على العكس كانت تلك التقرحات تشفى تمامًا من تلقاء نفسها، كانت تستطيع أن تجعل المرأة تلد كما تلد العجول، أو تساعد غير القادرات على الإنجاب، كانت تستطيع عمل أي شيء. ويا ويل ذلك الذي يخدعها، أو يحتال عليها، أو يمس عائلتها بسوء. إذ لو كان أحد يجيد استخدام التعاويذ في السحر، فلابد أن تكون هي. وكان يُحكى

عنها أنها تسببت في ترمل زوجها قبل أن تتزوجه، وقيل أيضًا إنها كانت تستطيع أن تؤذي الآخرين مقابل المال، وكان يستوي عندها بمن تفعل هذا. كان سلطانها كالليل في سواده. ويمكنكِ أن تتذكري زوجة ابنها، ماريا ماهدالكا، ولم يمضِ على وفاتها وقت طويل. كانت تقول عن نفسها أيضًا إنها ساحرة، وإنها تعلمت السحر من حماتها. لكن ذلك لم يحدث بالفعل. ربما كانت ماهدالكا الأم قد ساعدتها، لكن ماريا لم تكن تحمل بداخلها قوة السحر، باختصار لم تولد ساحرة. ولذلك فقد تعهدت ماهدالكا الأم فوكسينا، وكانت ترغب في تكون لها خليفة من دمها. ولم يكن لديها سوى ولد واحد، ولدته في شبابها، ويقال إنها لم تأت به من زوجها الشرعي، ولم تستطع من بعده الإنجاب. فوضعت يدها على فوكسينا، أخذتها مباشرة من الجنازة، أخذتها من بين يدي وأمام عيني يوستينا روخاركا، وربما لم تسمح لها بعد ذلك بزيارتهم. كانت بينهما خلافات، وكانت إحداهما لا تطيق الأخرى... توقفت إيرما بعد ذلك عن الكلام، ثم عادت لتضيف: حسنًا، لكنها حكاية قديمة، قديمة جدًّا، ولم يعد مجديًا إثارتها من جديد الآن. ثم إني أعتقد أن فوكسينا لم يكن ينقصها شيء في بيت ماهدالكا، فقد كانوا يشملونها بحسن الرعاية. صحيح أن الأم هي الأم، لكن ماهداكا كانت تعاملها معاملة الابنة. وبدأت في تعليمها المبادئ الأساسية للمهنة. فتعلمت كيف تثني العصا الخشبية متى كانت صغيرة. وعلى قدر علمي، كانتا تذهبان معًا لجمع الأعشاب إلى الجانب الآخر من بلدتنا، ناحية أوهيرسكي، في محيط دريتوميتسه باتجاه ترتشين. ولم نكن نلتقي كثيرًا، اللهم إلا في الكنيسة ثم في حفلات الرقص وإن كان ذلك نادر الحدوث.

كانت فوكسينا جميلة. طويلة وقوية البنيان، شعرها غزير اتخذ من ضوء الشمس الداكن لونًا له. كانت مختلفة، لم يُرَ مثلها في كوبانيتسه. يزعم البعض أنها كانت أجمل فتيات كوبانيتسه، ولا يوجد شاب واحد لم يعجب بها. كان الكثيرون يركضون خلفها، لكنها لم تعط أُذنًا صاغية لأحد منهم. كانت متشبثة بماهدالكا، ولم تكن ترغب في سماع أي كلام عن الزواج. وكانت تتردد أحاديث تقول بأن أحدهم سيقوم بإحراق دارهم. تعرفين صلابة أدمغة أهل كوبانيتسه. لم يمضِ وقت طويل على إحراقهم بيت الأرملة باليتسوفا وهي بداخله، لأنها رفضت الزواج من أحد الشباب ومن رجل أرمل، أتذكرين ذلك؟ والآن لا أحد يعرف من منهما الذي فعلها، وربما فعلها الاثنان معًا، حيث كانا في الحانة يصيحان واصفين إياها بالمغرورة. وليس هذا بالشيء الغريب، فالجميع كانوا

حينها يقولون إن هذا المصير هو ما ينتظر فوكسينا. لكن ما حدث فاق توقعات الجميع.

ظهرا يومًا ما واعتقدَ الجميع أنهما من رجال حرس الحدود. كان مظهرهما غريبًا بالفعل، فقد كانا يرتديان زيًّا غامقًا، ففُهم من ذلك على الفور بأنهما رتبة مختلفة، لكنهما كانا يقيمان مع حرس الحدود بالمبنى الجديد الذي بنوه لهم على الحدود تقريبًا، هناك على أطراف هروزينكوف، حيث يحيط الجدول بالطريق، لذلك اعتقدنا أنهما ينتميان إليهم، خاصة أنه كان يرافقهما دائمًا في الأيام الأولى أحد رجال حرس الحدود، وذلك من أجل تعريفهما بالمكان، كما علمنا لاحقًا. كانا يتحركان في كل مكان من أجل قياس شيء ما هنا. كانا يسيران عبر الجبال، ثم غادرا ليعودا بعد شهر من جديد. ثم ذهبا إلى مكان محدد، مباشرة إلى بيت ماهدالكا. ويقال إنهما طلبا منها أن تتكهن لهما بالغيب، وأغدقا عليها العطاء بشكل لم يحدث مع أحد من قبل في كوبانيتسه.

ويُروى أن ساحرات ماهدالكا قد تلقين يومًا زيارة من أحد الكبار، مباشرة من القصر الإمبراطوري. جاءت الزيارة ذات ليلة، فأحاطت القوة المصاحبة بالبيت، في حين دخل شخصان فقط ومعهما ضيف ملثم. هذا ما حكاه بالحانة شباب عائلة هوشتياليك في اليوم التالي مباشرة للزيارة، ولم يكترثوا بأنهم بهذه الطريقة قد فضحوا أمرهم حيث كانوا يتجسسون ليلًا على فوكسينا. كما أفصحت ماهدالكا الصغيرة لاحقًا عن بعض تفاصيل تلك القصة. وما لم تتمكن من أن تتباهي به في أحاديث النساء بعد صلاة القداس، انتشر خبره بعد حين، حيث لم يكن يوجد أحد بيننا في ذلك الوقت يطيق الألمان. أخذت تتفاخر بمجيء ذلك الزائر الغريب إليهم وبأنه على الرغم من كونه شخصية هامة إلا أنه كان يرجوهم بكل توقير واحترام كي يقرءوا له طالعه، وأنه كان يرغب في معرفة كل شيء. كان يود أن يتعرف على ماضيه ومستقبله. وقد فعلت ماهدالكا ما أراد. وكان شعرها الأبيض يتدلى على وجهها، عندما استيقظت من نومها فجأة في تلك الليلة ولم تتمكن من تسوية شعرها. فقامت بوضع الشمع على النار، وأعدت لها فوسكينا الماء على الطاولة، ثم بدأت العجوز في صب الشمع. وعندما تحسست الشمع المصبوب في الوعاء، توقفت. وذكرت ماهدالكا الصغيرة أنها شعرت بالخوف منها، لأنها لم ترَها بهذا القدر من التجهم من قبل، وأنها بالتأكيد قد علمت شيئًا خطيرًا. بدأت بعدها تكشف للضيف المنفعل عما كان من ماضيه الذي رأت فيه مولده في منطقة رغدة العيش، ورأت نور الشمس يتجلى

بعد العاصفة المصحوبة بمائة وثمانية وستين ومضة من البرق، العاصفة التي اقتلعت في طريقها صداقة العمر، الصداقة التي اجتثتها الخيانة. رأت كذلك ميلاد البراءة، ميلاد طفل، وقالت أشياء أخرى لا يعلمها إلا الله. أما الزائر فلم ينبس ببنت شفة. ثم كشفت له عن أشياء عجيبة، تعلمين أن الكهانة لا يمكن أن توجهها الأهواء، وأن هذه الأشياء ينبغي أن تُسمع ثم تتكشف معانيها تدريجيًّا، تمامًا كما تبدأ الزهرة في النمو إلى أن يحين الحين كي تتفتح أوراقها بالكامل. ويعتمد ذلك على قدرة الانسان على فهم والتقاط تلك الأشياء، وإلى أي مدي يرغب في الوصول إلى الهدف. أخذت تلمس بخفة الأجزاء اليابسة من الشمع المسكوب، وكادت ترتعد من البرد الذي يصاحب طريق الرجل الذي يرتفع ولا ينخفض، يرتفع ليصل إلى منتهاه، وعنده ترى خيال القلعة الكبيرة المتهدم، قلعة مليئة بالقاعات الغامضة وبالعظماء من الرجال. وقالت له أيضًا إنها ترى في هذا الطريق خيانة ثانية ستكون بنفس قوة سابقتها، التي تسببت في أن يقفز مسار حياته كثيرًا إلى الأمام. أما هذه المرة فستُبكيه كما ستبكي المحيطين به من الرجال النافذين؛ لأنها ستأتي من أحدهم. وقد حكت ماريا ماهدالكا بقية ما قالته حينها، فقالت إنها كانت المرة الأولى في حياتها التي تسمع فيها حماتها وهي تخرق النظام، وذلك عندما قالت له إنها يمكن أن تكمل حديثها، إذا كان الزائر يرغب في ذلك، ولكنها إن أكملت فستخبره بأنها ترى نهايته. تعرفين أن أية ساحرة لا يمكنها أبدًا أن تتحدث عن الموت، حتى لو كانت تراه في لسان السائل. وذلك لأن الطريق الذي تراه الساحرة ليس مغلقًا، وربما تستدير دفة المقادير في اتجاه آخر في أية لحظة. هذا هو القانون الذي لا تخرقه الساحرات مطلقًا، ولهذا اشتدت دهشة ماهدالكا الصغيرة عندما سمعت ماهدالكا الأم تتحدث عن موت الزائر. وكانت ترى أنها ربما شعرت حياله بالحقد، أو ربما أرادت أن تحذره، والعلم عند الله. وقالت له إنه إذا ظل يطيل النظر صوب الشرق فسوف يمنع قدوم الموت من تلك الناحية. وإنه إذا جاءه الموت من هذه الناحية، فإن خلفاءه الذين هم من صلبه سوف يخالطون أولئك الذين يكبلهم هو الآن في الأغلال. عندها انتاب الزائرَ الذعرُ لدرجة أنه انتفض وقام مبتعدًا عن الطاولة واستغرق الأمر وقتًا طويلًا من ماهدالكا الصغيرة ومن فوكسينا كي تعيدا إليه هدوءه مرة أخرى. أخذتا تصبان له الكحول بسرعة حتى يهدأ، وأخذت فوكسينا تكمل تفسير نبوءة ماهدالكا وتعدل محتواها مرات ومرات حتى سُحقت تمامًا في نهر الكلمات، التي لا يجدي استرجاعها من داخل النفوس. وتمكنتا من

تهدئته حتى إنه وافق على أن يفحصاه، حيث كان يشكو من الشعور الدائم بالإرهاق. فوصفتا له خليطًا من الورد البري المصحون ورأس الجنجر والنعناع كمقويات للبدن، ووضعتا له في كيس خاص كذلك الزعتر البري وحشيشة الملاك وعشبة العرن لتُذهب عنه الكآبة. وخرج في النهاية مهمومًا، ولكنه راضٍ وبدون تهديد أو عقاب، بل على العكس، فقد سألهما وهو يودعهما ماذا يعطيهما جراء ما أسدياه إليه من خدمة، وقبل أن تتمكن ماهدالكا الصغيرة من أن ترفض العطاء، لأنها كانت من شدة الخوف لا تجرؤ على الرغبة في أخذ أي شيء، صرخت يوسيفتشينا بأنها ترغب في إعادة ابنها الذي زجوا به في إحدى مناطق الإمبراطورية للخدمة هناك. ولم يجبها الرجل بشيء، فقط دق بكعبه الأرض، ولمس حافة قبعته بخفة بأطراف أصابعه، وصعد إلى العربة، ثم تبعه الرجلان على الفور وغادروا. تُرى من يكون ذلك الرجل؟ هذا ما لم يعرفه أحد هنا، وذلك على الرغم من أن الرجلين قد ظهرا هنا بعد ذلك. وقيل إن أحدهما لم يعد يقضي ليله لدى رجال حرس الحدود، ولكن عند فوكسينا. كان يبدو عليه الثراء، واسمه فريدريخ فرديناند، وكان أكبر الرجلين سنًّا وأدناهما رُتبه. كانت رُتبة الرجل الثاني أعلى؛ لأنه عندما كان المدعو فرديناند يناديه بلقب „السيد الدكتور"، كان يقول له: بل „السيد المقدم". وكان على ما أظن يُدعي ليفين، وكيف لي أن أتذكر وقد مضى على ذلك زمن طويل؟!

أعتقد أنه بسبب هذين الرجلين اللذين كانا بمثابة حجر عثرة في طريق فوكسينا وساحرات عائلة ماهدال، استطاعت أمي وسورمينا أن تمارسا عملها بسهولة ويسر. لم يكن هذان الرجلان مجرد فردين عاديين من الوحدات الخاصة الألمانية، حتى وإن اتخذا من زيها لباسًا لهما. كانا على درجة عالية من التعليم. وقد ذكرت فوكسينا ذات مرة أنهما جاءا إلى هنا بهدف إجراء بحث. عن ماذا؟ عن الساحرات. لكن لا تسأليني عن هذا، ومن أين لي أن أعلم. كل ما أعرفه هو أن بحثهما هذا كان عليه أن يمتد فوق الساحرات ليظللهن بظله كما تفعل عناية الرب، فليغفر لي الله هذا الذي قُلت. وكانوا في زلين يعرفون ذلك. لذلك ترك الضابط أمي وسورمينا من غير أن يمسهما بسوء، حتى وإن قال ذلك الواشي الخنزير، تشيكيًّا كان أم ألمانيًّا أو أيًّا ما كان هذا المدعو شفانزا ما شاء قوله. تركهما بدون عقاب؛ لأن الساحرات كن يخضعن لقانون مغاير، أو هكذا أتصور. واليوم لا يوجد من يرى فينا ذلك الرأي.

هل تعرفين ما كان من أمر فوكسينا في النهاية؟ من الأفضل ألَّا تعرفي، فلم تكن نهاية سعيدة. وكان الجميع هنا يحاولون نسيان ذلك. أما عن الكيفية التي انتهت بها حياة أعظم ساحرات كوبانيتسه: فقد ضربها أحدهم حتى الموت.

غادر الرجلان قبيل نهاية الحرب، وبعد عدة أشهر وُلد في بيت ماهدالكا وليد. حدث ذلك في الفترة التي كان يركض فيها الفدائيون عبر التلال، وظهر بينهم رجال هم طليعة الروس. كانوا من المجندين المرتزقة الذين اشتعلت في نفوسهم الرغبة، وتعلقوا بها جميعًا، وبدأ الهوى يتلاعب بالرجال فأنساهم راحة البال. أما الفتاة التي رفضت رجال بلدتها، فكانت تعاشر الألماني وأنجبت منه طفلًا. ليتكِ رأيتِ كمَّ الغيظ الذي ملأ صدور البعض. وعندما بدأ العائدون من جبهة القتال يمرون من هنا، كان أهالي القرية جميعًا يفرون أمامهم إلى كيكولا أو إلى غابات بيتينسكي رغبة منهم في النجاة بحياتهم بعيدًا عن أولئك الأشرار، حيث أخذوا يتتابعون إلى هنا في الموجة الأولى، وهكذا ببساطة اختفت فوكسينا. وبعد عدة أيام عاد الأهالي إلى بيوتهم ليجدوها مشوهة، مكسرة العظام، فقاموا بدفنها مباشرة، بدون جنازة. وعندما ظهر بعد الاستقلال من يدعو إلى وضعها في قبر يليق بها كمسيحية، لم يعرف أحد من الَّذي عثر عليها ولا أين وجدها. واختفى كذلك الوليد، وكانت بنتًا. أما ماهدالكا الأم فكانت حينها تبدو، كما كان يرى الجميع، وكأنما أصيبت بالسكتة القلبية. خسرت وريثة عرشها، وجهد السنين، وكذلك الابنة، آخر ساحرة من دمها. كان ذلك بالنسبة لها بمثابة فاجعة، وخاصة لمَّا لم يتبقَّ لها سوى ماهدالكا الصغيرة، الدخيلة على العائلة، وكان ابنها مجندًا في إحدى مناطق الإمبراطورية الألمانية. ولم يكن لها في ذلك الوقت أحفاد. أخذت إيرما تهز رأسها، ثم استدارت نحو دورا بسرعة: والآن وقد صرتِ تعرفين عن أهل بيت ماهدال كل شيء، هيا قومي، سأسكب لكِ الشمع، ولا تقولي شيئًا!

أنهت إيرما حديثها بحزم وابتعدت عن الطاولة وهي تقول: بعد عام لن أكون هنا ولن تتمكني من معرفة ما يخبئه لك القدر. توقفت بعدها فجأة وألقت على دورا نظره ملؤها الريبة: أو ربما تعرفين بالفعل؟

ارتعدت دورا.

- أعرف ماذا؟

- ربما أنتِ أيضًا ترين ما أرى! لا عجب فأنت ابنة أخت سورمينا، وحفيدة روخاركا، ويوجد هذا في عائلتكم أيضًا. أتشعرين به؟

- بماذا يا خالة؟

- حسنًا، بتلك القوة الخاصة. تلك التي تمكنك من رؤية الماضي والمستقبل، وبقية الأشياء.

هزت دورا رأسها بالنفي: لا أشعر بها.

أومأت إيرما برأسها راضية بما سمعت: حسنًا أنك لا تفعلين. ولكنها على الجانب الآخر خسارة. فهذا يعني أنني أنا بالفعل آخر الساحرات.

تبسمت دورا، لكن عندما واصلت إيرما الكلام وبدا عليها الشعور بالمرارة، تظاهرت مرة أخرى بالجدية.

- كان ينبغي أن تقوم بناتي بذلك، كان عليهن أن يحملن ذلك العلم ويكملن الطريق على الأقل لبعض الوقت، إلا أنهن آثرن الذهاب إلى المدينة، ولم يرُق لهن كثيرًا المكان هنا. وهكذا لم يتعلمن شيئًا. ولكنه اختيارهن. ولكِ أن تعلمي أنه حتى ذلك الذي يستقرئ الغيب، لا يستطيع الفكاك من أقداره!

ثم نظرت إليها إيرما بتوجس مرة أخرى. ومن جديد هزت دورا رأسها بالنفي.

- والآن ماذا عسانا أن نفعل. على أية حال سأسكب لكِ الشمع!

وبعد قليل كان قد وُضع بالفعل على الطاولة وعاء ملون أخذت تتصاعد نحو السقف منه أبخرة لحاء الأشجار الممزوجة بالأعشاب ذات الرائحة الفتَّانة. جعلت الرائحة ذات النكهة الخاصة مع الهدوء والشاي الذي امتلأت به معدة دورا، تشعر برغبة في النعاس، وانضمت إليها إشارات بطيئة كانت تصدر من إيرما وهي تقوم بإعداد الأدوات اللازمة للكهانة.

- ستعرفين كل شيء بعد قليل يا ابنتي. أخذت تهمهم، وعندما أصبح كل شيء جاهزًا، وقفت بحسب الطقوس على رأس الطاولة تبارك الأشياء الموجودة فوقها. ثم أحضرت الشمع المسبوك من فوق الموقد وبدأت تصبه ببطء في وعاء مملوء بماء خارج لتوه

من البئر الموجود أعلى الدار. وأخذت تتلو تعويذاتها: أفتتح هذا الأمر ليس بقوة الشر ولكن بالاستعانة بحول لله وعون السيد المسيح، أخبرني أيها الشمع، بما سيكون من أمر دورا، الفتاة الجميلة، أخبرني بما كان وما سيكون، أخبرني عن صحتها، سعادتها، والبركة في حياتها. باسم الله أرقيك أول رقية.

مالت إيرما بعد ذلك على الآنية الفخارية، وكان الشمع قد تجمد في الماء. وبعد قليل استخرجت منه قطعة يابسة مسطحة ذات ثنيات متشابكة، حاولت تقدير وزنها بيدها، ثم أخذت تتحس ثنياتها المتشابكة بأصابع يديها.

كان الهدوء يسود الغرفة قبل أن تدوي تنهيدة إيرما التي ظلت معلقة داخلها بشكل يكاد يُرى بالعين.

قالت بعدها إيرما: لقد عشتِ القهر يا بنتي.

رفعت دورا بصرها نحوها في إعياء. كانت تقول لنفسها: هل سمِعتُها تقول قهر؟ لكنها لم تنطق بكلمة، لأن إيرما تابعت رقيتها: باسم الأب والابن والروح القدس، فلترسلوا مريم العذراء الحبيبة المقدسة، فلترسلوها لتكون في عون دورا كي تصاحبها الصحة والسعادة والبركة..

راح صوت إيرما يهدهد دورا فاستسلمت للنوم. ولم يوقظها إلا كلمات وجهتها إليها مباشرة: أعرف ما لاقيته في حياتك، والجميع هنا يعرفون ذلك. وهذا هو ما أراه أمامي أيضًا. الموت في عائلتكم، والوحدة، الوحدة التي ليس لها آخر، كل هذا هنا. كما أرى يعقوب يستند إليكِ، وأراكما تسيران معًا في طريق طويل. كل هذا مكتوب هنا، انظري، قالت وهي تدس أمام عيني دورا قطعة شمع عسلية اللون.

وما كادت إيرما تمعن النظر إليها، حتى بدأت تتفحص من جديد مختلف النتوءات الموجودة بها.

- ابنتي، ابنتي. أخذت تكررها، بينما تحاول دورا طرد النعاس من عينيها والتركيز قليلًا.

ثم قالت وهي تنظر إليها بجزع: لكنك أتعبتِ نفسك كثيرًا، صحيح؟

تعجبت دورا على الرغم من حالة الإعياء التي كانت تعانيها حينها. هي؟ أتعبت نفسها بنفسها؟

قالت إيرما وقد ركزت بصرها على التجاويف داخل قطعة الشمع: يظهر هنا جليًّا ذلك الغصب. وهل نفعك في شيء؟ لم ينفع. ما حدث كان لابد أن يحدث. كان يمكنك أن تكفي نفسك شر حرق الأعصاب. لذلك تعانين ما تعانين من معدتك. وهي تؤلمك، أليس كذلك؟ لكن انتظري سأعطيكِ أعشابًا تعالجها.

أومأت دورا برأسها، لكنها لم تكن داخليًّا مقتنعة بما قالته إيرما. حرق دم بلا طائل؟ لا. لا شيء مما فعلتُه، إذا كانت إيرما تقصد أن ما كان يحدث في الماضي في مؤسسة القاصرات لم يكن حتميًّا. بل لم يكن من الممكن أن تتركه يمر هكذا. كان عليها، على دورا، أن تفعل شيئًا، كان عليها أن تدافع عن نفسها، ولو كان لها الآن أن تقرر، لفعلت ما فعلت من جديد. فقد كادوا يدمرون كيانها بسخريتهم منها.

تابعت إيرما قائلة: لكن الأوضاع تحسنت الآن، أليس كذلك؟ تعيشين حياة هادئة. كل شيء يسير كما تشائين، كل شيء بحساب. لكن لا تنسي أنه لا يمكن أن تكون الحياة دومًا مرتبة ومحكمة يومًا بعد يوم وأسبوعًا بعد أسبوع. فأنتِ تعيشين عيشة الأموات. وهذا لا يصح، ولا ينبغي. أنتِ إنسان من لحم وعظم وتجري في عروقك الدماء. أنت امرأة تمتلئ بالقوة، وثلك لابد أن تجد لها مسارًا تندفع فيه. لا تحولي دون ذلك، لا تفعلي.

سكتت إيرما وعادت تنظر إلى كفيها. ثم صاحت في دهشة: لكن هناك شيء! ستتغير الأمور!

أخذت تمر ببطن أصابعها بشكل محموم على نتوءات قطعة الشمع، كانت أصابعها تعود ثانية لنفس المكان كما لو كانت لا تريد أن تصدق أن ذلك النتوء موجود بالفعل.

- ما هذا الذي أرى؟! يا لهول ما أرى! أخذت إيرما تتلعثم غير مصدقة لما ترى، وراحت تنظر إلى دورا متعجبة، ثم هزت رأسها قائلة: تبدو كما لو كانت لا تجيد العد إلى الرقم خمسة، ولكنها بالرغم من ذلك زهرة جميلة! أما كان من الأفضل ألَّا يكون عددهم كبيرًا هكذا؟ سألتها معاتبة: ألا يمكن أن نختار منهم واحدًا، واحدًا فقط يمكنك أن تتذكري اسمه على الأقل؟ ولكنها عادت، وكأنها نَدِمت على ما قالت، لتضيف في

أسى: كل هذا سببه الخوف، أليس كذلك؟ أنت تعتقدين أن الرجال جميعًا يشبه بعضهم بعضًا، أليس كذلك؟ أنهم جميعًا مثل أبيكِ، ألست على حق؟ لكن صدقيني هذا ليس بالطريق القويم، فلا تستطيعين الابتعاد عنهم جميعًا لأنك تعتقدين أنهم جميعًا مثل أبيكِ. وهذا غير صحيح. فليسوا جميعًا مثله. هكذا قالت بثقة وهي تهز رأسها للدلالة على رفضها لموقف دورا.

استجمعت دورا شجاعتها كي تحتج على ما قيل. كانت الكلمة تلتصق بالكلمة في عقلها المخدَّر، حتى إنها لم تكن تعرف من أين تبدأ. ولكن عندما فتحت فاها، نظرت إلى إيرما، وبمجرد أن رأت على وجهها علامات الارتباك، فقدت كل رغبة في الكلام. وبدلًا من ذلك أغمضت عينيها بقوة. كان واضحًا أنها فتحت أبواب الغرفة المحظورة في نفس دورا بالقوة.

- لكن ربما.. هذا الشخص.. تلك المرأة هنا.. راحت تستكمل تعويذتها في هدوء لا يخلو من ارتياب. أخذت تدقق النظر في قطعة الشمع، وتفحص كل نتوءاتها واحدًا تلو الآخر. فلم تترك فيها ثقبًا أو تجويفًا أو ثنية واحدة، كما لو كانت هي التي ستحمل التفسير، وبالفعل كانت تحمل بداخلها ذلك التفسير؛ لأنها صرخت من فرط الدهشة وربما الهلع: ها هو!

استفاقت دورا فجأة من حالة السبات الهنيء، وجلست وقد تشابكت جفونها، وانصرف كل تركيزها إلى أن تصبح قادرة على التنفس. شهيق وزفير. شهيق وزفير. فقد ملأت تلك الرائحة القوية للحاء الشجر والأعشاب المحترقة رئتيها، وأخذ قلبها يدق بقوة، كما راح الشعور بالخزي يسري في أوصالها. كانت تشعر بسخونة الدماء في أطراف أصابعها، كما كانت تشعر بها في حُمرة وجنتيها. وكانت تقول لنفسها: لا يُعقل أن تكون قد رأته هناك! هذا هراء!

فأسرَّتْها في نفسها ثم تجاسرت على أن تنظر إليها بكل خنوع، إلا أن إيرما تجاهلتها، فقد كان نظرها مُركزًا على قطعة الشمع المسبوك. وكانت أمارات الغضب قد زالت من وجهها. كان واضحًا أن أفكارها أبحرت من جديد بعيدًا إلى حيث توجد غرفة أخرى من نفس دورا. نظرت إليها من فتحة بين كفيها المواربتين، وبدا الأمر وكأنما كانت تتحدث مع شخص ما عبر تلك الفتحة، وكان يخرج من فمها سيل من كلام غير مفهوم بصوت

أجش. وبعد لحظات بدأت تبرز من بينه جمل مفهومة: لن تكون حياتك سهلة، لن تكون. همست إيرما بنبرة تغلفها الشفقة: لكن لا تبتئسي. ليس بالضرورة أن تصبح كل امرأة أمًا، لسنا ملتزمات بذلك، ولا تلومي نفسك عليه.. ينتظرك هنا شيء آخر. هكذا أكدت لها بكل ثقة وهي تهتز من ناحية إلى أخرى كما لو كانت في حالة سكر ولا يمكنها حفظ توازنها. إنه شيء عظيم سيستغرق جهدك بالكامل. ثم أكدت لها وهي تومئ برأسها في فرح، كما لو كانت عثرت على طريق الخلاص في قلب قطعة الشمع المسبوك: اركضي خلفه، فذاك هو الطريق الصحيح. سيحقق لكِ هذا الطريق ذاتك، وستدركين صدق ما أقول.

ثم صمتت، وأخذت تتأمل قطعة الشمع للمرة الأخيرة، وبدا وكأنها أدركت أنها لن تستطيع أن تستخرج منها أكثر مما كان، فأشاحت عنها وراحت تنهي تعويذتها الأخيرة:

- رقيت تلك الفتاة، رقيت دورا المعمدة بالعماد المقدس، المباركة من قبل الثالوث المقدس، وألقيت بهذا كله على الجبال السوداء الجرداء. فلتذهبي إلى هناك أيتها المعاناة، أيتها المصاعب ابتعدي عنها، انصرفي بعيدًا عن دورا، فليذهب بأسك عنها في النهار وفي الليل. وأنا لا أفعل هذا بمقدرتي عليه ولكن بقدرة الله وعون المسيح، وها أنا أطلب العون من الأب والابن والروح القدس. آمين.

توقفت بعد ذلك إيرما عن الكلام، وأخذ يسري في الغرفة هدوء، لم يقطعه سوى صوت طقطقة المقعد الخشبي حال جلوس العجوز عليه، ثم صوت هسهسة اللحاء والأعشاب عندما أطفأتها بالماء المتبقي في الوعاء.

كانت دورا تستعد للانفجار. كانت تستعد كي تقول للعجوز كل ما تُحس به، أن تقول لها إنها مخطئة في قراءتها للشمع. كانت تعد نفسها لتقذف في وجهها بتيار من الكلمات قبل أن تتمكن هي من تلويث حياة دورا الشخصية، وكشف سترها وتعريضها للانكسار تحت وطأة السخرية أو الفضيحة.

لكن إيرما سبقتها.

على غير ما كانت دورا تتوقع، فردت ذراعها فوق قرص المنضدة وأخذت تُملِّس على يدها. كانت إيماءة ناعمة وحنونة، ولم تكن قد حدثت معها منذ سنوات طوال. أربكها

ذلك الشعور المنسي، كما ملأها بموجة مفاجئة من الإحساس بالعرفان، فرفعت عينيها والتقت بعيني إيرما. كانت نظرتها بشوشة وحانية وبها قدر كبير من تفهم موقفها.

ثم قالت إيرما: أعرف يا ابنتي ما الذي سيساعدك، ومن أين تبدئين. أعرف وسأقدم لكِ النصيحة، وعندما تفعلين ما سأقوله لكِ الآن، صدقيني، ستشعرين بالراحة. لأن الأمور لا يمكن أن تستمر على ما هي عليه الآن.

فتساءلت دورا في دهشة: ماذا؟

- تعلمين ذلك. لكنى سأساعدك كي تجدي الطريق السليم، لا تخافي. وإن كنتِ بالفعل تستشعرين ماهية ذلك الطريق، أليس كذلك؟ حسنًا، لا تخشي شيئًا، لا تخافي. فهو سيكشف عن نفسه، وبعدها ستكونين على ثقة من هذا، لا تخافي، كل ما علينا هو أن نبدأ بفك الخيوط المتشابكة من طرفها الصحيح. لكن في البداية عديني أنِ تفعلي ما سأقوله لكِ، وبعدها سأتكلم. هيا عديني بأنكِ ستنفذين ما أقول يا دورا.

قالت دورا بحذر: سأنفذه.

أومأت إيرما برأسها: حسنًا، حسنًا.

- لعلمكِ كل شيء سيتغير، وستجدين راحة البال، صدقيني، وسيصبح حالك أفضل مما كان بكثير، لكن قبل أن يحدث ذلك كله، عليك أن تقومي بعمل شيء. عليك أن تذهبي إليه وتتكلمي معه.

- مع من؟ سألتها دورا في تردد.

- مع أبيكِ.

تنبهت فجأة، كما لو أنهم صبوا فوقها ماءً باردًا، وشعرت في تلك اللحظة، عندما فهمت مغزى كلمات إيرما بأن قلبها قد توقف للحظات.

الأب

كانت تحسب بعد هذا الذي جرى حينها أنها لن تراه مجددًا. فقد اختفى من حياتها بعد سجنه، وكانت هي تحاول جاهدة ألَّا تفكر فيه، حتى سقط في النهاية من ذاكرتها. سقط تمامًا كما لو كان غير موجود. ولم يكن يخطر ببالها أن الأمر يمكن أن يكون على غير ذلك النحو. لكنه عاد قبل عدة أشهر من حفل تخرجها.

كانت ساحة هروزينك، عندما نزلت من الباص في ظهيرة ذلك اليوم مع يعقوب، تبدو على حالها في كل يوم جمعة. بعض الجيران الذين ينتظرون الحافلة المتجهة إلى بويكوفيتسه يقفون في موقف الحافلات. وعلى المقاعد بجوار الجمعية جلس بعض كبار السن الذين كانوا يدخنون ويستقبلون أشعة الشمس الدافئة. وعلى مقربة منهم يلعب الأولاد كرة القدم بالملعب.

كانت دورا تحمل الحقيبة فوق ظهرها وتجذب وراءها يعقوب متجهين نحو السوبر ماركت لشراء ما يحتاجان قبل الصعود إلى أعلى. أخذا السلة من زاوية المتجر، تمامًا كما يفعلان في كل مرة، وعلا صوت دورا بالتحية، وتلقت الرد المعتاد. كل شيء كان يبدو اعتياديًّا كمرات كثيرة سابقة فيما عدا شيئًا واحدًا، شيئًا لا يمكن أن نسميه، ولكننا فقط نحس به، شيئًا كان عالقًا في الهواء، وظهر فقط عندما توجهت إليها فجأة أنظار الكثيرين ممن كانوا بالمتجر.

تناولت من الرف كيس مكرونة، وعلبتي خضار محفوظ، ورغيفًا من السلة البلاستيكية المثقبة، ثم انتقلت إلى الثلاجة لتخرج منها كيس لبن نصف دسم ذا الغلاف الأزرق. ثم اتجهت إلى الأمام حيث يوجد ركن منتجات اللحوم وطلبت نقانق.

- لفَّها من فضلك.

دوى صوت دورا في المتجر الهادئ. فاستدارت في ارتباك في طريقها إلى خارج المكان.

- مرحبًا مدام ياناكوفا. قالت لجارتها وكانت في البداية تحاول تجاهلها، عندما

انحنت لتنظر بإمعان إلى صف زجاجات العصير نصف الفارغ ليظهر منها في الممر الضيق فقط ساقها الطويلة النحيلة.

أجابتها: مرحبًا دورا، ثم سألت: ذاهبان إلى البيت؟

- نعم.

- إذن احترسي يا ابنتي، وأسرعي، فبعد قليل سيحل الظلام.

ابتسمت دورا. فلم تكن تلك هي المرة الأولى التي تصعد فيها من هروزينكوف إلى جيتكوفا.

قالت لها تخانيتشكا وهي تمد رأسها لترى محتويات سلة مشتريات دورا: لقد عاد أبوكِ.

انسلت كيس اللبن من بين يدي دورا فسقط ليصطدم بمشمع الأرضية ذي الخطوط الطولية ويسقط فوقه محتواه. وهنا أخذت تخانيتشكا تتطلع إليها فاغرةً فاها.

- ماذا قلت؟ أبي؟

أومأت تخانيتشكا برأسها.

وفي نهاية ذلك اليوم عندما لف الظلام تل كوبرفازي المقابل، كانت الأنوار في بيتهم القديم بالفعل مضاءة. وأخذ يطفو على استحياء من فوق العتمة عبر خيوط المطر الكثيف ضوء لا يكاد يبين راح يومض أمام عينيها ليؤكد لها أنه هناك، وأنه عاد فعلًا.

جلست وسط غرفة مظلمة، لم يكن يُسمع فيها سوى صوت أنفاس يعقوب المتعاقبة وارتطام حبات المطر بسقف الحجرة، وكانت تراقبه من فتحة صغيرة في النافذة. لم تستطع أن ترفع عنه عينيها. جلست طويلًا قبل أن تدرك أن الظلام يلف المكان من حولها. لكن حتى عندما أدركت ذلك لم يكن هناك شيء يستطيع أن يجعلها تقوم من مكانها لتدير زر الكهرباء كي تعطي له نفس الإشارة التي أعطاها لها. أن تقول له أنا هنا.

وفي تلك الأثناء أخذت تعصف برأسها أسئلة حائرة تركزت حول شيء واحد: ما العمل الآن؟ كانت في ذلك الحين قد ألغت وجود أبيها بالكلية، حتى إنها نسيت أن تعد

نفسها لموقف كهذا. وها قد فاجأها الحدث. كانت تشعر بقشعريرة في يدها عندما أخذت تتخيل مدى قربه منها. كان يكفي أن تقطع الطريق من بيدوفا إلى تقاطع الطرق ومنه إلى أعلى بحذاء الطريق الممهد بحقل البلدية وصولاً إلى البستان الشائك ومنه إلى اليسار، وعندها تجد نفسها أمام البيت الذي يوجد هو خلف جدرانه. أو بالعكس. فإذا ما خرج هو الآن، سيكون عندهم بعد أقل من ربع ساعة. ملأتها تلك الفكرة بالخوف.

ماذا لو أقدم على هذا؟

ثم حدث ما كانت تخشاه، كما لو كانت قد استدعته بنفسها. أخذت البوابة في الخارج تصرصر برفق، فانتفض جسد دورا. لم تستطع حتى مجرد التنفس حتى لا تسمع أي صوت من جديد. وبقيت لحظات بعدها، لتنتهي إلى أذنيها بضع خطوات هادئة، أعقبتها طرقات أحدهم على الباب. تجمدت دورا في مكانها. عادت لتسمع طرقات متقطعة وبعدها نداء بصوت خفيض: دورا؟

وقبل أن تتمكن من الرد، انحنى مقبض الباب تجاه أرضية الحجرة، ودخلت يانيجينا في تردد إلى الردهة وقد بللتها الأمطار. وبمجرد أن فتحت الباب ضرب الأرض في الخارج سهم ذهبي من البرق صاحبه دوي يصم الأذان.

في ذلك العام قضيا معظم عطلاتهما الأسبوعية في برنو. منعها الخوف وعدم الرغبة في لقائه من الذهاب إلى جيتكوفا أكثر من مرتين حتى قدوم الشتاء الذي قطع صلة بيتهم فوق تل بيدوفا بالحضارة مؤقتًا. عادا إلى هناك في مارس. لكن روحها لم تعرف الراحة حتى هناك، بعد أن تحول البيت إلى قفص.

كانت دائمة التفكير فيما إذا ما كان من الأفضل الابتعاد عن جيتكوفا، وألّا تذهب إلى بيدوفا من الأساس ما دام هو فيها. كان ذلك يحزنها من أجل يعقوب، لكنها في النهاية بدأت تتقبل هذه الفكرة. وعندها حدث ما لم تكن تتوقعه.

لم تكن لتذهب إلى هناك على الإطلاق، إلا أن يجرَّها إلى هناك زوجان من الثيران، إلى أن جاء في ذلك الصباح باجلار وقال لها: لو لم تذهبي إليه فسوف نحمله إلى هنا. هذا واجبك، واجبك أنت وحدك.

وهكذا ذهبت إليه.

تقابلا معه هي ويعقوب أسفل منزل سورمينا، ثم صعدوا جميعًا الطريق المؤدي إلى تل كوبرفازي، سارا ببطء خطوة خطوتين خلف باجلار، فالتفت إليهما:

- لا ترغبين في الذهاب إليه، أليس كذلك؟

فهزت رأسها نافية رغبتها في لقائه.

كانت بوابة الفناء الصغير مفتوحة، والأرضية مغطاة بالأعشاب الضارة والحشائش الطويلة والأشجار غير المثمرة التي نمتْ بجوار البيت فمالت على سقفه المغطى بالقش، كما لو كانت تريد أن تستند عليه. كان البيت يعج بالحركة.

وعندما دخلت التفت إليها الجميع. باجلاركا، يانيجينا ومحقق الوفيات. لم تلمح جثمان أبيها، فقط رأت حذاءه أسفل المقعد بجوار التنور. نفس الحذاء كما كان في ذلك اليوم.

بعدها أحاطوا بهما، فشكلوا طريقًا صغيرًا، بوابة توصل إليه، إلى أبيها، مشت فيه وحدها، بعد أن توقف يعقوب عند الباب.

كان أبوها راقدًا على طاولة المطبخ عاقدًا يديه فوق صدره ومن تحتهما حُشر صليب من نبات الخمان. كان يرقد هناك وقد ملأت رقبته خدوش وجروح مصحوبة بعلامات ألم تجمَّدَ على وجهه.

قال المحقق: كل شيء حدث بسرعة، كان في حالة سكر. مرة أخرى شرب حتى الثمالة. والآن هو في مكان أفضل.

فردَّتْ عليه باجلاركا بسرعة بينما كبت باجلار الضحك: اذكروا محاسن موتاكم.

اقتربت دورا من الطاولة. كان النظر إلى وجهه بعد كل تلك السنين أمرًا غريبًا. كانت تراقبه دون أدنى حركة وقد تولد لديها شعور بأن ملامحه لا تحمل شيئًا يمكنه أن يعلق بذهنها، شيئًا ترغب في تذكره. لا تريد تلك الذكرى. إلا واحدة، تلك التي كانت تعاودها عادة فجأة، كما هو الحال الآن، ثم تتوالى الذكريات الواحدة تلو الاخرى. كانت صورة رءوس الهرات وهي تتدحرج تظهر أمام عينيها وعلى وجوههن ابتسامة مرعبة، والدماء تسيل من رقابهن وتنتشر قطع اللحم الممزق ويغطي الزَّغَب جلودهن. وهكذا تتوالى

الذكريات سريعًا الواحدة خلف أختها.

نظرت إليه وقد تملَّكها الرعب، فتراجعت بعيدًا عن الطاولة.

قال المحقق: من الأفضل أن تجلسي، اجلسي ها هنا.

جلست على الكرسي بالقرب منه. وكان يكفيها مجرد فرد يدها لتلمس أطراف أصابع أبيها من فوق الجورب الصوفي السميك. وخطر على بالها سؤال: من أين له مثل ذلك الجورب القيم، ما دام لم يكن لديه مال؟

ثم سألت: متى حدث ذلك؟

قال باجلار: لا بد أنه حدث ليلًا. بالتحديد بعد منتصف الليل، حيث كان في المساء بالحانة. وكنت أنا أيضًا هناك. وكان واضحًا أن شيئًا ما يعتريه. كان يجلس كالمذهول ولا يتحدث مع أحد.

أومأت دورا برأسها.

- ومن الذي وجده؟

غمغمت يانيجينا وبصوت يكسوه الضيق قالت: أنا.

ولفترة وجيزة بدا أنها لن تضيف المزيد إلى ما قالت. لكنها عندما رأت أنهم جميعًا ينتظرون أن تصف ما رأته بدقة أكثر، تابعت قائلة: كنت أسير في الصباح عبر الطريق السفلي، وكانت شجرة الغبيراء التي تناطح السماء تظهر بوضوح وبشكل مختلف عن أي وقت مضى. كانت منحنية نحو الأرض. شيء ما كان يثقل كاهلها. كان أشبه بجوال، وكان يتدلى منها. ركضتُ بسرعة نحوه، لكني لم أستطع عمل أي شيء. وأضافت وهي تضرب لوح الأرضية الخشبي البارز بطرف حذائها المطاطي المُوحل: لا بد أنه بقي متدليًا هكذا طوال الليل. وأخذت تسقط من نعل حذائها فضلات الأبقار التي علقت به. فقد جاءت إلى هنا مباشرة بعد الوردية الصباحية بالجمعية الزراعية التعاونية. وكان هذا باديًا عليها.

ما زال الهدوء يلف الغرفة. فلم يكن يُسمع سوى صوت تقشير الخشب، حيث كان يعقوب يقوم بخلع قطع الخشب الصغيرة من حلق الباب.

في النهاية قالت باجلاركا: سأساعدك في التجهيزات، لابد من إقامة حفل وداع له، لم يعد بوسعنا عمل أي شيء سوى هذا. وعندما وجدت أن دورا لا تعارض الأمر، بدأت بتقسيم الأدوار: سيأخذ باجلار مقاسه وسيذهب به مع المحقق إلى الأبرشية وإلى النجار، يانيجينا ستمُرُّ على الجيران، وستأتي بالمُنشد، وسنقوم نحن في تلك الأثناء بتغسيله. أما ليدكا فستخبز الفطائر. وبالنسبة للكحول سيكون عليكم جميعًا كل في طريقه أن تخبروا الجيران بأن يحضروا معهم البراندي.

وفي الظهيرة أخذت دورا تجوب الغرفة في توتر ذهابًا وإيابًا، وهي تتابع باجلاركا حين كانت تقوم بتسخين الماء وإضافة الملح إليه، وتخلع عن المتوفى ملابسه. وقبل أن تتمكن من إيقاف ما يحدث، قامت باجلاركا بخلع سرواله الداخلي، ببساطة قصته بالمقص وألقت به في التنور المشتعل.

وكانت وهي تقوم بذلك تقول: لو بقي حتى المساء، فستصبح رائحته كريهة، لأنه سيبول فيه.

كان جثمان الأب يرقد مسجى أمام دورا، تمامًا كما ولدته أمه، يظهر من بين رجليه كيس الصفن الصغير الذي جاء بها إلى الحياة. يرقد جسدًا عاريًا، أصلع، مائلًا إلى السواد. هكذا أصبح جسد أبيها.

انقبضت معدة دورا.

واصلت باجلاركا عملها بجِد، فألقت بفوطة صغيرة على دورا، وأمسكت هي بوعاء الماء الساخن ووضعته على مقعد بجوار الطاولة.

غسلتا أطرافه واحدًا بعد الآخر، فكانت إحداهما تمسك به والأخرى تدعكه، حتى انتهتا من غسل جسده بالكامل. وكانت دورا وهي تمر بالفوطة على جسده تود لو أنها تستطيع أن تدوس بأصابعها وتغرس أظافرها في أعماق جلده، فلا تدع جزءًا من جسده إلا وتنهشه بأظافرها حتى يسيل منه الدم. تمامًا كما فعل بأمها. لكنها لم تفعل من ذلك شيئًا. غسلتاه وتركتاه في مكانه إلى أن جفت ملابسه النظيفة فوق التنور الساخن.

وعندما بدأ يحل الظلام، كانوا قد انتهوا من تجهيزه بالكامل. كان مغسلًا، حليق الذقن، مسرح الشعر، وفي كامل ملابسه. فقاموا بوضعه فوق لحاف أبيض ثم وضعوه في

تابوت جُهِّزَ على عجل. وكان باجلار قد جاء به في الظهيرة فوق عربة تجرها الأحصنة ومعه الكراسي التي يقومون الآن بصفها داخل الحجرة.

وعندما بدأوا بتوزيع أطباق الفطائر فوق التنور الذي هدأت النار بداخله، سمعوا أول وصلة من الإنشاد.

فقالت باجلاركا وهي توقد شمعة عند رأس المتوفى: لقد حضر المنشد والندابات، وسيبدأ الإنشاد بعد قليل.

كانت دورا عصبية. حتى تلك اللحظة كانت تركز فقط فيما تقوم به من عمل. أما طريقة العمل فكانت تمليها عليها باجلاركا التي لم تتوقف عن الكلام في تلك الأثناء. تحدثت عن كل شيء، عن الحصاد، عن الطقس، وعن الماشية، عن الجمعية الزراعية التعاونية، وعن كاهن الأبرشية. كان يتدفق منها باستمرار سيل من الكلمات أفقد دورا ضرورة التركيز فيما تعمل. والآن اقتربت اللحظة التي ينبغي عليها فيها أن تنسحب من إيقاع العمل الذي لا يحتاج إلى تركيز. كان يُنتظر منها أن تبدأ بالتصرف كشخص لم تحس بإحساسه مطلقًا من قبل، إحساس الابنة.

استدارت ناحية يعقوب: ألست جائعًا؟ وكان هو طوال اليوم يراقبها من موقعه عند التنور، المكان الذي كان يحبه حتى في بيتهم بـ بيدوفا. أومأ برأسه وبدأ يزحف إلى أسفل.

قربت إليه باجلاركا طبق الفطائر: بالطبع، لقد كدنا ننسى. خذ هاتين الفطيرتين، وانتظر حتى يعطوك مما سيحضرونه بعد ذلك.

نَمْ قرير العين بعد عناء الأيام

أخي الحبيب

أبشر بجنة النعيم

كان موتك فداء للمسيح

الذي هو الحياة...

وصلت نغمات تلك الأغنية إلى البيت، وبعدها بقليل دخلت يانيجينا مع المنشد ومن خلفهما الجارات، فوقفت دورا وأمسك يعقوب بيدها بشدة.

مرحبًا، قالت باجلاركا للضيوف وقدمت لهم الفطائر. وراح كل منهم يأخذ واحدة، ويربت على كتف دورا ويمسح على رأس يعقوب ويترك على الموقد الهدية التي أحضرها لهم. وبعد قليل تراصَّت فوق التنور بجوار بعضها زجاجات البراندي، جميع أنواع الخضراوات، اللبن، بل ولحم رأس الخنزير.

ثم ضاق المكان عن استيعاب الجيران من الرجال الذين تتابع توافدهم لوداعه. كما لم يعد فوق التنور موضع بعد أن قام الأطفال بشغل كل فراغ فيه، فاضطر بعض الحضور إلى البقاء عند مدخل البيت أمام الأبواب المفتوحة.

جلست دورا ويعقوب بجوار الطاولة مباشرة، وعند رأس المتوفَّى وقف المنشد وجهه نحو الجمهور.

مرحبًا بكم جميعًا. بدأ يوجه كلمته إليهم، فسكت الجميع على الفور. تعلقت أعينهم به وبهما، وكانت دورا تشعر بهم من خلفها وعن جانبيها. كانوا جميعًا يراقبونهما. يريدون أن يروا كيف سيتصرفان. هل سيبكيان، وهذا ما يجب عليهما. البكاء والعويل واجب. وتبعًا لبكائها سوف تجهش الجارات بالبكاء ويكمل عويلهن عويلها. إلا أنها لن تفعل، بل إنها حتى لن تنتحب.

قال المنشد: أحييكم جميعا يا من جئتم لوداع المرحوم ماتياش إيديس، مرحبًا بالأقارب والجيران، كما أرحب بالأيتام المكلومين. في البداية سنبدأ بالصلاة.

بدأ الناس في الغرفة يُصلُّون.

شبكت دورا يديها وأخذت تحرك بهدوء شفتيها. وراحت تفكر في السبب الذي من أجله صار العم ماخالا منشدًا للموتى، ومتى بدأ يمتهن هذا العمل. فهي لا تذكر فيما تذكر أنه كان في كوبانيتسه منشد غيره. هل ورث تلك المهنة عن أبيه؟ أو عن جده؟ هل أخذ على عاتقه عبء مشاركة المكلومين في توديع موتاهم عن طيب خاطر؟ لقد أدخل نفسه في مأزق. فهو في عمله هذا يقوم بتسلق التلال النائية في الصيف أو في الشتاء، حيث تغمر الثلوج المنجرفة الطريق ليخبرهم بآخر ما كان يفكر به الموتى. وكيف تعلم

الوصول إلى أعماق الموتى وترجمة آخر ما كانوا يفكرون به لذويهم؟ كانت دورا تشك في قدرته على معرفة آخر ما كانت تكنه نفس أبيها.

انتهت الصلاة الجماعية، وبدأت تقترب منها من جهة اليسار زجاجة براندي. كانت تنوي أن ترفضها، لكنها عادت وغيرت رأيها وشربت عدة رشفات، فأحرق الكحول حلقها، وكادت تختنق.

وكان صوت المنشد الحزين في ذلك الوقت يتردد في الغرفة، حيث قطعت الصمت أغنيته عن عذابات يسوع المسيح وعن العذاب الذي ينتظر المذنبين المصرِّين على المعصية في السعير. كانت تلك هي الأغنية التي بدأ النحيب خلالها بعد أن كان الهدوء القاتل يلف غرفة الجلوس ببيتهم.

لا تترددوا في أن توقدوا لي شمعة

يا أعز الأصدقاء

يا من أودعهم بالحزن والأسى

وأنا سوف أدعو الله أن يفيض عليكم من رزقه الآن

أنشد ماخالا المقطع الأخير وسكت. ثم أخذ يتفحص وجه دورا، وعندما التقت عيناه بنظرتها الباردة، فقد الأمل في أن تبدأ بالعويل، فأغمض عينيه وأخذ نفسًا عميقًا. وعندما فتح عينيه من جديد، كان واضحًا لكل الموجودين بالغرفة أن ماتياش إيديس هو الذي سيتحدث الآن بلسانه.

- أرحب بكم جميعًا، أنا الضعيف ماتياش إيديس، ويُسعدني أن ألتقي بكم. أنا يا أحباب سعيد جدًّا أنكم لم تتركوني وحدي وأنا المسكين، وأنكم جئتم لوداعي ومرافقتي، لأني لا أعرف مآلي، أنا لا أعرف ولذلك أنا خائف قليلًا. خائف مما سيحدث بعد رحيلي من هنا، لا أعرف إذا ما كانت رحلتي ستطول، وهل سَيُغفر ذنبي، أم أن العذاب هو ما ينتظرني. وحده الله يعلم عدد خطاياي. أخطأت في حق وصايا الرب. لكني أطمع في المسيح الكريم وفي عفوه عني. ألم يكن بيتر هو القديس بيتر ومع ذلك ارتكب المعصية، وغُفر له ذنبه. وإذا كان الرب يغفر للعُصاة من البشر، ألا تغفرون لي أنتم وأنتم الخطاءون؟ أنا مخطئ وأنتم

مخطئون، كلنا في هذا سواء.

بدأ يترد خلف دورا صوت نحيب مكتوم. ثم تلاه صوت آخر. تلك كانت الندابات، وقد زادت عزيمتهن زجاجات البراندى التي تدور في الغرفة، فبدأن في ممارسة عملهن بغض النظر عن موقف دورا.

- لذا في البداية أرجوكم: من أجل الأب، من أجل الابن، من أجل الروح القدس، من أجل جراحات المسيح الخمسة، أن تغفروا لي عن طيب نفس أية إساءة صدرت مني بحقكم يومًا.

في البداية سأتوجه إلى العالم الآخر وستكون زوجتي إيرينا هي أول من أسأله العفو. سأطلب منكِ العفو عن ذلك الإثم الذي تسببت به في إنهاء حياتك قبل الأوان، أستسمحك ألف مرة في العفو، وصدقيني يا زوجتي، أني أسأت إلى نفسي بقدر إساءتي إليكِ، فلم يمرَّ عليَّ يوم لم أندم فيه على ما فعلت، وقد صاحبني عذاب الضمير حتى آخر نفس في حياتي. أرجوكِ سامحيني، وصدقيني كنت أدعوا الله كثيرًا أن تجدي في ملكوته الراحة والسعادة، لتعوضك عن حرمانك منها على الأرض بسبب ما فعلتُ بكِ.

وأما ثانيًا فأتوجه إليكِ ابنتي الكبرى الحبيبة. كنت أحبك كحبي لنفسي. وإن كنت قد آذيتك عندما تسببت في حرمانك من أمكِ، صدقيني لم يفارقني الحزن حتى آخر يوم في عمري. اغفري لي ذنبي ما استطعتِ إلى ذلك سبيلًا. فأنا مجرد إنسان خَطَّاء، إلا أن عدم محبتك يا دورا لم يكن أحد أخطائي. سامحيني أيضًا لأني أفسدت عليك طفولتك، وتركتك تشبين وسط الغرباء، وأني طوقت رقبتك بحمل رعاية أخيكِ. اغفري لي، حتى وإن كنت أراك قد تحملتِ أقدارك بشجاعة، اغفري لي إن كنتِ تستطيعين، وتعلمي من أخطائي.

وهذا هو ما أطلبه منك أنت أيضًا يا يعقوب، إن كنت تستطيع. أتوجه إليك بنفس الرجاء أن تعفو عني، لأني حرمتك من أمك، ولأني لم أتقبلك يومًا كما أنت، ولأني كنت أبًا سيئًا. صدقني أنا أيضًا كنت أعاني وخاصة في الأعوام الأخيرة، حيث لم تكن تمر عليَّ لحظة لا ألوم فيها نفسي على كل ما اقترفته في حقك أنت ودورا. وكان لوم الذات وخسارة حبكما لي هما ما أوصلاني إلى تلك الفعلة التي لا تليق بالمسيحي، أي الانتحار.

فأنا أُفضّل أن أحترق في نار جهنم على أن أكون شاهدًا على ملامتكم الصامتة لي. لذا أرجوكم مرة أخيره: سامحوني.

لمس أحدهم من الخلف كتف دورا بقاعدة الزجاجة. مرة أخرى بدأت دورا ترتشف الخمر. كان الأثر الحارق للخمر المركز في فمها قد بدأ يخف، وشعرت بحرارة لطيفة تتدفق في حلقها.

لم يفلح نشيج المنشد في التأثير على دورا، كما أنها كانت تشك في أن ما قاله هو بالفعل آخر ما كان يعتمل في نفس أبيها. لذا كانت فكرة الغفران غير واردة. ليتها فقط تنسى تلك المشاهد. أما ما كان يدور بعقلها في ذلك الحين فهو الشعور بالندم لكونها لم تصر على عمل جنازة عادية جدًّا بدون حفل وداع، بلا منشد ولا ندَّابات. وكانت وحدها صاحبة الحق في هذا القرار.

للمرة الثانية أرجوكم جميعًا الآن: من أجل الأب، من أجل الابن، من أجل الروح القدس، من أجل جراحات المسيح الخمسة، أن تغفروا لي أية إساءة صدرت مني بحقكم يومًا. أتوجه إليكَ يا يورا كوفاتشين، يا من أحرقت لكَ دارك. كنتُ شخصًا عنيدا وكنتُ أُفْرط في الشراب. لم يكن يليق بنا هذا الشجار الدائم بالحانة، فلم يكن لهذا الشجار أي معنى. وقد عذبتم كذلك بقرتنا حتى الموت، فاغفر لى ما كان مني، أغفر لك ما كان منكَ أنت أيضًا.

كما أتوجه إليك يا يان جورتشيك، يا من خاصمتك سنوات من أجل الحدود بين أرضنا على تل كوبرفازي. بماذا أفادنا الخصام؟ خسرت مالك وكذلك أنا. أكنا في حاجة إلى ذلك؟ بعد قليل سنرقد بجوار بعضنا ولن يقوم أحد بزراعة تلك الأمتار المعدودات.

وأتوجه اليكِ يا مارينا بيتسوخاتشكا، لا بد لي أعتذر لك أنت أيضًا، فقد وعدتك في شبابي بالزواج لكني لم أفعل. كنت أطمع في ثروة المرحومة زوجتي. وقد رأيتِ أنها لم تجلب لنا السعادة، كما أني ضيعت نصفها على الشراب. ماذا أعطتنا الثروة؟ لا شيء. لكني أدركت ذلك متأخرًا، وفي النهاية لم يمهلني الوقت حتى لطلب الصفح منكِ. فلا تلوميني، واصفحي عني أنتِ أيضًا.

للمرة الأخيرة أطلب منكم جميعًا الغفران لو كنت يومًا أسأت إليكم، وأترككم جميعًا مع تمنياتي لكم بكل الخير، وأسألكم الصلاة للثالوث المقدس من أجلي.

وفجأة توقف نحيب الندابات وأخذت تدوي في الغرفة الترانيم.

راحت دورا تتلفت حولها خلسة إلى الجيران الذين يرددون الصلوات في تأثر واضح. مرت بعينيها على الرءوس المتدلية نحو الأيادي المتشابكة فوق الصدور، حتى توقفت عند يانيجينا التي لم تكن ترفع عينيها عنها وهي تقف في زاوية الغرفة. وقد جعل ذلك دورا تشعر بالخوف من نظرتها العابسة. ماذا حدث؟ ظل ذلك السؤال يدور برأس دورا، لكن يانيجينا أومأت على الفور برأسها صوب يعقوب، فأدركت دورا الأمر. فقد كانت بين يديه التي كان يطويها في حجره زجاجة براندي فارغة من ثلث محتواها. بالتأكيد أعطاه إياها أحد الجيران الطيبين بحجة أنه من حق ذلك المسكين أن يشاركهم الشراب أيضًا، فشرب يعقوب وهو الآن يجلس على الكرسي يتأرجح إلى الأمام وإلى الخلف ثم مرة أخرى إلى الأمام. وبالكاد تمكنت من الإمساك به قبل أن يسقط على الأرض، وانتزعت الزجاجة من بين يديه فاندفعت من جوفه عدة قطرات. أما هو فكان ينظر إليها في وهن ويبتسم.

بدأت تتردد الترنيمة الثالثة:

- والآن يا جيراني فلتبقوا هنا ما طاب لكم البقاء، فلتأكلوا ولتشربوا، ولتذكروا المسكين ماتياش إيديس بالخير. وفي الساعة العاشرة صباحًا سينتظرنا القس.

انتهى إلى هنا دور المنشد، فجلس على المقعد خلف الطاولة منهك القوى في مواجهة دورا تمامًا وابتسم لها ابتسامة حزينة من خلف حافة التابوت. وأخذ الموجودون بالحجرة يتحركون من أماكنهم فصارت تسمع بها همهماتهم. وأخذت أطباق الفطائر تتدافع ومعها من جديد زجاجات البراندي. وجلست الندابات يُحِطن برأس المتوفى، وبدأن يرددن أغنيات حزينة طويلة. وراحت الأمهات تحث أطفالهن على النزول من فوق التنور وتودعن بقية الجارت.

- نلتقي صباحًا في المقابر!

- إلى اللقاء يا دورا، إلى اللقاء يا يعقوب!

- فلتذرفوا عليه الدمع كما يليق به وتودعوه شاعرين بألم الفراق.

انتفضت دورا. ألم يفهموا بعد؟ هي لا تنوي أن تبكي أحدًا. سوف تتهامس كل

الجارات صباحًا في الجنازة بأن دمعة واحدة لم تنزل من عينيها. دعهم يقولن ما شئن.

أخذت تلقي على الغرفة نظرة سريعة يملؤها القلق وهي تبحث عن يعقوب، الذي ابتعد عن الطاولة التي تحمل النعش ليبقى منكمشًا في زاوية الغرفة، وقد أصابه الفُواق وبدأ يتأتئ كالمخدَّر كلما أقبل عليه أحدهم يودعه. وكان الناس يمسحون على شعره الفاتح، وكان هو يمسك بأيديهم في وداعة، وبات واضحًا أنه لم يدرك بعد السبب الذي من أجله يفعل الجيران ذلك وكانوا من قبل عادة ما يتجنبونه. ثم أخذت زجاجة البراندي من يانيجينا التي اخترقت الصفوف لتصل إليها، وشربت ما كان بها.

وامتلأت الغرفة بأصوات همهمة الجيران وهم يتحدثون عن رغبتهم بالمبيت حتى الصباح، وبأغنيات النداَّبات التي بدأ إيقاعها يزداد قوة.

دارت زجاجات البراندى واختفت الفطائر من الأطباق وعلت ضحكة هنا وهناك، كما لو كان قد غلبه النعاس وقرر الباقون عدم إيقاظه.

وكان آخر شيء تذكرته، قبل أن تقتادها يانيجينا إلى الخارج، هو أغنية تشاردش التي كانت تتغنى بها النداَّبات المخمورات، وباجلار الذي كان يحاول أن يدور وسط الغرفة ممسكًا بـ تيخاتشكا، فصارا يدوسان بأقدامهما أولئك الذين غلبهم النوم فانكمشوا كما فعل يعقوب على الأرض وسط طوفان الزجاجات الفارغة والأطباق المهشمة.

في اليوم التالي ازدادت معرفتها بطبيعة الأمور. انشغلت دورا منذ الصباح الباكر بالعديد من الطقوس التي كانت تشرف على حسن سيرها باجلاركا. ففي الخامسة صباحًا صعدت إلى كوبرفازي، كما أيقظت كل من بقي بالدار، فانطبع حماسها بقوة على الغرفة التي فسد هواؤها.

بالكاد استطاعت دورا أن تغسل وجهها بالماء البارد ثم انطلقت إلى العمل. وحافظت بعناية فائقة على كل ما يلزم لمرافقة الميت. وعلى أنغام الغناء المنهك للنداَّبات أخذت تنظف المطبخ وتلقي بكل البقايا والمخلفات في التنور المشتعل حتى لا يجد الميت بعد وداعه سببًا للعودة مرة أخرى. وقبل أن يضعوا فوقه غطاء التابوت قامت بوضع قطعتين صغيرتين من العملة المعدنية فوق جفنيه، كي يدفع بهما إلى المعداوي الذي سينقله إلى العالم السفلي. ووقفت تراقب دق المسامير بالنعش، حتى لا يغادر النعش إذا ما

أُغلق بطريقة سيئة، ولكي يحرصوا على أن يغادر المرحوم البيت وقدماه إلى الأمام، وأن يدق الرجال بالنعش على عتبة البيت ثلاثًا، حتى يتمكن الميت من توديع البيت كما ينبغي. ثم ألقت فوقه مريلتها وجعلت ظهره إلى الخارج، كي يعرف الميت أنها ستتركه يرحل، ونزلت مع الموكب الذي يحمل النعش إلى هروزينكوف.

لم تكن يومًا تتصور أنها يمكن أن تتمسك بكل هذه العادات وأنها ستنفذها بتلك الدقة. إلا أنها فيما يخص وفاة أبيها أرادت أن تتشبث بأدق التفاصيل، كي تتيقن من استحالة عودته.

لم تستغرق المراسم بالكنيسة وقتًا طويلًا، فلم يكن هناك الكثير من طيب الكلام يمكن أن يقال في حق المتوفى، كما لم يكن هناك داعٍ للتسرية عن أهله. كانت دورا فقط تهز رأسها. وكثيرًا ما كانت في تلك الأثناء تلتفت نحو يانيجينا وتنظر في ساعتها. فوكزتها باجلاركا برفق في النهاية، وهي تهمس في أُذنها بأنها تتصرف بطريقة غير لائقة. وربما كانت دورا تحدث نفسها بمغادرة المكان.

وبنفس الشرود سارت نحو المقابر.

اتجه النعش نحو القبر في هدوء، حيث لم ترغب دورا في مصاحبة الموسيقى للجنازة، كما لم تتبقَّ دموع في عيون أي من النداَّبات بعد الأمسية المرهقة التي قضينها هناك. كانت عيون دورا متجهة نحو فروع الأشجار المحيطة بالمقابر ولم تكن معلقة بتلك الجماعة المتشحة بالسواد من الجيران الذين كانوا يقومون واحدًا تلو الآخر بإلقاء كتل الطين داخل الحفرة أسفل شاهد القبر الخاص بعائلتهم.

ولم يتبقَّ والحال هكذا إلا أن يموت أحدهم في هروزينكوف قريبًا، وعندها لن يتوجب على روح أبيهم أن تقوم وحدها بحراسة الأرض بين قبريهما، ولكنها ستتبادل الحراسة مع ساكن القبر الجديد.

وبعدها سَيُلقَى به في الجحيم.

لم تهدأ دورا إلا مؤخرًا عندما دخلت الحانة. طلبت زجاجتي براندي لتشرب هي وباجلار وباجلاركا وتيخاتشكا ويانيجينا والقس على شرف المتوفى. كما طلبت البيرة لكل الموجودين. وخصصوا كرسيًا على رأس الطاولة للأب. وأخذت هي ترقب الكرسي

طوال الوقت وقد انتابها شعور بأنه يرقبها من مكانه، مما أزعجها بصورة أكبر من تلك التي شعرت بها عندما كان جثمانه يرقد أمامها مباشرة. لكن لا عليها من ذلك. أفرغ الهواء ما في الجعة من طعم ونكهة أمام الكرسي الخالي، وبقيت كأس البراندي كاملة لم ينقص منها شيء.

هل مات حقًّا؟ هل خرج من حياتهم بغير رجعة؟ هل تخلصت بالفعل من الخوف من أن تلقاه أو تصطدم به في مكان ما كما حدث بالفعل في ذلك اليوم؟

حدث ذلك في الشهر الثاني بعد عودته من السجن، عندما كانا هي ويعقوب يصعدان إلى جيتكوفا. كانا متعبين بعد الرحلة الطويلة من برنو. رأته وهو ينزل الطريق الهابط من بيتهم في كوبرفازي، وقد انحنى ظهره وكبرت سنُّه وابيضَّ شعره، لكنه بخلاف ذلك لم يختلف عن صورته المحفورة في ذاكرتها منذ الطفولة. ما زال وسيمًا كما هو. أخذت تجذب يعقوب بعنف، وأسرعت من خطواتها حتى كادت تجر يعقوب جرًّا من ورائها إلى أن تجاوزا أباهما بعدة أمتار. ووقف هو عند تقاطع الطريق، وبدا عليه كما لو أنه رأى شبحًا. مرت دورا ويعقوب بدون إلقاء التحية، ولم يلتفتا خلفهما ولو لمرة واحدة. ولم يُقْدِم هو على أية محاولة في الشهور التي سبقت وفاته.

كانت وهي في طريقها إلى برنو تفكر في سبب تقاعسه عن القيام بأية محاولة في هذا الاتجاه، ولِمَ لم يجرب على الأقل أن يكتب لهما خطابًا. لم يفعل قط، لا وهو في السجن ولا بعدما خرج منه. كانت تُحمله وزر كل شيء، لكنها الآن مغتاظة من نفسها. كيف سمحت لنفسها أن تفكر فيه؟ فأخذت تقول لنفسها إنه الآن يقبع تحت الأرض، وإن أمره قد انتهى بشكل نهائي. وإن ما شاء الله كان.

ومنذ ذلك الحين لم تذكره سوى مرة واحدة. وذلك عندما أتت باجلاركا في يوم السبت التالي تقول لها إن الحبل الذي شنق نفسه به قد اختفى، وإنه غالبًا ما سيكون أحد أولئك الذين ينتظرون الوقوف أمام القضاء قريبًا قد سرقه؛ لأن من يمتلك حبل المنتحر لا يمكن أن يغلبه أحد. وسيكون هو الكاسب في أية قضية يصبح طرفًا فيها.

بعد كل ما حدث في الماضي وبعد كل تلك السنوات التي مرت على وفاته، تطلب منها إيرما أن تتحدث معه. ربما جُنَّتْ؟ أتحدث مع أبي؟ هراء.

خرجت على الفور من عندها حتى كادت تصطدم بما كان يقف في طريقها للخروج.

ذهبت إلى باجلاركا كي تأخذ يعقوب، ولم تنتظر لتشرب معها شاي الهندباء. كانت في عجلة من أمرها، كان كل همها هو الصعود إلى بيتهم، لكنها حتى بعد وصولها إلى هناك لم تستطع التخلص من ذلك الإحساس العميق بالغضب. فجرحت إصبعها وهي تقطع الخبز من أجل العشاء. فقدت القدرة على التركيز. وأخذت تروح وتجيء في الغرفة وإصبعها المجروحة في فمها تبحث لها عن لزقه جروح.

جلس يعقوب متعجبًا في زاوية الحجرة وظل يتابعها في دهشة.

وفي تلك الليلة جافاها النوم. أخذت تتقلب في الفراش، ولم يقطع الصمت في الغرفة الهادئة سوى صوت صرير الواح الفراش المصنوع من خشب البلوط. وباتت تتراءى لها صور كل من جاء حينها لتوديع أبيها، جميع من استطاعت أن تلمح في عيونهم التعاطف الزائد أو الاعتراض على عدم امتثالها لطقوس الوداع. بدأت تتذكر من جديد وجه كل منهم وانتهت بـ يانيجينا وكانت الوحيدة التي لم تُلْقِ للأمر بالًا. كم كانت تتمنى أن تأتيها اليوم وتبدد أحزانها كما فعلت أول مرة.

كانت تود من أعماق قلبها أن تأتي، ليتها تأتي.

إلا أن الدقائق أخذت تمر، ولم يحدث شيء. ورأت أنها لا تفعل شيئًا سوى إضاعة الوقت، وأنه من الأفضل أن تخرج قليلًا كي تستنشق الهواء النقي، فربما بعدها يواتيها النوم، فقامت وارتدت معطفها وخرجت لتقف أمام البيت.

اصطدمت قطرة ندى بفمها وهي تتنفس بعمق في قلب تلك الليلة الباردة من فصل الخريف. بدأت تشعر ببرودة الجو، عندما تعلقت أنظارها بالهلال المعلق بالسماء المرصعة بالنجوم. وراحت تعصف برأسها الأفكار. وذهبت كل محاولاتها لنسيان ما

قالته إيرما هباء. الآن فقط أدركت أن كلماتها الأخيرة قد أزعجتها لدرجة جعلتها تفر من أمامها قبل أن تتمكن من معرفة الشيء الذي من أجله ذهبت إليها من الأساس، عن سورمينا وعلاقتها بـ ماهدالكا.

قامت لتقف قليلًا أمام عتبة البيت وقد ملأت روحها الكآبة، ثم أجبرها البرد على العودة إلى الداخل. وفي اللحظة التي أمسكت فيها بمقبض الباب، سمعت صوتًا مكتومًا يأتي من أسفل، من الطريق. كانت يانيجينا. كانت قامتها الطويلة العريضة الأشبه بقامات الرجال تتحرك بخفة عبر الغابة التي أضاءها القمر. كانت تغطي رأسها بقلنسوة من الصوف غزير الوبر ومن تحتها ظهر شعرها الطويل المفرود، وكانت ترفع يدها وتلوح بها، وبدت وكأنها كانت قبل قليل تصفر، ثم أخذت تشير إلى الطريق المؤدي إلى كوبارفازي. لم تتردد دورا لحظة واحدة. شدت حزام المعطف ليصبح أكثر التصاقًا بجسدها، وانطلقت خلفها.

ولم يغادر دورا العبوس حتى في اليوم التالي. صاحبتها الكآبة طوال الوقت وهي تسير مع يعقوب عبر منحدرات التلال، ولم تتركها حتى وهي تتابعه حين كان يقطع الحشائش الجافة في مرح ويجمع أوراق الأزهار الملونة التي ألقت بها الريح من الغابة إلى البستان، ويتأمل أشكالها التي تقاطعت خطوطها في إعجاب.

وعندما اضطرت إلى أن تقطع عليه متعته كي يلحقا بالحافلة المتجة إلى برنو، وعدته قائلة:

- سوف نذهب إلى الغابة الأسبوع القادم.

وفي آخر النهار كان يعقوب يتواجد بين زملائه بالمؤسسة، بينما اتجهت دورا إلى البيت. وكانت معتادة على فتح صندوق البريد عند دخولها إلى البيت، ولم تكن تتوقع أن يوجد به شيء في مساء الأحد، لكنها وجدت به خطابًا. لا بد أنه وصل يوم الجمعة. وكان من وزارة داخلية جمهورية التشيك. فتحت الغلاف بسرعة وبأطراف أصابعها أخرجت ورقة مثنية ثنيات ثلاثًا.

السيدة المحترمة دورا:

ردًّا على طلبكم المؤرخ في 18 أكتوبر 1998، والخاص بالسماح بالاطلاع على ملف عميل أمن الدولة، نفيد سيادتكم بأنه لا يمكن السماح لكم في الوقت الحالي بالاطلاع على الملف الخاص بالعميل شفانتس يندرشيخ، حيث إنه ما دام هذا الملف يخص موظفًا تنفيذيًّا بأمن الدولة طبقًا للقانون رقم 140/1996، فلا يُسمح بالاطلاع عليه إلا لأشخاص لهم صفة قانونية. وهو ما يعني أن طلب الاطلاع على الملف الخاص بعميل أمن الدولة لابد أن يتقدم به شخصيًّا الشخص الذي كان الموظف يقوم برصد تحركاته، والمقصود به في حالة الملف المعنون بـ سورمينا – تريزيا، سورمينا نفسها. وبعد وفاة الشخص المرصود ينتقل الحق في الاطلاع على الملف الخاص بعميل أمن الدولة طبقًا للبند 4 فقرة 1 من القانون 140/1996 إلى الشخص المخول قانونًا بحفظ حقوق المتوفى. وللأسف هذا الشرط لا ينطبق على سيادتكم.

ونفس الشرط ينطبق على الاطلاع علي ملف قضية الساحرات، والذي نحيط سيادتكم علمًا بأنه تم إعدامه في عام 1974.

رئيس قسم إدارة المحفوظات وخدمة الملفات بوزارة خارجية جمهورية التشيك: كارل دوليشي

براغ في 20 نوفمبر 1998

****

عظيم. لم تكن العطلة البغيضة لتنتهي بشكل أسوأ من هذا الذي انتهت به.

قرأت دورا الخطاب مرة أخرى، ثم ردته من جديد إلي المظروف بعد أن خاب أملها، وصعدت السلم إلى شقتها.

ليست هي الشخص المخول بحفظ حقوق سورمينا! إذا لم تكن هي ذلك الشخص، فمن غيرها؟!

غمرها شعور بالمرارة والعجز قبل أن يُغلق من خلفها الباب، وتملَّكها الحزن أكثر من أي وقت مضى.

وبعد قليل أخذت تتساقط على جسدها قطرات ساخنة من تيار جارف كان يتدفق من الصنبور، وبدأت درجة السخونة تزداد لتدفئ القشعريرة التي انتابتها، عندما اتكأت

عارية على حوض الاستحمام البارد.

أخذت تفكر وتفكر.

الخطاب يعني أنها لن تعرف عن طريقهم أكثر مما عرفت، وأن هؤلاء من خلال خطابهم الذي كان بمقدوره مساعدتها في كشف جرائم الماضي، قد غلوا يديها بقواعدهم الوظيفية المقدسة وألقوا في طريقها العقبات التي لا يمكنها تخطيها.

أخذت تصب الماء الساخن فوق نتوء بطنها الذي كان عمق السرَّة بداخله يبدو كبحيرة ضحلة، وأخذت تراقب يدها وهي تفسح الطريق كسمكة بلهاء عبر تيار الماء. وكان بإحدى يديها سوار أحمر باهت أهدتها اياه سورمينا، خالتها. كانت تتساءل: هل يوجد سبب آخر جعلهم يحولون بينها، وهي ابنة أختها، وبين متابعة البحث لمعرفة ما حدث لها بطريقة مباشرة؟ وراحت تتسلل إلى عقلها مقتطفات من حكايات سمعتها عن حماية هوية العملاء السابقين لأمن الدولة، الذين ما زالوا يعملون في جهاز سيادي. فقالت لنفسها: لكن هذا لا يمكن أن ينطبق على حالة موظف بإحدى الإدارات المحلية، وأنها لا ينبغي أن تترك نفسها نهبًا للشك والريبة!

فبدت كما لو كانت تريد طرد تلك المخاوف، وفي اندفاع مفاجئ فاجأها هي نفسها، بدأت تدَوِّم سطح الماء بكل قوة، فاندفعت منه أكوام من الفقاقيع وأخذت تفوح منه رائحة الخزامى القوية، ولم تتوقف إلا بعد أن تغطى جسدها بالكامل وكأنما اكتسى رداءً بلون الثلج. بعدها فقدت القدرة على الحركة وأخذت نظراتها المتعبة تنتقل من مكان لآخر. غسول مهدئ، هكذا كُتب على غلاف الزجاجة البلاستيكية الموضوعة في أحد زوايا حوض الاستحمام. كان هذا هو ما تحتاجه بالضبط، هكذا قالت لنفسها وهي تضع الزجاجة قبل عدة أيام في قاع سلة المشتريات بالصيدلية. واليوم أفرغت ما تبقى منها في تيار الماء المتفق، لكنها لم تشعر بذلك الهدوء المزعوم.

أغلقت عينيها وظلت مستلقية لبعض الوقت، فأصبح لا يُسمع بالحمام سوى صوت أنفاسها المنتظمة.

وفجأة أخذت نفسًا عميقًا ثم نزلت تحت الماء ليختفي وجهها وشعرها وسط تل من الفقاقيع، وتظهر منها فقط ركبتاها اللتان كانت تحركهما إلى أعلى. كانت تحدث نفسها

قبل أن تطفو من جديد فوق سطح الماء محدثة أزيزًا عاليًا، بأنه إذا كان ما تبغي لن يتحقق بمساعدة أولئك الذين كان يجدر بهم مد يد العون لها، فسيتحقق بطريقة أخرى. ستنقب بنفسها وراء هذا الرجل الذي يقف وراء كل ما حدث لـ سورمينا!

كان الربيع قد تحول منذ وقت طويل إلى صيف شديد السخونة، عندما استطاعت أخيرًا أن تفاجئ باجلاركا مرة أخرى بالزيارة في بيتها.

أين كنتِ يا خالة؟ لقد أتيت إلى هنا عدة مرات أبحث عنكِ. سألتها دورا عندما جلستا في ظل شجرة الزيزفون خلف الدار.

قالت وهي تضرب بخفة على جنبها الأيسر أسفل مريولها الصيفي: إنهم الأطباء الذين يفضلون الجراحة، أجروا لي جراحة وبقيت بعدها بالمستشفى حوالي شهر. لكن الآن على الأقل انتهت مشاكلي الصحية. وقد أعطتني إيرما كذلك بعض الأعشاب والجرح يلتئم بصورة طيبة.

لاحظت دورا أثناء زيارتها لـ باجلاركا وإيرما في الخريف الماضي أن أيًا منهما لا تريد الخوض كثيرًا في سيرة مُربية فوكسينا. كانت تعلم جيدًا أنهما تتملصان وتروحان تسردان الحكايات الطوال التي ليس بها إجابة عما تسألهما عنه. ما عساه أن يكون ذلك السر الذي يحيط بمهدالكا ويجعلهما تتجنبان الخوض فيه؟ كان هذا السؤال يدور برأس دورا، لكنها لم تعُد تحتمل الصبر فالتفتت إلى باجلاركا تسألها عنها مباشرة.

فأجابتها باجلاركا في تردد: ماهدالكا؟ ألم تخبرك إيرما أنها ويوستينا كانت تجمعهما صلة قرابة بـ فوكسينا؟

أومأت دورا برأسها أن نعم.

- حسنًا، إيه، ربما بالفعل. لكن أنا لا أعرف يا ابنتي إن كنت ما أزال أذكر ذلك جيدًا.

فقالت دورا وقد تغيرت نبرة صوتها: اسمعي يا خالة! أنا حفيدة يوستينا ولي الحق في معرفة أقاربي! ومن غيرك أنت يا خالة يمكنه أن يعرفهم!

هزت باجلاركا كتفيها في تردد ثم قالت: وماذا أقول؟ الحقيقة أني أظن أن ماهدالكا كانت خالتك.

أخذت دورا تحملق بها في ذهول من هول ما سمعت. فسكتت باجلاركا وقد أصابها الفزع.

- خالتي؟

تابعت باجلاركا بقلق: إيه، نعم، الأخت الكبرى لسورمينا. لكن الواقع أنه لم يكن بوسعكم معرفة ذلك. فقد انتقلت إلى ناحية أوهيرسكي منذ شبابها قبل أن تُولد أمكِ التي كانت أصغرهن جميعًا. ذهبت إلى هناك سعيًا وراء عريسها الذي تسببت بوفاة زوجته وترمله، وإن كان من الصعب معرفة حقيقة ما حدث. تزوجت في بوتوتشنا أحد أبناء عائلة ماهدال؛ ولذلك صارت بعدها تُدعى ماهدالكا.. وهناك بدأت تمارس مهنة السحر والتنجيم.

فتساءلت دورا في دهشة: وهل تذكرينها يا خالة؟

ترددت باجلاركا، ثم قالت: نعم أذكرها.

- وكيف كان شكلها؟

أشاحت العجوز بوجهها، ثم قالت: اذكروا محاسن موتاكم. كان واضحًا أنها لا تريد أن تضيف المزيد. أخذت دورا تتنحنح في غضب، ثم قالت بنبرة حاسمة: قالت إيرما إنها كانت واحدة من الساحرات الشريرات، هل هذا حقيقي؟

- أحقًا قالت إيرما ذلك؟ فعلًا؟ هزت باجلاركا رأسها في دهشة، لكنها عادت لتكمل وقد اعتراها غضب شديد: نعم بالفعل، كان يُروى عن يوسيفينا حكايات كثيرة سيئة. خسارة أن سورمينا لم تحكِ لكِ عن ذلك بنفسها، وربما كان عليها أن تفعل.

شعرت دورا بأنها تريد أن تتهرب من الإجابة عن سؤالها، لكنها لن تتركها تتملص منها هكذا بسهولة. فقالت بصوت خفيض: يقولون إن يوسيفينا كانت تحمل بداخلها قوة شريرة، لم يكونوا يسمونها ساحرة، ولكنهم كانوا يطلقون عليها الساحرة الشريرة، وهو اللقب الذي كانوا يسبُّون به بقية الساحرات حينما لا يسرهم أداؤهن. لكن الأمر مختلف في حالة ماهدالكا الأم. فقد كانوا يرددون أنها تستطيع تسخير الأرواح الشريرة، تستطيع أن تسحر الناس، وأنه عندما كان يعاديها أحدهم، كانت تستطيع أن تمرضه. لكني لا أعلم مدى صحة هذا الكلام. كل ما أذكره هو ما عايشته أنا وسورمينا. وكان

ذلك في فترة ما بعد الحرب، ربما في نهاية الخمسينيات، عندما ذهبت إليها ومعى امرأة غريبة كنت قد التقيت بها أسفل التل عند المقابر، كانت تقف عند الطريق السريع وقد ضلت الطريق واختلط عليها الأمر وأخذت تروح وتجيء بنفس الطريق، فقلت لنفسي لابد أنها ترغب في الوصول إلى إحدى الساحرات. كنت أنوي أن أذهب بها إلى إيرما في هودوليتسه أو إلى سورمينا بحسب حاجتها. أتدرين ما حدث؟ بمجرد أن قالت إنها من زميانسكي بودهرادي وأن ماهدالكا سحرتْها، لم يكن هناك داعٍ لأن تضيف إلى ما قالت شيئًا. وكان منظرها عجيبًا، مشعثة الشعر، بيضاء كصفحة خالية من ورق، وكانت في حالة غير طبيعية بالمرة. تأبطت ذراعها وذهبت بها بلا تفكير إلى بيدوفا. كنت أعلم أنه إن كانت ماهدالكا قد مستها بسوء فلن يستطيع أحد مساعدتها على أن تبرأ منه سوى سورمينا التي تعلمت كما تعلمت ماهدالكا من أمهما يوستينا روخاركا. وهو ما حدث بالفعل. بمجرد أن حكت المرأة لـ سورمينا أنها اختلفت مع ماهدالكا نظير أجر ما قامت به من أعمال التنجيم، فهمت سورمينا ما حدث بعد ذلك. فقامت على الفور لتضع الأعشاب في الماء وتضعهما على الموقد، ثم أضجعت المرأة على الفراش ووضعت من تحتها لحافًا، وطلبت مني أن أخلع عنها ما كان يمسك بإحكام علي جسدها من ملابس. فقمت بفك الشال الذي كانت تتعصب به، وخلعت عنها تنورتها، وفككت رباط حذائها، حتى يصبح جسمها حرًا، وأعطتني سورمينا فوطة صغيرة كان عليَّ أن ألقي بها على وجه المرأة. وعلى الرغم من أن المرأة كانت ضعيفة كالبعوضة، فقد بدأت تتلوى، ولم تكف عن الحركة مطلقًا، كما لو كانت تلك الفوطة الموضوعة على وجهها تحرقها. وأخذت أصارعها لبعض الوقت كي تكف عن الحركة، والتفتُّ مذعورة إلي سورمينا التي كانت ما تزال تقف عند التنور المشتعل أمام آنية الفخار التي كانت تقذف فيها الكثير من الأعشاب وكانت في تلك الأثناء تتمتم بشيء لا أفهمه، لكنه كان شيئًا جامدًا غامضًا، فشعرت بالخوف يسري في أوصالي. في تلك اللحظة لم أكن أدري أن القادم هو الأسوأ. ليتك رأيتِ ما حدث عندما أعطت المرأة خلاصة الأعشاب المُعدَّة لتشربها، وعندما غطَّست فيها يديها، وعندما أخذت ترشها على جسدها. في البداية كنت أظن أن المرأة ستصرخ؛ لأنها كانت شديدة السخونة، لكني رأيت سورمينا تضع هي الأخرى يديها فيها من دون أن تنبس ببنت شفة. وأخذت المرأة تصرخ كما لو كان يتساقط من فوقها فحم مشتعل، وراحت تصرخ وتصرخ كحصان جامح، لكنها ظلت ثابتة فوق فراش القش، لم

تنهض ولم تهرب، كما يتوقع المرء. كان يبدو من كل ما يحدث أنها عملية الهدف منها تخليصها من الأرواح الشريرة التي تلبست بها، كتلك التي كان يقوم بها الكهنة لدفع ما يلقي به الشيطان الساكن بأجساد الساحرات. وهذا هو ما كانت تقوم به سورمينا ببيتها في بيدوفا. وعندما أتمت ما بدأته ظلت المرأة ممددة على الفراش بلا حول ولا قوة يتصبب منها العرق، بينما ذهبت سورمينا لتفتح كل النوافذ والأبواب. فقلت لها هل جُننتِ؟ ستصاب بالبرد، فأجابتني بأن هذا لا يهم، الأهم هو أن تخرج من هنا. وفضَّلت ألَّا أسأل من كانت تعني بقولها هذا. وقضت المرأة ليلتها هناك، وعدت أنا إلى بيتي، وفي اليوم التالي ذهبت إلى سورمينا، فوجدتها بالدار وحيدة وعلى غير العادة نكدة المزاج. فسألتها عما بها. ألم تعطك ما طلبتِ. فأشارت بيدها أن لا علاقة للأمر بذلك، لكنها لا تريد أن تنتظر. فسألتها ثانية: تنتظرين ماذا؟ فأجابت بأنها لا ترغب بالانتظار حتى تنجح الروح الشريرة في محاولتها للعودة إليها من جديد. فتساءلت متعجبة: الروح الشريرة؟ فقالت سورمينا حينها: كانت ملبوسة والروح الشريرة تصارع من أجل العودة إلى جسدها، وستحاول العودة إليه، وهذه المرأة المخبولة عندما شعرت بتحسن كبير وبأنها برئت مما ألَمَّ بها، شكرتني وانطلقت تتبختر متجهة إلى أسفل التل، ولم تنصت مطلقًا لما كنت أقول لها. ستعود بعد أسبوع من جديد ولتتحمل النتائج وحدها. إلا أنها لم تعد. وخرجت أنا من عند سورمينا متجهة إلى هروزينكوف أسفل التل ودخلت الحانة. وفي ذلك الوقت دخل إلى الحانة نفر من الرجال من بلدة ترتشينا يقولون إنهم وجدوا أسفل الطريق في نهر دريتوميتسه امرأة ولم يكونوا ليتعرفوا على كونها امرأة إلا من خلال شال أسفل ما تبقى من رأسها بينما لفت تنورتها جسدها بالكامل. كانوا يقولون إنه ربما انحرفت بها الريح وجذبتها لتسقط في النهر فوق الصخور أسفل السفح. كان جسدها ممزقًا إلى أشلاء. كانت هي نفس المرأة. وعندما ركضتُ إلى بيدوفا كي أُخبر سورمينا، قالت إن يوسيفينا كانت دائمًا هي الأقوى، أقوى من سورمينا، وإنه ليس من المستحب اللعب مع شياطينها. لم أفهم بالمرة ما قالته، لكن ما قالته كان مفاده كما يقولون أن البعد عن ماهدالكا الأم غنيمة. وحده الله يعلم حقيقة أمرها. وكانت فوق كل هذا تتعاون مع الألمان، يا لها من عاهرة! ولكني لا أعلم عن ذلك شيئًا. عادت باجلاركا إلى التردد في البوح بما تعرف.

تركتها دورا وقد عقدت الصدمة لسانها. اندهشت من كون كوبانيتسه ما زالت

قادرة على مفاجأتها. كوبانيتسه التي تعرف كل حجر فيها، كل شجرة وكل ممر بين المنحدرات. كيف أمكنها أن تخفي عنها شيئًا قريب الصلة بها شخصيًا كهذا، أن لها خالة؟

صعدت مع يعقوب على مهل إلى بيدوفا في نسيم الصيف وقت المغرب، لم تستطع دورا التخلص من إحساسها بالخيانة. لماذا لم يخبروها بأمرها؟ لماذا صمت كل من يمكنهم أن يعرفوا عنها شيئًا؟ ولماذا لم تجد لها ذكرًا في كل تلك المجموعة من الوثائق التي وقعت تحت يديها في دار المحفوظات؟ الآن فقط تشعر بالصدمة التي تصل إلى حد خيبة الأمل لأنها لم تستطع أن تعرف عنها شيئًا خلال كل تلك السنوات من البحث. كيف استطاعت أن تفلت من بين يديها؟ وعلى الرغم من أن دراستها كانت تتعلق بالقرن الماضي، إلا أنها كانت تعثر هنا وهناك على شيء ذى صلة بإحدى الساحرات التي كانت يومًا ما تعيش بـ كوبانيتسه. وجدت إشارات عن أقدم الساحرات وعن خليفاتهن، عن أشهرهن، وأقلهن مهارة، عنهن جميعًا ما عدا ماهدالكا، وزوجة ابنها، وفوكسينا، عن تلك العائلة الغريبة التي زادها الصمت عنها غموضًا.

وفجأة أدركت الأمر! فقد كانوا يعيشون بالفعل في هروزينكوف، لكن خلف النهر! في مكان يسمى بوتوتشنا وكانت بوتوتشنا من حيث الموقع الجغرافي تقع أسفل منطقة دريتوم. واضح تمامًا لماذا لم تتوصل إلى أي شيء عنها في سجلات المحفوظات وفي السجلات المدنية التشيكية.. لأنه إذا كانت أخبارها قد حُفظت فستكون بالطبع تحت أيدي السلطات السلوفاكية.

انشغلت دورا كثيرًا بإعداد المادة العلمية لرسالة الماجستير. لم يغب عنها أي مصدر من مصادر التراث المحفوظ المختص بالسحر والشعوذة. جابت نصف الجمهورية طولًا وعرضًا كي تجمع كل شيء يمتُّ بصلة لتاريخ ساحرات جيتكوفا. وقد وقع تحت يديها دفتر ملفات التحقيقات بمنطقة بويكوفيتسه حيث نُقلت القضايا الجنائية التي وقعت بمنطقة جيتكوفا. تعجبت دورا من كم البلاغات التي وجدتها في تلك الملفات بحق الساحرات. بسبب فشل العلاج، أو كذب النبوءة، أو خسارة قضية بسبب ثقة المدعي في إحداهن، والتي يفقد على أثرها بيته ومواشيه، أو تعمد إعطاء معلومات مضللة، أو عندما لا تصدق النبوءة وتخسر الفتاة الحبيب الموعود. وفي موضع آخر وجدت محضر تحقيق يتعلق بمشادة نشبت بين العملاء ببيت إحدى الساحرات، ولم تخلُ الملفات من الشجار بين الساحرات.

تبسمت دورا ضاحكة: إنه الغباء والمكائد الفاشلة. لا تدري لماذا لم يخطر ببالها أن الدفاتر السلوفاكية ستكون مليئة بمثل تلك القضايا، حيث كانت حشود العملاء تتردد على الساحرات من الجانب السلوفاكي كما كانت تفعل في الجانب التشيكي.

قضت الأيام التالية في البحث عن المصادر وسط الضجيج المنبعث من المروحة الموجودة على سطح مكتبها، لكنها على الأقل كانت تحرك الهواء الساكن الخانق. وقبل أن يصل الأسبوع إلى يومه الأخير، كان قد وصلها رد دار محفوظات ترنتشين وبراتيسلافا، ومفاده أنها لن تجد هناك الكثير، لكن ربما توجد بعض المعلومات الخاصة بالموضوع.

وبعد مرور عدة أيام كانت تجلس بغرفة القراءة المكيفة الهواء بـ ترنتشين وقد تكومت أمامها سجلات بلدية دريتوم بما فيها المدونات التاريخية، ودفاتر القضايا الخاصة بمركز الشرطة المحلية وشرطة مقاطعة ترنتشين. كانت أكوامًا وأكوامًا من السجلات عن القضايا الخاصة بالبلدية الملاصقة للحدود مع هروزينكوف، فقضت اليوم بطوله في مطالعة تلك السجلات. ولم يضع وقتها هباء. فقد كانت الدعاوى المسجلة بها

على مر الأيام قد حُررت من قِبَل مواطنين سلوفاك وقع عليهم ضررٌ ما جراء ما كانت تقوم به الساحرات من أنشطة. والسبب فشل العلاج، بلاغ جنائي من رجل بسبب إثارة شائعات ضده باعتباره لصًا، اتهام ببيع أعشاب للتجميل عديمة المفعول، وغيرها كثير من أمثال تلك الشكاوى. وعندما تناولت في النهاية دفتر المحاضر الجنائية في نهاية العشرينيات وجدت أخيرًا ضالتها. وجدت خيطًا عن ماهدالكا.

يوسيفينا ماهدالكا: 1927/234- قسم شرطة سكاليتسه 26. 8. – شروع في القتل، كان ذلك مدونًا في خانة الجرائم الجنائية. وبيد مرتعشة كتبت طلبًا بالبحث عن تلك القضية.

استغرق الأمر عدة أسابيع، لكنهم في النهاية أخرجوا لها من قسم محفوظات شرطة مقاطعة ترنتشين ملفات القضايا التي تم حُفظ التحقيق فيها في عام 1927.

قسم شرطة سكاليتسه

الرقم: 234- قسم شرطة سكاليتسه 26/08/1927

بلاغ ماجدالينا ميكفا ضد يوسيفينا ماهدالكا وألجيبيتا باليكوفا بشأن مقتل زوجها إيزيدور ميكيف المتوفى في 07/08/1927

محضر التحقيق مع الشاهد:

أنا ماجدالينا ميكفا، مواليد 03/07/1905، ومقيمة بـ سكاليتسه، أتقدم ببلاغي حيث إني قبل خمسة أعوام، أي قبل أن أتزوج، كنت على علاقة قوية بزوج المستقبل إيزيدور ميكيف. وتطورت الأمور بيننا إلى حد إقامة علاقة جنسية، وترتب على ذلك ما ترتب من عواقب، وعلى الرغم من كوني كنت حينها صغيرة جدًا في السن إلا أني كنت أحس بالعار بسبب حَملي منه، ولم أبح بذلك لأحد. وبناء على نصيحة عرابتي ألجيبيتا باليكوفا سعيت إلى الساحرة ماهدالكا المقيمة بـ كوبانيتسه، حيث أخبرتني باليكوفا بأنها الوحيدة التي يمكنها مساعدتي في التخلص من الجنين. ذهبت إلى ماهدالكا في أوائل إبريل، أي في الشهر الرابع من الحمل،

وقلت لأهلي إني ذاهبة مع عرابتي لزيارة معارف لها، ووافق أهلي على ذهابي معها. وذهبت بعدها مع باليكوفا إلى ماهدالكا وكان يوم جمعة. وكانت باليكوفا قد أوضحت الأمر مسبقًا لـ ماهدالكا؛ ولذلك بدأت على الفور بمباشرة العمل. كانت قد أعدت ببيتها، الذي أخلته من زوجها، المزود الذي كنا نسكب فيه الماء الساخن، وأجلسوني فيه ليغمرني الماء حتى يصل إلى رقبتي، وكان عليَّ أن أتناول خلاصة الأعشاب، التي أذكر منها فقط رائحة التبغ وجوزة الطيب. كانت تحوي الكثير من الأعشاب التي رأيت ماهدالكا وهي تضعها لتغلي على الموقد. وبعد مرور ساعة أو ساعتين كنت أتناول خلالهما تلك الأعشاب باستمرار، وكانتا تصبان فيهما من فوقي الماء الساخن، نزل الجنين. بعدها كان بإمكاني أن أنهض وأجفف جسدي، لكني من أجل المزيد من الطمأنينة مكثت عند ماهدالكا يوم السبت، وكنت خلاله لا أزال أشعر بالضعف. وفي صباح الأحد غادرنا، عندما تحسنت حالتي. ودفعت لها مقابل تلك الخدمة 110 كرونات، كما وعدتها بإرسال خمسة أمتار من الكتان الأبيض، وهو ما وفيت به بمجرد وصولي إلى بلدتي. وقد حدث ذلك في عام 1922، أي في العام الذي سبق زواجي بـ إيزيدور ميكيف المشار إليه عاليه. وبعد عام من زواجنا رُزقنا بمولود ذكر أطلقنا عليه يوستين، وكانت صحته على ما يُرام ونموه طبيعيًّا. ولأنني كنت أجهد نفسي كثيرًا بالعمل بعد الولادة، فقد تعرضت لسقوط بالرحم، ونتيجة لذلك بدأت أعاني آلامًا شديدة أثناء الجماع، حتى إني كنت أنفر منه، الأمر الذي أثار غضب زوجي. وبدأت تدب بيننا الخلافات، وسرعان ما بدأ يشرب ثم يضربني، وفي نهاية المطاف تعرَّف على امرأة أخرى. وبكل تلك المعاناة ذهبت مرة أخرى إلى عرابتي باليكوفا التي نصحتني بدورها من جديد بالذهاب إلى الساحرة ماهدالكا. وقلت لزوجي إني ذاهبة مع عرابتي إلى برنو لزيارة أقارب لها هناك، وذهبنا إلى ماهدالكا، فهدأت من روعي وقالت إنها ستعينني على التخلص من زوجي. في البداية كنت خائفة، لكن باليكوفا وماهدالكا أكدتا لي أن أنه لن يعرف بالأمر أحد، وأن وفاة زوجي ستبدو كما لو كانت طبيعية. وذكرت لي باليكوفا أن زوجها قد توفي منذ عامين بالسكتة القلبية، وقالت أيضًا إن أحدًا لم يقل بأن وفاته لم تكن طبيعية، وراحت تضحك هي وماهدالكا، فأدركت أن باليكوفا وماهدالكا كانتا خبيرتين في هذا الشأن.

أما ما جرى من سحر على يد ماهدالكا فكان على النحو التالي: وضعت على لوح مزيجًا كانت قد أعدته من الطمي والشمع وشيء آخر، وألقت فيه بشعرات من رأس زوجي وقصاصة من أظافره كنت قد أحضرتها معي بناء على نصيحة باليكوفا، وجلسنا لدى الطاولة في أحد

أركان الدار، وأخذت أخيط لزوجي قميصًا من قطعة قماش من ملابسه الداخلية. وكان عليَّ بعد ذلك أن أصنع من الخلطة التي أعدَّتْها ماهدالكا شكلًا تأتلف أجزاؤه لتبدو كإنسان أقوم بإلباسه القميص الذي خِطْتُه بنفسي. ثم انتظرنا حتى ينتصف الليل، وكانت ماهدالكا تُبخر الدار طوال الليل، وفي تلك الأثناء كنا نتناول البراندي، ومع اقتراب انتصاف الليل كان قد حل بنا التعب حتى كدنا نفقد الوعي، ولا أدري إن كان ذلك بفعل البراندي أم بسبب الأعشاب. وفي منتصف الليل دفعتْ إليَّ ماهدالكا بهذا الخليط وأمرتني أن أقوم بدس الدبابيس والإبر فيه وأن أقوم بوخزه وخدشه في الموضع الذي يوجد به قلب الإنسان. وعندما ترددت لشعوري بالخوف، أخذته ماهدالكا وفعلت هي ذلك بدلًا مني وراحت تتفوه ببعض الطلاسم التي لا أذكرها، وكل ما أعرفه أنها كانت تدور حول خروج الروح. ثم قمنا بإحراق ذلك المزيج حتى آخر قطعة شمع فيه ثم نقعناه في الماء، ثم أحرقناه من جديد، ثم ذهبنا إلى الغابة لنلقي به في عش النمل، ثم خلدنا إلى النوم.

وفي الصباح سكبت لي ماهدالكا الماء المتخلف في القدر من ذلك الخليط وأمرتني بوضعه في طعام زوجي لمدة تسعة أيام متتالية في كل يوم نقطة. كما طلبت مني 180 كرونًا نظير إقامة طقوس القداس التسعة التي ينبغي أن تقام بدءًا من أول يوم أقوم فيه بوضع تلك النقط في طعامه. دفعت لها المبلغ المطلوب إضافة إلى خمسة أمتار من الكتان طلبتها مني بخلاف النقود. ثم عدت إلى بلدتي، وفعلت كل ما أمرتني به ماهدالكا على مدى تسعة أيام. ومات زوجي بعد شهر جراء أزمة قلبية، على الرغم من أن عمره لم يكن قد تجاوز أربعة وثلاثين عامًا. وقد أفزعني ذلك إلى حد جعلني بعدها أذهب يوميًّا إلى باليكوفا باكية لأقول لها إن هذا لا يصح، وإننا ينبغي أن نعترف بذلك وإنني لابد أن أبلغ عن نفسي، وإن الشرطة يجب أن توقف ماهدالكا عما تقوم به؛ لأن الخطر المترتب على ما تقوم به من سحر عظيم الأثر. ناشدتني باليكوفا ألَّا أذهب إلى أي مكان، وألَّا أعترف بأي شيء، وألَّا أتكلم في الأمر مع أي أحد؛ لأني بذلك سوف أوذيها ونفسي، وكذلك يوستين، وأن ما حدث قد حدث ولن يعيده ذلك إلى الحياة. ولكني لم أحتمل الأمر وقررت الذهاب إلى الشرطة.

وعندما أخبرت باليكوفا بما عزمت عليه، قالت إنه بمجرد أن أفعل ما نويت عليه، فستذهب إلى ماهدالكا، وسأكون أنا الشخص التالي الذي سيصاب بالسكتة. فأصبت بفزع شديد، ولم أدرِ في البداية ما العمل، ولكنني عندما علمت أن باليكوفا ذهبت لزيارة أقاربها ببرنو، وأنا أعلم

علم اليقين أن لا أقارب لها هناك، فهمت أنها ذهبت إلى الساحرة في كوبانيتسه. وعلى الرغم من ذلك فقد ذهبت في 26/08 إلى القسم للإبلاغ عما حدث والاعتراف بما ارتكبت من جرم بقتلي لزوجي، وأردت أن أتحمل تبعات ما ارتكبت من جرم كي أتطهر منه. وكل ما أرجوه هو ضم ابني يوستين إلى حضانة والديَّ، يوسف وأنا كافكوفتسوف بـ سكاليتسه.

الموقعة بما فيه ماجدالينا ميكفا

بيان قسم شرطة سكاليتسه

رقم: 234- قسم شرطة سكاليتسه /29/08/1927

إلى قسم شرطة دريتوم

مرفق بهذا الخطاب صورة من البلاغ المقدم ضد يوسيفينا ماهدالكا، المقيمة بـ دريتوم – بوتوتشنا. حققوا في موضوع البلاغ وأبلغونا على الفور بنتائج التحقيقات.

التوقيع: الشرطي كريزيك، مأمور القسم

بيان قسم شرطة دريتوم

رقم: 234- قسم شرطة سكاليتسه 12/09/1927

إلى قسم شرطة سكاليتسه

إنه في يوم 10/09/1927 تم استجواب يوسيفينا ماهدالكا المولودة بلقب سورمينوفا بشأن البلاغ رقم 234- قسم شرطة سكاليتسه 29/08/ 1927.

وقد نفت ماهدالكا معرفتها بالمدعوة ماجدالينا ميكفا، كما نفت أن تكون قد جاءت إليها في يوم من الأيام. وأفادت بأنها كانت تعمل مع أسرتها في الحقل في اليوم الذي حددته ماجدالينا في بلاغها، الأمر الذي أكده زوجها يان ماهدال وكذلك حماتها التي تعيش مع المذكورة بنفس المنزل. ونضيف إلى ما سبق أن عائلة ماهدال تمتلك 1.5 هيكتار من الأراضي الزراعية، يقوم بزراعتها فقط الأشخاص البالغون السابق ذكرهم.

كما نحيطكم علمًا بأن ماهدالكا شخصية معروفة في محيط سكنها بممارسة بعض أنواع السحر، والناس يخشونها ويسمونها الساحرة الشريرة. ولهذا السبب يعود تردد السكان المحليين والأجانب عليها، والذين تزعم المذكورة أنها تساعدهم.

وقد سبق التحقيق معها عدة مرات بسبب جرائم تتعلق بنشاطها، بالتحديد في عام 1919 بخصوص امرأة سحرتها فانتحرت، وفي عام 1922 بسبب الإيذاء البدني الذي أدى إلى مقتل رجل من هورني سوتش، قيل إن الحصان أوقعه من فوقه وتسبب في ترويعه وكسر عنقه، وفي عام 1925 بسبب نشرها لمرض مُعْدٍ، وفي عام 1926 لإضرامها حريقًا. ولم نستطع التثبت من ضلوعها في أي من التهم سالفة الذكر.

التوقيع: الشرطي لوكشو، مأمور القسم

قسم شرطة سكاليتسه

رقم: 234- قسم شرطة سكاليتسه 23/09/1927

طلب بحفظ القضية:

في 26/08/1927 حضرت ماجدالينا ميكفا إلى قسم شرطة سكاليتسه، والمولودة بلقب كافكوفا، واعترفت بارتكابها جريمة قتل زوجها إيزيدور ميكيف، الذي توفي على إثر أزمة قلبية في 07/08/1927. وذكرت أنها شاركت في تلك الجريمة مع أخريات هن ألجيبيتا باليكوفا من سكاليتسه ويوسيفينا ماهدالكا من دريتوم -بوتوتشنا. وقامت الأخيرة بالتخطيط للجريمة وإعداد خلاصة مغلي الأعشاب التي كانت ميكفا تقوم بدسها في طعام المرحوم ميكيف.

لم تتوصل التحقيقات التي أجراها المأمور لوكشو بقسم شرطة دريتوم إلى إثبات وجود علاقة بين ماهدالكا وميكفا أو باليكوفا، أو أنها التقت بهما من الأساس.

كما لم تستطع التحقيقات التي قام بها المأمور كريزيك بقسم شرطة سكاليتسه إثبات معرفة باليكوفا بـ ماهدالكا أو حتى زيارتها لها. وقد زعمت باليكوفا أن ميكفا كانت دائمة التردد عليها لتشكو من سوء معاملة زوجها إيزيدور ميكيف، الذي عانت بسببه الأمرَّيْن،

وكانت تردد عادة أنه سوف يتسبب في إصابتها بالجنون يومًا ما. وذكرت باليكوفا أن ميكفا كانت تبدو أحيانًا غير متوازنة نفسيًّا، الأمر الذي ازداد سوءًا بعد أن تعرَّف زوجها على امرأة أخرى. وقد أفادت بأنها لا تعرف هوية تلك المرأة. وقالت المذكورة كذلك إنها قامت عدة مرات في السنوات الأخيرة بزيارة أقاربها في برنو، وهم بالتحديد: روزاليا بيشوفا المقيمة ببرنو- كوليشتي، وإنها باتت عندها هي وميكفا في إحدى هذه المرات.

وقد أثبتت التحقيقات التي أجراها المأمور بيند بقسم شرطة برنو أن المدعوة بيشوفا هي ابنة خالة باليكوفا التي قامت بالفعل بزيارتها في اليوم الذي ذكرته ميكفا وقضت ليلتها عندها.

وأكد التقرير الطبي الذي أعده د. ستينوخ بالمركز الطبي المحلي بـ سكاليتسه أن إيزيدور ميكيف قد توفي متأثرًا بأزمة قلبية، وهو ما كان متوقعًا أن يحدث عاجلًا أم آجلًا؛ لأنه اثناء إعادة التشريح تبيَّنَ أنه كان يعاني من انسداد بصمام القلب.

لم تستطع التحقيقات إثبات ما جاء بلائحة الاتهامات المقدمة من قبل ماجداليا ميكفا. ونظرًا لوفاة ميكفا أثناء سير التحقيقات نتيجة لحادث سير، وذلك في 21/09/1927، فقد تعذَّر مواجهتها بما توصلت إليه نتائج التحقيقات.

لذلك نطالب بحفظ التحقيق في القضية رقم 234 قسم شرطة سكاليتسه 29/08/1927.

التوقيع: الشرطي كريزيك، مأمور القسم

أغلقت دورا ملف القضية التي تم حفظ التحقيقات فيها ومكثت للحظات تنظر إليه في سكون تام.

صدفة؟

هل كان موت إيزيدور وماجداليا مجرد صدفة؟ أكان ذلك ليحدث لو لم تذهب ميكفا إلى ماهدالكا؟ بدا واضحًا أن المأمور كريزيك كان مقتنعًا بذلك، نعم بالفعل. فعالمه قائم على أسس عقلانية صارمة وتحكمه القوانين الطبيعية التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها. ولم يكن السحر جزءًا من ذلك العالَم. حتى عالَم دورا كان يشبه

عالمه. عالَم دورا – الباحثة كانت تحكمه نفس الحدود الجامدة التي تحكم عالم المأمور كريزيك. أما عالم دورا القادمة من كوبانيتسه فهو مختلف. كانت تشعر بخلاف حصانة القانون والأشياء الواضحة المحسوسة بشيء آخر. شيء كان يتأرجح خلف حدود هذا العالم الذي يمكن قياس كل شيء فيه بدقة. شيء يجعلها لا تصدق أن تزامن عدة أحداث غريبة يمكن أن يكون مجرد صدفة. هذا هو ما حفره بداخلها الثعبان الأبيض.

وعندما غادرت دار المحفوظات كانت على قناعة بأن تلك الأقاويل المتعلقة بالشر الكامن داخل نفس ماهدالكا لها أساس من الصحة. والأسوأ من ذلك أنها كانت تشعر دائمًا بأنها أصابت قسمًا من ذلك الشر.

الجزء الثالث

الملف الأزرق

مر ما يقرب من عام منذ ذلك الحين الذي طلبت فيه تصوير محتوى الملف الأزرق، وهو جزء صغير من ملف سورمينا مرفق بآخر المجلد بدار محفوظات باردوبيتسه. مر عام تقريبًا منذ أن عرفت دورا بأن كل ما كانت تؤمن لأكثر من عشرين عامًا لم يكن له أي أساس من الصحة.

وخلال تلك الفترة عادت للوثائق المحفوظة داخل الملف الأزرق أكثر من مرة. كانت تعيد قراءتها بعناية وتبحث بالمصادر المتوفرة في بوهيميا، التي ربما تعينها على تفسير محتواها. والعجيب أنه لم يتوفر لها الكثير من تلك المصادر، مجرد معلومات، مقتطفات غير مكتملة لا تعطي معلومة كاملة.

كانت تجد أكثر منها على شبكة الإنترنت، كالدراسات المنشورة بالصحافة الألمانية المتخصصة، على سبيل المثال: المجلة التاريخية، ومجلة البحوث التاريخية التي كان يمكنها استعارة إصداراتها للاطلاع داخل المكتبة الوطنية الألمانية بمدينة ليبزيج، وبعض المقالات الصفراء التي تنسب معلوماتها إلى أرشيف قضايا الساحرات بمدينة بوزناني البولندية، والتي تنشر معلومات موجزة نسبيًا على صفحاتها باللغة البولندية، كان هذا كل ما استطاعت الوصول إليه. وكانت دار محفوظات بوزناني تزخر بمادة علمية غزيرة نسبيًا، لكنها تأكدت بعد عدة أيام قتلت خلالها قائمة محتوياته بحثًا، أن الإجابة التي تنشدها غير موجودة. فتركت ما لا يفيد من العمل وكتبت لهم على موقعهم الرسمي المكتوب على صفحتهم rchiwum@poynan.ap.gov.pl، وراحت تنتظر الرد.

الآن وبعد عدة أشهر من الرسائل القليلة المتبادلة أصبحت تقدّر مرونة دور المحفوظات التشيكية وتعاون العاملين بها. عندما تتذكر السيد بيرجمان بدار محفوظات أوهيرسكي هراديشتي الذي ظل حتى حل الليل يساعدها في البحث داخل أكوام من المجلدات تحوي دفاتر المحاضر التي أحضرها فوق ثماني عربات يد ممتلئة عن آخرها، أو السيدة بوروفا من متحف فلاشسكو، التي كانت ترسل إليها بعد انتهاء مواعيد العمل الرسمية صور

وثائق ترجع إلى نهاية القرن الثامن عشر تتعلق بالقضية الخاصة بالساحرة التي تم ترحيلها من جيتكوفا، وهنا أدركت مستوى الأداء العالي لدور المحفوظات التشيكية. أو ربما كانت مشاعر الناس تتأثر بمجرد ذكر سيرة ساحرات جيتكوفا؟ وهذا ما شعرت به في إحدى المكالمات الهاتفية مع أحد المتاحف المحلية.

أحست كما لو كانت تنطق بكلمات سحرية.

في العادة لا نقدم تلك الخدمات، لكن ما دمتِ تقولين إنك تحتاجينه لبحثك، دعيني أبحث لكِ عنه.. أتعلمين أن جدتي حكت لي عنهن عندما كنتُ طفلة، وكانت قدراتهن تبدو بالنسبة لي خارقة. ثم سألتني موظفة الأرشيف على الطرف الثاني من الهاتف: هل ستطلعيننا على نتائج بحثك عندما تنتهين منه؟

في المقابل ظلت تنتظر رد دار محفوظات بوزناني طوال المدة المقررة على صفحتهم: شهر. لكنها بعد أربعة أسابيع من الخوف من أن تكون قد كتبت لهم على عنوان قديم، وصلتها أول رسالة، وبعدها توالت الرسائل المتبادلة. والآن تقبع في حجرها صور طبعتها من تلك الرسائل مثلها مثل محتويات الملف الأزرق المنسوخة من ملف سورمينا.

جلست في الباص الذي يتحرك ليلًا والذي كان عليه في الساعات التسع التالية أن يقطع الطريق السريع صعودًا من برنو شمالًا إلى بوزناني، وأخذت تلقي نظرة سريعة على ما بين يديها من وثائق.

قطعت الحافلة القديمة، التي تتميز عن الخطوط الداخلية فقط بأن مقاعدها قابلة للطي، وأنها تقطع بسرعة الطريق السريع الضيق، فتجاوزت سفيتافي، وليتوميشل، ثم صعدت الطريق غير الممهد وسط الجبال، فكانت أحيانًا تقفز إلى أعلى لترتد رأس دورا إلى الوراء فتشعر بالألم وتتراجع السطور المعوجة بعيدًا عن عينيها.

سري للغاية!!

ترجمة معتمدة للخطاب المرفق الذي عُثر عليه بمكتب الجيستابو بـ زلين، خزانة حفظ المستندات „د".

انظر الأصل بملف الساحرات.

إلى قائد القوات الخاصة بالإمبراطورية!

مرسل إليكم النتائج التي توصل إليها البحث الميداني بمنطقة مورافيا – سلوفاكيا، التي تؤكد فرضية أنها محاطة من جميع الجهات بسكان ذوي أصول ألمانية، كما تؤكد على السلوكيات الغامضة لنساء تلك المناطق التي تُعدُّ تجسيدًا لبقايا المعارف الروحية الألمانية القديمة المرتبطة بالطبيعة. فالطقوس التي يمارسنها، والمعارف التي يمتلكنها تبدو – من غير وعي منهن بذلك- مجرد نسخة معدلة ومحدثة من العادات الألمانية القديمة والطقوس السحرية التي تَمكنَّا من إعادة الحياة إليها من خلال قصائد „إيدا"، والملاحم الجرمانية، وكما وصفها جيدو *فون ليست* في دراساته الخاصة بكهنة الوثنية. تتفق مجموعة الشعائر التي تُحييها الساحرات في طقوسهن السحرية مع وصف الطقوس الدينية كما يُعَرّفها *فون ليست* في كتابه الرائد *الطقوس السحرية الألمانية الميتة*، ويكمل من بعده الطريق لانز *فون ليبنفيلس* وغيره من المهتمين بعلم التنجيم.

عزيزي قائد القوات الخاصة! يوجد بين أيدينا هنا مستند فريد من نوعه حُفظ بفضل الأحوال الطبيعية والاجتماعية الصعبة، وهو قابل للاستفادة منه، ويرجع إلى عصور ما قبل التاريخ: هؤلاء النسوة يمكن أن يمثلن البقية المتبقية من تراث أرمانين[9]، وذلك فضلًا عن المكان الذي يعشن فيه، والذي يعكس كل سمات سمو الموقع، إضافة إلى أن بنية اللغة المحلية تشير إلى وجود عناصر ألمانية بها. في حال تأكيد فرضيتنا سنكون قد توصلنا إلى كشف مذهل وغير مسبوق سوف يثبت صحة جميع توجهاتنا، ويؤكد على الطبيعة الألمانية الصلبة التي لم تنكسر على مدى مئات السنين ولم تُهدم تحت تأثير الثقافة اليهودية والمسيحية الواردة عليها، كما يثبت نقاء ذلك العرق في كل مكان من أرض أوربا الشاسعة، وهو فضلًا عن ذلك يكشف لنا العديد من النقاط المجهولة من تاريخ الشعب الجرماني الآري.

ستجدون جميع تقارير الكفاءة التشريحية لسكان هذه المنطقة بما فيها البيانات المأخوذة من واقع فحص الجماجم في مجموعة الوثائق التي أعدها ف. ف. نورفولك، الرائد بالقوات

9- الكهنوت الأعظم للديانة الجرمانية الوطنية التي تؤمن بالقوة الغالبة والخفية للطبيعة.

الخاصة الألمانية. وهو الآن موجود بموقع البحث وسيبقى هناك كي يتابع عن كثب الساحرات المستهدفات بالدراسة.

سيمكنكم من خلال الدراسة التي لم تكتمل بعد التعرف قريبًا على تعريف وبنية الممارسات التي تستخدمها تلك المخلوقات في التأثير العلاجي واستشراف المستقبل. ستحوي دراستي التي ما تزال في بدايتها الوثائق المعدَّة على أساس الأبحاث المحفوظة بدور المحفوظات التابعة لإدارة المحميات الألمانية والخاصة بموضوع قضايا الساحرات (بما في ذلك الإحصاءات) التي أجريت في محمية بوهيميا – مورافيا. ويتابع إجراء البحث في بقية البلدان التابعة للإمبراطورية الألمانية بقية فريق العمل الخاص بموضوع الساحرات، وسوف أُوافيكم بنتائجه في إطار التقارير الدورية التي نستعد لإصدارها بنهاية هذا العام.

ونظرًا لخطورة الاكتشاف الخاص بساحرات ستاري هروزينكوف وأهميته بالنسبة للإمبراطورية؛ أوصي باستمرار بقاء اثنين على الأقل من فريق البحث بموقع العمل بـ ستاري هروزينكوف كي يمكنهم التحكم بالكفاءة المطلوبة في الأشخاص محل الدراسة (الساحرات فوكسينا ونساء عائلة ماهدال، سورمينا، كراسنياتشكا الملقبة بـ بولكا وستروهاركا الملقبة بـ خوباتا). ويمكنني شخصيًّا إرسال تقرير في غضون الشهر القادم أضمِّنه النتائج المبدئية لعمل هذا الفريق، وذلك من المقر الرئيسي لمركز أبحاث أهنين إيرب ببرلين الذي سأكون متواجدًا به بصفة دائمة.

المجد للإمبراطورية، المجد لهتلر!

د. رودولف ليفين المقدم بالوحدات الخاصة

مكتب الخدمة الميدانية بـ زلين، محمية بوهيميا – مورافيا

ستاري هروزينكوف في 11 يوليو 1942

****

سري للغاية!!

للاطلاع على الأصل انظر ملف الساحرات

إعداد: أ. م. فينتسه سلاف روزمازال – أ. د. رودولف فيروستا

قسم الإثنوجرافيا وقسم التاريخ بمتحف مورافيا، برنو في 12 نوفمبر 1949

تقرير:

بناءً على بحث عضو الوحدات الخاصة د. رودولف ليفين الذي عُهد إلي في 17 يونيو 1948 بتقييمه علميًّا من قِبَل الرفيق... وكذلك ترجمته إلى اللغة التشيكية، فقد قمت بالتعاون مع أ. د. رودولف فيروستا من قسم التاريخ بمتحف مورافيا، بإعداد التقرير التالي للمشروع البحثي المقدم من الباحث النازي المذكور.

يتضح مما ورد في الرسالة أن فريق عمل د. ليفين قد ركز جهوده في إطار مشروعه البحثي على السيدات اللاتي وقع عليهن الاختيار من منطقة كوبانيتسه بإقليم مورافيا والمعروفات باسم الساحرات.

هذا المشروع البحثي مُستغرب جدًّا من باحث معاصر، ومبعث الدهشة هنا يكمن أساسًا في الاهتمام الكبير الذي أولاه ليفين ورؤساؤه لموضوع البحث الذي يعد هامشيًّا بالنسبة للإثنوجرافيا التشيكية. ويتجلى ذلك في عزوف الباحثين الأكاديميين عن البحث في هذا المجال عن قرب.

ولا يمكن أن يفسر ذلك إلا بطريقتين: أولاهما أن يكون الهدف الحقيقي للبحث ما زال مخفيًّا عنا، وثانيهما أن يكون أعداء السلام العالمي خلال الحرب وجدوا أنفسهم في وضع بائس جعلهم لا يترددون في إعداد فريق من الباحثين الزائفين الذين يستهدفون ببحثهم عن الساحرات المرتبط وجودهن بالخرافات في منطقة الكاربات الأبيض تحقيق مصالح الإمبراطورية الثالثة في الفضاء الأوروبي (تدعم تلك الفرضية الإشارات العديدة إلى نظرية النقاء العرقي). وقد ذهبنا إلى الفرضية الثانية بناء على رؤيتنا لرسالة د. ليفين التي سنحاول في الفقرات التالية رسم خطوطها العريضة.

موقع البحث: كوبانيتسه بـ مورافيا

مجال البحث: التاريخ والأنثروبولوجيا

توجد منطقة كوبانيتسه مورافيا على أراضي مورافيا – سلوفاكيا، وتتكون من عدة قرى تنتشر فوق منحدرات جبال الكاربات الأبيض. يتعلق موضوع البحث بالتقاليد الشعبية المتوارثة التي لا تزال توجد بنفس شكلها القديم؛ ويرجع ذلك إلى كون ذلك المكان يعد منطقة معزولة عن العالم. يتأرجح مستوى معيشة سكان المنطقة بين حدود الفقر؛ لأن المنطقة لا تزخر بأية موارد طبيعية أو اقتصادية، وتسود فيها الأمية (طبقًا لآخر إحصائية قبل الحرب، وترجع إلى عام 1930، كان معدل الأمية في جمهورية تشيكوسلوفاكيا قد بلغ 13.2%، بينما بلغ 52% في كوبانيتسه)، وتتحكم الكنيسة الكاثوليكية التي تمتد جذورها بعمق في المنطقة في إيقاع حياة سكان المنطقة، وذلك بالإضافة إلى التقاليد والعادات الشعبية التي ترسم مسار العام. وارتباطًا بها تلعب الساحرات „موضوع البحث" دورًا لا يمكن الاستغناء عنه، بصفتها المسئولة عن إقامة الطقوس الخاصة التي تمارس أثناء تلك المناسبات.

موضوع البحث: الساحرات

يتعلق الأمر بشخصيات مُقدَّرة في محيطها بشكل عام؛ لكونها تتمتع بقدرات غير عادية تمكِّنها من معالجة أمراض الإنسان والحيوان، وقراءة الماضي والمستقبل أو كشف المعلومات المخفية على الناس العاديين. ويَعْرفهم علم الأعراق عندنا من خلال الإشارات التي وردت عنهم في الإصدارات الخاصة بالدارسات الإثنوجرافية، ومن بينها ما كتبه فاتسلافيك، ف. بارتوش، ف. دوبرافسكي أو ل. نيديرلي. وتكمل دور تلك الإصدارات بعيدًا عن الإطار الأكاديمي مجموعة الحكايات الخاصة بمنطقة كوبانيتسه – ستاري هروزينكوف التي رواها القس يوسف هوفر، وكذلك الإشارة الواردة في رواية ألويس يراسيك أو في الكتاب الشهير عن جبرا ومالينكا للكاتبة المعروفة أماليا كوتينوفا.

وبفضل قدراتهن المزعومة (وهي من منظور المادية العلمية مجرد غش يستمد وجوده فقط من الظلامية التي يعيش فيها سكان المنطقة)، استطاع أولئك النسوة أن يلفتن أنظار الباحثين ليفين ونورفولك.

كما يُستدل من رسالة ليفين على اعتقاده بأن الشخصيات التي شملتها الدراسة هي الممثل للسكان الأصليين بهذه المنطقة، والذين يفترض التأريخ النازي أنهم كانوا يعيشون في جيوب صغيرة بمناطق جبلية يصعب الوصول إليها حتى في فترة استيطان المنطقة من قِبَل السلاف الذين حلوا محل الجرمان الأصليين في القرنين الخامس والسادس. وطبقًا لنظرية السكان الأصليين تلك يصبح سكان الجبال المورافيون أسلاف الجرمان من قبيلة ماركومان، والذين يرجع تاريخ وجودهم بمنطقة جنوب وشرق مورافيا إلى بداية القرن الأول الميلادي. ونظرًا للجنوح الجرماني المعروف عنهم لامتلاك الأساطير البطولية الوهمية، والذي يصل إلى حد التقديس غير العادي لجوانبها الخفية الغامضة، أرى أنه كان بوسع فريق البحث أن يوسع من مساحة الفرضية التي انطلق منها فيما يتعلق بأهمية تلك الساحرات، ولا يقصرها على مجرد التأكيد على نظرية السكان الأصليين، فحماس ليفين وتأكيده على أهمية الكشف والمعلومات الخاصة بحياة تلك السيدات يجعل الأمر يبدو وكأنه يتعلق بآلهة وليس بمجرد موطنات قرويات بسيطات حتي مع افتراض صحة قدراتهن الخاصة وأصولهن الجرمانية.

وجدير بالذكر في هذا المجال أن فريق المحكمين يرى تناقضًا بين الأهداف (المفترضة لأن تلك الأهداف ليست واضحة في الرسالة) وبين النتائج التي سيتوصل إليها الباحثان بالضرورة.

وكما هو معروف عمومًا، فإن النظام الاجتماعي للألمانيين الطغاة كان دائمًا حتى في الخرافات الجرمانية القديمة مبنيًّا بوضوح على النمط البطريركي. وعلى الرغم من معرفتنا بالكثير من الأساطير الجرمانية (التي ألقى عليها ليفين الضوء عدة مرات من خلال إشارته إلى الصوفية الآرية) التي لعبت دورًا هامًّا في النظام الديني، كما تذكر الأنثروبولوجيا الأوروبية أمثلة للكاهنات اللواتي كانت لهن مكانة لا يمكن إغفالها في النظام القَبَلي الجرماني، إلا أن المُحير في الأمر هو احتفاء القيادة النازية بالبحث الذي من شأنه توفير دليل يثبت جرمانية المرأة في إطار هذا السياق الذي تُعرف به في كوبانيتسه - مورافيا. وقد أدت الأوضاع المحلية إلى تجذر الاحترام العميق للأمومة ولفكرة الأنثى بشكل عام. والدليل على ذلك ليس فقط احترام السكان المحليين للنساء اللواتي يشملهن البحث، ولكن للأنثى على هذا النحو: في العادة هنا ينتقل الرجل إلى بيت أهل زوجته، كما يكاد يغيب تمامًا ذلك الازدراء الذي تعانيه المرأة التي تلد خارج إطار رابطة الزواج. وتحتل السيدات المهمة في المجتمع صدارة الهرم المجتمعي؛ لما لهن من أهمية طاغية في العديد من القضايا المعقدة التي تصاحب حياة الإنسان: فيقمن

بعمل المولِّدة، والمعالِجة الخبيرة بكل أنواع الأعشاب، وبطبيعة الحال بدور الهيئة الاستشارية والتحكيمية فيما ينشأ بين الأهالي من نزاعات تستطعن حلها من خلال نبوءاتهن((10)).

وإذا كان فريق د. ليفين البحثي قد قام بنشر نتائج الدراسة التي تدعم فكرة الأنثوية، فيمكننا أن نفسره على أنه محاولة للحفاظ على التسلسل الهرمي المميِّز للمجتمع الجرماني القديم، وفي رأينا لابد أن يؤدي ذلك إلى هدم المبدأ البطريركي الوظيفي الذي كان موجودًا في الإمبراطورية الثالثة. ولا نستطيع أن نعطي تفسيرًا قاطعًا لهذا التضارب الواضح في الأهداف؛ بسبب قلة المعلومات المتاحة في هذا المجال، وهكذا يصبح البعد الحقيقي لهدف البحث مجهولًا بالنسبة لنا.

أدلة إثبات الأصل الجرماني للشخصيات محل الدراسة:

ظهرت في ثنايا الرسالة إشارات عديدة إلى نظرية السكان الأصليين، التي يمكن إثباتها من خلال دراسة ساحرات كوبانيتسه.

ويعد الدليل على الأصل الآري للساحرات الذي أثبته قياس الجماجم، هو القاعدة الأساسية التي تقوم عليها تلك النظرية..

وفي هذا الموضع يمكننا أن نؤكد أنه من غير الممكن أن يقوم أفراد من الوحدات الخاصة بإجراء قياس موسع للجماجم بدون علم الأشخاص المشمولين بالبحث. وهكذا يمكن أن نستنتج أنه ما دام الأشخاص المشمولون بالبحث قد خضعوا للقياس، وهو ما تم التأكيد عليه في الرسالة، فإنهم لا بد أن يكونوا على الأقل على علم بأغراض البحث الذي يقوم به الباحثان النازيان، ولابد من وجود اتصال مباشر بينهم، بل وتعاون.

وبالتالي يمكن افتراض أن الساحرات اللائي تم قياس جماجمهن وثبت أنهن ذوات رءوس مستطيلة (أي صاحبات جماجم مستطيلة – على شكل مستطيل يضيق كلما اتجهنا

10- لا تزال مسألة الطقوس التي تمارَس في هذا الشأن غير واضحة بالنسبة لعلم الإثنولوجيا التشيكوسلوفاكي. والمعلومات المشار إليها في الرسالة من قِبل ليفين وفريق عمله. التي يؤكدون «أنها ستلقي الضوء على العديد من النقاط المجهولة من تاريخ الشعب الجرماني الآري». تشير الي أنه من الممكن فك شفرة تلك الطقوس. ويُتوقع أن يتعلق الأمر بطقوس إسالة الشمع التي كانت تصاحب عملية التنبؤ، التي وصفها يوسف هوفر في قصصه الصادرة عام 1923. وللأسف لم يتمكن علم الأعراق الحديث والمعاصر حتى الآن من وصف الأجواء التي كانت تجري فيها تلك الطقوس. بل إن خبرتي العملية الطويلة لن تسعفني في التكهن بطبيعة تلك الأجواء أو بأهميتها. والأهم من كل ذلك بظروف نشأتها.

إلى الخلف– ويعد من منظور الأنثروبومترية، أي علم قياسات الجسم البشري، سمة مميزة للجرمانيين)، ينبغي أن يكنَّ شقراوات وبشرتهن فاتحة، عيونهن زرقاء أو بنية فاتحة، طويلات القامة، ممشوقات القوام– كي تنطبق عليهن كافة الشروط، ويصبحن متعاونات إما تطوعًا أو بأجر مع فريق بحثي معادٍ.

كما يشير د. ليفين إلى الخصائص اللغوية للمنطقة. وكانت تلك المسألة تتطلب دراسة مستقلة من قِبَل متخصص في مجال علم اللغة المقارن، إلا أنني أستطيع التأكيد من خلال خبراتي الشخصية بمنطقة كوبانيتسه – مورافيا، بأن اللغة المحلية، التي تُعرف هنا بـ „لغة كوبانيتسه"، قد خرجت في بعض الأحوال من بقايا ما يعرف بالمورافية السلوفاكية التي تنتمي إلى مجموعة لهجات جنوب مورافيا. أما الاستثناءات فتظهر في مجال الاشتقاق الذي يضم مجموعة من التعبيرات الألمانية، ويدل على ذلك أيضًا أمثلة على المستوى النحوي، على سبيل المثال تكوين الجملة الاستفهامية، الذي يتم وفقًا للطريقة الألمانية في تكوين الجمل: أليسوا بالبيت؟... إلخ.

الخاتمة: الخطوط العريضة لأهداف البحث والاستفادة العملية منها:

يعد الهدف الأساسي للبحث من وجهة نظرنا هو تسليط الضوء على نظرية السكان الأصليين؛ لإثبات الأصول الجرمانية لسكان مورافيا، والذي يعتبر أحد أهم الأهداف وأكثرها انتشارًا وذيوعًا بالنسبة للأبحاث المدعومة مباشرة من القسم السابع الخاص بالبحث والتقييم الفكري، الذي يتبعه حسبما نعتقد معهد *أبحاث ميراث أجداد الألمان* المجهول، الذي يمثله د. ليفين. وتعود أهمية هذا البحث لأسباب دعائية من شأنها في النهاية أن تدافع عن مصالح الإمبراطورية بمنطقة وسط أوروبا.

وجد فريق د. ليفين البحثي الظروف الإقليمية بمنطقة الكاربات الأبيض مواتية، حيث تتميز العينة البحثية المختارة من سكان المنطقة بسمات تتعلق بشكل الوجه تؤكد ما ذهبت إليه نظريتهم، كما تتعلق بالقدرات التي تمثل القاعدة الأساسية لنظرية بقاء الكاهنات الجرمانيات القديمات. البحث المقدم من قبل الفريق النازي يدور في سياق الميثولوجيا والتاريخ والفلسفة الصوفية الآرية، وهو بحث يُؤرشف لقضية اضطهاد الساحرات كما كانوا يطلقون عليهن في الماضي.

لا يمكننا استنادًا إلى ذلك النص القصير، الذي يُعد مجرد تقرير مبدئي يتعلق بموضوع البحث الخاص بالمجموعة المختارة من النسوة، أن نحدد السمات الدقيقة والتوجهات الخاصة بهذا البحث. ولابد لنا كي نتمكن من تحديد رؤيتنا النهائية أن نتعرف على كلتا الدراستين اللتين تم إجراؤهما في إطار البحث المشار إليه.

في النهاية لا يسعني إلا القول بأنه في سياق أحداث الحرب القريبة، يمكن أن تكون هناك تصورات وردية بأن تلك الفكرة التي تم تضخيمها ومحاولة إثباتها واقعيًا، بالتأكيد لها بالنسبة للفكر النازي وكبار رجاله (الذين تخاطبهم هذه الرسالة) مغزى عميق يمكن استغلاله لأغراض دعائية واسعة النطاق من شأنها أن تبرر سياستهم العدوانية ليس فقط على المستوى الأفقي التاريخي (تحرير الأمة الألمانية وعودتها إلى الوطن) بل والرأسي (تبعية المنطقة قديمًا للإمبراطورية الثالثة). ونعتقد أن الاستغلال الدعائي لنظرية السكان الأصليين والبحث عمن تنطبق عليهم على أرض الواقع هو السبب الأساسي الذي من أجله يدعم زعماء الإمبراطورية فريق العمل المحيط بـ د. ليفين.

الإدارة المحلية لأمن الدولة

أوهيرسكي هراديشتي، القسم الثالث

بناء على التقرير سالف الذكر، الذي قام بإعداده بروفيسور فينتسه سلاف روزمازال، أرى أنه من الضروري إخضاع الأشخاص محل الدراسة ببحث فريق د. ليفين البحثي للبحث الدقيق، وهؤلاء بالتحديد هن:

جوفيا كرانياكوفا، الشهيرة بـ كراسنياتشكا أو بولكا

يوسيفينا ماهدالكا، الشهيرة بـ ماهدالكا الأم

ماريا ماهدالكا، الشهيرة بـ ماهدالكا الصغيرة

تيريزيا سورمينوفا، الشهيرة بـ سورمينا

نظرًا لتطوعهن بالتعاون المشار إليه مع فريق الوحدات الخاصة، يمكننا افتراض وجود

علاقة فعلية تربطهن بالفكر النازي تم اكتشافها قبل الحرب مباشرة. تمثل المذكورات عاليه تهديدًا خطيرًا على جمهوريتنا الديمقراطية الشابة؛ لأنهن يمكن أن يصبحن عضوات حقيقيات في شبكة استخبارات أجنبية يمكنها استغلال شبكة عملائهن العريضة.

ويجب أن يتركز مسار التحريات عن الشخصيات المذكورة عاليه على نشاطهن وعلاقاتهن في فترة الاحتلال النازي، مع تسليط الضوء على نشاطهن بعد عام 1945. وينبغي أن تقوم الجهات الأمنية المحلية بإجراء تلك التحريات (الإدارة المحلية للأمن العام بـ أوهيرسكي برود)، والمهم ألَّا تصل أخبار تلك التحريات إلى المتحرَّى عنهن. ولتقم اللجنة الوطنية المحلية بإعداد تقرير عن سيرة تلك الشخصيات بعنوان *أنشطة مجموعة الساحرات المعادية للدولة*، يتم تسليمه خلال شهر من بدء التحريات لرئيس القسم الثالث.

إعداد: رئيس القسم شفانتس

17 أغسطس 1950

أرشيف الساحرات

كانت دورا تظن أن مبنى دار محفوظات بوزناني سوف يحتضن العصور الوسطى بين جدرانه. وتوقعت أن تحمل الجدران لوحات تصور مشاهد من غرف التعذيب ورسومات لكتيبات ممارسات التعذيب التي كان يقوم بها الجلادون. ربما كانت تنتظر رؤية أدوات التعذيب. دخلت بانطباع أنها ستشعر بالضيق بين جدران أرشيف السحرة كما لو أنهم كانوا سيمددونها هي نفسها فوق المخلعة.

وبمجرد أن دوى صوت الباب وهو يُفتح آليًّا، وجدت نفسها في ردهة مضيئة بمبنى قديم بعض الشيء يحمل مسحة الثمانينيات التي يعود إليها تاريخ تأسيس الدار، ولا يوجد بها أي أثر يوثق الأحداث الدراماتيكية التي صاحبت عمليات تعقب الساحرات. صعدت بالمصعد لتصل إلى غرفة القراءة. لا تختلف الدار بأي حال عن مثيلاتها التشيكيات. حتى الرجل الجالس خلف النافذة الزجاجية الصغيرة بحجرة الملفات يحمل كل مواصفات موظف الأرشيف. أشار إليها لأنه لم يكن يوجد حينها بغرفة القراءة غيرها، ودفع إليها بدفتر الزوار من أسفل الزجاج، فقامت بملء جميع الخانات التي أشار إليها بإصبعه.

وطلبت منه ببطء وبوضوح وهي تحمل في يديها قاموس بولندي– تشيكي: قائمة البطاقات المفهرسة لمحاكمات الساحرات التي جرت بمورافيا. أومأ الرجل برأسه فقط، وبعد قليل وضع أمامها قائمة المراجع الكاملة وكذا قائمة جزئية مقسمة تبعًا لتاريخ كل قضية ومكان حدوثها على الأراضي التشيكية بما فيها إقليم سليزسكو. أمسكت بالصفحات الأولى في تردد. كان النص الذي يقدِّم لذلك الملف مكتوبًا بالبولندية لكنها بعد عدة أسطر وجدت ترجمته الألمانية، فشعرت براحة كبيرة لأن البولندية على الرغم من قربها من اللغة التشيكية في الكثير من التفاصيل إلا أنها كانت ستصعِّب عليها الأمر كثيرًا. وأخذت تمر بعينيها سريعًا فوق السطور.

مهمة خاصة (مهمة الساحرات):

يضم ملف مهمة الساحرات ملفات أصغر تحوي معلومات محددة تتعلق بمحاكمات الساحرات المختلفة التي جرت في الفترة من القرن التاسع إلى القرن الثامن عشر. وهي نتاج دراسة استمرت لمدة تسعة أعوام قامت بها وحدة متخصصة تتمثل في الفريق البحثي الخاص بالساحرات، التابع للوحدات الخاصة. وتعد تلك الوحدة جزءًا من القسم السابع (البحث والتقييم الأيديولوجي) بمكتب هيملر للأمن العام بالإمبراطورية (مكتب الأمن العام بالإمبراطورية الألمانية)، وهو المعني بالبحث في القضايا التاريخية. وتتفرع من القسم السابع عدة أقسام أخرى يتلخص دورها في إخضاع النتائج النظرية المكتسبة للتجريب العملي. يتعلق الأمر بالأساس بخطوات هدفها إيجاد حيثيات تاريخية تثبت تفوق العِرْق الجرماني، وبناءً عليه يؤكدون من خلال أبحاث رفيعة المستوى تتعلق بشجرة النَّسب أن القادة الألمان ينحدرون من سلالة الحكام الجرمانيين القدامى الذين تمتد جذورهم إلى عالم الميثولوجيا الجرمانية. وفي هذا الإطار يجب تعزيز التفرد العرقي الجرماني من خلال ضمان النقاء العرقي (أي الطهارة العرقية) والتخلص من تأثير الكيانات المعادية للإنسان الكامل. وتنقسم تلك الكيانات إلى ثلاث فئات (بدءًا من الناحية الوراثية وصولًا إلى الفكرية)، وبناء على ترتيبها يتم كذلك ترتيب المادة العلمية داخل ملف مهمة الساحرات:

السلالات المعادية
الأمم المعادية
الفكر السياسي المعادي
الكنيسة
الماسونيون الأحرار
الشيوعيون

قلبت دورا الصفحات لتصل مباشرة إلى الجزء 3. أ.

تم حفظ نشاط إدارة الساحرات المتعلق بنظرية تلوث السلالة الإسكندنافية من خلال جهود الكنيسة لحفظه بملف إدارة بالساحرات تحت رقم 3. أ. في 4017 صندوقًا

تحمل أرقام تسجيل: الساحرات -12-سي/1935-1- الساحرات-12- سي/-312 1944. والصناديق مقسمة تبعًا لمجموعات مواضيعية تتماطى مع موضوع نشاط وحدة الساحرات.

تقسيم القائمة الثالثة أ.:

المادة المتعلقة بكافة محاكمات الساحرات

كان هاينريخ هيملر يخطط لاستغلال هذه المادة في صراعه مع الكنيسة كوسيلة للدعاية المضادة ضدها. وكان من المفترض في إطار ذلك المخطط أن تتم إدانة الكنيسة إدانة واضحة لتآمرها على السيدات الجرمانيات، اللاتي ربما قُتل الملايين منهن في محاكمات الساحرات على مدار المئات من السنين، ولم يتوقف الأمر عليهن فقط بل تعداهن إلى بقية السلالة الجرمانية، التي أرادت الكنيسة أن تَحُول دون تمددها. يحتوي هذا الجزء على بطاقات تخص المحاكمات المختلفة والبيانات التفصيلية الخاصة بالضحايا اللاتي تمت تصفيتهن، بما في ذلك وصف المحاكمات الذي حصلوا عليه من السجلات المشئومة بالمدن المختلفة. ويدلل هذا الجزء على أن الكنيسة كانت تتعقب في تلك المحاكمات بشكل أساسي النساء اللاتي كن يعملن على تعميق جذور المعرفة الروحية الجرمانية القديمة.

التاريخ 850/1785

مادة البحث الخاص بالطقوس الجرمانية القديمة التي تم التوصل إلى معرفة خطواتها من خلال دراسة محاكمات الساحرات المجمعة في الجزء 3. أ.1.

مقالات، دراسات وملاحظات أعضاء الفريق البحثي بالإضافة إلى مواد مصورة.

مادة تتعلق بممارسات التعذيب المستخدمة أثناء محاكمات الساحرات، دراسات لوسائل وطرق التعذيب.

وصف، رسومات، دراسات وتوصيات لـ هاينريخ هيملر باستخدام بعض الطرق في أنشطة القوات الخاصة الألمانية.

الحالة الراهنة للمعرفة الروحية الجرمانية القديمة.

مادة البحث المتعلق بالعثور على الآثار المتبقية من الشعائر الدينية الجرمانية القديمة. منطقة الكاربات الأبيض، محمية بوهيميا – مورافيا في الفترة 1944-1940.

تجاوزت دورا بسرعة عدة صفحات تستكمل توصيف الملف. وأخذت تمر بسرعة على السطور حتى توقفت عند الوصف الدقيق لتاريخ ومحتوى نشاط „وحدة الساحرات".

الفريق البحثي الخاص بالساحرات، التابع للوحدات الخاصة (ويطلق عليه كذلك فريق بحث الساحرات) تأسس رسميًّا عام 1935 وأصبح جزءًا من مكتب الأمن العام بالإمبراطورية الألمانية التابع مباشرة لقيادة هاينريخ هيملر. اتخذ من 102 فيلهيلم شتراس بـ برلين مقرًّا له، وبدأ إنشاء أول خزانة لحفظ الملفات.

تم إسناد دراسة محاكمات الساحرات التي جرت في العصور الوسطى وبداية العصر الحديث إلى الفريق تحت قيادة د. رودولف ليفين الذي كان يترأس فريقًا من ثمانية عشر خبيرًا غالبيتهم من المتخصصين في التاريخ. وكل واحد من هؤلاء الباحثين كان مسئولًا عن إحدى مناطق ألمانيا (ولاحقًا جميع الأراضي المحتلة) التي كان يتوجب عليه أن يُجري عليها أبحاثه. ويتعين أن ينتهي البحث إلى حصر دقيق لأعداد الحالات التي تم إعدامها في إطار مطاردة الساحرات، وكذلك وصف الملابسات التي أحاطت بتلك المحاكمات.

ولخدمة أغراض البحث قام د. ليفين بإعداد خطة عمل دقيقة تتضمن عمل العديد من أنماط نماذج البطاقات الموسعة التي تسمح باستيعاب وصف تفاصيل المحاكمة.

وتحتوي كل بطاقة (مقاس الورقة A4) على 57 سؤالًا تتعلق بالاسم واللقب والعمر والديانة والخلفية العائلية والاجتماعية، كما تتضمن أسئلة تخص سير المحاكمة، اسم المدعي العام (قاضي التحقيق كما كان يطلق عليه في العصور الوسطى)، تركة الضحية التي آلت إلى المحكمة... إلخ. ولم تكن بيانات جميع البطاقات مملوءة بالكامل؛ لأنهم لم ينجحوا في بعض الحالات في جمع المعلومات المتصلة بمحاكمات مرت عليها مئات السنين. بينما أرفقت ببعض البطاقات صور وثائق عديدة تحوي أدق تفاصيل المحاكمة، بما ذلك أقوال الشهود أو محاضر الجلسات التي قام بتسجيلها الكَتَبة المحليون الذين

عكسوا في النهاية سير المحاكمة.

وقد جُمعت المادة التي استطاع أعضاء الفريق الحصول عليها أثناء إجرائه البحث من دور محفوظات مختلف مدن الإمبراطورية ومحمياتها (شمل البحث بشكل أساسي السجلات السوداء، والمشئومة، وسجلات الدم، ومحاضر الجلسات القضائية)، وتم تجميعها الآن في الجزء 3. أ. 1. ووصل عدد البطاقات على مدى سنوات البحث إلى 33846.

وقد قُسمت تلك البطاقات الـ 33846 خلال السنوات التسع التي استمر فيها عمل الفريق إلى 3670 ملفًا حُفظ منها حتى الآن 3622 ملفًا. وتحوي تلك الملفات بيانات عن المحاكمات من القرن التاسع حتى عام 1944. أما أماكن وقوع تلك المحاكمات فتشمل بشكل أساسي الأراضي الألمانية وكذلك إنجلترا، بلجيكا، تشيكوسلوفاكيا، الدانمارك، إستونيا، فرنسا، أيرلاندا، أيسلندا، يوغوسلافيا، ليتوانيا، المجر، نيوزيلاندا، النرويج، بولندا، البرتغال، رومانيا، روسيا، اليونان، سكوتلاندا، إسبانيا، السويد، سويسرا، وكذلك الهند، المكسيك، ترانسلفانيا، تركيا والولايات المتحدة الأمريكية.

وقد أَوْلَى الفريق في السنوات الأخيرة من عمله بالبحث عناية خاصة لموضوع الجزء 3. أ.4–2، كما حرص د. ليفين على الدفع في اتجاه تنشيط الأداء، وقرر الحصول على درجة أستاذ مساعد في موضوع محاكمات الساحرات وما بقي من آثارهن في الوقت الحالي من كلية الآداب جامعة لودفيج ماكسميليان بـ ميونخ، وكذلك فعل د. ف. ف. نورفولك الكاتب المميز في عصره والقادم من إقليم السوديت بـ مورافيا، والذي قام بنشاط فعال في مجال النشر (المتخصص والأدبي) بالتحديد في مسألة استمرار القدسية القديمة لفنون السحر (حقيقة الساحرات).

ويمكننا أن نرجع السبب في عجز فريق الساحرات دائمًا عن تحقيق أهدافه المعلنة إلى انعدام الكفاءة المهنية للباحثين، بالإضافة إلى الغايات التي فاقت ما يمكن الوصول إليه بالفعل. كتلك الفرضية المبالغ فيها بشكل كبير، المتعلقة بوجود 9500000 ضحية في صفوف النساء الجرمانيات اللواتي تم إعدامهن في عمليات تعقب الساحرات التي قامت بها الكنيسة على مدى مئات السنين، والتي أوردها ألفريد روسينبرج في كتابه بدون أن يقيم دليلًا عليها في بحثه (وقد سبقته إلى ذلك الزعم ماتيلدا لودينودورفوفا من

دون أن تحدد أرقامًا). لم ينجح فريق الساحرات في إثبات صحة الرقم الذي ادعاه. وكل ما استطاعوا التوصل إليه أثناء فترة العمل بالبحث هو عشرات الآلاف ممن تم إعدامهن، وهو ما اعتُبر من قِبَل مكتب الأمن العام للإمبراطورية الألمانية فشلًا مهنيًّا. ولهذا السبب أصدر هيملر قرارًا رسميًّا بإيقاف نشاط فريق بحث الساحرات التابع للقوات الخاصة في مطلع عام 1944.

وفي معرض الدفاع عن الفريق البحثي نضيف أن العثور على المادة العلمية في أوروبا التي اجتاحتها الحرب كان عملًا غاية في الصعوبة، وقد قُوبل الباحثون بحسب مراسلاتهم بعدم الرغبة في التعاون من جانب دور المحفوظات التي تمت مخاطبتها. والمادة التي نجح فريق د. ليفين في الحصول عليها كانت نتاج مفاوضات مطولة مع تلك الدور، ومع تجار الآثار، والتجار، والصحف القديمة... إلخ. وفي هذا السياق نُذَكِّر بقضية تهريب السجلات، التي حصل د. ليفين على المال اللازم لتمويلها من مكتب الأمن العام. انظر محضر القضية التي قضت فيها محكمة نوريمبيرج، وشهادة السجين هربرت بلانك بمعسكر الاعتقال النازي زاكسينهاوزن، وانظر كذلك الجزء الخاص بسجلات حسابات فريق الساحرات التابع للقوات الخاصة، تحت رقم ف.أ - ف. ب.

وترجع آخر بيانات تم تسجيلها بمعرفة فريق البحث إلى يناير وفبراير من عام 1944، وقد استمرت العلاقة بين بعض الباحثين من خلال الخطابات المتبادلة. وأصبحت مراسلاتهم المتبادلة جزءًا من فهرس البطاقات المسجلة تحت رقم 7 وهي مرتبة بحسب الترتيب الأبجدي لألقاب مختلف الباحثين (7. أ.-7. م.).

وفي السنة الأخيرة من الحرب جرى إخلاء وإخفاء محتويات أرشيف فريق الساحرات التابع للقوات الخاصة بمعرفة أحد أعضاء الفريق. وتم العثور عليها بعد ذلك في سيليزيا، أي على أراضي جمهورية بولندا حاليًّا، ثم تم إدرجها كجزء من دار المحفوظات العامة في بوزناني. وتوجد نسخة من محتويات الأرشيف في دار المحفوظات العام في فرانكفورت ناد موهان.

وقد استمرت المعالجة المتخصصة والتوثيق لمحتويات الأرشيف حتى عام 1985، وأصبح متاحًا للجمهور في عام 1987 تحت عنوان „أرشيف محاكمات الساحرات".

عادت دورا لموظف الأرشيف وطلبت منه بذوق شديد عمل نسخة من الجزء 3.أ.4. بالكامل وكذلك الملفات الشخصية رقم: 7. أ. – 7. م.

– أهذا كل ما ترغبين فيه؟ سألها الموظف ضئيل الجسم ذو العدستين المستديرتين فوق عينيه.

أجابت دورا: نعم.

يمكن أن يكون ذلك الجزء الثالث جاهزًا في وقت قريب، أما بالنسبة للملفات الخاصة بالباحثين فستتطلب وقتًا أطول.. سيتغرق إعدادها... ربما تصل إلى ثلاثة.. هل يمكنك الانتظار حتى ينتهوا من إعدادها؟

– نعم، سأنتظر.

ملف الساحرة سورمينا

بعد استراحة قصيرة لتناول القهوة من جهاز المشروبات الآلي، أخذت دورا وهي تحبس أنفاسها تفرز الصناديق الكرتونية غير العميقة التي كان موظف الأرشيف قد أعدها لها. لم تكن جميعًا ممتلئة عن آخرها، وفي بعضها الآخر كانت توجد بضع وريقات تتأرجح في القاع، لكن بعضها كان ثقيلًا. كانت متوترة؛ فبعد قليل سيكون بوسعها أن تُميط اللثام عن السر وراء أولئك النسوة اللائي كانت تلتقيهن في كوبانيتسه منذ فترة ليست بالبعيدة. وربما تعرف كذلك سر سورمينا.

أخذت تفرد الصناديق بعناية على الطاولة وتعاين البطاقات الملصقة عليها. الساحرة جابرهيلوفا، كراسنياكوفا، ماهدالكا، ستروهاروفا، وفي النهاية كشفت غطاء صندوق ملصق عليه بطاقة مكتوب عليها الساحرة سورمينا.

كان يقبع في قاع الصندوق ملف ضئيل الحجم، رُبطت صفحاته بأربطة بالية. أمسكت به بقوة وقد غلبها الفضول، فقامت بفك الرباط واستبعاد الغلاف الكرتوني. وقد حملت الصفحة الأولى عنوان:

3.أ.4 الحالة الراهنة للمعرفة الروحية الجرمانية القديمة

المادة البحثية الخاصة بالبحث عن الآثار الباقية من الممارسات الدينية الجرمانية القديمة

منطقة الكاربات الأبيض، محمية بوهيميا وموراڤيا، في الفترة 1940-1944

تيريزيا سورمينا

كانت تختبئ تحت الملف كومة من الأوراق تعلوها استمارة مسهبة البيانات كُتبت بخط دقيق معقوف. أخذت تمر بسرعة على السطور وهي تبتسم بمرارة من دقة الألمان الذين لم يتركوا أية تفصيلة تخص حياة الشخص محل الدراسة تمر دون تسجيل. فلا توجد مقارنة بين ذلك الملف وبين ملف سورمينا الذي قدمه الأمن العام بخصوصها، حيث كان على الأمن العام في البحث الذي يقوم به أن يجري عدة اتصالات قبل أن تصل إليه

كافة المعلومات المتعلقة بالشخصية المرصودة، في حين كان يصل للمحققين الألمان هناك استمارات مُلئت خاناتها بالفعل. وكما يتضح من خلال الرسومات التوضيحية للملف، كانت تشبه إلى حد كبير البطاقات الخاصة بأوراق محاكمات الساحرات اللاتي تم استجوابهن قبل أربعمائة عام. ربما كان يوجد اختلاف من حيث الموضوع فقط في بعض المواضع.

تصفحت سريعًا استمارة سورمينا المكونة من عدة صفحات وراجعت صحة البيانات المدونة بها، والتي قام بجمعها بحسب ما هو مكتوب في خانة اسم الباحث د. ف. ف. نورفولك.

الاسم: سورمينا

الاسم الأول: تيريزيا

تاريخ الميلاد: 24/07/1910

الحالة: غير متزوجة، ربة بيت

العنوان: 28 جيتكوفا (ستاري هروزينكوف)، تل بيدوفا

التخصص: المعالجة، إصلاح الكسور، تجارة الأعشاب، التنبؤ بالمستقبل، صد العواصف

الفئة: أ

وتلا ذلك وصف شخصيتها وصفًا يتضمن المعلومات التي تم التوصل إليها حتى ذلك الوقت، والتي كانت دورا بالفعل تعرفها. ويتعلق الأمر بالخلفية العائلية لسورمينا، وبشقيقاتها، وبعدم تحصيلها للمعارف الأساسية الثلاث[11]، وبإيمانها القوي بالله، وترددها المنتظم على الكنيسة. وأشاروا إلى علاقتها بـ روخار، وكان دائم التردد عليها في بيدوفا، حيث كانت تعيش وأختها الصغرى إيرينا بمفردهما بعد وفاة والديهما.

11- القراءة والكتابة والحساب.

أخذت دورا تمر على السطور التالية بطرف إصبعها بانفعال لعلها تتعرف هناك على شيء جديد يخص إيرينا سورمينا التي كان عمرها آنذاك لا يتعدى سبع عشرة سنة. لكن لم يحدث ما كانت تترقبه. فهم على ما يبدو لم يدرجوا اسم أخت الساحرة سورمينا ضمن الفئة أ. فنحَّت الاستمارة جانبًا بعد أن خاب أملها.

وخلف الاستمارة كانت توجد صفحة مطبوعة أخرى كان عنوانها „تراث الأسلاف"، بالتحديد كانت تتعلق بالبيانات الخاصة بخصائص الجماجم. لكنها كانت خالية. لم تكن دورا تتوقع قط أن يحمل لها النظر إلى صفحة خالية أي إحساس خاص في يوم من الأيام، لكنها الآن تنفست الصعداء. لم تكن سورمينا تتعاون معهم، وأخذت تكرر في نفسها لمرات عديدة: سورمينا كانت شريفة.

وراحت تتابع القراءة وقد تملَّكها شعور بالانتصار حتى وقع بصرها على صور فوتوغرافية مثبتة على صفحة سميكة الورق مقاس A4. كانت صورًا لبيتهم في بيدوفا، الذي تعرفت عليه على الفور لأنه منذ ذلك الوقت لم يطرأ عليه أي تغير على الإطلاق. كانت صورًا للبيت من جميع الجهات، تلتها بعض الصور الأخرى لـ سورمينا وهي تقوم بأنشطة مختلفة. فتلك صورة التُقطت لها وسط الجموع أمام الكنيسة، وأخرى في المقابر أمام مقبرة عائلتها، أو أمام منزلها، أو وهي تقوم بنشر الملابس المغسولة. وقد علقت عليها دورا في نفسها قائلة: كم كانت جميلة في شبابها. فلم ترَها قط على هذا الشكل. رفعت الصورة وقربتها من عينيها، وبدهشة أدركت أن السمنة التي بدت على سورمينا لم تكن بسبب رداءة تلك الصورة، وإنما بسبب الحمل. وهنا تذكرت دورا البيانات التي حواها ملف سورمينا، وأنها لابد أن تكون قد التُقطت لها في عام 1942.

وكانت توجد أسفل الصور مباشرة بالملف مضبطة مراقبة كتبت على ورق يتصدر أعلاه النسر الإمبراطوري، وترجع إلى الفترة التي سبقت بداية رصد تحركاتها بقليل.

نتائج البحث الجديدة

في ليلة 1942/06/23 التقتْ بالبعض بهدف جمع الأعشاب، على الرغم من حظر التجوال الليلي وسريان الأحكام العرفية. فقد وصلت إلى بيتها حوالي الساعة الحادية عشرة والنصف سبع فتيات جئن من مختلف الغرب بمحيط منطقة جيتكوفا ومعهن السلال وما يُعرف بتوت الأرض. وبعد منتصف الليل بعشر دقائق خرجن جميعًا مع تيريزا وإيرينا سورمينوفا متجهات من أعلى تل بيدوفا نحو السفح. وذكر زوبرينجر أن النسوة المجتمعات خلعن ملابسهن فوق السفح وبدأن جمع الأعشاب وهن عاريات حتى الساعة الرابعة صباحًا، بعدها قمن بارتداء ملابسهن مرة أخرى وانطلقن نحو بيت سورمينا، حيث تركن السلال والأعشاب، وتفرقن عائدات إلى بيوتهن قبل مطلع الفجر.

يمكن التأكيد بناء على البحث الميداني اللاحق بأن هذا السلوك يُعد مألوفًا بهذه المنطقة في ليلة عيد القديس يان؛ لأنهم هنا يعتقدون أنه في الفترة ما بين منتصف الليل وطلوع الفجر تكون قوة الأعشاب المقطوفة أكبر بكثير. وتكون كما يُعتقَد فاعلية الأعشاب التي تقوم بجمعها شابات عذراوات أكبر بكثير، ولابد أن يكون عددهن تسعة، ويُفضل أن يكنَّ عرايا.

ونفس الشيء قامت به في تلك الليلة: إيرما جابرهيلوفا مع والدتها أنا ستروهاروفا، وكاترشينا هودوليكوفا، وجوفيه كراسنياكوفا، وماريه بجاتشوفا ابنتها بالتبني المعروفة بـ فوكسينا، انظر الملفات الشخصية لسالفات الذكر. لم تتم مداهمة مجموعة النساء المحيطة بـ تيريزيا سورمينا من قِبَل الأجهزة الأمنية أثناء خروجهن ليلًا؛ إذ إننا حرصًا على أهداف بحثنا لم نقم بالإبلاغ عن الفاعليات التي مارسنها، لأنه من الواضح أنهن لم يخرجن ليلًا بهدف ارتكاب فعل معادٍ للدولة، ولكن هدفهن كان ممارسة الشعائر المرتبطة بموضوع بحثنا.

التوقيع: ف. ف. نورفولك

ضحكت دورا ضحكة مكتومة. ثم أغمضت عينيها وأخذت تتخيل سورمينا ومجموعة النساء العاريات الراكضات على السفوح التي غمرها ضوء القمر، تمامًا كما كانت تفعل هي معهن بعدها بعدة سنوات. كما حدث في ذلك اليوم الذي تصادف فيه وجود أحد

مندوبي مكتب الخدمة الميدانية بمهمة في بيدوفا في تلك الليلة، وهو إن لم يكن من سكان المنطقة، فلابد أن يكون ذلك المشهد قد أصابه بالدهشة. رأت بنفسها كيف كان يتخفى خلف الأشجار الكثيفة وهو يتتبع النساء، ورأت كيف كان يتعقبهن من فتحات وسط الأشجار، وكيف كان يستتر بظلام الليل، الذي سمح له بالتواجد على مقربة منهن، وكيف كان ممتنًا لضوء القمر الذي مكّنه من رؤية أجساد النساء العاريات وهن يتحركن كما لو كن يلعبن دورًا على خشبة المسرح. شاهدت كيف كان يتنهد بهدوء وهو يستعد لتسجيل تلك الصورة التي تجسد العذرية والخلاعة في آن واحد. وبالتأكيد لم يكن المراسل ليشكو من المأزق الذي وقع فيه في تلك الليلة.

دخل إلى غرفة القراءة رجل مسن ألقى التحية في هدوء، فانتزع دورا من أفكارها. وعندها نظرت إلى ساعتها لتكتشف أن الوقت لن يمهلها كثيرًا، وأنها إذا كانت ترغب في العودة اليوم إلى برنو في الحافلة الليلية، وهو ما يبدو ممكنًا بحسب حجم المادة التي وقعت بين يديها من أوراق قضية سورمينا، فسيكون عليها أن تسرع قليلًا.

أخذت تسقط من بين يديها بعض الأوراق التالية غير المهمة من مضبطة المراقبة التي تتناول أخبارًا تتعلق بأن سورمينا ولدت طفلًا ميتًا وأنهم دفنوه بدون تعميد بمقبرة عائلة سورمينا، وأن روخار توقف عن التردد عليها على إثر مشادة حدثت بينهما... إلخ. إذ لم يكن بين تلك الأخبار ما يسترعي انتباه نورفولك بشكل حقيقي، فاختزلها في بضعة جمل مقتضبة.

ولكنه بدأ يولي سورمينا عناية أكبر في مواضع متأخرة كثيرًا من البحث، وذلك عندما تجاوزت فترة عمله في جيتكوفا النصف. توقفت دورا عند مضبطة مراقبة غزيرة البيانات كانت توجد بالركن الأيمن العلوي، وقد كُتب عليها بخط اليد: الحجاب!!

مضبطة الرصد والمراقبة بداية من 14 أكتوبر 1943

نتائج البحث الجديدة

في 29/09/1943 تم اعتقال م. ليخوفا من منطقة بويكوفيتسه بسبب الاتجار غير الشرعي بكوبونات الطعام. وأثناء التحقيقات التي أجراها معها الجستابو في زلين بمعرفة

ضابط التحقيق اكتشف أنها تحمل في رقبتها حجابًا، وهو من صنع إحدى ساحرات جيتكوفا. ثم توصلنا إلى أن سورمينا هي من قامت بعمل ذلك الحجاب. تم تسليم الحجاب لمركز القوات الخاصة بالإضافة إلى محضر التحقيق التالي:

„ذهبت إليها بهدف التخلص من الخوف الذي أشعر به، كنت أعاني من توارد أفكار خبيثة على رأسي، كما بدأت أرى كوابيس في منامي منذ عدة أيام. رأيت فيها عودة زوجي الذي توفي أثناء عمله بمحجر هروزينكوف قبل أكثر من ثلاثة أشهر. لم أكن أستطيع النوم، على الرغم من أني كنت أشعر بالإعياء أثناء النهار. كان ينقضُّ عليَّ كلما أغمضت عيني. لذلك ذهبت إليها، إلى الساحرة سورمينا، وطلبت منها العون، فأعطتني خلطة من الأعشاب لاستخدامها كشراب وكذلك كيسًا صغيرًا وضعت فيه مزيجًا من الأعشاب ونقطة من دمي أخذتها من جرح في إصبعي الأوسط، كما وضعت فيه وريقة نقشت عليها بعض العبارات. وقامت بخلط كل هذه الأشياء بإصبعها فوق قطعة من قماش المنخل، ثم ربطتها وأوصتني بتناول الأعشاب لمدة تسعة أيام وتسع ليال، وكذلك بتعليق ذلك الكيس في رقبتي. ومنذ ذلك الوقت لم أعد أرى تلك الكوابيس الكوابيس، كما أنني زيادة في الحرص لا أخلعه أبدًا من رقبتي".

والكيس المشار إليه هو بالفعل حجاب، وهو يشبه التعويذة التي كانت تحرمها الكنيسة باعتبارها واحدًة من آثار الطقوس الإلحادية التي تتعارض مع التصور المسيحي للعقيدة السليمة. والوريقة المشار إليها تحمل في اعتقادي نقشًا ربما يكون مأخوذًا من كلمة سحرية كتبت بحروف الفوثارك، الشكل الأقدم للأبجدية الرونية القديمة والتي يمكن تفسيرها بمعنى „يوم". هذه البيانات مرفقة بهدف إخضاعها للتحليل.

التوقيع: ف. ف. نورفولك

ومنذ ذلك الوقت بدأ نورفولك يولي سورمينا عناية خاصة.

ولم يكن الوحيد الذي فعل.

وفضلًا عن التفاصيل الجديدة المتعلقة بالعادات التي كانت تمارسها بطريقة اعتيادية، امتلأت مضابط المراقبة كذلك بأشياء أُخرى. منها البلاغات التي كانت تقدَّم في حقها والتي كانت تصل إلي مركز القيادة بمكتب الخدمة الميدانية.

نحيطكم علما بأن تيريزيا سورمينا المقيمة بتل بيدوفا بمنطقة جيتكوفا تحصل على إيرادات عالية غير خاضعة للضرائب مقابل أنشطتها الروحية والتنبؤ بالمستقبل، وهي تمارس هذا النشاط منذ شبابها حتى الآن، غير عابئة بأنه نشاط مُجرَّم في الإمبراطورية وفي محمياتها. هكذا كُتب على إحدى الأوراق.

نحيطكم علمًا بأن تيريزيا سورمينا المقيمة بتل بيدوفا بمنطقة جيتكوفا قامت بذبح عجل بشكل غير شرعي، وذلك في مايو 1942. هكذا كُتب على ورقة أخرى. وعلى ورقة ثالثة كتبوا شيئًا أكثر جدية: تحققوا من أمر سورمينا المقيمة في بيدوفا؛ فهي تزعم أن ألمانيا لن تكسب الحرب أبدًا، ولن تكون النهاية سعيدة، وبذلك تعمل على إفساد أخلاقيات المواطنين الذين يعطون أذنًا صاغية لكل ما تقول!

مضبطة الرصد والمراقبة بداية من 6 ديسمبر 1943

نتائج البحث الجديدة

وصلت في الفترة من مارس 1942 إلى نوفمبر 1943 عدة بلاغات ضد سورمينا (انظر المستندات المرفقة). وهي البلاغات التي تم تلقيها بانتظام على مدار عدة أشهر على عنوان مكتب الخدمة الميدانية، الذي يقوم بدوره على الفور بإبلاغ المركز الرئيسي للفريق البحثي الخاص بالساحرات من خلال إرسال نسخة من البلاغ إلى مكتب الجمرك التابع لحرس الحدود في هروزينكوف. وقد وافقت المكاتب المذكورة على طلبنا الخاص بعدم خضوع الأشخاص محل الدراسة أثناء فترة عمل البحث الذي يقوم به الفريق البحثي الخاص بالساحرات لأية تحقيقات أُخرى، ما لم يقترفوا جرمًا كبيرًا أو يتجاوزوا قوانين المحميات بشكل لا يمكن قبوله.

بالنسبة لبقية الساحرات لا توجد مشاكل في تطبيق هذا القرار، أما سورمينا فربما لن نجد مفرًّا من اتخاذ الإجراءات الرسمية معها في المستقبل.

لم تتوصل جهات التحقيق تحت رئاسة راينهارت جلوتشكا قائد وحدة الهجوم التابعة للقوات الخاصة حتى الآن لهوية المُبلِغ. وغالبًا سيكون أحد العملاء الناقمين عليها، لكننا نجحنا في استبعاد يان روخار لعدم معرفته بالقراءة والكتابة، ولذا سيتعذر عليه كتابة الخطابات.

التوقيع: ف. ف. نورفولك

أخذت دورا تفحص بقية البلاغات. وكانت تحوي أحيانًا اتهامات بسيطة وأحيانًا أخرى ثقيلة. بل إنها بكل تأكيد لم تكن لتفلت من تحقيقات الجستابو في بعضها لولا حماية المذكور سابقًا. كانت إيرما على حق، وهذا هو ما تأكدت منه بنفسها هنا. كان نورفولك يشمل الساحرات برعاية جعلته يحصل من القيادة العسكرية مباشرة على تفويض بها. وبفضله لم يكن أي أحد يستطيع الاقتراب منهن.

وبعد تصفحها لبعض من المضابط المتبقية أوشكت على الوصول إلى نهاية ملف سورمينا. وفي نهاية الملف وجدتْ خطابات حُشرت في مظروف منتفخ يرجع بحسب البيانات المدونة على الختم إلى الفترة التي كان نشاط الفريق البحثي قد توقف رسميًّا فيها. لذلك تم إرسالها إلى نورفولك على عنوان خاص بفيلا على أطراف مدينة ليبزيج.

لم تكن الخطابات جزءًا من أي من المضابط، لكن في المقابل كُتبت على ظهر المظروف جملة واحدة: 10/09/1944: مُرسل عدد اثنين من المستندات بخصوص الساحرة سورمينا، انظر الملحق 1 و 2. وللاطلاع على تحليل الرسوم البيانية المُعدَّة انظر الملحق 3.

أخرجت دورا من المظروف الملاحق المشار إليها بأرقامها السابق ذكرها وبدأت في قراءة الملحق الأول.

الملحق 1

خطاب

المرسل إليه: ف. ف. نورفولك ، فيلا إيفيلين، 12 ش ستراند، 2 ليبزيج، الإمبراطورية الألمانية

المُرسِل: راينهارت جلوتشكا، مكتب الخدمة الميدانية- الخدمات الأمنية بـ زلين، محمية بوهيميا وموارفيا

فرديناند:

تحية من القلب وما زلت متأثرًا بزيارتك الأخيرة. لم يمر أسبوع واحد دون أن أبحر في التسجيلات التي أحضرتها لي، وفي مقدمتها تلك التراتيل التي استمعت إليها حتى الآن على الأقل عشر مرات. إنها رائعة!

وقد تلقيت طردًا من فيينا منذ أيام قليلة، باخ وهايدن اللذان تحدثت معك عنهما، لابد أن تحضر قريبًا كي أسمعك إياها. متي سترجع؟ كنت أتوقع أن تعود سريعًا.

لكنني من ناحية أُخرى لا أستغرب عدم مجيئك في الفترة الأخيرة، ربما تعلم بأن الوضع هنا الآن غاية في التوتر. فقد استطعنا إصابة قاذفات القنابل الأمريكية وإسقاطها فوق كوبانيتسه، لكن ذلك أحدث فوضى عارمة، وأتحدث هنا تحديدًا عن الجو العام الذي يعيش فيه الناس. وهذا هو سبب خطابي إليك.

يتعلق الأمر بالبحث الذي تقوم به، بالتحديد باثنتين من النساء اللاتي جئت على ذكرهن. أخشى أن تكونا متورطتين بشكل لن يرضيك في موضوع تلك الطائرات التي أُسقطت. وأنا مضطر لوضعهما تحت المراقبة، وأقول لك بصراحة إنهما إذا ما ارتكبتا أي خطأ آخر، فلن تفلتا من المساءلة كما كنت أفعل معهما في المرات السابقة.

فقد تجاوزتا هذه المرة الخطوط الحمراء، عندما قامتا بإخفاء وعلاج شخص أمريكي، بل ويهودي، وهو واحد من أولئك الطيارين الذين أُسقطت طائراتهم. لم أصدر تعليماتي بإعدامهن على الفور مراعاة مني فقط للبحث الذي تعمل عليه. ولا أستطيع أن أصف لك مدى حرج موقفي أمام رئيسي، وخاصة بعد وصول هذين المساعدين الجديدين التابعين للمباحث الجنائية القادمين من شارلوتنبرج ليتوليا النظر في الأمور الجنائية. وقد سمح لي موقعي الوظيفي بالحيلولة دون اتخاذ إجراءات بشأنهما، وساعدني في ذلك التفويض الذي تركته لي في إطار إدارة الشئون السرية بالإضافة إلى خطاب قائد الوحدات الخاصة بالإمبراطورية.

لكن الأمر الذي لا أستطيع التدخل فيه هو مسألة الأمن الشخصي لساحراتك، ولديَّ من الأسباب ما يجعلني أظن أن هناك ما يدعو للخوف في هذا المجال، ولسنا وحدنا مبعث هذا الخوف ولكن يشاركنا في ذلك السكان المحليون. أكرر مرة أُخرى أن الأوضاع هنا ليست

هادئة، وهناك وحدات من الفدائيين تتحرك بمنطقة الكاربات. وقبل أسبوعين بدأت عمليات مكافحة الجريمة المنظمة من قبل وحدات مكافحة العمليات الفدائية 1 و9 و24، وذلك في منطقة بيسكيد القريبة، التي وصلت الأوضاع فيها إلى أسوأ مستوياتها، حيث بدأ يطؤها أناس مجهولون ذوو انتماءات وتوجهات مختلفة، وفي تلك الظروف لن يمثل اختفاء إحدى السيدات أمرًا ذا أهمية، وأهم ما في الأمر: أني لن أعرف بالأمر في الوقت المناسب.

أما عن كونهن في خطر، فقد عرفت ذلك من خلال سلوك أحد موظفي الإمبراطورية الذين يعملون معي. ولذا فقد كان عليَّ التصرف معه وإلجام جماحه عندما وجدنا ذلك الأمريكي عند الساحرتين. بدا حينها جليًّا أن هذا المدعو فـ - مان بـ -7 لديه رغبة غير عادية في إيقاع الأذى بهما، وأقول لك لو لم أكن أنا قائد تلك العملية، لانتهى أمرهما كما كان يقترح: بالتصفية الجسدية فورًا.

فـ - مان بـ -7 شفانزا من مواليد تلك المنطقة، وهو يؤكد بشدة أن الساحرات لم يكنَّ يقدمن الخدمة المطلوبة للكثير من الناس هنا؛ لذا لا أستبعد أن يقوم أحدهم في تلك الأوقات العصيبة بتصفية حساباته معهن على طريقتة الخاصة. ولديَّ شكوك في أنه هو نفسه واحد من هؤلاء. وكان تحفُّزه ضد الساحرات، كما كانت المعلومات التي قدمها لي أثناء جلسة الاستماع الخاصة تبدو إلى حد ما مبالغًا فيها. وعلى الرغم من أني عهدت اليه بإعداد التقرير المتعلق بنشاط الساحرات المعادي للدولة وللمجتمع، وألمحت له بأننا إذا ما تأكدنا من خطورة أنشطتهن، فسيصبح هو نفسه رئيسًا لوحدة ملاحقة الساحرات. ليتك رأيت رد فعله، كاد يطير فرحًا.

أعود وأؤكد أن هؤلاء الموظفين الذين هم حثالة السكان المحليين يغريهم العطاء الشهري، ويمكنك أن تضمن ولاءهم الكامل بأدنى الوظائف في الجهاز الوظيفي. والآن أصبح شفانزا واحدًا من أخلص المخلصين لدى مكتب الخدمة الميدانية بـ زلين. ولو كان كل رجالنا في المحمية مثله لاستتبَّ لنا الأمر هنا.

سأرسل لك تقريره الذي يتكون من خمس صفحات تتناول أدق التفاصيل، حيث يتمتع بشبكة معارف واسعة وهو نفسه نشيط للغاية؛ ولذا فقد نقبوا وراء ساحراتك حتى كشفوا كل خباياهن. وأعتقد أنه أنجز بامتياز ما كنتم تبحثون عنه هنا سرًّا لمدة عامين. وهناك إضافة كما سترى في الجزء المتعلق بالأسلحة الموجودة بحوزة الفدائيين.

تضرع إلى الله أن يكون شفانزا مخطئًا فيما توصل إليه؛ لأن التغاضي عما ذُكر، كما تعرف، أمر غير وارد. كما أن ذلك يفوق سلطاتي وصلاحياتي، وقد أُوكل أمر الفدائيين الآن للقوات الخاصة.

على أي حال يا فرديناند، كن حذرًا بشأنهن، فربما تنتظرهن أيام صعبة. وذلك كي تجد من تستكمل عليهن أبحاثك حال عودتك إلى هنا في المرة القادمة! أرسل لي تلغراف قبيل مجيئك. وأتمني أن تعود قريبًا.

تحية طيبة

راينهارت

****

وضعت دورا الخطاب جانبًا وأخرجت بسرعة التقرير المرفق المكون من خمس صفحات – تحليل الوضع الذي أعده شفانزا وخطة مقترحة لكيفية التحرك في المستقبل.

أخذت الحروف المتقطعة المربكة تتراقص أمام عينيها متخطية السطور. كان النص غير منظم وكأنه كتب دفعة واحدة وعلى عجل. بدون مقدمات بدأ مباشرة بسيل من الإدانات والاتهامات والإشاعات وأنصاف الحقائق التي تتعلق بماضي وحاضر ساحرات جيتكوفا.

أنا هينريخ شفانزا، ألماني الجنسية ومتعاون مخلص مع الإمبراطورية الثالثة، كنت عضوًا في الحزب الديمقراطي الاجتماعي منذ عام 1936، ومنذ 1938 أحد أعضاء حزب العمال القومي الاشتراكي الألماني (الحزب النازي)، ومنذ 1940 أحد موظفي الخدمة الميدانية التابعة للوحدات الوقائية في زلين. أتقدم بالمعلومات التي حصلت عليها من خلال الملاحظة الميدانية طويلة الأمد في المنطقة المحيطة بـ ستاري هروزينك، حيث تعيش فوق التلال نساء يطلقن على أنفسهن ساحرات، قادرات على شفاء الأمراض. إلا أن ما يفعلنه ليس إلا شعوذة تفسد الشرفاء من الناس وتخدع المؤمنين بالخرافات والمصدقين لها، وعلاوة على ذلك لا يخجلن من

تقاضي مبالغ كبيرة مقابل أكاذيبهن. ويُروى أن إحداهن طلبت بقرة مقابل استخدام السحر لشفاء فتاة يهودية تضاعف حُجم رأسها مرتين بفعل ورم أخذ ينمو داخلها. وبالفعل قامت تلك اليهودية الهمجية بإعطائها إياها، وقد حدث ذلك في الثلاثينيات، وما زال في استطاعة تلك الكائنات الماكرة أن تكتنز المال على حسابنا، ولِمَ لا يدفعون به إليهن ما داموا يمتلكونه.

وتُعد سورمينا هي الأسوأ دائمًا في هذا الإطار، وهي تقيم فوق تل بيدوفا، وكانت تحصل على أعلى أجر مقابل الخدمات التي تقدمها، ولم تكن تتواني عن أخذ آخر جلباب لدى أمهات الأطفال المرضى، كما حدث في حالة سيدة تُدعى كامينيتسه من بلدة بيتينا. كما قامت بالاحتيال على أحدهم ويُدعى سوبوخ من بلدة كِرهوف وأخذت منه آخر كرون كان يمتلكه، عندما أكدت له أنه مصاب بالسرطان، وهو ما تطلب تردده عليها لسنوات للرقية، وذلك على الرغم من أنه سليم معافى وليس به شيء.

أخذت تنتقل من سطر إلى آخر، وراحت تتخطى بعض الفقرات، وقد أصابها الاشمئزاز مما قرأته، من ذلك الكم من الشائعات والافتراءات. أخذت تتصفح وتقفز فوق الفقرات حتى وصلت للصفحة الأخيرة:

... وذلك بغض النظر عن كون مثل تلك الممارسات أصبحت محظورة بالفعل في الإمبراطورية وفي المحميات منذ عام 1941. وصار القيام بتلك الأعمال منذ ذلك الوقت مجرَّمًا قانونًا، على الرغم من استمرار تلك النساء في ترديد مزاعمهن الخاصة بكونهن يعملن بتجارة الأعشاب وليس بالشعوذة، فنحن نعلم جيدًا أنهن بواسطة صب الشمع يقمن بالتنبؤ بالمستقبل للمغفلين المستعدين للدفع. وهو فعل مُؤثَّم قانونًا! ولا يوجد أي فرق بين تلك السيدات وبين الغجريات المتشردات؛ ولذا أقترح بشدة عدم التسامح معهن بأي شكل من الأشكال، والتعامل معهن على أنهن حثالة المجتمع!

وإضافة إلى ما سبق ذكره هناك معلومة أخيرة مفادها أنه قد شُوهد شاب يبيت لمدة ليلتين لدى الساحرة سورمينا، وهو على الأرجح فدائي قامت سورمينا بتوفير المأوى له، كما يغلب الظن أنها قامت بعلاجه.

ولذا فإني أرى أن الأمر لا يمكن أن يمر بلا عقاب! وذلك ليس فقط بسبب ممارساتهن

الاحتيالية التي تدرُّ عليهن مكاسب مالية كبيرة ويهلكن بها البسطاء من سكان المنطقة، ولكن من أجل مساعداتهن للجنس اليهودي المنحط، والآن ينضم إليهم الفدائيون، الأمر الذي يؤكد على ممارستهن لسلوك عدائي حيال الإمبراطورية.

ونظرًا لمعلوماتنا المؤكدة المتعلقة بالأنشطة التي يمارسنها وبالبيئة المحلية، يمكنني أن أتقدم باقتراح بتشكيل فريق من مجموعة رجال يقومون بتتبع النشاط الإجرامي لأولئك النسوة كي يتحملن عواقب ما اقترفت أيديهن.

المجد للإمبراطورية، المجد لهتلر!

شفانزا

وقد أُرفق نص التقرير بورقة تحوي قائمة بعناوين أولئك النساء اللواتي كن يمتهنَّ التنجيم بـ جيتكوفا في نهاية عام 1944.

طرحت دورا تقرير شفانزا الافترائي جانبًا في نفور، وبدأت تركز على آخر مرفقات التقرير. استطاعت من خلال الصفحة البيضاء النظيفة أن تقرأ المحضر المختصر المكتوب بخط رديء.

مضبطة الرصد والمراقبة بداية من 29 أكتوبر 1944

نتائج البحث الجديدة

تؤكد نتيجة التحليل الذي أجراه خبير الخطوط، التطابق بين الخط الذي كُتب به تقرير شفانزا وبين الخط الذي كتبت الشكاوى الواردة في حق الساحرات، التي تم إرسالها من مكتب الخدمة الميدانية التابع للوحدات الوقائية في زلين إلى مركز الوحدات الخاصة – فريق بحث الساحرات في ستاري هروزينكوف. مرفق طيه التقرير.

التوقيع: ف. ف. نورفولك

أعادت دورا قراءة الخطاب القصير. أحقٌّ ما أرى!

لم يحاول شفانزا فقط انتزاع منصب رئيس وحدة ملاحقة الساحرات بطريقة طبيعية، ولكنه أراد أن يضمن ذلك من خلال إرسال شكاوى كيدية! أخذت دورا تنظر إلى هذه الفقرة القصيرة باشمئزاز فاق ما شعرت به حيال تقرير شفانزا. وراحت تتساءل: لماذا فعل ذلك؟ كان بمقدوره الوصول إلى ما يطمح فيه من منصب بطريقة أخرى، تُرى لماذا أراد الوصول إليه على جثث الساحرات؟ وفضلًا عن ذلك: لماذا سورمينا بالذات؟

أخذت تقلب صفحات الملف لعلها تتمكن من قراءة تقرير خبير الخطوط المشار إليه في نهاية محضر المراقبة. إلا أنه لم يكن موجودًا. لم تجده على الرغم من أنها أعادت تصفح الملف بأكمله. شعرت بعدها بالضيق، ولكنها لم تندهش، فقد تم إعداد الملف في زمن كان كل شيء فيه مختلفًا. ربما كان لدى نورفولك نفسه العديد من المشاغل الخاصة، ما جعله يغفل عن التأكد من وجود أحد المستندات بالملف.

نهضت دورا متجهة نحو نافذة الخدمة بالأرشيف كي تسأل الموظف عن إمكانية تصوير المستندات التي انتهت من قراءتها. فأومأ برأسه بدون تردد. فأخرجت من حقيبتها الكاميرا وقامت بتصوير جميع الخطابات التي حُشرت داخل مظروف الخطابات المنتفخ.

وهمست في نفسها في أسى وهي تعيد خطابات الوشاية إلى الملف مرة أخرى: أتمنى أن يكونوا قد عثروا عليه في نهاية الحرب. إلا أنها أدركت في نفس الوقت أمرًا أثر فيها وخفف عنها، ألا وهو أن سورمينا كانت بعيدة عن الشبهات في زمن الحماية الألمانية. لم تجد دورا في ذلك الملف الهزيل أي شيء على الإطلاق من شأنه أن يشوه سمعتها، ولم تُفاجأ بأية أسرار جديدة. وأخذت تكرر في نفسها وهي ترد صندوق الأوراق إلى موظف الأرشيف، وقد انتابها شعور بأنها بفضل الله لم تجد شيئًا في دار محفوظات بوزناني: لا شيء، صفر.

كان تاريخ حياة سورمينا أكثر وضوحًا بالنسبة لدورا. كان يوجد على مكتبها بضعة صناديق كرتونية أخرى بجانب بعضها البعض. وكانت تحوي بداخلها مآل وأقدار ساحرات أخريات. تركت دورا صندوق كراسنياتشكا، ستروهاركا وبقية الساحرات غير عابئة بها وجذبت صندوقًا مكتوبًا عليه: ساحرات عائلة ماهدال. لعلها تستطيع أخيرًا أن تتوصل إلى الرابط الذي يربط بين تلك العائلة وبين عائلتها.

كان ذلك الصندوق هو الأثقل على الإطلاق، وعندما رفعت دورا غطاءه، تأكدت من وجود مجلد حجمه أكبر بكثير من ذلك الخاص بـ سورمينا. وقد أُعجب اثنان من الباحثين الألمان بالساحرات من عائلة ماهدال أكثر من غيرهن بشكل لافت.

بدأ كل شيء بذلك الخطاب الذي عثرت عليه دورا في ملف سورمينا – خطاب مركز الأمن بـ براتيسلافا المرسل لأقرب إدارة في المحمية. وكان الخطاب يحمل طلبًا بالبحث والتنقيب عن نشاط يوسيفينا ماهدالكا. تجاوزت ذلك الخطاب تمامًا كما تجاوزت استمارات البيانات الشاملة الخاصة بثلاث من سيدات العائلة. وحتى من خلال نظرة سريعة على تلك الاستمارات ظهر جليًا أنهن كن يعشن حياة مختلفة عن بقية الساحرات: فقط فيما يتعلق بتخصصهن (المدون بالفئة أ) الذي يضم كذلك تقرير كُتب فيه: السحر الأسود، القدرة على إلحاق الأذى بالآخرين، ماهدالكا الأم (؟). وتوقفت عند المحاضر التي تثبت تورطهن بالتعاون مع أفراد فريق ليفين البحثي.

مضبطة الرصد والمراقبة بداية من 19 نوفمبر 1941

نتائج البحث الجديدة

الاتفاق على التعاون مع الأسرة

مجمل البيانات الخاصة بحجم وشكل الجمجمة، التي تؤكد على صحة الملاحظات الأولية التي تثبت الأصول الآرية خاصة بالنسبة لـ ماهدالكا الأم.

التوقيع: ف. ف. نورفولك

مضبطة الرصد والمراقبة بداية من 20 فبراير 1942

نتائج البحث الجديدة

في إطار البحث المدقق لأنشطة الساحرات، وبحجة عدم وجود إمكانية لتوفير مكان للإقامة في ستاري هروزينكوف، تم قبول عرض بتأجير حجرة واحدة في بيت الساحرات من عائلة ماهدال. وبلغت قيمة الإيجار 100 كرون شهريًا.

التوقيع: ف. ف. نورفولك

مضبطة الرصد والمراقبة بداية من 9 مايو 1942

نتائج البحث الجديدة

وافقت العناصر المرصودة على التعاون المحدود، وفي إطاره سمحوا بمشاركة خفية في أنشطتهم المتعلقة بالسحر. وكانت عملية المتابعة تتم من الرواق. وفي يوم 9/5 تم تسجيل زيارتين من قِبَل العملاء الذين جاءوا طلبًا للمشورة. للاطلاع على الوصف التفصيلي للمقابلة متضمنًا الطقوس التي أُجريت، انظر الدراسة الخاصة.

كانت التعاويذ المصاحبة للطقوس مشفرة، وكانت تُتلى باللهجة المحلية، بسرعة، وبصوت خفيض؛ ولذا لم نتمكن من تسجيلها. وسوف نُخضعها للبحث في مرحلة تالية.

التوقيع: ف. ف. نورفولك

مضبطة الرصد والمراقبة بداية من 9 مايو 1942

نتائج البحث الجديدة

من خلال متابعة الحياة اليومية للأشخاص المرصودين توصلنا إلى ما يلي: أفعال تلك الشخصيات تخضع لأحكام العقيدة الكاثوليكية. ففي الصباح والمساء يؤدين الصلوات، ويسبحن بحمد الرب قبل تناول الطعام، كما يترددن على الكنيسة لأداء صلاة قداس الأحد في

ستاري هروزينكوف... إلخ.

وبخلاف الممارسات الدينية الاعتيادية، يغلب على سلوكهن اتباع العادات وثيقة الصلة بمبادئ العقيدة الكاثوليكية. ومن خلال الملاحظة نستثني شيئين اثنين استطعنا فهمهما من خلال التحليل العميق ويمكن اعتبارهما من بقايا العادات الوثنية.

الواقعة الأولى: يمكننا اعتبار السمة الأبرز التي تميز مسار الحياة الأسبوعية الاعتيادية للشخصيات المرصودة عن نظام حياة المسيحيين العاديين، هي تقديس يوم الخميس باعتباره يومًا لا تمارَس فيه الأعمال المهمة. ففي ذلك اليوم تمتنع الشخصيات المرصودة عن استقبال الزوار، كما تتوقف عن ممارسة الأعمال الشاقة بالحقل والتي يقومون بها في غيره من الأيام باستثناء الأحد. وهو بالإضافة إلى يوم الأحد يُعدُّ من الأيام المباركة، على الرغم من عدم معرفة تلك الشخصيات للسبب عند سؤالهم.

ومن منطلق المعرفة الحالية بالمجتمع الجرماني القديم وثقافته الروحية، نعلم أن أجدادنا القدماء كانوا يقدسون ذلك اليوم باعتباره يومًا مقدسًا بالنسبة لـ دونر - إله الرعد والبرق، ومنه اشتق الاسم دونرستاج. وتؤكد وثيقة جيدو فون أن أسلافنا كانوا يعتبرون الخميس يومًا يتفرغون فيه لتهذيب العقيدة الخاصة، وليس للأعباء الدنيوية. وهنا نرى أن تلك التقاليد ما تزال حية تنبض عند هؤلاء الأشخاص منذ زمن ما قبل المسيحية، من خلال التقديس الفطري لذلك اليوم، وذلك على الرغم من عدم إلمامهم بالمغزى الحقيقي له.

الواقعة الثانية: تَلْفِت إلى استغلال قوى الطبيعة المحيطة وتربط بين عقيدة الشخصيات المرصودة وعقيدة الألمان القدماء. وهؤلاء الأشخاص يعظمون الشجرة المقدسة، وهي في حالتنا شجرة الزيزفون العادية التي ترمز إلى قوة عائلتهم، وتقع بالقرب من البيت الذي يعيشون فيه. أما تعظيمهم لتلك الشجرة فهم يفسرونه من الناحية العملية البحتة، التي تتجلى في كون تلك الشجرة توفر لهم الأعشاب المطلوبة والتي يستخدمونها في إعداد الجرعات العلاجية العشبية. إلا أن الاحترام الشديد لشجرة عائلتهم يحيلنا إلى إدراك القدسية التي كانت تبديها الكاهنات حيال الأشجار المقدسة في تلك المجتمعات القبلية.

ونفس الشيء نجده في الاهتمام بعين الماء التي تنبع قريبًا من دارهم في الغابة باتجاه فيشكوفيتس. ويقال إن عائلة ماهدال كانت تتعهدها بالرعاية منذ القدم؛ وذلك لأن الماء الذي

ينبع منها له فوائد علاجية ويطلق عليه „ماء السعادة" الذي إذا ما أضيفت إليه الأعشاب أصبح له تأثير دوائي فعال. وكما نعلم فإن ينابيع الماء كانت تلعب دورًا لا يمكن الاستغناء عنه في الطقوس الروحية لقدماء الألمان، التي كانت تتجلى في العديد من الطقوس السحرية بما فيها الطقوس العلاجية.

وقد أجابت الساحرة فوكسينا على سؤالي المتعلق بسبب خروج هؤلاء الأشخاص في ليلة الاعتدال الربيعي إلى الغابة متجهين صوب النبع. وأخذت تصف الطقس الجليل الخاص بتعظيم النبع والتخلص من أمراض الشتاء بالاستحمام فيه ليلًا.

ويمكننا أن نردَّ العلاقة الوثيقة التي تربط الأشخاص المرصودة بالطبيعة، إلى بقايا خطاب المعرفة الروحية الجرمانية القديمة التي كانت تركز بالأساس على الإحاطة بأسرار الطبيعة، والتي كانت الكاهنات يحافظن على الطقوس المرتبطة بها ويرعينها.

التوقيع: ف. ف. فولك

مضبطة الرصد والمراقبة بداية من 14 مارس 1943

نتائج البحث الجديدة

معلومات مثيرة عن نذر الحوادث المأسوية أو الموت. تماما كما حدث في حالة المسلات التي اكتُشفت على سبيل المثال في نيدردوليندورف بأراضي نهر الراين أو بالقرب من أرض توخولا البور شمال بروسيا، حيث يُعدُّ الثعبان رمزًا للموت أو الأحداث المأساوية. ويُعرف هنا في البيئة المحلية „بالثعبان الأبيض" الذي يتردد أنه موجود على جدران كل بيت.

ويرمز ظهوره لوفاة أو وقوع حادث لأحد أفراد الأسرة، وهو ما يعني نهايته ومن ثم تدمير عائلته بالكامل.

ولكن كيف عرفوا الثعبان الأبيض؟ هذا ما لم نجد لدى الشخصيات المرصودة إجابة عليه، فهم يقولون إنها مقولة تتردد من قديم الزمان.

التوقيع: ف. ف. فولك

شعرت دورا بجفاف في حلقها. وبدأت تَلُوح أمام عينيها صورة جسد الثعبان المسحوق والرعْب الذي بدا على وجه سورمينا. ثم فضَّلت أن تقلب سريعًا عدة صفحات لتصل إلى محضر آخر كبير الحجم.

ملاحظات على زيارات العملاء

مضبطة الرصد والمراقبة بداية من 15 أغسطس 1943

نتائج البحث الجديدة

الواقعة الأولى: جاءت امرأة (تقريبًا في الأربعين من عمرها) تطلب المساعدة بشأن الخطر الذي يتهددها من قِبَل جارتها، التي ربما لجأت إلى السحر لتؤذيها.

بدأت الطقوس السحرية كالمعتاد بإحضار الماء من النبع وتم صب الشمع السائل فيه، وقد صاحب ذلك حرق الأعشاب العطرية وتلاوة التعاويذ، التي تشبه من حيث الطول والموضوع التعويذة التي تُرجمت بمعرفة مخبرنا، انظر المرفقات التي تحمل تاريخ 11/09/1942. وقد تكشَّفَ صدق ما ذهبت إليه ظنون المرأة أثناء فك شفرة الشمع المذاب من خلال الكوب الخزفي المكسور، والشظايا الموضوعة في الإناء العادي، وكذلك المسامير المثبتة، والإبر وشفرات الموسى المكسورة. فطُلب من المرأة أن تتبول في الإناء وهو الأمر الذي قامت بتنفيذه في فناء البيت، ثم عادت بالإناء وقد أغلقته بإحكام، بعدها غادرت النساء جميعًا المكان متجهات نحو الغابة لدفن الإناء. وبعد عودتهن أعطين المرأة أعشابًا معينة كان عليها أن تتناولها لمدة تسعة أيام. وفي المقابل تقاضت ماهدالكا الأم 10 كرونات.

الواقعة الثانية: جاء رجل (حوالي 45 عامًا) كانت لديه قناعة بأنه وقع عليه ظلم في حصته من ميراث يخصه. وأعرب عن رغبته في موت أخيه الأعزب حتى تئول إليه بقية الميراث. وعرض عليهن مبلغًا كبيرًا وصل إلى 200 كرون، على أن يحدث ذلك بدون أدنى مشاركة منه فيه. ثم حدث ما كان يحدث دائمًا من إذابة الشمع وكشف المستقبل من خلال الشمع المذاب، حيث قيل للرجل إنه يمكن إنجاز العمل المطلوب فقط عن طريق تناول جرعة معينة من الأعشاب يمكن أن تقوم الشخصيات المرصودة بتحضيرها، لكن لابد أن يقوم هو بنفسه بإعطائه إياها يومي الأحد القادم والذي يليه. تردد الرجل وأخذ يردد أنه لا يرغب في أن تكون

له أية صلة بالموضوع. تدخلت ماهدالكا الأم في المراسم، التي كانت حتى تلك اللحظة تتولاها الساحرة فوكسينا، لتعرض على الرجل إما الانصياع لما طُلب منه أو مغادرة المكان على الفور. وبعد تدخلها في الأمر وافق الرجل، فوعدوه بإعداد مزيج من الأعشاب يمكنه أن يأتي ليأخذه يوم الجمعة، ليعطى أخاه منه يومي الأحد القادم والذي يليه. ونصحته ماهدالكا أن يدعوه على الغداء مرتين متتاليتين بهدف إصلاح ذات البين، وأن يقوم بدس المزيج في طعام أخيه. وافق الرجل على مضض، وقام بدفع 100 كرون على أن يدفع ما تبقى من المبلغ المتفق عليه عند استلام التركيبة.

وكانت الإجابة على سؤالي الخاص بمكونات ذلك المزيج أنه لا يهم؛ لأن الرجل لن يعود في كل الأحوال. ولم يرجع بالفعل حتى تاريخ كتابة هذا التقرير.

التوقيع: ف. ف. فولك

أخذت دورا تقفز بشغف فوق السطور حتى بدأت تؤلمها عيناها الجافتان المتعبتان. وقد وجدت في تلك الأحداث حكايات متشابهة. وفي غالبية الأحيان كان زوار عائلة ماهدال يأتون سعيًا وراء أعمال مخالفة للقانون، وقليلًا ما كان يأتيهن شخص يرغب في العلاج أو في قراءة المستقبل. وقد زَخَرَتْ الحالات التي تناولتها دراسة نورفولك بالمطالب المتعلقة بإيذاء الأقارب، والجيران، والمنافسين أو المنافسات في الغرام، كما تضمنت طلبات تتعلق بنهب ثروات الغير، وهلم جرًا.

ومن بين هؤلاء استرعت انتباه دورا حالة خالية من الأذى، ولم يكن ذلك فقط لكون الزائر رجلًا كانت تعرفه من أهل هروزينكوف. كان الأمر يتعلق بثروة العائلة التي دفنها صاحبها في مكان ما بالغابة في زمن ساد فيه الخطر. ولم يكن يُتوقع موته، لكن لسوء الحظ اصطدم بحصان تسبب في كسر جمجمته، وتوفي ذلك المسكين حتى قبل أن يجهزه القسيس لاستقبال الآخرة، ولم يمهله الموت حتى يتمكن من إخبارهم بالمكان الذي أخفى فيه ثروة العائلة.

جاء الرجل إلى ماهدالكا طالبًا مساعدتها في البحث عن مكان الثروة المدفونة. ولا نستطيع أن نسمي ما جرى في هذه الحالة سوى أنه كان استحضارًا لروح المتوفى. وطبقًا

لما هو مدون بالمحضر لم يحدث ذلك في بلدة بوتوتشنا، بل في مقابر هروزينكوف، حيث كان على الرجل الحضور قبل منتصف الليل ومعه شيء من أثر المتوفى. وظهر واضحًا أن الرجل كان يتحلى بالجرأة الشديدة وجاء بالفعل، وهو ما أكده نورفولك بالمحضر. فالتقى عند القبر أربعة أشخاص، وصنعوا دائرة سحرية تشابكت فيها أيديهم، وهو المشهد الذي أطلق عليه كاتب المحضر اللقاء السحري.

ووصف المشهد بأنه عملية تحضيرية طويلة أكدت على نجاحها أسراب الذباب المضيء التي بدأت تحلق فجأة حول قبر المتوفى. وفي النهاية تم استدعاء الرجل ليقوم بتفسير كلمات السر التي بدأت تخرج من فم ماهدالكا الأم في سيل متدفق من الكلمات صعبة الفهم كما لو كانت تتحدث وهي في غيبوبة. فصار هناك وسط يمكن من خلاله الاتصال بالعالم السفلي، أي مع المتوفى الذي قام بدوره بتحديد مكان بمنحدر جبل كيكولا، وهو المكان الذي يتوجب على الرجل البحث فيه. وهكذا انتهى اللقاء ووعد الرجل المذعور بإعطائهن ثلث الثروة على سبيل المكافأة في حال عثوره عليها.

ولم يتضمن المحضر أية إشارة إلى ما إذا كان المكان قد تم تحديده بدقة، أو أن الرجل قد عاد ليدفع ما وعد به. وقد وعد المحضر بدراسة أكثر شمولًا، ما جعل دورا تبحث في بقية محتويات الملف، إلا أنها لم تجد لها أثرًا. كان كل ما تبقى بالملف مجرد حالات تلا بعضها بعضًا.

تعجبت دورا. فبغض النظر عن حديث باجلاركا وإيرما الذي ربما يكون مجرد أقاويل مبالغ فيها، لم تجد أدلة على وجود طقوس ضارة سوى في حالة ماجداليا ميكفا. كان ذلك هو الدليل المادي الوحيد على ممارسة سيدات عائلة ماهدال للسحر الأسود. وهي على أية حال تبقى حالة فريدة. إلا أنه الآن يوجد أمامها ملف كامل مليء بحالات مشابهة، لكن ما يسترعي الانتباه أكثر هو أنها كثيرًا ما كانت تصيب هدفها بحسب تقيم كاتب المحضر.

أخذت دورا نفسًا عميقًا.

ها هي مرة أخرى، وهو الأمر الذي تكرر عدة مرات خلال العام الأخير، ترى الساحرات في عالمهن الصغير بـ كوبانيتسه من زاوية رؤية مختلفة. لم تعد دورا ترى فيهمن

ما كانت تعتقده في طفولتها من حيث كونهن نساء خيِّرات يقدمن يد العون لكل من يطرق أبوابهن. كانت تلك بقايا مبعثرة من حياتها الشخصية، وفي ثناياها كانت توجد شخصيات خطيرة لم تكن تتورع عن إلحاق الأذى بأناس لا تعرفهم مقابل المال. وعلى الرغم من أن ما كان يجري على أيديهن لم يتعدَّ كونه مجرد كوميديا سحرية جامحة، لم تكن تحرك ضمائرهن؛ لأنهن كن يعتقدن أنها غير ذات فاعلية، أو أن قدراتهن الخاصة، التي يعرفنها جيدًا تتخطى الواقع الاعتيادي لكونها وُهبت القدرة على الشر، وكان استعدادها للإيذاء مثيرًا للذعر.

أخذت تقلب وهي مثقلة الفكر صفحات بقية المحاضر الموجودة بملف عائلة ماهدال. يرجع المحضر الأخير كما هو الحال في ملف سورمينا إلى أواخر فبراير من عام أربعة وأربعين، أي إلى الفترة التي أُلغي فيها التفويض الممنوح من قِبَل الوحدات الخاصة. وهكذا أغلقت قصة نساء عائلة ماهدال أمام عيني دورا، وبقي لديها فضلًا عن الشعور بالضيق، بعض من خيبة الأمل. فلم تعثر على شيء مما كانت تتوقع أن تجد فيه الإجابة المنتظرة على السؤال: لماذا وكيف تقاطع مصير سيدات عائلة ماهدال مع سورمينا؟

بقي أقل من نصف الساعة على الثالثة، وهو الموعد الذي سيحضرون لها فيه من المخزن الوثائق الخاصة بالباحثين الألمان. فأشارت بيدها لموظف الأرشيف كي تلفت نظره إلى أنه يمكنه استعادة الصناديق الموجودة على طاولتها مرة أخرى، ثم غادرت غرفة القراءة عبر الممر الضيق الذي يخترق الطاولات.

باحثون بتفويض خاص:

عندما عادت إلى غرفة القراءة وجدت على طاولتها صندوقًا به ملفات تخص جميع أعضاء الفريق البحثي الخاص بالساحرات، التابع للوحدات الخاصة. بدأت دورا تبحث فيه بلهفة عن ضالتها، ثم أخرجت منه ملفًا يحمل عنوان 6. ج: باحثو فريق الساحرات – فريق ف. ف. نورفولك. كان الملف مليئًا بمراسلات نورفولك.

****

كيف حالك؟ إلى أين وصلت في بحثك؟ ما هي النتائج الجديدة؟ وكي أكون أمينًا معك فإن النتائج الجديدة هي الآن جُلُّ ما نحتاج إليه. الأجواء هنا ليست على ما يرام. ولديَّ شعور بأن الضغوط تتزايد على قائد الوحدات الخاصة لتضييق نشاط معهد أهنين إيرب للأبحاث التاريخية، ولا يخفَى عليك أننا على رأس القائمة. فقد مرت سبع سنوات لم نحصل فيها على أية مخرجات تتصل بالموضوع، أو أية دراسات مكتملة، لا يوجد مجلد من ثلاثة أجزاء يتناول موضوع الساحرات. ليتك سمعت صوته البارد وهو يهاتفني، كادت السماعة تتجمد في يدي. نحمد الله على أن ابن عمه هو أحد أعضاء الفريق، وأخشى أنه لو لم يكن معنا، لما بقينا هنا حتى الآن.

لا يكاد يمر يوم دون أن أفكر في أنهم لو كانوا قبلوني للتدريس بالجامعة لمرَّ الأمر ولاسترحت من تلك المهمة، إنهم العواجيز المتعالون، القامات الأكاديمية الخرقاء، كل ما يهمهم هو الابتعاد عن السياسة للحفاظ على سمعتهم!

أما تصوري عما يمكن عمله، فأنا أرى أنه لا مفر من إنجاز ذلك المجلد ثلاثي الأجزاء. والآن أنا في انتظار تقارير الآخرين للتعرف على ما توصلوا إليه في ابحاثهم. ويبدو لي أن ميركل هو الوحيد الجاهز حاليًّا، وربما أنت كذلك؟ آمل ألَّا تكون قد فضلت كتابة رواية جديدة على إنهاء الدراسات البحثية، فهذا هو آخر ما نحتاج إليه الآن! وقد انتهيت شخصيًّا من الجزء الأول الخاص بتآمر الكنيسة على السيدات الجرمانيات، ولك أن تتخيل كم المشكلات غير المتوقعة التي أواجهها في هذا الأمر بسبب الأعداد، حيث يوجد بين يدي الآن إحصاءات من بافورسكو، وسارسكو، وبرانيبورسكو، ولم أجد في الأعوام من 1790–1200 سوى ألفي حالة من الذين تم إعدامهم! سيصيبني الجنون إذا لم يرتفع ذلك العدد، وسيُجنُّ أكثر قائد الوحدات الخاصة، وأنت تعرف أنهم ينتظرون الكثير من هذه الدراسة. يبدو أن مصير جدته التي أحرقوها ما زال يقض مضجعه.

ولعلمك، لابد لي بخلاف ذلك أن أقوم بإعداد بعض المواد لتقديمها لوزير الدعاية كأساس تستند عليه الحملة الدعائية للنساء النازيات، وسيكون لـ ليبينبورن دور فيها، فهناك حاجة للمزيد من المحاربين، فالحرب لا تنتظر، وفي إطار تلك الحرب لابد من حشد قوى المرأة الجرمانية، الأم، الوالدة، العاملة. فتحرير المرأة الألمانية ومساهمتها الكبرى في الحرب هي

العامل الوحيد الذي يمكنه أن يضخ الحياة في معهد أهنين إيرب، لكن عليك أن تعلم يا صديقي أنهم بدءوا الصيد في جميع أنواع المياه حتى الضحلة منها. وهذا يعني بالنسبة لنا ضرورة تقديم الدراسة، ولست مضطرًا للقول بأننا كلما أسرعنا في ذلك، كان أفضل.

لذلك حاول أن ترسل لى المادة الأساسية المتعلقة بقضية مكانة المرأة في بنية المجتمع القَبَلي الجرماني القديم، وأرفق بها كذلك الدراسة الخاصة بنموذج النظام المجتمعي في كوبانيتسه، ولا تنسَ الرسومات والصور الضوئية للمستندات، فأنت تعرف شغفهم جميعًا هنا بهذه الأشياء (حاول الحصول على صور لـ فوكسينا وهي تمارس التنجيم، أعتقد أن ذلك سيكون له صدى طيب).

أرجوك، اعمل على إنجاز هذا الأمر بأقصى سرعة ممكنة وأرسل لى هذه الأشياء بسرعة.

تحياتي.

رودولف

برلين في 15 يونيو 1942

****

فرديناند

أشكرك على الدراسة التي أرسلتها، لكني بصراحة كنت أطمع في أكثر من ذلك، وأعني بذلك حجم الدراسة. فهذه اللمحة الموجزة من البيانات كما ذكرت أنت نفسك لا يمكن أن تكون هي كل نتاج دراسة استمرت لمدة سبع سنوات. وقد قمت بتسليمها لقائد القوات الخاصة باعتبارها ملخصًا لدراسة موسعة ستقوم بإرسالها بأسرع ما يمكن. آمل أن تتصرف بناء على هذا النحو.

وبخلاف ذلك أنا موافق بطبيعة الحال على الاستنتاجات التي توصلتَ إليها فيما يخص الثلاثية. وتعجبني النماذج المختارة لاضطهاد الكنيسة الذي انصب على السيدات المقيمات على أراضي المحمية، وأرى أكثرها تأثيرًا ذلك الجدول المُعد بدقة والذي يعطي صورة موجزة عن مئات العصور، والذي يستعرض بطريقة أكثر من جميلة تصاعد وتيرة العنف المستخدم من قِبَل الكنيسة، وكيف كانت تمارس ذلك دون ضجة! كم أشعر بالفخر لأنه بدون إجراء

البحث الذي قمنا به لظلت تلك المؤامرة مطمورة خلف أحداث تاريخية جذابة!

وجاء رد قائد الوحدات الخاصة بأنه سيمرر ملخص الدراسة إلى السيد جويبيلس، وقد أرفقت بالدراسة الأعداد النهائية للنسوة اللاتي تم إعدامهن من مختلف أنحاء الإمبراطورية. ولا أكتمك سرًّا أني كنت أشعر بالحرج لأنها لا تلبي معشار ما يطمح إليه قائد الوحدات الخاصة. وقد بات واضحًا أنه من المستحيل أن نحصي تلك الملايين التسعة.

فالأعداد التي تقدم بها كل من سيكس، وميركل، وبييرمان، واكشتاين كلها متدنية بشكل شنيع ومريع! يمكننا تأجيل ذلك قليلًا لأن عددًا من دور المحفوظات لا تتعاون معنا أو لا يوجد مجال للتعاون بيننا... لكن في تلك الحالة سيكون علينا أن نجتمع في المركز الرئيسي، على أن يكون ذلك في أقرب وقت كي نفكر معًا في كيفية الخروج من المأزق في حالة عدم القدرة على التوصل إلى أعداد مُرضية لقائد الوحدات الخاصة.

ملحوظة: ما زلت في انتظار وصول دراستك الخاصة ببنية المجتمع القبلي الجرماني القديم!

المجد لهتلر!

رودولف

برلين في 24 نوفمبر 1942

****

فرديناند

اسمع، لقد آن الأوان! ولا ينبغي أن نفوّت الفرصة! هل يمكن إحضار فوكسينا إلى برلين؟ فأنا محتاج لتقديمها لقائد الوحدات الخاصة بأي طريقة. هل سمعت عن موضوع „خمسة في فانزى"؟ أعتقد أنك لم تسمع به؛ لأن تلك التجربة متاحة فقط لحفنة من القيادات الرفيعة بمكتب الأمن العام للإمبراطورية. بإيجاز أقول إن: قائد الوحدات الخاصة قد أمر بأن يُحضروا إلى مبنى الحكومة اثنين من العرافين، وكاشفي الغيب، والمنجمين، وخبراء تحليل الخطوط الذين انتهى بهم الحال جميعًا بعد فرار هيس في معسكرات العمل لأنهم لم يتنبئوا بما فعل. وقد أخبرني بذلك أمس هاسيلهون بطبيعة الحال في سرية تامة وهو الذي اختارهم بنفسه

وهو المسئول عنهم الآن. وعلى الرغم من أني لم أرَهم، إلا أنه بحسب ما ذكر لي أن غالبيتهم لا يستطيعون أن يأتوا بنصف ما يمكن أن تقوم به الساحرات. فهؤلاء هم مجرد مهرجين استعراضيين، ممثلين كوميديين يحملون كرة من الكريستال، وسيدة تكشف الغيب عبر قراءة الفنجان، واثنين من أشباه العلماء. وجميعهم يُعتبرون درجة ثالثة مقارنة بما هو موجود بين أيدينا!

والآن اسمعني جيدًا: مهمتهم هي التنبؤ بالمستقبل وإصدار التقارير قبل الشروع في عمل أي فعل لتقدم لقيادات الإمبراطورية أو للقائد العام. فترى أحدهم دائمًا يتحدث كما لو في غيبوبة، والثاني يحملق في كرة، أما المرأة فتهذي بحكايات كاذبة عبر بقايا القهوة التي ترسبت في قاع فنجان، وآخر دوره معرفة ما تقوله الأبراج، وهكذا... إلخ. وتسعى كل تلك التفاهات يوميًّا لتجد طريقها إلى المركز الرئيسي وتؤثر على قرارات القيادة العسكرية! حتى أرتعد من شدة الخوف عندما أفكر في العواقب التي يمكن أن تترتب على ذلك.. على الرغم من أنك تعلم أننا لو استطعنا إدخال فوكسينا في هذه المنظومة بكل ما تمتلك من إمكانات وجمال؟ وفضلًا عن ذلك يوجد بممارسات نساء عائلة ماهدال شيء ما يشبه أداء الكبار، ألا توافقني الرأي؟ أتعرف ما يمكن أن يعنيه هذا بالنسبة لقائد الوحدات الخاصة؟ أتعي ما أقول؟

جهز نفسك، واستعد للفرصة الكبرى التي تلوح أمامنا.

وفي تلك الأثناء سأقنع هاسيلهون كي يدمجها مع مجموعة فانزى.

لا ينبغي أن نضيع تلك الفرصة من بين أيدينا يا فرديناند!

المجد لهتلر!

رودولف

برلين في 8 يوليو 1943

****

رودولف

آسف، لم تقبل أي منهن أن تسمع أي كلام في هذا الموضوع. ولديهن خوف شديد من

مغادرة بوتوتشنا، بل إنهن يعتبرن ذلك مماثلًا لمغادرة اليهود لـ هروزينكوف. كما أن أصداء غياب ابن ماهدالكا الذي اقتيد للخدمة العسكرية ما زالت تخيم بظلالها على عقولهن. لم أتمكن من إقناعهن بالحسنى أو حتى بالوعيد. وفضلًا عن ذلك يؤكدن أن قوتهن مرتبطة بالمكان هنا في تلال الكاربات الأبيض التي تسري فيها موجات مغناطيسية. هذا ما أكدته لي النساء الثلاث ومن بينهن اثنان غير متعلمتين، أتفهم ما أعنيه؟ حاول أن ترسل لي شخصًا يستطيع أن يدرس البيئة المحلية، خبيرًا متخصصًا في الجيولوجيا والطبيعة، فهذا الأمر يهمني بشكل خاص.

ما رأيك؟

كنت حذرًا في استخدام القوة كما تعرف.

فرديناند

ستاري هروزينكوف 19 أغسطس 1943

****

فرديناند

أغضبتني رسالتك كثيرًا. سيصلك الكثير من المال وستُمنح المزيد من الوقت كي تستطيع التوصل إلى نتائج أفضل، وبخاصة أنك مغموس في العمل الميداني إلى درجة تمكِّنك من استغلاله بعيدًا عن حدود واجباتك الوظيفية! لذلك لا أستطيع أن أتفهم ردك على رسالتي. كان يجدر بك في تلك اللحظة أن تتمكن من لف عائلة ماهدال جميعًا حول إصبعك. عليك أن تفهم: أننا نحن من يضع الشروط، وليسوا هم!

في البداية كنت أتصور أني لن أنشغل أبدًا بما يريدون وما لا يريدون، وأنك ستستطيع أن تتصرف وحدك وبكل بساطة. وأنه عليك أنت اختيار الطريقة التي تراها مناسبة. لكني أرى الوضع الآن بدأ يتغير.

كنت في مقابلة خاصة مع قائد الوحدات الخاصة. كل شيء سار كما هو معتاد: وهو غير راضٍ بالمرة عن عملنا، أتفهم ذلك، غير راضٍ بالمرة! حتى إنه أشار إلى أننا إذا لم نتقدم بالدراسة الثلاثية فورًا فسيتم إيقاف مشروع الساحرات مع نهاية العام.

والشيء الذي استطعت أن أرفع به معنويات القائد هو التقرير الموسع الخاص بالدراسة التي أجريت في ستاري هروزينكوف. وقد غيَّر رد فعله على ذلك رغبتي الأصلية بأن نأتي بهم إلى هنا بأي ثمن. ربما يمكن الآن أن يتم الأمر بشكل مختلف. فهو يرغب في رؤيتهن، فاهم؟ الآن وعلى الفور! وقد نقلت إليه مخاوفك من انتزاع تلك النسوة من البيئة التي يعملن بها، ولدهشتي فقد أبدى اقتناعه بصحة ما ذهبتَ إليه، بل إنه قال شيئًا من قبيل أن الظواهر فوق الطبيعية تحدث فقط في أماكن محددة حيث تتراكم بداخلها طاقة خاصة. وهو لا يرى أية مشكلة في أن يتوقف في ستاري هروزينكوف في طريق رحلة العمل المزمع أن يقوم بها إلى براتيسلافا بعد عدة أسابيع، وربما يكون أقرب موعد لها في 9/10. وسوف أصحبه في هذه الرحلة، أي أننا سنلتقي. وسوف أتواصل مع حرس الحدود إن جد جديد.

أرسل لك خطابي هذا على عجل وأتمنى أن يصلك في وقت مناسب حتى تتمكن من تحضير ما يلزم للزيارة. اسمع، ليس هناك من داعٍ كي تتحدث كثيرًا مع أولئك النسوة في هذا الشأن. أريد أن يقمن بعمل ما اعتدن القيام به، ولا أرغب في أن أرى هناك أية امرأة مذعورة لا تستطيع أن تفتح فاها، واضح؟ افعل كل ما في وسعك في هذا الشأن. الموضوع كله الآن متوقف على الأثر الذي سيتركنه في نفس قائد الوحدات الخاصة.

المجد لهتلر!

رودولف

برلين في 12 سبتمبر 1943

****

فرديناند

ممتاز! نجح الأمر! وكان عظيم الأثر. لم ينطق القائد بكلمة واحدة حتى مساء اليوم التالي، حينما أمر باستدعائي ليقول لي إن الزيارة تركت في نفسه أثرًا بالغًا لدرجة أنه طلب عمل دراسة على تلك العائلة في إطار برنامج بحثي خاص. وأشار إلى أننا ينبغي أن نتقدم بنتائج الهدف البحثي „أ" في أسرع وقت ممكن، وأوصى بأن نجعل بحث الطقوس الجرمانية القديمة وتلك الساحرات الهدف „ب".

وعندما هممت بالرحيل، أسَرَّ إليَّ مرة أخرى بأهمية الكشف الذي نعمل عليه وباهتمامه الذي

سوف يستمر بهؤلاء النسوة. لقد نجحنا بالفعل! انتهى التهديد بإنهاء نشاط وحدة الساحرات، على الأقل لبعض الوقت. لكن يبقى أن موعد تسليم الدراسات ما زال ساريًا.

المجد لهتلر!

رودولف

برلين في 15 أكتوبر 1943

****

وإلى هنا انتهى فجأة الجزء الخاص بالمراسلات في ملف نورفولك تمامًا كما بدأ. توقف كبقية أجزاء البحث بتوقف التفويض الممنوح لصاحبه. وآخر شيء تبقى في الملف كانت قصاصة من تلغراف طُبعت عليها حروف النص التالي:

تلغراف

1 المرسل إليه: ف. ف. نورفولك، معهد أهنين إيرب، 102 فيلهلم شتراس، برلين، الإمبراطورية الألمانية

2 المرسل: ماريا باجاتشوفا، ستاري هروزينكوف، محمية بوهيما وموارفيا

النص: رُزقنا بنتًا، وهي جميلة ولديها وحمة على جبينها مثلك تمامًا. احضر لأنها سوف تُعَمَّد يوم 24/9/1944. فوكسينا.

كان واضحًا أن تلغراف فوكسينا لم يحرك فيه ساكنًا؛ لأنه لم يأتِ. لم يكن ليأتي حتى لو كان ذلك ممكنًا. فقد ظهر جليًّا من خلال مذكراته الشخصية، وملحوظات الهامش بالمحاضر، وعباراته في الدراسات والتقارير الدورية، أنه لم يكن يريد العودة. انتهى البحث وانتهت معه علاقته بـ فوكسينا. فقد كانت بالنسبة له على ما يبدو مجرد مادة للبحث. أما ميلاد طفل كثمرة لهذه العلاقة فقد كان حدثًا عارضًا. كما أن نورفولك بخلاف ذلك وطبقًا لبطاقته الشخصية كان متزوجًا.

واسمه الحقيقي ليس نورفولك ولكن فرديناند سوكوب، مواليد فريفالدوف، ألماني تشيكي، فائز بجائزة مورافيا في الأدب لعام 1924، وقد اتخذ بعد النجاح الكبير الذي حققه من فريدريخ فرديناند نورفولك اسمًا مستعارًا له، وقرر أن يغزو أوروبا بقصصه التي تتناول الأحداث الدامية التي وقعت لساحرات فريفالدوف وفيلكي لوسيني. وساعدته في ذلك بالطبع إيفيلين الجميلة من خلال علاقات والدها د. هيبشه أستاذ الأدب من مدينة ليبزيج التي ذهب إليها نورفولك للدراسة وانتهى به المطاف إلى الاستقرار بها نهائيًّا. وهناك أيضًا (طبقًا لبقية البيانات المدونة ببطاقته) التقى في عام 1935 د. ليفين الذي دعاه للاشتراك في البحث، الذي أوعز إليه قائد الوحدات الخاصة التابعة للإمبراطورية الألمانية ببدء العمل فيه بتفويض خاص.

كادت دورا تحس شخصيًّا بالسعادة التي شعر بها نورفولك عندما تحولت أحلامه إلى حقيقة.

فقد انتقل من مدينته الجبلية الصغيرة فريفالدوف، التي تغير اسمها بعد ذلك ليصبح يسينيك، وصار واحدًا من العائلة المقيمة بـ ليبزيج، وهناك التحق بالجامعة، وبدأت الصحف تنشر قصصه المرعبة، ثم صار في النهاية عضوًا بالفريق البحثي الخاص بالساحرات، التابع للوحدات الخاصة التي من خلالها كان يتقاضى مباشرة راتبه من مكتب الأمن العام للإمبراطورية، وذلك لقاء تفرغه لقراءة الروايات التاريخية التي تتناول محاكمات الساحرات والكتابة عنها. وكان في كل الأحوال سيفعل ذلك حتى

لو لم يحصل في المقابل على أجر.

لكنه أخذ الأجر. ودعنا نقول إنه فضلًا عن راتبه من الجامعة كان يتقاضى كذلك نظير عمله بالوحدة الخاصة بالساحرات فقط بضع عشرات من الماركات الألمانية شهريًّا، وذلك بعد خصم السفريات ومصروفات المعيشة والطعام، لكنه عندما تعرف هو وليفين على المدعو بلانك تغير الأمر برُمَّته.

ويبدو من الرسائل المتبادلة أنها كانت فكرة ليفين. وكان أحد أقربائه من زاكاسيهاوزن يعمل حارسًا للمساجين الخطرين، المساجين الاستثنائيين، الذين كونوا جماعة يطلق عليها „المجددون" أو بتعبير آخر المزورون والمقلدون على شكل ولون. وقد تمكن هؤلاء بفضل ظروف معينة إضافة إلى ورش الرسم عالية التجهيز من عمل لوحات جيدة تصور مشاهد من لوحات قوطية الطراز وصولًا إلى الواقعية في القرن التاسع عشر، نسخ أصلية من مخطوطات تعود إلى العصر الوسيط، وأوراق مالية من العشرينيات، أو رسومات بداية من دورر وانتهاءً بـ داومير. وما عساه يمنعهم من عمل بضع نسخ تعيسة من كتب للدم، واستغلال عدد من دور المحفوظات بالتفاهم الودي بفضل علاقتهم بمدير الأرشيف الإمبراطوري، وبعض القرارات المدنية والكنسية، وبعض أحكام محاكم التفتيش. وقد أفلحوا في ذلك بالفعل. وأخذ كل من رودولف ليفين، وقريبه كارل، ونورفولك، وآخر من أفراد الوحدات الخاصة يُدعى موروفسكي في المقابل يتقاسمون فيما بينهم مبالغ طائلة كانوا يتقاضونها من مكتب الأمن العام بالإمبراطورية – القسم السابع، وفي العديد من المرات من قائد الوحدات الخاصة شخصيًّا الذي كان يطمح في أن يضم إلى مجموعته الخاصة دور محفوظات رفيعة الشأن. ثم إن المذكرات الخاصة بدور المحفوظات المنهوبة، التي تكدست في صندوق يحوي أيضًا دفاتر حسابات الفريق البحثي، والتي لم يتم الرد عليها مطلقًا، تَشِي بوضوح شديد بتجارة أخرى في الوثائق المحفوظة. وكانت تلك الفترة تسمح بالكثير من تلك الممارسات. وينطبق هذا بالأساس على نورفولك.

فقد كان يجيد التشيكية، كما أنه حصل على إذن خاص بالانتقال أولًا إلى دور المحفوظات والوثائق بدولة سلوفاكيا، ثم إلى المناطق القريبة من مسقط رأسه بالمحميات، وإلى دور محفوظات خيب، وليبريتس، ثم إلى أوبافا، وفي نهاية المطاف

إلى فريفالدوف، وهي المناطق التي يعرفها جيدًا، حيث إن الأراضي التشيكية كانت منذ القدم جزءًا من البيئة الألمانية؛ لذلك كان من الضروري التحقق من عدد النساء – سواء الجرمانيات أو غير الجرمانيات– اللاتي أُريقت دماؤهن في المحاكمات التي تمت بحق المتهمات بممارسة السحر واللواتي انتحلن صفة كاهنات في ممارسة الطقوس الوثنية. كما كان هو من اكتشف وجود تلك النسوة الغريبة اللاتي كان يطلق عليهن الساحرات، وذلك بعد أن لفتت نظره إليهن السلطات السلوفاكية. عندها أدرك على الفور أنه توصل إلى كشف علمي.

رودولف

لن تصدق! انْسَ كل تلك الأوراق العفنة الموجودة بالأرشيفات، وانسَ تلك الأتربة التي يصل وزنها إلى عده كيلوجرامات فوق المخطوطات التي لا حصر لها. لقد توصلت إلى شيء لن تصدقه. إنهن موجودات! أتعي قولي؟ ما زلن على قيد الحياة! إنهن يعشن، كاهنات، ساحرات، ما زالت تجري في عروقهن الدماء، منكمشات فوق قمم الكاربات الأبيض، ولكنهن ما زلن يمارسن الطقوس الجرمانية القديمة! أَخْبِر قائد الوحدات الخاصة بأني عثرت على دليل حي على وجود أولئك اللواتي كنا نظن أنه لم يعد لهن وجود على أرض الواقع. أبلغه بذلك على وجه السرعة، وسوف أذهب أنا إلى بويكوفيتسه حيث يحتفظون في الأرشيف لديهم بكتب الدم، ومن بعدها سأنتقل إلى ستاري هروزينكوف. وسوف أنتظر مجيئك هناك حتى نهاية الشهر.

فرديناند

وقد أرسل ذلك الخطاب وهو في طريقة إلى كوبانيتسه.

وهكذا بدأت الأمور. ومنذ لقائهما الأول في هروزينكوف حدث أن أقاما معًا هناك عدة مرات. فالتقارير والرسومات والصور الفوتوغرافية التي وجدتْها دورا في نتائج عملهم، التي كان يتم إرسالها إلى المركز الرئيسي بمعهد أهنين إيرب في بداية الأربعينيات، تشهد بأنهما بدءا في دراسة المصدر العجيب بكل همَّة ونشاط. وكانا كذلك مدفوعَيْن بدافع آخر يحثهما على العمل بشكل أكبر بكثير من مجرد إرضاء قائد

الوحدات الخاصة. فقد كان ليفين يسعى للعمل بالتدريس بالجامعة، أما بالنسبة لـ نورفولك فقد أصبحت الساحرات يمثلن مصدر إلهام أساسيًا. وقد بدأ يؤتي ثماره بشكل سريع، ويدل على ذلك التقدير الذي راح يحصده تدريجيًا. ففي نهاية عام 1942 حصل على جائزة الشعر من مركز المعارض الإمبراطوري بـ ليبزيج عن ملحمته التي تحكي قصة الكاهنات الجرمانيات اللاتي كانت تغرب من فوق رءوسهن شمس جبال الثلج. وقد تأثرت بهذه القصص مشاعر الأمة، وأصبح نورفولك هو أديبهم البطل. وفي حين كانت إيفيلين في حفل التكريم الرسمي تنتشي فخرًا وهي مثقلة بحملها الثالث، كانت فوكسينا تنتظر. وبعدها صارت تلهث عندما أثقلها الحمل هي الأخرى، لكن نورفولك لم يرَ ذلك. وفي عام أربعة وأربعين استُبعدَ من البحث مثله مثل بقية أعضاء الفريق البحثي، وذلك بعد أن نفد صبر قائد القوات الخاصة، كما نفد الوقت اللازم للقيام بعمل الدعاية الخاصة بالساحرات. فقد ظهرت فجأة على جدول الأعمال أحداث جسام أهمُّ من رد اعتبار جدته مارجريت هيمبليروفا التي أحرقوها، وكذلك من حشد وتنشيط سيدات ألمانيا. ربما يكون السبب هو اقتراب الجبهة الشرقية التي قامت في النهاية بقلب خزائن حفظ الملفات الخاصة بالساحرات رأسًا على عقب، وكانت لحسن الحظ قد أُفرغت من محتوياتها في الوقت المناسب.

وكان أرشيف الساحرات وقائمة المراجع التي قام الفريق البحثي الخاص بالساحرات التابع للوحدات الخاصة بجمعها، مخبأة بمكان سري، كما تفرق أعضاء الفريق البحثي في مختلف أنحاء الإمبراطورية. لكنهم لم يختبئوا، حتى إنهم كانوا يتبادلون الرسائل الخاصة على عناوين محل إقامتهم: هل أخفيتم قائمة المراجع؟ وأين هي؟ هكذا كتب موزوفسكي المغتاظ بعد أن حرمه ليفين بالاشتراك مع نورفولك من حصيلة صفقة تالية خاصة بالاتجار بكتب دور المحفوظات. وبالطبع لم يتلقَّ الرد.

هل ما زالت القائمة موجودة في نفس المكان؟ برجاء تأكيد المعلومة. هكذا جاء في خطاب نورفولك إلى ليفين. ورد عليه بعد ذلك ليفين قائلًا: سوف ينقلونني بالسيارة إلى نوريمبيرج، وقد أخبروني بأننا سنلتقي هناك.

وبالفعل التقيا هناك. ولدهشتهما فقد تم توجيه الإتهام إليهما وإدانتهما. وضمت القضية كذلك ألفريد روسينبرج، وهو مُفكر الحزب النازي وواضع النظريات النازية

بما فيها تلك الخاصة بالتآمر ضد النساء الجرمانيات. وقد وُجهت إليهم التهم بصفتهم أعضاء في الوحدات الخاصة مقابل الجرائم التي ارتكبوها ضد السلم العام ولترويجهم أفكارًا فاشية، وبصفتهم علماء لكونهم أساءوا استغلال العلم لصالح الحرب.

وشهِد هيربرت بلانك عضو المجموعة الخاصة بالسجناء الاستثنائيين بـ زاكسينهاوزن، بأن العقوبات التي وُقِّعت على الباحثين المحتالين لم تكن قاسية بأى حال من الأحوال. فقط عدة سنوات كي يقوموا خلالها بإعادة تقييم أهدافهم العلمية التالية. إلا أن السجن لا يعد شيئًا بالنسبة للأكاديميين. وقد توفي ليفين مع نهاية عام 1945 وذلك على إثر حادث أثناء تأديته للعقوبة، ولحق به نورفولك بعد ثلاثة أعوام من شدة الإرهاق.

أخذت دورا تقلب بين أصابعها صورته المرفقة بالتفويض الذي بدأ بمقتضاه العمل بالبحث. وكان يطل منها بابتسامة هادئة كرجل وسيم تغطي قبعته العسكرية شعره الفاتح، وبدا لها أنها ربما تعرفه. وراحت تتساءل: أين رأت من قبل تلك العلامة المميزة على جبهته؟

****

وقبل أن تعود مجددًا إلى التشيك أخذت تتجول في المدينة بلا هدف محدد. كان كل شيء في بوزناني يذكِّرها ببرنو. وذلك من حيث المساحة، والنهر الذي يخرج من وسط المدينة، والمنازل المبنية على الطراز الباروكي والكلاسيكي، التي تتخللها البنايات الزجاجية الحديثة كما هو الحال في جنوب مورافيا، والناس الذين تحمل وجوههم نفس السمات ونفس الكآبة الفطرية.

وبدأت تفكر فيما إذا كانت نساء عائلة ماهدال تعرف مع من كن يتعاونَّ على أنهم أعضاء فريق نورفولك البحثي، وعلى أي درب خطير كن يَسِرْن عندما فتحن له أبواب بيتهن وقررن الوثوق به، وما إذا كانت تلك الكرونات المائة التي كنَّ يحصلن عليها منهم شهريًّا تستحق المجازفة التي تحملنها، عندما خضعن للرقابة اللصيقة من قِبَل فريق البحث النازي. كانت تفكر كذلك في الدور الكبير الذي لعبته في هذا الأمر فوكسينا التي

وقعت في غرام الرجل الوسيم صاحب البدلة العسكرية. وكيف تصرَّفْن عندما سألهن نورفولك عن إمكانية سفر فوكسينا معه إلى برلين؟ هل كن على علم بأنه لم يكن يتحتم عليه أخذ رأيهن، وأنهم كانوا يستطيعون تدبير أمر نقلهن بالقوة لأغراض بحثية إلى برلين؟ هل عرفن أنهم كان يمكنهم أن يقدموهن بسهولة ويسر لقائد الوحدات الخاصة الذي لم يكن مضطرًّا لزيارتهن بنفسه في بيتهن، بل إحضارهن وحبسهن في فانزى ليمارسن التنجيم بالأمر؟ وماذا كان عساه أن يحدث إذا لم تتحقق نبوءتهن مرة، مرتين، أو ثلاثًا؟ ظلت دورا تفكر في ذلك حتى ظهرت فجأة على لوحة الإعلانات المضيئة معلومة عن وصول الحافلة التي ستُقلُّها في طريق العودة.

وبعد قليل كانت تجلس في الباص الذي سلك طريقا ليليًّا مختصرًا إلى هراديتس كرالوفي. وأخذت أضواء بوزناني تتلاشي شيئًا فشيئًا من ورائها، وراحت الحافلة تتمايل بإيقاع منتظم، وذلك بمجرد وصولهم إلى الطريق السريع العريض المنحدر إلى أسفل، إلى الجنوب، إلى بوهيميا.

الجزء الرابع

ابتلعت تلك العلاقة منها الصيف بأكمله، فسلبتها حب الحياة وانتزعت منها احترامها لذاتها. ربما كانت تتمنى ألف مرة ألّا تكون، ألّا تحدث، وكانت قد تصورت آلاف المرات أنها تخلصت منها، أنها كبتتها داخلها، وأنها رحلت إلى غير رجعة. إلا أنها دائمًا تعود لتطفو من جديد بفورة أكبر، فورة تحرق روحها وجسدها.

بدأت تلك العلاقة في الليلة التي ودعت فيها أباها إلى مثواه الأخير. هذه المرة حدث هذا في العراء على السفوح، وكان بمثابة كارثة لكلتيهما على السواء. ماذا لو لمحهما أحد المعزّين وهو في طريق عودته إلى بيته؟ ماذا لو حدث ذلك بالفعل؟ ما زالت معدة دورا تنقبض حتى اليوم كلما خطرت ببالها تلك الفكرة.

كانت تظن حينها أن ما جرى هو مجرد أمر عارض. مجرد موقف تعيس حدث كرد فعل لتناولها الكحول ولما عايشته قبلها من لحظات قاسية، وأنه لن يتكرر مجددًا، وأنها لن تسمح أن يتكرر. ستكبته كما كانت تفعل في فترة إقامتها بدار القاصرات. كانت تتحكم في تلك الرغبة بالإرادة، إضافة إلى اكتفائها بيعقوب وبأبحاثها، وهو ما يملأ عليها حياتها، ويجعلها تشعر بالسعادة. ولم تكن هي ترغب في أكثر من ذلك.

إلا أن هذه الرغبة ظلت دائمًا عالقة بمكان ما داخل نفسها، بمكان ما في أعماق نفسها، في ركن ما، ومنه تطفو على السطح من حين لآخر، في بؤرة شعورها المُرَوَّع. ولهذا فقد صار حدثًا مكررًا. وعندما وجدتا نفسيهما بعد عدة أعوام في نفس الموقف حدث ما كان يحدث مرة أخرى، ثم عاد ليتكرر ويتكرر. ثم لم تعودا من بعدها تُعَوِّلان على المصادفة والمقامرة بإمكانية أن يكتشف أمرهما أحد. كان بيتهم في كوبرفازي دائمًا خاليًا لا يسكنه أحد، وهناك بدأتا تتواعدان.

لم تكن تتوقع قط أن تفعل شيئًا كهذا، بل وفي الحجرة التي نزفت فيها من أمها الدماء. ولكنها كانت تضطجع هناك عارية، تمامًا كما كانت تفعل في أماكن أخرى، وكان كل تركيزها منصبًّا عليها، على يانيجينا، وعلى ما كانتا تفعلانه خلال هاتين الساعتين أو الثلاث، أي الوقت الذي تجاسرتا فيه على البقاء معًا قبل أن تركضا مذعورتين إلى

منزليهما مصحوبتين بعذاب الضمير، تتلفتان لتتأكدا أن أحدًا لا يتعقبهما. وتبقيان في الأيام والأسابيع التالية تحاولان محو ما حدث من ذاكرتهما، استبعاده واجتزازه كما لو أنه لم يحدث قط.

فقالت لها يومًا يانيجينا وهي تودعها، قبل أن تختفي في عتمة الليل متجهة ناحية بيتين: ربما يكون من الأفضل أن ترحلي. وعلى أثر تلك الكلمات كالعادة انقطعت دورا عن لقائها عدة أسابيع، فكانت فقط تلمحها أثناء قداس الأحد. كانت تراها منحنية في المقعد الأول تتمتم بالصلوات، وتستمر على ذلك حتى يخرج آخر قس من الكنيسة.

استغرق الأمر منهما بضعة أشهر قبل أن تهدأ الأمواج العاتية من الشعور بالاشمئزاز، ثم عاودتا اللقاء مرة أخرى في كوبرفازي بعد منتصف ليلة السبت بساعة كما اتفقتا. ثم تكرر اللقاء حتى أصبح موعدًا أسبوعيًّا للقاءات شهوانية مندفعة، يعقبها صوم طويل آخر وندم ثقيل ثقل الموت.

أما في تلك الأسابيع فقد اختلف الأمر. الآن تستمتعان بهذا الفيض من أيام العسل الذي يدفع بهما دفعًا كل سبت إلى الصعود إلى أعلى، إلى تل كوبرفازي. صعدت دورا إليه في تلك الليلة الصيفية الهادئة التي غمر فيها القمر الطريق بأنواره، فسارت بسرعة وبحذر مشدودة بالشوق إلى لقاء يانيجينا.

إلا أنها لم تكن هناك، وكان البيت خاليًا. فارتمت دورا منهكة على الدكة بجوار البيت، وأمامها من ناحية اليمين ينحدر منحدر التل إلى الوادي حيث الطريق المؤدي إلى بيت سورمينا، ومن ناحية اليسار ينحدر نحو تل بيتين. أخذت تلك البقعة من الطبيعة تنبسط أمامها تباعًا كأنها زهرة داكنة، وأخذت دورا تتأملها بإعجاب زاد من قوته أنها كانت تعلم أنها ستنشق بأسرع ما يكون لتخرج منها يانيجينا.

كانت الليلة هادئة وادعة إلا من صوت طائر مستيقظ يأتي من هنا أو هناك بالغابة القريبة، أو صرصرة صرصور الليل وسط الحشائش. وراحت فروع شجرة الغبيراء تتمايل برفق فوق رأس دورا.

لا تعرف دورا كم من الوقت مضى وهي تنتظر. كل ما تذكره هو أنها وجدت يانيجينا تقف أمامها فجأة وقد حجبت بظهرها العريض ضوء القمر، وصنعت كتفاها العريضتان

بعد أن وضعت يديها على خصرها شكلًا يشبه قفصًا ضيقًا لا يمكن الإفلات من قبضته! كان وجه يانيجينا يعكس شيئًا مختلفًا عن ذي قبل، لم يكن يخيم عليه شبح الشعور بالذنب الذي يقطب جبهتها حتى تظهر فيها أخاديد عرضية عميقة، لم تكن هناك تلك الحيرة التي كانت تضيق معها عيناها. كانت تبدو كما لو كانت تخشى النظر إليها، إلى دورا. كان ينتابها غضب وهياج جعل وجهها يرتعش بفعل تشنجات خفيفة لدرجة جعلت دورا تشعر معها بالخوف. والأسوأ من ذلك أنها وقبل أن تلتقط أنفاسها كي تسألها ما الذي يجري، أمسكت بها يانيجينا من معصمها وألقت بها بقوة نحو جذع الشجرة وبدأت تربطها فيه بحبل. ولدهشة دورا وجدت نفسها تحتضن جذع شجرة الغبيراء وفي معصمها حلقة الحبل الذي امتد ليلتف حول خصرها.

وعندما اعترضت صاحت فيها يانيجينا: صمتًا، صمتي.

من كان يتوقع أنها يمكن أن تغادر فجأة وتتركها هناك؟

أدارت دورا رأسها في ارتباك شديد نحو باب البيت الذي اختفت خلفه يانيجينا ووقفت تنتظر، وراحت تناديها بصوت مكتوم مرات ومرات، ولكن دون مجيب. كانت يانيجينا داخل البيت، لكنها لم تخرج ولا حتى أضاءت الأنوار، فكان الظلام يعم المكان. وكانت دورا متأكدة من أنها تراقبها.

راحت تفكر مذعورة في أنها ربما تكون لعبة، أو أنه ربما شيء يسبب لـ يانيجينا إثارة. احتارت في الأمر. لم تستطع أن تعرف عنها خلال تلك السنوات الطويلة أي شيء يذكر. لم يحدث مطلقًا أن توغلت في أعماق نفسها الخشنة، ولم تكسر مطلقًا حاجز الصمت لديها.

وهكذا ظلت واقفة منكمشة الجسد بلا حول ولا قوة، وعلى الرغم من أن الجو لم يكن باردًا، فإنها كانت تشعر بقشعريرة تسري في أوصالها. وقد أدى التوتر الزائد إلى شعورها بمرارة الظلم في حلقها، فتدفقت من عينيها الدموع، ولم تستطع عمل أي شيء سوى احتضان شجرة الغبيراء، التي شنق أبوها نفسه ذات يوما فوقها، والإنصات إلى حفيف أوراقها.

في تلك اللحظة بدأت تصاب بالهلع؛ ذلك أنها بدأت تتخيل صورة أبيها المتوفى،

إضافة إلى إحساسها بالضيق من عدم قدرتها على الحركة. بدأت تستجمع قواها وتحاول بقوة يصحبها شعور بالألم أن تحتك بجذع الشجرة لتفك عقدة الحبل المربوط في يديها، وفي نفس الوقت كانت تنادي يانيجينا. كانت تصرخ، تتوسل، لكن صراخها وتوسلاتها ذهبت أدراج الريح. لم يخرج من البيت أحد، وذلك على الرغم من أن يانيجينا كانت حتمًا ترى كيف تحاول دورا في يأس تخليص نفسها. بدأت تبكي.

عندها فقط ظهرت يانيجينا، لكنها بدلًا من أن تقوم بفك الحبل، جاءت من خلفها لتغطي بيدها فمها، ليتوقف سكون الليل في هذا الفراغ عن حمل صوت دورا. ثم جثمت على ظهرها بكل ما في جسدها الأنثوي الضخم من ثقل، وأحست بعدها دورا بيد يانيجينا اليمنى وهي تلتف حول بطنها لتنسلّ أسفل حزام تنورتها، وترفع المقلاة ثم تهوي بما فيها بين فخذيها.

انسكب كل ما كان فيها، فأصيبت بحالة من الذعر والرعب والنفور العميق من هذا المكان ومن تلك الشجرة، التي كانت تتطلع إلى فروعها برأس مائل تقبض عليه بإحكام يد يانيجينا، وأيضًا برغبة جامحة اندلعت في موضع عورتها، كانت على أثرها تتلقى ضربات يد يانيجينا المنتظمة بنهم الجائعين، حتى إنها كانت تظن أنها فقدت وعيها لمًا وصل ذلك الأمر إلى منتهاه.

أفاقت لتجد نفسها على الأرض تحت الشجرة. وكانت الأرض باردة أثناء الليل لدرجة جعلت الأجزاء العارية من جسدها تكاد تتجمد. فجلست وسحبت تنورتها إلى أسفل لتغطي ركبتها وأخذت تتلفت حولها لتجد القمر قد اختفى خلف سحب العاصفة الثقيلة التي لم يعد يضيء ظلمة الليل سوى حوافها السميكة. أما يانيجينا فلم يعد لها أي أثر. ولم يكن يوجد في المنطقة بأكملها ولا حتى شبح إنسان. هدوء مطبق، فقط كانت فروع شجرة الغبيراء تتمايل من فوق رأسها بقوة أكبر من ذي قبل، وصوت حفيف أوراقها يدوي كما لو كان يصدر من أصوات بشرية. شعرت بالكآبة والخوف.

نهضت دورا مسرعة، لكنها أخذت تترنح عندما داست على طرف تنورتها فتعثرت لتسقط بكل ثقلها على جذع الشجرة الذي حك وجهها فأدماه. صرخت وقفزت بعيدًا عنه في محاولة لحماية نفسها، كما لو كانت تتراجع أمام شخص يريد أن يمسك بها بأية طريقة، يمسك بها ولا يتركها. ثم راحت بعدها تركض كالمجنونة إلى أسفل التل، كانت

تجري وكأنها تدافع عن عمرها، ولم تكن حتى تلتفت خلفها. ومن خلفها كانت تدوي دمدمة بداية سقوط الرعد.

لم تظهر بعد هذه الحادثة في جيتكوفا لبضعة أسابيع. ولم تكن لتعود إلى هناك إلا بعد أن تختفي من وجهها قشرة الجرح، وقضت هي ويعقوب عطلات نهاية الأسبوع الأخيرة من شهر أغسطس ببرنو. ظلت دورا طوال الوقت تتساءل إن كان ما حدث في كوبرفازي قد حدث بالفعل، أم أنه كان حلمًا. وما زالت لا تدري، ما زالت تتحسس الطريق.

كانت أول عودة لهما إلى كوبانيتسه في بداية سبتمبر. لكن بدلًا من أن يصعدا إلى بيدوفا كالمعتاد، اتجهت دورا أولًا ناحية المقابر.

تركت يعقوب عند بوابة المقابر، ودخلت وحدها متجهة نحو الشبكة الكثيفة من شواهد القبور التي لا يوجد بينها في تلك الأرض المنحدرة أي علامة يهتدي بها المرء. أخذت تمر عبر شواهد القبور حتى وصلت إلى ذلك الذي يحمل اسم عائلة إيديس. وفوق الحروف المنقوشة على الرخام سقطت أول أوراق الخريف الذي يستعد للقدوم وقد تلونت بلون الورود في حمرتها. ومن تحته كانت ترقد أمها وكذلك أبوها. لم يكن لديهم ما يقيمون به شاهدًا جديدًا، فكان لابد من الاقتصاد حتى في مساحة الأرض التي سيدفن بها.

وقفت هناك وهي تشعر بالضيق وعدم الراحة، كما لو كانت قدماها قد ساقتاها إلى هناك رغمًا عنها، كما لو أن ما حدا بها للذهاب إلى هناك هو أبوها وفروع شجرة الغبيراء التي كانت تتطلع فيها، والتي لم تستطع بعد ما حدث بالقرب منها أن تطردها من مخيلتها، وكذلك إيرما التي ألحَّتْ عليها كي تذهب وتتحدث معه.

كيف حدث هذا؟ هذا هو ما يدهشها الآن.

لكنه حدث. وبشكل طبيعي تمامًا ودون أن تلحظ هي ذلك، اعتملت بداخلها أول جملة، تلتها عدة جمل كانت تدور برأسها، تلاقت الكلمات واندمجت لتصبح شلالًا، انضمت إليه بسرعة شلالات أخرى جديدة كان يجذبها تيار عنيف اندفع منها فجأة وبقوة فخرج

وصاحبته الدموع، تمامًا كالشلال فاضت، ثم اندفعت إلى أسفل لتبلل الحصى أسفل شاهد القبر. الكراهية، والألم، والندم – الندم. هذا هو ما هو ما فاض منها ثم خرج إلى غير رجعة.

في مغرب اليوم التالي راحت دورا تدق باب إيرما. مرت لحظات لم تتلقَّ فيها إجابة ولا حتى ذلك الصوت القادم من بعيد لوقع خطوات إيرما المتمهلة. أليست بالبيت؟ دقت الباب من جديد، سمعت بعدها بقليل صوتًا واهنًا: ادخل!

دخلت ولمحتها من حجرة المعيشة وهي تُنزل قدميها الحافيتين من فوق السرير على مهل كي تقوم وتذهب لترحب بها.

قالت إيرما: أهلًا يا حبيبتي، أهلًا بكِ.

- لا تقومي ياخاله، ابقي مكانك، فلن أمكث كثيرًا.

- ولِمَ العجلة؟ تعالي، اجلسي هنا، تعالي.

دخلت دورا إلى الغرفة التي تفوح عطرًا تخلَّفَ من حرق الخشب. كان المكان في بيتها دافئًا حميميًّا، لكنه بالمقابل غير مرتب بعض الشيء، حيث كانت الأكواب والأطباق على الطاولة وبينها زجاجات براندي نصف فارغة، والمكنسة ملقاة على الأرض. انحنت دورا لتأخذها من الأرض وتضعها في إحدى زوايا الحجرة.

- ما دمت أنتِ هنا، من فضلك اعتبري البيت بيتك. الماء عندك في الدلو، وخذي من تلك الأكياس الموجودة هناك لعمل الشاي.

نفذت دورا كل ما طلبته إيرما. أخذت الماء من الدلو الموجود بجوار الموقد ووضعته في الآنية التي وضعتها بعد ذلك على الموقد المشتعل.

سألتها وهي تجمع الأواني من على الطاولة: هل بكِ شيء ياخالة جعلك تنامين هكذا مبكرًا؟

فأشاحت إيرما بيدها: إنه طول المكث في هذه الدنيا. إنه الضعف يا دورا. ها قد أوشك الرحيل.

نظرت إليها دورا بإمعان، وبدا لها أن جسدها قد تقلص بشكل غير معقول. تدلى

وجهها، وامتلأ جلدها الرقيق بالتجاعيد العميقة. ويداها المتكئتان على الغطاء كانتا عبارة عن عظام اكتست بطبقة رقيقة من الجلد.

- لا تنظري إليَّ هكذا، فقد بلغت الخامسة والتسعين من عمري.

نظرت إليها دورا متعجبة. هل تتكلم إيرما عن الموت؟

- لا بأس عليكِ! ستكونين على ما يرام بعد أيام، وسترين ما أقول.

تبسمت إيرما ثم سألتها: ولماذا أتيتِ؟

ظهر الارتباك على وجه دورا.

- هناك أمر يزعجك، أليس كذلك؟

انتقلت دورا إلى الطاولة المغطاة بمفرش مزركش من أشغال كوبانيتسه اليدوية، ثم جلست على حرف المقعد. بدأ الماء حينها يغلي فوق الموقد فأجبرها أزيز غليان الماء وتساقط قطرات الماء فوق المعدن الساخن على النهوض مرة أخرى. صبت الماء المغلي بحرص فوق الأعشاب في القدر، بعد أن اغترفتها بحسب تعليمات إيرما بمقدار حفنة من كل كيس من تلك المُعَلَّقة على الحامل فوق التنور، ثم وضعت الشاي العطري هو والأكواب والمغرفة وسط الطاولة.

- كنت أود أن أسألك عن شيء في المرة الفائتة.

- أها، فهمتْ إيرما ما ترمي إليه دورا فرمقتها بنظرة ثاقبة.

- لماذا لم تخبريني بأن ماهدالكا الأم خالتنا؟ ألم تكن أخت سورمينا؟

رفعت إيرما جسدها واعتدلت حتى تجلس متكئة على الوسادة، فظهرت من تحت الغطاء ذراعان نحيلتان تعلَّقَ فوقهما قميص نوم أبيض.

- ولماذا أقول؟ هل هذا شأن يخصني؟ أنا لا أتدخل فيما لا يعنيني.

قطبت دورا حاجبيها: حتى لو توسلت إليكِ؟

تنهدت إيرما واعترتها الكآبة: ولِمَ؟ ألم يكفِكِ ما عرفته عن تلك العائلة؟ لو كان لكِ أن تعرفي عنهم المزيد، لما تأخرت سورمينا بكل تأكيد عن إخبارك به.

هزت دورا كتفيها: ربما لم يسعفها الوقت. تعرفين أنها غادرت فجأة.

- لم يسعفها الوقت؟ حقًا؟ نظرت إليها إيرما عن جنب. لكن الوقت أسعفها لتحكي لكِ عن أقاربك الآخرين، أتعرفينهم؟

هل هي واهمة أم أنها لمحت في نظرتها بعض السخرية؟

أخذت إيرما تسعل بصوت أجش، فهَمَّت دورا بالقيام لتساعدها، لكن إيرما استوقفتها بإشارة حازمة، وراحت تأخذ شهيقًا وزفيرًا غير عميقين وبعدها هدأت، وقالت: هوني عليكِ، علاجه دهن الكلب. صُبي لي الشاي كي أجهز على هذا السعال.

وثبتْ دورا عن طيب نفس وأمسكت بالمغرفة وصبت منقوع الشاي في الكوبين، وأعطت أحدهما لـ إيرما. أخذت دورا تقلب الكوب بين كفيها وهي مشغولة البال، بينما راحت العجوز ترتشف الشراب الساخن.

ثم سألتها: أتعتقدين أن سورمينا لم تخبرني بأمر ماهدالكا لسوء سمعتها؟

ضحكت إيرما فكان لضحكتها بالغرفة رنين يشبه نعيق الغربان. كانت ضحكةً عجوزًا، متقطعة، خشنة.

قالت: تقولين إن سمعتها كانت سيئة؟ أضحكتِني يا عزيزتي، ثم سكتت فجأة كما لو كانت قطعت كلامها ولم تتمه. أنا كنت أخشاها وتنفستُ الصعداء لمَّا ماتت. قالت إيرما بصوتها الخشن، ما جعل دورا تشعر بالخوف. ثم سألتها في غضب: ومن قال لكِ إن ماهدالكا خالتك؟

قالت دورا: باجلاركا.

ساد الصمت قليلًا قبل أن تستجمع دورا شجاعتها مرة أخرى وتتابع الحديث: عثرت كذلك في دار المحفوظات على بعض الوثائق التي ذُكر فيها اسمها قبل الزواج - يوسيفتشينا سورمينوفا. كما وجدت في أماكن أخرى قصاصات من قضية وقعت أحداثها قبل الحرب، وبمقتضاها كانت ماهدالكا متهمة بقتل أحدهم ويدعى ميكفا. وقتلت بعدها كذلك زوجته. هل تعرفين عن ذلك شيئًا؟

لاذت إيرما بالصمت وأخذت تحدق في كفيها كما لو كانت تبحث فيهما عن شيء ما.

- لم أستطع فهم هذا الأمر قط لا أنا، ولا أمي، ولا حتى سورمينا. لم نكن نعرف من أين تأتيها قوة الشر التي كانت تستعبد بها الآخرين. ولم تكن أي منا تمتلك تلك القوة. ربما كانت روخاركا هي الوحيدة التي تعلم طبيعة هذا الأمر وكيفية التعامل معه. خسارة أنها لم تبح بذلك لأحد. ومنذ وفاتها لم يعد يقف في طريق ماهدالكا أي شيء.

كانت دورا تنصت إليها بانتباه.

قالت إيرما بعد لحظات: لكن هذا الموضوع ليس هو ما نسيتِ سؤالي عنه، أليس كذلك؟

قالت دورا: لا. عندما كنت هنا آخر مرة، نسيت أن أسألك عن شيء لم تكمليه وغيرتِ الموضوع.

- غيرتُ الموضوع؟ تعجبت إيرما.

- ذكرتِ أنه كانت توجد بينهما خلافات. بين ماهدالكا وبين جدتي روخاركا. ما هي طبيعة هذه الخلافات؟

انحنت إيرما بوجهها النحيل على حافة الكوب الواسعة وأخذت رشفة كبيرة. وبدت وكأنها لن تواصل أبدًا ما بدأته من حديث. ولم تنزل يديها لتستقرا مرة أخرى على اللحاف إلا بعد أن فرغت من شرب ما تبقى في كوبها. ثم جففت شفتيها الجافتين بطرف كُمها وأجابتها قائلة: لم يكن لي وليس لي الآن شأن بذلك. ببساطة كان بينهما خلاف أيًا كان، وبعدها اشتعلت بينهما الكراهية، الأمر واضح.

صمتت دورا برهه ثم عادت لتقول: أنا متفهمة موقفك يا خالة. أنتِ ترين أنه ربما كان من الأفضل ألَّا أطَّلع على ذلك الأمر. لكن هل لكِ أن تتخيلي حياة إنسان يعيش على أنقاض عائلة لا يعرف عنها أي شيء؟ إنه أمر يدعو للجنون. كما لو كان أحدهم يقص عليكِ قصة، فيحكي لكِ حتى يصل إلى منتصف الحكاية ويرفض بعدها الكشف عن نهايتها. لم تخبرني بهذا الأمر؛ لأنها لم تكن تريد لي أن أعرفه. ربما كانت ترى أن هذا هو الأفضل بالنسبة لي. إلا أنها لم تكن تعرف أن هذا الذي أرادت أن تخفيه عني ليس سريًا إلى الدرجة التي كانت تظنها وربما تظنينها أنتِ أيضًا. فأنا باستمرار وفي أماكن عديدة

أعثر على جزء من الحكاية. ولكنها كلها معًا لا تصنع قصة مكتملة. لكن هذا الوضع لا ينبغي أن يستمر أكثر من ذلك، لقد فاض الكيل. ولا أرغب في أن أقع عليها بالصدفة، الآن أريد أن أصنع منها قصة كاملة، أربط أجزائها المبعثرة، أطّلع عليها وأرتاح. لذا أرجوكِ ساعديني وأحكيها لي!

ألقت إيرما برأسها فوق الوسادة وأغمضت عينيها، وعندما فتحتهما، اكتفت بالقول: فليغفر لي الله. لكن مادامت ماهدالكا قد ماتت...

****

- بعمر الحياة هنا ما كانت سهلة، لعلك ترين الأوضاع من حولنا حتى اليوم، كم كان الفقر يعم المنطقة، كم كان الجميع يكِدُّون من أجل الحصول على كسرة خبز. وكانت أحوال عائلتك شديدة السوء. وهنا أعني أولئك المقمين في بيدوفا. وكانت ظروف الحياة أكثر قسوة في تلك الناحية الفقيرة التي ألقت عليها الغابة بظلالها. فالتلال الحجرية لا يمكنها أن تصبح عونًا لأسرة كبيرة العدد على أعباء الحياة. وكان لدى أنكا جابرهيلوفا، أم أنَّا بجاتشينا ويوستينا روخاركا، ربما ثلاثة عشر من الأبناء. مات بعضهم وفر من بقي منهم هربًا من شدة الفقر والعوز. حتى بجاتشينا كانت مضطرة للهروب، لكن في حالتها كان الأمر مختلفًا. لعلكِ سمعتي أن أباها كان يتحرش بها. ولم يتبقَّ بعدها لـ أنكا سوى يوستينا التي جاء مولدها بعد عدد كبير من الذكور. وكانت أصغر من بجاتشينا بعشر سنوات تقريبًا.

حاولت أنكا أن تنقل إليهما علومها حتى صارتا بعد ذلك ساحرتين ذائعتي الصيت يأتيهما الخلق من كل حدب وصوب. لكنَّ شيئًا ما قد حدث قبل ذلك. غابت بجاتشينا عن عيني أبيها في الوقت المناسب، لكن يوستينا لم تتمكن من ذلك. الله أعلم بالحقيقة، لكن خبرًا انتشر ذات يوم مفاده أن يوستينا حامل، وكان ذلك محل دهشة الجميع، حيث لم تتردد في كوبانيتسه أية أخبار عن علاقة تربطها بأحد. والأهم من ذلك أنها لم تكن قد بلغت بعد الخامسة عشرة، أي أنها لم تبلغ سن الرشد. وكما تعرفين في الأحوال الطبيعية كانت تُستدعَى الشرطة، لكن حتى القانون في كوبانيتسه لا يجد لنفسه حيزًا

يسري فيه كما هو الحال في كل مكان من حولنا. المهم أن الفضيحة انتشرت. ووضعت يوستينا مولودها، ولأن عددهم بالبيت كان كبيرًا كالأرانب، قالوا لها إن عليها أن تذهب مع وليدها إلى ذلك الذي فعل بها هذا، أو أن تتخلص من الطفل، ما دامت ترغب في البقاء بالبيت. وكان ذلك الطفل بنتًا رائعة الجمال، وإذا لم نأخذ في الاعتبار حقيقة أن والدتها هي نفسها كانت ما تزال على أعتاب البلوغ، فقد وُلدت هذه ممتلئة الجسم قويّة البنيان، والأكثر من ذلك أنها ولدت وفي فمها سِنّ. أتعرفين علامَ يدل ذلك؟ هذا يا عزيزتي يعني أنها ولدت ساحرة، جاءت إلى هذا العالم وهي ساحرة. وربما لهذا السبب كانوا يمارسون ضغوطًا عليها كي تتخلص منها. وخضعت هي لتلك الضغوط. لكنها قامت قبل ذلك بتعميدها، وأسموها ماريا يوسيفينا ونذروها لله، وبعدها رحلت. لا أعلم إلى أين، لكنها لم تكن في كوبانيتسه، ولو بقيت فيها لكان الخبر قد ذاع وانتشر.

أما يوستينا فلم تتقبل الأمر هكذا ببساطة، كانت تشعر بالتعاسة، ولابد أن هذا الموضوع ظل يشغل بالها لسنوات طوال قبل زواجها. ثم تزوجت من سورمينا، جدك. لكن حسبما أذكر كانوا دائمًا ينادونها روخاركا كما كانت تُدعى قبل زواجها. وكان جدك حينها شابًّا أرمل وله صبيان من المرحومة زوجته، ولهذا سمح لها بضم يوسيفينا إليهما، فأتت بها إلى بيتهم مباشرة بعد زفافها، وكان عمرها في ذلك الحين حوالي ستة أعوام. كانت فتاة قوية البنيان، وكانت، لا أعرف كيف أصفها، كانت غريبة الأطوار. تجنبت التعامل مع الآخرين، كما كانت عنيدة، يستحيل التفاهم معها. حتى يوستينا لم تكن تقدر عليها. وهذا ما أريدُ بالتحديد التأكيد عليه، لم تكن قادرة على التحكم في سلوكها. وهكذا أصبحت يوستينا، أمها، هي عدوها اللدود.

من يدري أين قضت يوسيفينا، التي صار يقال لها بعد فترة وجيزة يوسيفتشينا، الأعوام الستة الأولى من عمرها؟ المؤكد أنها كانت في بيئة سيئة. وما بالك بطفلة تظن، وكان ذلك طبيعيًّا، أنها موجودة في هذا المكان الذي كانت توجد به بسبب أن أمها تركتها هناك، لأنها لا تحبها؟ ولم يكن بوسع أحد انتزاع تلك الفكرة من رأسها. ولا أدري إن كانت يوستينا قد فعلت خيرًا عندما أعادتها إلي أحضانها مرة أخرى. من البداية لم يكن في هذا الأمر خير. ثم حدث أن زاد عدد الأطفال بالبيت، صبي آخر. وكان حمل يوستينا صعبًا، كما لم تَخْلُ ولادتها من المشاكل، ببساطة هكذا هي طبيعة الأشياء، قدَر

الأم أن ترتبط بالصغار من أبنائها على وجه الخصوص. وهكذا فإن الحياة التي قست عليها فيما مضى من عمرها، أبت فجأة إلا أن تحرم يوسيفينا أي قسط من الرعاية كان يمكن أن تحظى به. وعندما كانت يوستينا تجلس في زاوية الحجرة، ثم لمًّا أصبحت بعدها تقوم بمهام الساحرات لجموع الوافددين، كان على الابنة الوحيدة أن ترعى شئون البيت. كما أنها كانت ترى كيف كانت أمها تحتفي بالصغير الذي جاء إلى هذا العالم بصعوبة بالغة، بينما لا تعيرها هي أي اهتمام. أنا لم أجرب مثل هذا الشعور، ولن أجربه. وبعد عام آخر حملت يوستينا بمولود جديد، وبدأت الدورة نفسها من جديد. أعتقد أنه ليس بوسع أحد يتصور مدى نهم تلك الطفلة للحنان. مكثت ست سنين في مكان لا يعلمه إلا الله وسط الغرباء، ثم لم يكن حظها سوى العمل الشاق من غير عطف أو حمد أو شكر. لا عجب إذن فيما آلت إليه من قساوة قلب وصلابة رأس، وأنها أصبحت شريرة. ربما بدأت منذ ذلك الحين تستخدم بعضًا مما التقطت من أمها الساحرة، لكن بطريقة خاطئة.

ثم فرت منهم، وكان عمرها حينها على ما أظن سبعة عشر عامًا. حدث ذلك عندما وضعت يوستينا ابنتها الأولى. كانت أول بنت بعد عدة صبيان، وكادت روخاركا تفقد عقلها من فرط السعادة؛ ذلك أنه أخيرًا قد حلت بهذا البيت ساحرة. أعتقد أن يوسيفينا لم تكن لتحتمل كل هذا الكم من خيبة الأمل.

والغريب أن يوستينا لم تعتبر قط ابنتها الأولى خليفة لها. ربما لأنها منذ البداية كانت صعبة المراس، أو ربما كانت ترى فيها تهديدًا لمكانتها. وسواء كان هذا أو ذاك فقد استشعرت ذلك يوسيفتشينا بعد فترة وجيزة من مولد سورمينا، خالتكما. وهكذا حزمت أمرها وهربت إلى بوتوتشنا خلف رجل ترمَّل لتوه. وكانوا يتهامسون حينها بأنه لم يمر على وفاة زوجته وقت يُذكر. وكانت زوجته شابة قوية، سليمة البدن، لكن اعتراها شيء ما، وقبل أن ينقضي الأسبوع كانت ترقد في قبرها. وفي ذلك الوقت بدأ يُشاع أن يوسيفتشينا أُوتيتْ قدرة على إلحاق الضرر بالآخرين، أنها ساحرة، لكنها لا تأتي إلا شرًّا. وبدأ الناس يخشونها. لم يكن لدى أحد منهم، بخلاف أمها، شك في أنها ساحرة، كان الأمر واضحًا. فالتنجيم وما يرتبط به من قدرات خاصة مسألة وراثية. لكن يوستينا أدركت ذلك متأخرًا جدًّا، وكان بمقدورها اختيار خليفة لها من بين ابنتيها، أو أن

تصبح كل منهما وريثة أمها. إلا أن يوسيفتشينا كانت قد استقرت في بوتوتشنا، وفقدت روخاركا القدرة على التحكم في الأمور وانفرط منها العقد.

لم يمر وقت طويل حتى بدأ يترد على يوسيفتشينا بسبب قدرتها على الإيذاء أناس يرغبون في أشياء لا يذهبون من أجلها إلى الساحرات الطيبات، أي أولئك البشر الذين يسعون إلى الإضرار بالآخرين: قتل الماشية، الثأر، السرقة المقنَّعة، قهر المنافسين في الحب، أما عن قتل الأنفس فحدث ولا حرج. كان الخوف يلف المكان بمجرد أن ينطق أحدهم اسم يوسيفتشينا، وازداد الأمر سوءًا بعدما توقفت عن الذهاب إلى الكنيسة. وأخذ الناس يتهامسون أن يوسيفتشينا قد نسيت الله. وماذا عساه يحدث بعد ذلك؟ تحالفت مع الشيطان. وأنا الآن أصدق ذلك. فكلمة شيطان كلمة ثقيلة. ذلك كان هو الشر الذي يقف على الجانب الآخر مما نقوم به نحن ونحن نمارس التنجيم. وكانت يوسيفتشينا تجيد استخدامه لمصلحتها.

لكن النجاح لم يحالفها في شيء واحد، لم تكن لها وريثة. بعد أن أنجبت ابنها لم تستطع أن تحمل مرة أخرى. أخذت الأعوام تتوالى وراح الخوف يدب في نفس يوسيفتشينا من أن تظل عقيمًا. وصدقت مخاوفها، فلم يُقدر لها الإنجاب مرة أخرى. ومن هنا جاء تمسكها بـ فوكسينا، الوحيدة التي كان بمقدورها أن تصبح خليفتها الشرعية باعتبارهما من دم واحد. فأخذت تجتهد في تعليمها كل ما كانت تعلمه، وذلك منذ نعومة أظافرها. خسارة أنها لم تحذرها من التعاون مع ذلك الألماني، لو كانت فعلت لما انتهى الأمر تلك النهاية المأساوية. لكن الساحرات لا يستطعن التنبؤ بما سيكون من أمرهن. ولم تحاول حتى يوسيفتشينا أن تفكر فيما إذا كان من المقبول أن تكون فوكسينا على علاقة برجل ألماني. كانت مكتفية بكونه رجلًا ذا مكانة عالية، وأن الألمان كانت لهم حينها هناك اليد العليا، ولم يخطر ببالها أن هذا الأمر لن يدوم. وقد دفعوا ثمن ما صنعوا بعد التحرير. ضربوا فوكسينا حتى الموت بالغابة، ولم يُعثَر لابنتها على مكان. هذا ما كان من أمر عائلة يوسيفتشينا وأمر قدراتها، وماتت بعد ذلك وحيدة، عندما كنتِ في دار القاصرات أو في برنو، لم أعد أذكر بدقة.. تلك هي الحكاية.

بدأ الظلام يخيم على الغرفة. ولم يخترق الصمت سوى صوت طقطقة النار في المدفأة، واصطدام فروع شجرة الزيزفون العارية من أوراقها بسقف البيت. وسكتت

إيرما بعد أن أعياها الكلام.

ثم قطعت دورا الصمت فجأة: لكن القصة لم تكتمل بعد.

انتفضت إيرما: ماذا؟

كررت دورا ثانية وهي تنظر إلى العجوز المتدثرة بلحافها نظرة شك وريبة: لا يمكن أن تكون القصة قد اكتملت على هذا النحو.

- ولِمَ؟

- لأن سورمينا لم يكن لديها أي سبب يدعوها إلى إخفاء ما قلتِ عني.

- إيه، تنهدت إيرما بشكل مريب، لكن دورا لم تترك نفسها نهبًا للتضليل.

- إنها حكاية عائلة تعسة، لكنها ليست بالغريبة. كوبانيتسه تمتلئ بعشرات الحكايات الأسوأ منها. وما دام الأمر هكذا فما الداعي أن يُخفَى عني ما قصصته الآن؟

تجهم وجه إيرما وظهرت عليه أمارات الغضب، ومدت يدها تمسك بقوة بخصلات شعرها القليلة وراحت تسويها بعصبية، وبات واضحًا أن الاستياء بدأ يتعاظم بداخلها.

أصرت دورا على موقفها: لا، لا، أنا لست مقتنعة. سألتك، ما هو سبب ذلك النزاع؟ لكنك لم تتطرقي إلى ذلك.

أخذت إيرما تتقلب في فراشها غاضبة، ثم رمقت دورا بنظرة فاحصة وهي تقول: لا تحاولي أن تقنعيني بأنك لا تجدين ذلك الشيء في نفسك! ربما لَسْتِ خبيرة بالأعشاب، لكنَّ شيئًا من تلك القوة موجود بداخلك. اسمعي، اصدقيني القول، ألم تحدث معكِ من وقت لآخر أشياء غريبة؟ أحداث حدثت بالكيفية التي كنتِ تريدين لها أن تحدث بها؟ رؤى تحققت؟ مصادفات غريبة أو أشياء من هذا القبيل؟ هل يحدث معك هذا؟ ربما يسعفني الوقت كي أعلمك شيئًا.

هزت دورا رأسها نافية كل ما سبق: لا، لا شيء من ذلك كله. كل ما في الأمر أن هناك أشياء ما زالت غامضة ولا أجد لها تفسيرًا. شيئًا ما تنقصني معرفته. وهذا الشيء هو لماذا لا يريد أحد أن يحكي لى ما جرى؟ ماذا حدث بينهما؟

تنهدت إيرما وطلبت منها كوب شاى آخر، ثم قالت: لقد جف حلقي من كثرة الكلام. فشربت، ثم تابعت: لكن أسوأ شيء كان ما قالته يوسيفتشينا عندما فرت من بيت يوستينا، وسمعها كل إخوتها وزوج أمها، الذين أذاعوا بدورهم كل ما قالت، وانتشر الخبر بسرعة. ربما لم يصدقوا في البداية. حسنًا، لكن الأمر اختلف بعد عدة سنوات، عندما ذاع صيت يوسيفتشينا وبدأت تظهر أخبار تحكي كيف مات أو مرض أحدهم متأثرًا بسحرها، عندها فقط بدءوا ينظرون إلى ما قالت بشكل مختلف. يمكنك أن تخمني ما حدث. ببساطة غادرت يوسيفتشينا بيت يوستينا وهي في حالة من الغضب جعلتها تسحر الصغيرة. سورمينا، وليس يوستينا. أخضعتها لسلطان سحرها، أما بالنسبة لـ يوستينا فتمنت لها أن تعيش ما شاء الله لها أن تعيش خائفة على طفلتها تلك وكل بنت ستولد لها بعدها. توعدتهم بالويل، وقدرت عليهم عندما يكبرون ويشبون أن يصبحوا مصدر شقاء لمن يعرفون، أن يملأ الحزن والتعاسة حياتهم. ألّا يعرف النجاح إليهم سبيلًا، وأن تصبح حياتهم عديمة القيمة، أن تكون عاقبتهم سيئة ومليئة بالعذاب، كي يعرف أهل كوبانيتسه كيف ستكون نهاية كل من يُغضب يوسيفتشينا. لا تنظري إليَّ بدهشة هكذا. تتصرفين كما لو لم تكوني من كوبانيتسه. تعرفين أن هذا أمر وارد جدًّا. وأذكر جيدًا عندما كان الناس يقفون أمام الكنيسة بعد قداس الأحد، كانوا كلما خرجت يوستينا مع أبنائها يهزون رءوسهم صوبهم قائلين لبعضهم: هؤلاء هم من حلت عليهم اللعنة، سورمينا وإيرينا. ولحسن الحظ لم تنجب يوستينا بعدهما بنات. لكن تلك اللعنة علقت بهما أينما حلّا، منذ مولدهما حتى الموت الذي لم يكن هينًا لا لهذه ولا لتلك. أستطيع أن أتخيل كيف يكون الموت مصحوبًا بالألم والعذاب، هكذا كان موت ابنتي يوستينا. إحداهما تحت حد البلطة والأخرى بمستشفى المجانين. قالت إيرما وهي ترتشف الشاي بصعوبة: لكنها كانت النهاية، وكان يمكنني أن أستبقها بالقول إن العثرات صاحبت خطواتهما منذ البداية. كان الجميع يعلمون أنهما ملعونتان، وصار الأطفال يخشونهما بعد تحذير أمهاتهم لهم بالبعد عنهما. ووصل الأمر إلى حد الكراهية. ولهذا السبب لم تذهب سورمينا وإيرينا إلى المدرسة، باختصار كانتا تتجنبان جور الأطفال. ولم تضغط عليهما يوستينا، وفي كل الأحوال لم يكن ذلك متاحًا، كما أنها كانت تخاف عليهما، وكانت تفضّل بقاءهما في البيت. ربطتهما بها، وقيدتهما بالخوف. فصلتهما عن الحياة الطبيعية، ولم تكن تلك العزلة مفيدة لأي طرف من الأطرف.

لا أكاد أذكر سورمينا في طفولتها ولا بعد ذلك في شبابها، ولا أتذكر كيف كان شكلها. لم تكن تغادر تل بيدوفا، تشبثت بأسرتها، ولم تكن تتحدث مع سواها، ولا حتى بعد صلاة القداس. وكانوا يقولون عنها إنها غريبة الأطوار. وإيرينا الصغيرة، والدتك، كانت أكثر غرابة من أختها، وأما هذه فكانت تتجنب حتى أسرتها، وكان لها عالمها الخاص. ويُروى أنها كانت تستطيع التحدث مع الملائكة، وأظن أنهم كانوا يظهرون لها، لأنهم كانوا يعرفون أنها ليس لها أحد سواهم.

وأنا على ثقة من أن سورمينا وإيرينا كانتا تبغضان ذلك الخوف من اللعنة الذي أصابتهما بعدواه يوستينا المريضة بالوساوس. وقد تعاملت كل منهما مع الأمر على طريقتها الخاصة. قاومت إيرينا. تظاهرت بعدم وجود تلك اللعنة، وكانت تكره أمها التي كانت بسبب مخاوفها تذكّرها يوميًّا بالعكس. لم تكن ترغب في تعلُّم أي شيء. ولم تكن تثق بأحد سوى ملائكتها، وكانت مكتفية بهم. إلا أنها كانت مخطئة؛ لأنها بذلك خسرت قدرتها على التنجيم – ولم يكن وحده الذي ضاع منها – تمامًا كما تنبأت ماهدالكا. أنجبت إيرينا ولكن كيف كان أبناؤها. يكفي أن تنظري إلى يعقوب. وأنتِ؟ تكلمي، لا تصمتي ما دمت أردتِ سماع الحكاية. كم عمرك؟ أربعون عامًا ولم تنجزي شيئًا. رأسك، كما قلتِ، مليء بالتفاصيل الصغيرة التي لا تأتلف لتشكل صورة كلية. لن يكون لديك أولاد، ولم تسمحي للتنجيم أن يسكن روحك. بقي الفشل المقدر على إيرينا فيها وفيكِ. وماذا عن موتها؟ لعله كان مقدرًا عليها منذ طفولتها. قطعت علاقتها بالناس، فلا عجب إذن أن يرفضها الجميع. كانت يائسة، كانت تركض كالكلبة، وكانت مطمعًا للرجال بشكل لم أرَه في حياتي مع امرأة أخرى. وفي نهاية المطاف تزوجت من الشخص الوحيد الذي تقدم يطلبها للزواج، ماتياش إيديس الذي كان الجميع يعرفون عنه أنه بخلاف ديونه بسبب إدمانه للخمر لم يكن يملك أي شيء. كان الوحيد الذي قرر قبول فكرة الزواج بامرأة مجنونة فضلًا عن كونها مصابة باللعنة. كانت ثروتها هي كل همه، وكان يظن أن زواجه بها سوف يقضي عنه ديونه. وباعتبارها ابنة ساحرة لابد أن يكون لديها ثروة معقولة مما تجنيه من عملائها، ولم يكن للأمر أية علاقة بالحب. وكانت هي بالرغم من ذلك واقعة تحت تأثيره وذلك منذ أول يوم لمستها فيه يداه. وبعدها انهار كل شيء بشكل لا يمكن إيقافه حتى انتهى إلى كارثة. لكن إيديس كان مخطئًا. صحيح أن إيرينا كان لها بيت في تل كوبرفازي تنازل لها أبوها سورمينا عنه مباشرة قبل وفاته،

لكنها بخلاف هذا البيت لم تكن تمتلك شيئًا. بقي ذلك البيت القديم الذي سقط فوق رءوسهم على حاله حتى الآن بدون إصلاح أو ترميم. وصارت حينها كوبانيتسه كلها تعرف ما حل به جراء ذلك من إحباط وغضب. كما كانوا يعرفون كم كان يضربها ضربًا مبرحًا. والغريب أنها لم تُبْدِ مقاومة تُذكر. كانت تأتيه مذعنة، عديمة الخبرة لا تدري كيف تواجه تقلبات النفس البشرية، كما أنها كانت تعشقه وتنظر إليه نظرة تقديس، إلى أن جاء يوم أغلق فيه عينيها إلى الأبد بضربة من بلطته.

راحت دورا تحملق في إيرما بعينين جاحظتين ثم أخذت نفسًا عميقًا. لم تتوقع أن تسمع ما سمعت.

- وماذا عن سورمينا؟ أما هذه فراحت تقاوم اللعنة كذلك على طريقتها الخاصة. على عكس إيرينا لم تنفِ وجودها، بل بالعكس اختارت الوضوح وحصنت نفسها من كل الجوانب بجُدُر لا يستطيع أحد الاقتراب منها. لهذا ظلت طوال عمرها وحيدة. ونذرت حياتها للعمل بالتنجيم، كانت تريد أن تنتصر على تلك اللعنة بأي ثمن وذلك عبر الفن الذي تجيده. وأيضًا كي تقنع الناس بضرورة قبولها وعدم النفور منها كما لو كانت كلبًا أجرب، وأنها يمكن أن تنفعهم في أوقات الشدائد. ونجحت في ذلك، وانتهى الحال بأن أحبها الناس على الرغم من الأقاويل التي ظلت تترد بلا توقف. إلا أن وعيد ماهدالكا تحقق. ظلت سورمينا بلا أبناء، تمامًا كما قالت يوسيفتشينا، بلا أطفال، كانوا يموتون، وهكذا بقيت بلا وريثة تأخذ عنها فنها وعلمها. وكيف كان موتها؟ في مكان ما داخل مستشفى المجاذيب، والله وحده يعلم كيف ماتت. ولا شك أبدًا في أنها كانت تتعذب.

وما زال الجميع حتى اليوم يتهامسون كيف خضعت أسرة ماهدالكا لسلطان سحرها. ولعلمك فإنهم يتابعون بعيون متشوقة ليعرفوا كيف سينتهي بكِ الأمر. وكيف تعيشين حياة فاشلة لا تستطيع أعظم حكايات النميمة أن تصفها. لا يوجد ما تحكين عنه، كما لو كنتِ لا تعيشين بهذه الحياة. لم يكن لك أن تعرفي ما قلته أنا الآن. سورمينا تركَتْكِ تعيشين مغيبة كي تعفيكِ من الخوف الذي دمر حياتها هي، وكانت تمنع الآخرين من أن يقولوا لكِ شيئًا. وأعتقد أن هذا كان أفضل بالنسبة لكِ، ربما تفقدين الآن الإحساس بالأمان.

كانت أنفاس إيرما تتردد بقوة في صدرها الذي لا يكسوه من الجلد سوى طبقة رقيقة،

ومن وقت لآخر كانت تسعل. شعرت دورا بالخوف من أن تكون قد أتعبتها بإلحاحها. وخاصة بعد أن أدركت مدى هشاشة حالة إيرما الصحية وكم المتاعب التي يمكن أن يتسبب فيها مثل هذا المجهود. جلست لدى الطاولة في حالة من الارتباك وانتظرت حتى تهدأ العجوز. وأخذت تعبث في صمت بالرباط المجدول الملفوف حول معصمها، الذي فقد من طول السنين لونه الأحمر القاني. لا تخلعيه من يدك أبدًا، هكذا قالت سورمينا في يوم من الأيام، عندما أعطتها اياه.

كان ذلك عندما أتوا إليها ليعيشوا معها، وقد ألبست يعقوب يومها واحدًا مثله. كانوا هنا يعتقدون أن السوار الأحمر يفسد السحر. كادت دورا أن تنسى قيمته الأصلية، وظلت لسنوات تحتفي به باعتباره ذكرى من سورمينا. أما الآن فقد صارت تدرك مغزاه تمامًا.

رفعت نظرها صوب إيرما، وعندما وجدت أنها صارت تتنفس بشكل طبيعي، تجاسرت على القول: هذا هراء ياخاله.

نظرت إليها إيرما متعجبة:

- ماذا؟

- موضوع اللعنة هذا. أعتقد أنه كلام فارغ، مجرد خرافة. ربما تلك الشائعات عن ماهدالكا كانت تثير الخوف، لكن هذا الأمر أليس فيه مبالغة؟ وفي أيامنا هذه؟ خالتي، أنا من هنا وأعرف ما تجيده الساحرات من فنون، لكني لن أصدق أن بي مسًّا من سحر.

سكتت برهة. وساد صمت خانق غير مريح.

- أعتقد أن الحماية التي حاولت سورمينا أن تحيطني بها لم يكن لها ما يبررها. الإيمان بالسحر والعيش طوال العمر في خوف، الأمر كله محض هراء، فالناس لا يموتون بأمر من البشر!

بدا واضحًا أن إيرما غضبت غضبًا شديدًا، فضاقت حدقتا عينيها لتتحولا إلى مجرد خطين رفيعين وانتفخ وجهها من شدة الغضب. ثم قطع صوتها الهادئ البارد التوتر: لا تصدقي ما دمت لا تريدين. لكن الجحود بامرأة مثل سورمينا أمر لا يمكن أن أقبله!

أحست دورا بالذعر: لست جاحدة، أنا فقط...

قاطعتها بحدة قائلة: صدقي ما شئتِ، ويمكنك أن تشككي كما تشائين في كيفية الاستعباد بالسحر. سترين بنفسك، عندما تلمسين الجروح بأصابعك، كما حدث مع أبيك توماش. لكن حذارِ أن أسمعك تقولين عن سورمينا كلمة سيئة واحدة ما دمت أنا حية أتنفس، أتفهمين؟ بفضلها وحدها تعيشين حياتك التافهة تلك، على الأقل بالطريقة التي تعيشينها بها. فقد حظرت على الناس في كوبانيتسه أن يتحدثوا أمامك عما قُدر على عائلتك، ولو لم تقم بما قامت به من محاولات مضنية لحمايتك من كلام الناس لانتهى أمرك منذ زمن بعيد، لتناثرت روحك أشلاء بشكل لم يكن يجدي معه أن يقوم أحد بجمع ما انفرط منها. لأنك لو نشأتِ وأنت تعلمين أن الناس تتجنبك لأنكِ موصومة، غريبة الأطوار، خطيرة، وذلك في بيئة يعيش فيها أناس يؤمنون بلا حدود بهذه الفكرة، لتبدلت شخصيك وأصبحتِ انسانًا آخر، هذا ما لم يحدث ما هو أسوأ، وهذا أمر مؤكد لا شك فيه.

- لكن غير معقول يا خالة أن يموت الناس بسبب كلمات تقال. أقصد موت أمي وسورمينا...

- اسكتي! الناس يموتون لأسباب أقل بكثير من الإيمان بقوة الكلمات. فلو أنكِ تؤمنين بشيء يؤمن به كذلك الناس من حولك، لجنحتِ نحوه سواء أردتِ أم لم تريدي. ثم إن ماهدالكا لم تكن تحتاج لأية قوة خاصة كي تتمكن من إنزال اللعنة بأحدهم. المعتقدات الإنسانية، أي معتقد، بالذات العقيدة القوية الراسخة لها سلطان مرعب، هذا هو ما عليكِ أن تعيه!

صارت دورا في حيرة من أمرها. أهذا هو السر الذي ظل يؤرقها طوال الأشهر الأخيرة؟ أقاويل، كلمات شريرة لإحدى السيدات قيلت في وقت ما من عام 1910، عندما وُلدت سورمينا. ما زالت لا تستطيع أن تصدق أن هذه الحادثة التافهة التي غذتها الكراهية يمكن تخيم بظلالها على حياتهم حتى اليوم. ما هذا الذي تقول إيرما؟ الجميع يصدقون ذلك؟ الجميع يتتبعون حياتها، حياتها الفاشلة، الجوفاء، يترقبون ليروا ما إذا كانت ستتحقق النبوءة وتحل اللعنة؟

قامت دورا وهمَّت بالرحيل. وفي هدوء شديد أخذت الأكواب والأواني من على الطاولة

واتجهت نحو الباب.

لكن إيرما استوقفتها قبل أن تغادر لتسألها: وماذا عن زيارة أبيكِ؟

تبسمت دورا: لم يقدم لي أحد نصيحة أفضل من هذه.

أومأت إيرما برأسها وفجأة تغيرت ملامحها وبدت عليها علامات الرضا أكثر من ذي قبل.

قالت: كنت أعلم أنكِ سترتاحين. ثم أغمضت عينيها واستدارت ناحية الجدار.

كان ما قالته دورا لـ إيرما وهي تغادر حقيقة. لم يستطع أحد أن يُسَرِّي عنها كما فعلت هي من خلال دعمها لها. وذلك على الرغم من أنها لم تصدقها في البداية، بل إنها انفعلت عليها. انفعلت على العجوز الساخرة كما أطلقت عليها عندما نصحتها بالحديث مع أبيها.

والآن راحت تفكر أثناء صعودها إلى بيدوفا على مهل أنها أحست بنفس الشعور. مرة أخرى بدا لها أن ما تقوله إيرما مجرد جنون يعود إلى خرافات القرن الماضي. كانت دورا تعرف الساحرات، وعاشت سنوات ترى كيف كن يمارسن عملهن. فالعلم بالأعشاب وبالنفس البشرية، التي كن يخففن عنها بالنصيحة الطيبة، كان حقيقة واقعة. أما اللعنة التي تسببت في موت أمها وسورمينا، فهذا محض خيال. والأسوأ هو قناعة إيرما بأنها سوف ينالها نصيب من تلك اللعنة، مع أنها تعيش في زمن يبعد عنها تقريبًا مائة عام: تعيش في عالم يحكمه الكمبيوتر، كما صعد الإنسان فيه إلى الفضاء بعد أن تمكن من فك شفرة كل الأسرار على كوكب الأرض.

قالت في نفسها إنها مجرد حماقة، وإنها ليس لديها ما تخشاه.

لكنها بمجرد أن أكدت لنفسها ذلك، توقفت فجأة. هل حقًّا تقول لنفسها ذلك؟ لمع السؤال في رأسها. هل حقًّا تحتاج لتهدئة مخاوف داخلية مبعثها شيء لا تؤمن به؟ هل حقًّا انتهى بها الحال لتقف على بعد خطوة من أهل كوبانيتسه الذين يموتون خوفًا بمجرد سماع كلمة السحر الأسود، وهي العالمة المتخصصة!

هزت رأسها باشمئزاز في محاولة للتخلص من تلك الأفكار المزعجة. فالعلم ينتهي عندما تبدأ الأنا، مقولة من إحدى الكتب التي وقعت بين يديها أثناء الدراسة تذكرتها الآن. الآن والآن فقط أدركت معناها.

ثم قالت لنفسها: والآن عود إلى العلم، ثم استأنفت من جديد المسير.

سارت بخطوات ثابتة حول تلال جيتكوفا التي اختفت في الظلمة، وكلما أسرعت من

خطواتها، كبتت في نفسها الشكوك بقوة أكبر. بلاهة، حكايات عجائز، أخذت تكرر وهي تلوم نفسها لأنها خضعت لتأثيرها ولو للحظة.

وعندما خرجت من الغابة ورأت من فوقها قمة التل الزرقاء التي يقف فوقها بيتهم، شعرت فجأة بالأمان. اقتربت من البيت الذي كانت تشعر فيه بالأمان، اقتربت من يعقوب الذي كان ينتظرها هناك، ربما ما يزال نائمًا كما تركته، اقتربت من حياتها اليومية التي لا مكان للعنة فيها.

كانت واثقة من شيء واحد، وهو أنها تقبض بيديها بقوة على حياتها، يديها اللتين أوصلتاها إلى ما هي عليه الآن، وبهما أيضًا استعادت يعقوب، كما أصلحت بتلك اليدين بيتهما وأصلحت معه حياتهما معًا. أخذت تتأملهما. وفجأة تملّكها شعور غير مريح لأنه لا ينبغي أن يبقى عليهما شيء يمكن أن يذكّرها بالخطر الذي يتهدد اليقين الذي استطاعت أن تنتزعه من الدنيا لسنوات. لن يبقى عليها أي سوار أحمر يجسد عبثية الحكاية، حكايتهم، بالكيفية التي حاولت إيرما قبل قليل أن تفرضها عليها. فجأة صارت تبغضه، أحست بأنه يلتف حول معصمها بطريقة غير ملائمة، ويشدها نحو أشياء ترفضها. كل الذكريات الحلوة المرتبطة تراجعت ليبقى فقط شعور بالنفور من أن تظل تحمل في يدها ذلك الشيء السخيف الخرافي الذي أرادت به سورمينا حمايتها من سحر ماهدالكا. كانت تشعر به يحرقها، فشدت عقدة السوار الصغير. وظلت تجذبها حتى فكتها.

كان خفيفًا، من خفة وزنه طار في الهواء قليلًا قبل أن يسقط على جانب الطريق ليبقى عالقًا فوق عود من أعواد الحشائش الطويلة.

قالت دورا في تصميم قبل أن تنطلق إلى البيت: لست مؤمنة به.

وقبل أن تصل إلى البيت كان ليل الخريف المظلم قد أحاط بتلّهم.

دخلت في هدوء، كي لا توقظه.

وعندما دخلت إلى حجرة المعيشة، لم تسمع شيئًا. كان واضحًا أن يعقوب ما زال نائمًا. فتحت الباب في حذر وسارت في الظلام تبحث عن مفتاح النور.

رأته على الفور بمجرد أن غمر النور الحجرة الصغيرة. كان يقف بالقرب من النافذة

وقد أنزل بنطاله حتى كعبيه وأخذ يمسح بيده قضيبه المنتصب. وعندما كشفه شعاع المصباح البارد، تجمد في مكانه. أخذ يحملق فيها بعينين جاحظتين بدون حراك، فقط ظل قضيبه ينكمش في يده أكثر وأكثر كلما مرت ثانية. وقف أمامها بعد لحظة مطأطئًا رأسه، منكمشًا من شدة الخوف، مرتبكًا تمامًا.

لم يكن هذا الموضوع جديدًا عليها. حدث ذلك عدة مرات من قبل، ودائمًا كانا يتجاوزانه بسلاسة، كان أمرًا طبيعيًّا.

لكن هذه المرة كانت مختلفة.

لم يتحرك يعقوب من مكانه، وقف كما لو كان قد تجمد في موقعه، وكان واضحًا من حركة عينيه وارتعاش فمه أنه غير قادر على استجماع أفكاره والسيطرة على ارتباكه. هل أخافه صوت الحفيف المباغت والضوء المركز؟ هل شعر بالذعر؟ أم أنه أحس بالخجل للمرة الأولى؟

حاولت دورا في تلك الثواني التي وقف فيها أمامها بسرواله المنسدل حتى الأرض، أن تقرأ ما في وجهه وتفهم ما يعتمل بداخله. وقبل أن تتمكن من تقييم الموقف وتهدئته بكلمات تطمئنه بها كما كانت معتادة، حدث تغيُّر. وبدلًا من أن يعتدل ويبتسم في ارتباك، كما اعتاد أن يفعل، ارتعش وصرخ، ثم قفز فجأة وكسر بيده النافذة، وأخذ يضرب رأسه بيده مرات ومرات، ظل يضرب نفسه ويلكم النافذة المكسورة التي تحولت إلى جزئيات من الزجاج المخلوع المسنن، كما لو كان قد جن.

- كفى! صرخت دورا وقد أصابها الفزع ثم انطلقت نحوه. تلقَّى يعقوب صرختها كما لو كانت إشارة موجهة ضده، فانطلق في نفس اللحظة نحوها.

لم تكن تتوقع أن يكون الهجوم ضاريًا إلى هذا الحد، لكنه هكذا كان. باغتتها قوة الهجوم فالْتَوَتْ ركبتاها وسقطت على الأرض ومن فوقها يعقوب بكل ثقله ذي الثمانين كيلوجرامًا.

انتابهما الهلع. وفقدت دورا السيطرة على نفسها لمَّا وجدت نفسها عاجزة عن تحريك جسدها تحت وطأة هذا الثقل، فبدأت تتلوى وتصرخ، فاختلط صراخها بزمجرة يعقوب البائسة وراح هو يضرب جسمها بجنون. لكمها عدة مرات بمرفقه، وضغط مرارًا

على صدرها وكتفها، حتى فاضت من عينيها الدموع مدرارًا من شدة الألم. وفي النهاية نجحت بحركة قوية في تخليص يديها بالقدر الذي يسمح لها بالتصدي لأكتافه. وبنفَس شبه مقطوع قالت: اهدأ، اهدأ، كل شيء سيكون على ما يُرام. فقط اهدأ!

لم يمتثل يعقوب لطلبها. واستمر يجذب جسده وهو مغمض العينين، وقد تحول صياحه إلى صراخ وعواء حل محل الزمجرة الصادرة من أعماق جوفه، وسال اللعاب من فمه على وجه دورا وركبتيها اللتين كان يقيدهما بسرواله المنسدل، وأخذ يوجه ضربات منتظمة إلى فخذيها وأسفل بطنها. وفي ظل تلك الحركة العنيفة لجسديهما نجحت في أن تطرحه على جنبه وأن تنزله من فوقها بصعوبة وهي تلهث، وقد امتلأ أنفها برائحة اللعاب والمني والعرق.

بدا يعقوب كما لو أنه قد انتابته هزة داخلية عنيفة، فأصبح مشدود الجسد بالكامل، ثم راح يتلوى على الأرض في تشنجات متتالية عنيفة حتى ارتطم بالأرضية الخشبية، وصار يشبه دمية من القماش وقد فقد كل قدرة على التحكم أو السيطرة على الذات.

غمرت دورا موجة من الهلع. أمسكت برأسه كي لا ينكسر فوق الأرض وفركت ظهره. وراحت تسند ظهره بجسدها الضعيف الذي لا يتعدى الستين كيلوجرامًا. كانت تريد أن تمنعه من أن يجرح نفسه، وهو ما نجحت فيه بصعوبة.

انتظرت دورا بعض الوقت حتى تحولت تشنجاته إلى ارتجافات، نهضت بعدها مسرعة، وأسرعت نحو الصندوق المثبت فوق السرير تفتحه وتخرج منه حقيبة الإسعافات الأولية المزودة برباط وسخّاب لتصبح في مأمن من عبث يعقوب، وحتى لا يأكلها إذا ما وقعت عليها يده ذات مرة. انزلقت أصابعها وهي تحاول أن تمسك بطرف الرباط بيديها المرتعشتين، ولكنه استعصى عليها وأبَى أن يخرج من مشبكه. حاولت مرة، مرتين ولم تفلح سوى في الثالثة، ثم فتحت السخّاب وأفرغت محتوى الصندوق على الفراش، وأخذت تفتش فيه بسرعة جنونية حتى استخرجت في النهاية العلبة التي كانت تبحث عنها. ذهبت مسرعة بجرعة الدواء مرة أخرى إلى يعقوب.

كان يضم فكيه بقوة، وشفتاه المتورمتان تشعان وسط وجهه بلونهما البنفسجي الغريب، وكان الدم يسيل من جرح في جبهته متجاوزًا وجنتيه ليصل إلى ذقنه. حاولت

دورا ضم وجهه حتى ينفتح فمه، لكن هيهات، كان يعقوب يقبض على أسنانه بإحكام. فانحنت على مؤخرته العارية، وبسرعة أخرجت حبة من الدواء ودستها في فتحة شرجه.

مع حلول الليل كانت تجلس في ردهة مستشفى أوهيرسكي هراديشتي، تفرك بعصبية معصمها الذي بقي على جلده أثر خط فاتح بعدما نزعت السوار الأحمر. وكانت قد انتهت بالفعل من الحديث مع الطبيب وهاتفت مؤسسة الرعاية التي يقيم بها يعقوب، ولم يتبقَّ شيء تفعله. كانت تشعر بالفراغ، ولم تبقَ في رأسها سوى فكرة واحدة مرعبة، لم يكن بوسعها إسكات صوتها: أن السبب فيما يحدث هو عدم تصديقها، وتشككها، وسخريتها من الخرافات، ومن الاعتقاد الأبله في قصة اللعنة، ولأنها فرَّطت في السوار الأحمر. أسندت رأسها على جدار القرميد بردهة المستشفى وأغمضت عينيها. الآن فقط بدأت تعي مدى حكمة قرار سورمينا، عندما أرادت أن تخفي عنهما لعنة ماهدالكا سواء كانت ترتكز على سحر حقيقي أم أنها عقيدة توجد فقط في عقول سكان كوبانيسته. فقد نزلت بعائلتها أحداث محزنة ومصائب كثيرة إلى الحد الذي لابد أن يثير سؤال: ماذا لو لم تكن تلك الأشياء التي حدثت لهم مجرد صدفة؟ ماذا لو كان ذلك قد حدث بالفعل بسبب تلك اللعنة، التي وصلت إليهما حتى بعد عشرات السنين؟ وكيف كان يمكن أن تمر عليها مرحلة البلوغ لو كانت تحمل داخلها تلك المعاناة؟ كيف كان يمكنها أساسًا أن تعيش بشكل طبيعي؟

لعلها كانت ستبقى تنتظر نزول تلك اللعنة في كل يوم. مثلًا لو لم يستعمل أحد السائقين فرامل سيارته وهي تمر بطريق هروزينكوف، أو أن يصيبها البرق عندما تدركها العاصفة على المنحدر، أو أن تنتابها نوبة صرع وتروح في غيبوبة مثل يعقوب الآن.

كانت تذكُره من أيام الدراسة. كان يحاضر في قسم تغيُّر شكل الحياة الاجتماعية في *القرية التعاونية*، وكان واضحًا أنه يعاني. وعندما اطَّلعتْ على خلفيته التربوية في الكتيب السنوي عرفت لماذا. كان متخصصًا في الآلات الموسيقية الشعبية، حصل على الدرجة العلمية عن رسالته *الآلات الموسيقية الشعبية* المندثرة بجنوب مورافيا. لذلك كان لابد أن تتسبب محاضراته عن القرية الاشتراكية في تعذيبه بل وتعذيب مستمعيه. وقد اشتهر حينها بأنه لم يكن يأبه مطلقًا بجمهوره. كان يحاضر وهو يثبّت عينيه عبر النافذة على الخارج حيث يوجد فناء كلية الآداب، وبالتالي كان من الطبيعي ألَّا يلحظ أن قاعة الدرس لا يوجد بها أحد. وكان دائمًا عندما يوجه نظره لمستمعيه يتلعثم، ثم يعود ليستكمل المحاضرة مرة أخرى وهو يبتسم في أسى للنافذة.

التقت به مرة أخرى عندما التحقت بالعمل بمعهد الإثنوجرافيا والفولكلور، وبصفتها مبتدئة كانت تقوم بمهام ثانوية مختلفة. وقد أوصلتها إحدى هذه المهام إليه، بالتحديد إلى المتحف المحلي بمورافيا.

كان يستعد للرحيل، وكان معروفًا بحدة طبعه وعدم استعداده لتقديم العون. وكان بقية الموظفين يتجنبونه؛ ولذا تركوه في الاسابيع الأخيرة يعاني الوحدة. يجلس وحده في حجرة المكتب التي تعج بالآلات الموسيقية القديمة التي طلبها من مستودع الآلات الموسيقية، وتركها بالحجرة لأعوام بغرض الدراسة. أما بالنسبة لبقية العاملين فقد كان يستوي عندهم وجودها من عدمه في مكتب مشترك يجمعهم معه. فضلًا عن أن إهمال الموظفين والمديرين وأمناء المستودعات كان أمرًا شائعًا، بل ربما لن يلحظ أحدهم إذا اختفت إحدى الآلات الموسيقية. وقد نما إلى علمها حينها أن تجارة الآلات الموسيقية في نهاية الثمانينيات كانت تجارة رابحة! طبعًا خلف حدود أراضينا.

ولم يكن روزمازال بالشخص الذي يفعل شيئًا كهذا. كان متيمًا بآلاته الموسيقية. لم يكن ليتركها تضيع من يده، بالتحديد من مجموعة مقتنيات المتحف. لم يكن ليتنازل حتى عن واحدة منها.

ثم تذكرته مرة أخرى عندما قرأت اسمه في التقرير الذي تضمَّنه ملف سورمينا.

مرت أسابيع وهي تحاول التواصل معه وكلها عزم أنها لن تستسلم بسهولة هذه المرة. حتى وإن كان مريضًا، أو نزيلًا بالمستشفى، حتى لو لم يسمح لها ابنه مطلقًا بزيارته، وكان مقيمًا ببيته. إلى أن تمكنت أخيرًا بعد عودتها من بوزناني في إحدى الأمسيات من أن تدق جرس الباب ببيت أنيق مكون من طابقين بـ برنو-جيدانيتسه. ودعوها للصعود إلى أعلى.

كان يرقد على أريكة بجوار النافذة وقد غطى جسده حتى المنتصف ببطَّانية. اتكأ بصعوبة على مرفقه ليرفع جسده إلى أعلى كي يرحب بها. كان واضحًا أن الحركة تتعبه، كما تصاحبها رعشة لا إرادية.

تكلم وكانت الكلمات تخرج بصعوبة من بين شفتيه اللتين لم يعد يستطيع حتى ضمهما. فراحت توجه نظرها مباشرة إلى داخل فمه الخالي من الأسنان. كانت تجلس أمام الأريكة بحيث تفصلهما عن بعضهما فقط منضدة صغيرة تحمل بعض المأكولات الخفيفة التي أعدتها لهما زوجة ابن روزمازال.

مدت دورا يدها على المنضدة لتصل إلى الكوب وتصب فيه قليلًا من الماء وتسقيه روزمازال بشفاط وضعته في فمه. أخذ يشرب ببطء ومن بين شفتيه يصدر صوتا كريهًا.

قال بعدها: كفى، أشكرك.. لكن ما الذي جاء بكِ إلى هنا؟ عادت دورا لتجلس على كرسيها مرة أخرى.

- من أجل رسالتي العلمية.

أومأ برأسه.

- عثرتُ أثناء جمع المادة العلمية على أحد التقارير التي قمتَ أنتَ بكتابتها، وهي تتعلق بساحرات جيتكوفا.

فأجاب روزمازال بتقلقل: ساحرات جيتكوفا؟

- نعم. جيتكوفا القريبة من ستاري هروزينكوف بمنطقة كوبانيتسه-مورافيا.

سكتَ لبضع لحظات، ثم رفع أحد حاجبيه إلى أعلى لتظهر تجاعيد الشيخوخة وهي

ترسم خطوطًا عميقة على جبهته العارية.

- أترين، كدت أنساها. لكن تعرفين.. لم تكن تلك القضية يومًا محل اهتمامي، ربما كنت منشغلًا بالموسيقيين من كوبانيتسه، وليس بهؤلاء النسوة.

- لكنك كتبتَ عنهن تقريرًا.

- كتبتُ تقريرًا؟ نعم ربما، لكن كتابة التقارير كانت واجبًا مفروضًا. أتعلمين أني كنت مرشحًا لدخول الحزب؟ نعم بالفعل. لكني لم أكن أرغب في ذلك، كنت أريد أن أبقى بالمتحف.

أومأت دورا برأسها وهي تخشى أن تتشتت أفكار روزمازال، فأجابته من جديد: نعم، أتفهَّمُ ما قلتَ.

- لا أدري، أنتِ ما زلت شابة، ما زلت أصغر من أن تستطيعي فهمه. أقصد أن تستوعبي معناه تمامًا.

- أتعلم، هذا التقرير عن ساحرات جيتكوفا يرجع إلى عام 1949، وكان يدور حول أنشطتهن إبان الحرب.

كانت دورا تحاول إعادته من جديد إلى الموضوع، لكن روزمازال لم يستجب:

- كنت أريد أن أستمر في عملي بالمتحف. كنت وقتها قد حصلت لتوي على درجة أستاذ مساعد. هل تستطيعين أن تتخيلي ماذا كانت ستجدي معي نفعًا، إن هم تركوني عالقًا هناك؟ وبغض النظر عن كوني منتميًا إلى الطبقة البرجوازية، فقد كانت عائلة والدتي تمتلك بيتًا بمنطقة فيسيلا، هل كنتِ تعرفين ذلك؟ لكنهم نسفوه لهم أثناء الحرب، وعلى الرغم من أنهم دمروه، لم نلجأ إلى الطرق الملتوية لاستعادته. والواقع أنهم لم يصادروه. لكن في كل الأحوال أحببت البقاء بالمتحف.

سكتت دورا وهي في حيرة من أمرها.

- كتبتُ بالفعل التقرير الذي كنت مضطرًا لكتابته، وكنت أرى فيه قليلًا من الشر بالمقارنة مع التنازلات التي كان يقدمها زملائي. تقرير هنا وآخر هناك. لذلك من الجائز أن يكونوا كلفوني بالكتابة عن موضوع ما، فكتبت عنه.

شعرتْ بالارتياح، لأنه لم يترك نفسه في الماضي بالكلية للضياع.

- وماذا كان موضوعه؟ لقد نسيت الموضوع تمامًا.

- الساحرات.. تلعثمت دورا كما كان يحدث دائمًا عندما كانت تتحدث عنهن. أولئك كن نسوة من طراز خاص، كن يعالجن بواسطة الأعشاب، وهو ما يُعرَف اليوم بالطب البديل. كن يسكن جبال الكاربات الأبيض وكن يتناقلن خبراتهن أجيالًا وراء أجيال. وأنا أتناول في بحثي أقدم أفراد تلك العائلة، ضحايا محاكمات الساحرات التي أقيمت في بويكوفيتسه. وقد عثر الألمان على الوثائق الخاصة بتلك المحاكمات وأخضعوها للبحث الذي توافرت علي الاضطلاع به وحدة الساحرات التابعة للوحدات الخاصة. هل تذكرت الآن؟

أومأ روزمازال برأسه: - آها! نعم.

ثم عاد يهز رأسه بالنفي: الحقيقة أن هذا الموضوع قد مر عليه حوالي خمسين عامًا.. وكما قلت لكِ كان اهتمامي موجهًا بالكامل صوب الآلات الموسيقية. ولا أذكر الكثير من تفاصيل تلك الإشكالية، ولا حتى من ذلك التقرير.

فسألته دورا: ألا ترغب في الاطلاع عليه؟ وكانت تحمله معها.

هز روزمال كتفيه: علي الرحب. وأتمنى ألا يكون مزعجًا.

أخرجت دورا من حقيبتها ملفات، بحثت بينهما لتعثر على النسخة المصورة من تقرير روزمازال. وعندما انتهت من قراءته، كان الصمت يسود أرجاء الغرفة. وكان روزمازال مغمض العينين، ثم قال بصوت هادئ: أنا لا أعجب من ابني.

شعرت دورا بقطرات العرق وهي تتصبب بطول عمودها الفقري، وقد أخذت تتبادر إلى ذهنها جملة تتلوها أخرى كانت ترددها في دراستها مئات المرات وهي تشعر بعذاب الضمير، حتى نُقشت في ذاكرتها... *ومن خلال بحث المفكرين الماركسيين، الذين أثبتوا زيف الاعتقاد في القوى الغيبية اعتمادًا على العلم المادي، نستنتج...* أو: *والتخلي عن التفكير العلمي يؤدي لا محالة إلى استعباد البشرية... وهكذا إلى آخره.*

وراحت دورا تحدث نفسها: لكن ذلك كله سيتغير، كل شيء سيتغير وفي أقرب وقت.

ستفك شفرة حياة الساحرات، لن تستسلم، وستكتب دراستها عنهن، لكن هذه المرة بلا تنازلات. وفي هذه اللحظة بدأت تسعل بقوة.

فزع روزمازال وفتح عينيه ثم قال: لابد أن تعرفي أني كتبت هذا من أجلهم هم. هذه النغمة وتلك الصياغة. شيء مروِّع. إنه النفاق.. باختصار كان هذا شيئًا مكتوبًا خصصيًا لهم.

وراح ينظر إليها في إعياء.

- كما تفضلتِ بالقراءة، كن رفيقات ريفيات بسيطات. هل تظنين أني كنت أكتب شيئًا كهذا في ظروف عادية؟ أنا الإثنولوجي المثقف، عالِم الموسيقي ذو الميول الفولكلورية. هل يُعقل أن أكتب شيئًا كهذا عن نسوة يمثلن قلب المجتمع الريفي؟ أكتب أنهن مجرد مواطنات قرويات من يصدقهن لابد أن يكون ظلاميًّا. لم أكن لأكتب ذلك. لم أكتبه إلا لأني أعرف أنهم يريدونه هكذا تمامًا كما كتبته. إلا أن الأمر كان واضحًا. ببساطة كان لابد أن يُعرض مدعومًا برؤية نظرية سليمة تتعلق بالتقاليد التقدمية وغير التقدمية، ولابد كذلك أن يكون مشبعًا ببعض من أدوات تلك اللغة التي يستخدمونها، وكنا نقول عن ذلك: *قليل من النفاق لا يضر*، كان لابد من استخدم القاموس المطلوب. وهكذا يمكنني أن أطمئن إلى أنهم سيتركونني وشأني، أي سيتركونني أعمل بالمتحف في هدوء. وعلى هذا الأساس قمت وزميلي فيروستا بكتابته. لكنَّ كلينا لم يكن يعرف عن هذا الموضع أي شيء. وخطاب ذلك الألماني لم يكن ذا أهمية تُذكَر. كما أن المراجع الأجنبية كانت في عام تسعة وأربعين غير متوفرة في أغلب الأحيان، هذا في حالة ما إذا كان لها وجود أصلًا فيما يتعلق بذلك الموضوع. تلك هي قصة التقرير.

تنهد روزمازال.

قالت دورا: لكن ما يعنيني هو أمر آخر.

تطلع إليها روزمازال في دهشة: ماذا؟

ما يهمني هو الشخص الذي كلفك بكتابة التقرير.

تعجب روزمازال: حسنًا، أو ليس مكتوبًا في التقرير؟

- لا، مكان الاسم مُسَوَّد. ربما حدث ذلك أثناء مراجعة التقرير. ومعلوماتي أن الموظف المسئول عن ذلك الملف كان يُدعى شفانتس.

صمت العجوز، ثم هز رأسه.

انحنت دورا على الأوراق: *بناء على خطاب د. رودولف ليفين، أحد أفراد الوحدات الخاصة في 17 يونيو 1948 تم تكليفي بكتابة التقرير بمقتضاه من قبل السيد...* وهنا يظهر مكان الاسم مسودًا، *وكذلك بترجمته إلى اللغة التشيكية. قمت بالتعاون مع البروفيسور رودولف فيروستا الأستاذ بقسم التاريخ بالمتحف المحلي بمورافيا...*

قاطعها روزمازال: أليس ذلك هو نفس الشخص؟

- ماذا تقصد بقولك نفس الشخص؟

- أقصد المدعو شفانتس. نعم، نعم. الآن تذكرت اسمه. بالفعل حدث ذلك بعد الحرب بقليل، وكانت لديَّ مشكلة تؤرقني دائمًا، وهي إذا ما كان عليَّ كتابة التقرير باللغة الألمانية أم التشيكية. إلا أنني على ما يبدو لم أنتقِ الاختيار الصحيح. تعلمين أن الأمر لم يكن ثابتًا، فأثناء الحرب كان كل التشيك يستخدمون الألمانية، وبعد الحرب كانوا يفعلون العكس. وأعرف الكثيرين من هؤلاء الذين غيروا أسمائهم لتصبح تشيكية، وربما كتبت الاسم خطأ، ولذا قاموا بتسويده.

نظرت إليه دورا في دهشة.

- نعم، بالتأكيد. الآن تذكرت. التقيت فقط بذلك المدعو شفانتس، ولم ألْتقِ بسواه. وسلمني ذلك الخطاب بشكل رسمي عبر المتحف وطلب مني كتابة تقرير علمي بخصوصه. وكتبت اسمه تقريبًا شفانزا أو شيئًا من هذا القبيل، باختصار كتبت لقبه بحسب اللغة الألمانية، ولهذا شطبه؛ لأن هذا لم يكن مقبولًا وقتها. وقد سلمته بعد ذلك إليه شخصيًّا، وأذكر انه كان سعيدًا به أيما سعادة، أقصد بالتقرير. وأظنه كان مهتمًّا بهذا الأمر بشكل خاص، أو هكذا بدا.

قطع سعال روزمازال تيار كلماته، ودخلت زوجة ابن الرجل إلى الحجرة. تساءلت: هل تحتاج شيئًا يا أبي؟

فأومأ روزمازال برأسه وهو يسعل سعالًا مكتومًا، قامت دورا على أثره وناولته الماء مرة أخرى. فخرجت المرأة وأغلقت الباب من خلفها في هدوء.

- أتدرين؟ لم يكن ابني ليصنع شيئًا كهذا. ولذا لا يمكنه تفهُّم الأمر. أنا كنتُ بكل بساطة مشغولًا بموسيقاي، ومن أجلها فعلت أشياء يرفض المرء فعلها في الأحوال العادية، أو يفعلها بشكل مختلف. وأكبر مثال على ذلك هذا التقرير. أعلم أنه كان أحد رجال البوليس السري، وقد كتبته تمامًا كما تصورت أنهم يريدون. ولكني لم أكن أعرف عن تلك النسوة شيئًا. وكان الأمر يستوى عندي إن كنت بذلك قد تسببت في إلحاق الضرر بهم من عدمه.

هزت دورا رأسها.

- لكن لم أكتبه من أجلهم.

بات واضحًا أنه بدأ يشعر بالراحة.

- على الأقل لم أفعل من أجلهم.

****

وفي اليوم التالي وصلت إلى مكتبها قبل الميعاد المعتاد بساعة. كان ضوء المصباح الباهت يضيء الأروقة التي أخذ يتردد فيها بخفة صوت وقْع خطواتها الذي كان يحد منه مشمع الأرضية البالي. وبمجرد أن خلعت معطفها الذي كانت تغطيه كوكبة من رقاقات الثلج المتجمد، اقتربت من الرف الذي تراصَّت من فوقه مجموعة من الكتب والمجلدات والملفات. مؤلفات الرواد المتخصصين في الفنون الشعبية، نسخ مصورة من التقارير الإثنوجرافية المرتبة طبقًا للموضوعات المزمع بحثها: أ (كوبانيتسه)، ب (الساحرات)، ت (موضوعات أخرى)، إضافة إلى بعض أعداد من مجلة *الشعب التشيكي* ومجلة *ماتيتسه بمورافيا*. ثم انتقل بصرها فجأة إلى أسفل ليتوقف عند مجلد بعنوان وحدة الساحرات التابعة للوحدات الخاصة. أخرجته وبدأت تقلب صفحاته بسرعة شديدة.

كان المظروف الشفاف المغطى بملصق يحمل عنوان „هاينريخ شفانزا" يحوي بضع أوراق دُونت بها ملاحظات بخط اليد، كانت دورا قد سجلتها أثناء زيارتها لـ بوزناني. ملاحظات سريعة؛ لأنها كانت تظن أنه لا يحتل أهمية تُذكر بين تلك الشخصيات التي

اكتشفتها هناك. عميل للبوليس السري مثله مثل العشرات غيره إبان الاحتلال، لم يكن يميزه عنهم سوى اهتمامه الخاص بالساحرات.

راحت دورا تردد في نفسها بهدوء: شفانزا، شفانزا، وتمر بإصبعها على نصوص ملحوظاتها. هنا. صور من الوثيقة التي تحوي مذكرة جهاز الاستخبارات، وقع عليها في أوائل عام 1940، بمرتب قدره 1400 كرون، زاد ليصل مع نهاية الحرب إلى ألفي كرون بالتمام والكمال. كان شفانزا يقينًا محتالًا. وُلد في: 20/7/1913.

تركت الملف مفتوحًا فوق المكتب واقتربت من الرف مرة أخرى لتستخرج من منتصفه مجلدًا أكبر حجمًا يحتوي ملحوظات تتعلق بملاحقة سورمينا من قِبَل أمن الدولة. أخذت تتصفح على عجل المستندات المحفوظة داخل ملفات شفافة، حتى عثرت بينها على الملف المعنون بخط بارز باسم „شفانتس يندرشيخ"، فأخرجته من المجلد.

صور وثائق سبق لها الاطلاع عليها حوالي مائة مرة، وتحوي مجموعة من الملحوظات دُونت على بطاقات صغيرة فارغة. تبعثر بعضها وانزلق ليسقط أسفل المكتب. بدأت دورا تقرأ أحد المقالات التي أرسلت تطلبها من خدمة قصاصات الصحف التابعة لصحافة جنوب مورافيا التي يمكنها توفير أي مقالات قديمة حتى تلك التي يصل تاريخ كتابتها إلى منتصف الثمانينيات.

صوت ياروشوف في 21/2/1986

أبدًا لن ننساك يا يندرا!

يوم يصدر هذا المقال يكون قد مر أسبوعان على رحيل الرفيق والزميل العزيز يندرا شفانتس. لم يكن ممكنًا أن أقبل بأن يعرف بخبر رحيله المحزن المقربون فقط وقليلٌ ما هم. هناك شيء يدفعني كي أعرِّفكم وأعرِّف قراء „صوت ياروشوف" بحياته التي وهبها للنضال ضد أعداء وطننا الاشتراكي، كي تعوا جيدًا قيمة ذلك الإنسان الكريم النفس الذي كان يعيش بيننا.

وُلد يندرا شفانتس في 20 يوليو 1913 بمنطقة نيمتشي الجبلية. كان رياضيًا كبيرًا منذ نشأته، وكان يفضل لعب كرة القدم، كما كان مغرمًا بقيادة الدراجات. استمر على

حبه للرياضة حتى ذلك اليوم الذي أصيب فيه أثناء أدائه لعمله. سقط من فوق السلَّم أثناء عمله بطلاء جدران الغرف، عندما كان يقوم بطلاء الغرف ببيت إحدى الأسر الألمانية من سكان المنطقة الجبلية، والتي استعانت به لتوفر أجر عمال الطلاء.

خضع بعدها للعلاج لفترة طويلة، ولأنه منذ ذلك الحين عجز عن متابعة العمل بوظيفته الأصلية، كان عليه البحث عن مصدر جديد للرزق، بل لعلي لا أبالغ إن قلت البحث عن رسالة. تلك التي وجدها في فكر لينين وماركس، وقرر أن يحولها بكل قوة وعزم إلى واقع مَعيش.

كان واحدًا منا، من هؤلاء الذين حاولوا تطبيق مبادئ الفكر العميق للفلاسفة الذين دلونا على الطريق إلى العيش الصحيح في مجتمع سليم قوامه العمال الشرفاء وأبناؤهم. وهو في ذلك لم يكتفِ فقط بالكلمات، ولكنه كان هو، يندرا شفانتس، الذي كافح من أجل سعادة مجتمعنا بالأفعال. وقد اشتهر وذاع صيته من خلال عمله الجريء عندما كان يقوم بتوزيع المنشورات الشيوعية؛ لذلك انتهى به الحال إلى التعرض للقمع من قبل البوليس السري الألماني (الجيستابو).

لكن عمله الشجاع هذا لم يبقَ حبيس النسيان، وقد التقينا بـ يندرا بعد الحرب بقليل في صفوف الشيوعيين بجنوب مورافيا، وفي حالتي أنا شخصيًّا كذلك بعد عام 1948 في صفوف حماة قانون هيئة الأمن القومي. وقد كنت شاهدًا أكثر من مرة على يندرا وهو يُعمل عقله من أجل اللعب بشرف ونزاهة، وهو ما لم يكن مستغربًا عليه باعتباره رياضيًّا قديمًا. في ذلك الوقت صرنا صديقين في الحلوة وفي المرة. في الخمسينيات كنا نخدم في نفس القسم، وكنا نلتقي تقريبًا يوميًّا. وغالبًا ما كنا نناقش معًا وعورة طريق الجمهورية الاشتراكية الشابة، وكنا نسأل أنفسنا: كيف سيكون مستقبلها؟ وكان يندرا مقتنعًا أنه سيكون على الصورة التي سنرسمه بها نحن. ولهذا كان يُفني نفسه في العمل. كان يقضي به كل أوقات فراغه لدرجة أنه لم يتبقَّ له وقت كي يصبح رب أسرة. كان العمل هو كل شيء في حياته. فكان أول من يحضر إلى العمل وآخر من يغادره، ولم يكن يعترف بعطلة نهاية الأسبوع والأعياد. كان يعمل بلا كلل أو ملل بكفاءة مائتين بالمائة، وبفضل جهوده تمكنَّا من الوصول إلى الكثير من العناصر المناوئة التي كانت تهدد الحياة الوادعة بجمهورية تشيكوسلوفاكيا.

أنا فخور لأني كنت يومًا صديقًا لـ يندرا، وأشعر بالأسى لكوني لم أستطع مساعدته في معركته الأخيرة. إلا أنها لم تكن معركة عامة، كانت شخصية. إنه ذلك المرض الخبيث الذي كان يأكل جسده من الداخل، الذي داهمه بعد بضعة أسابيع قضاها في بلدته الحبيبة. ولم يحمل أحد المناضل يندرا إلى المستشفى. توفي ليلة السابع من فبراير 1986.

يندرا، يا رفيق الكفاح، لك كل احترامي، وأعدك – لن ننساك ما حيينا! وأقسم لك على ذلك نيابة عن الزملاء والأصدقاء.

أنتونين ليتشيك

هكذا إذن؟ تاريخ ميلاد الرجلين متطابق. ارتمت دورا على الكرسي.

مرت الأشهر الأخيرة بإيقاع شديد السرعة حتى إنها لم تستطع متابعة العمل على دراسة سيل الحقائق الجديدة التي توصلت إليها. لم تستطع بعدُ هضم المعلومات التي عثرت عليها بملف سورمينا، وأخذ ينهال على رأسها فيض من ذكريات باجلاركا وإيرما. وكان يعقوب جزءًا من ذلك الفيض.

ثم حدث ذلك بعد أن وصلها ذلك الخطاب من الوزارة، بعدها شرعت في البحث والتنقيب واستطاعت التوصل إلى العديد من المعلومات الجديدة التي كان مقال ليتشيك يمثل أهم مصادرها، لكنه في المقابل كان أقصى ما استطاعت التوصل إليه. وبعد عدة مكالمات هاتفية سلبية حاولت فيها التواصل مع مركز الشرطة الرئيسي بـ أوهيرسكي هراديشتي ومكتب بلدية ياروشوف لم تجد مجالًا أو موضعًا تواصل البحث فيه.

والآن بدأت تتكشف لها الأمور من جديد وبشكل أكثر وضوحًا. شفانزا – شفانتس. إنه ذلك الشخص الذي استطاع عبر الأنظمة المختلفة أن يتلون بمهارة كي يحمي نفسه. الشخص الذي داس بأقدامه رءوس الساحرات، رأس سورمينا، داس طويلًا حتى سحقها.

كرست دورا الأيام التالية للتنقيب عن أخباره. أجرت مكالمات هاتفية، سألت الناس، بحثت على الإنترنت، قرأت تقريبًا كل مقتنيات مكتب توثيق وتعقُّب جرائم الحقبة الشيوعية، كما تواصلت معهم هاتفيًّا. لكنها لم تصل إلى جديد. لم يُفدها أحد بأكثر مما كانت تعرف بالفعل. كل الطرق كانت تؤدي إلى وهم وسراب.

ثم جاء يوم تبسمت لها فيه السعادة بعد محاولات عديدة فاشلة.

في صبيحة يوم من أيام ديسمبر كانت تقف بمحطة الباصات في ستاري هروزينكوف الساعة الخامسة والنصف انتظارًا للحافلة التي ستُقِلُّها إلى أوهيرسكي برود. كانت تدق الأرض من تحتها بقدميها، وتحتضن أنفاسها بكفيها، وتتابع كيف تتحول أنفاسها بعد خروجها من فمها إلى بخار ماء. كانت القرية من حولها ما تزال نائمة، ولم يكن يُسمع فيها صوت إلا صياح الديكة ونباح الكلاب المتقطع، الذي ينذر بأن اللحظات القادمة ستحمل معها لكل شيء الحياة. وبالقرب من طريق فيشكوف لمحت من بين الظلام والضباب الذي بدأ يتلاشى رجلًا محدَّب الظهر يجر عربة يد. وصلت الحافلة متأخرة قليلًا.

حاسبت السائق ثم اتجهت إلى الخلف والسيارة تنطلق في حركة متقطعة. أمامها بالمقعدين الأماميين كان اثنان من المسافرين يغفوان. وما هي إلا بضع لحظات حتى راح الدفء وحركة الحافلة تهدهدانها هي الأخرى، فنامت حتى وصلت الحافلة إلى ميدان أوهيرسكي برود وبالكاد استطاعت أن تقفز منها. وكان موعد الباص التالي المتجه إلى براكشيتسه بحين قبل السابعة بقليل. وفي السابعة والنصف كانت قد وصلت بالفعل إلى ميدان براكشيتسه الذي يتخذ شكل دائرة من العشب الجاف المغطى بالثلج وتتوسطه شجرة زيزفون ضخمة عارية من أوراقها، وتحيط به بعض المنازل القابعة قرب الأرض وتطل جميعًا على شارع رئيسي واحد.

سارت على مهل كي تتمكن من متابعة أرقام المنازل. لم تجد المنزل رقم سبعة وعشرين المكتوب أمام العنوان بمفكرتها. وكانت حدود القرية تنتهي عند سياج من الأسلاك الشائكة المتهالكة. وبالقرب من أحدها كلب يركض وينبح في يأس، إلا أنه لم ينطلق نحوها على الرغم من وجود فتحات كان يمكنه أن ينفذ إليها من خلالها. وها هو صوت بوابة أحد البيوت تصرصر ويخرج منها شخص يصيح بغلظة مناديًا: كريتين، اسكت، كف عن النباح!

أرادت دورا أن تعبر الطريق إلى الجانب الآخر، لكنها قبل أن تستدير راح صوت

الرجل يتجه نحوها: وأنت ماذا تفعلين هناك؟ مالك تحومين حول السياج هكذا؟

ترددت دورا قليلًا، لكنها بعد ذلك قالت في نفسها: لِمَ لا أستغل هذه الفرصة؟

- أبحث عن المنزل رقم سبعة وعشرين، منزل السيدة بيتينوفا.

- أنتِ الآن تسيرين في الطريق الخطأ، إنه على الجانب الآخر. عليكِ العودة إلى الميدان ومواصلة السير حتى تصلي إلى الكنيسة وبعدها يمينًا إلى أسفل في اتجاه البركة.

صاحت دورا: شكرًا. ثم استدارت وعادت لتسير كما وصف لها الرجل.

كان البيت المقصود هو أحد آخر البيوت في الطرف الآخر من القرية. توقفت دورا أمامه قليلًا، ثم راحت تنظر إلى الفضاء الواسع الذي يبدأ من عنده ويمتد في الأفق المتعرج حتى النقطة التي استطاع أن يصل إليها بصرها. بعض الحقول الشاسعة كانت تكتسي باللون البني، أما بقية تلك الحقول وهي الأقرب إلى الغابة فقد تغطت بذرات الثلج. وانعكس ظل السحابة المقبلة بسرعة على سطح مياة البركة في الوادي الصغير.

فكرت في الذهاب إلى البركة والعودة بعد ذلك؛ كي تتدفأ قليلًا. وكان عليها أن تنتظر؛ حيث إن الوقت ما زال غير مناسب للزيارة.

قبل دقات التاسعة بقليل كانت هي تدق جرس باب البيت رقم سبعة وعشرين. لم يكد إصبعها يترك زر الجرس حتى سمعت وقع أقدام غير منتظم من خلف الباب. فتحت لها الباب سيدة مسنة.

- طاب صباحك، أنا دورا إيديسوف، اتصلت بكِ يوم الخميس.

ردت المرأة وهي تجفف يدها المبللة بالمنشفة: نعم، نعم. لاحظت دورا البروز الشديد لعروقها الزرقاء وجلدها المغضَّن بالبقع الغامقة المصاحبة للشيخوخة.

همست المرأة بسرعة وهي تستدير:

- لن نبقى هنا. عودي مرة أخرى إلى الميدان، وسأحضر كي أصطحبك من هناك إلى المقابر. ابني لا يرغب، لعلكِ تفهمين قصدي.

أومأت برأسها، ثم أغلقت المرأة الباب.

سارت دورا على مهل لمدة عشرين دقيقة.

- لم أخبر ابني. فهو قد لا يرغب في أن أتحدث مع أحد عن يندرا. ربما يؤذي المرء بذلك سمعته، لعلكِ تدركين ما أعنيه. لكنني لا أتفق مع هذا الرأي. ولا يعني هذا أنني شديدة الفخر به، لابد أنك تفهمين، لكن الأمر لا يبدو على هذه الدرجة من السوء. فقد كانت الظروف حينها سيئة، كل إنسان كان يعمل كل ما يستطيع عمله كي يوفر لقمة العيش. ويندرا كان رجلًا طيبًا، لكن حظه كان عاثرًا. وكان ذلك بسبب وجوده معهم، لعلكِ تفهمين، من هنا ببساطة حدث ما حدث.

لم تكن دورا تدري إن كانت تقصد الجيستابو أم مباحث أمن الدولة، لكنها ارتأت أنه من غير اللائق أن تبادر بطرح الأسئلة في بداية الحديث.

- لكن كيف توصلتِ إليّ؟

أخذت دورا تتنحنح.

- قرأت في أحد المراجع أن أخاكِ ولد بمنطقة هورني نيمتشي. وقد تواصلت مع السجل المدني وطلبت منهم إعطائي عنوانه الجديد. فردوا عليَّ بأنهم فقدوا عنوانه منذ وقت الحرب، وأنهم ربما أخلوا بيته من ساكنيه، وأن أسرتكم كانت ألمانية الأصول. لكنهم دلوني عليكِ. قالوا إنكِ تزوجتِ سنة خمسة وأربعين وبقيتِ هنا. وأنكِ تقيمين في براكشيتسه. وأعطوني عنوانك. وأعتذر لأنني اتصلت بكِ بدون سابق معرفة.

- لا عليكِ، لست غاضبة. أنا فقط لديَّ فضول يدفعني لمعرفة سبب زيارتك، وعليكِ أنتِ أيضا أن تخبريني بكل شيء. وهل من حقهم في هذا السجل المدني الإدلاء بأية معلومات؟ هل لهم أن يخبروكِ بمحل سكني وبأني ألمانية؟

- لا أدري. لكنهم أخبروني.

- حسنًا، على كل حال سينتشر الخبر سريعًا بين الجميع، واسمي نفسه إينجيبورج شفانزا، الذي أصبح بيتينوفا، كان يبدو حتى الآن اسما تشيكيًّا. فهم ينادونني إينا،

لكني عندما كنت أقدم بطاقتي الشخصية في الماضي كانت دائمًا تظهر على الوجوه ضحكات سخرية، ليتكِ رأيتها. تزوجت مباشرة بعد التحرير. وكان واضحًا أن الألمان هنا سيعانون الأمرَّيْن بعد الحرب. وقد كان، فقد تم طرد معظمهم. لكني كنت طوال فترة الحرب على علاقة برجل، كانت علاقة حب جمعتنا منذ أيام الدراسة. وكان اسمه لودفيك، وقد غيبه الموت عني منذ عشر سنوات على أثر إصابته بالسرطان. تزوجني مباشرة في مايو تخوفًا من أن يجدَّ أي جديد يعقد الأمور. حملت على الفور بمجرد أن تزوجنا، وكان ذلك في فصل الربيع، وكانت سعادتنا لا توصف بانتهاء الحرب. وصارت الشهور الأولى بعد التحرير أسعد فترات حياتي، على الرغم من أنها لم تكن كذلك بالنسبة لمعظم الألمان المقيمين هنا. وكنت أظن أن يندرا قد جرفه كذلك التيار، عندما مرت أربعة أعوام لم نرَه فيها وانقطعت عنا أخباره. وتواصلنا مع الصليب الأحمر، بحثنا في أماكن عديدة، إلا أننا لم نعثر له على أثر. وفي بداية عام ألف وتسعمائة وخمسين فجأة رأيناه يدق جرس الباب. هكذا وكأن شيئًا لم يكن، كما لو كان قد ذهب لتناول القهوة في مكان ما ثم عاد. لم يكن راضيًا عن ذلك الذي حدث. وبدأت تتناثر أخبار عن يندرا مفادها أنه كان قبل الحرب مسجونًا، وأنه أثناء الحرب كان يتعاون مع النازيين. لكِ أن تتخيلي. وعلى الرغم من أن تلك الأقاويل لا تعين على معرفة الحقيقة، لكني عرفتها. لم تكن أحوالنا على ما يرام. وكان الجميع يظنون أن عائلة شفانزا أوضاعها المادية جيدة، فهم يمتلكون بيتًا من عدة طوابق في هورني نيمتشي بالإضافة إلى قطعة أرض مزروعة، لكن ذلك لم يكن يعود علينا بالكثير. لم نكن نجني من ورائه إلا ما يكفينا بالكاد لحفظ الرمق بالذات في زمن الأزمة، وكنا نحمد الله على ذلك. أنا لا أذكر ذلك جيدًا، تعرفين ذلك، لم يكن المال أمرًا يسترعي انتباهي كفتاة صغيرة، لكني علمت من أهلي أننا كنا راضين لمَّا استطعنا تخطي الأيام الصعبة. لم يكن لدينا أية مدخرات، وكان الخوف من المستقبل لا يفارقنا، حتى صار هو الشغل الشاغل لنا وأكثر ما يهمنا. ثم أضيفت إلينا نفس جديدة، تزوج يندرا. وجاء يجر خلفه تلك العاهرة، الله وحده يعلم من أين أتى بها، كانت جميلة، بالفعل كانت كذلك، لكنها بخلاف هذا كانت عاهرة. استطاعت أن تلفَّ شباكها حوله في إحدى حفلات الرقص بالقرية، وكان حينها مخمورًا. ثم حملت، فماذا كان عليه أن يفعل؟ هكذا لم يكن هناك بُد من أن يتزوجها. لكنه في نفس الوقت كان يحبها، نعم بالفعل كان مغرمًا بها، وإلا لكان تخلى عنها، فقد كان حينها شابًّا صغيرًا. وكان لابد أن يقيما معنا،

معدة جديدة تضاف إلى الموجودين بالبيت، كانت مأساة. وكانت لينا، هكذا كانت تُدعى، كثيرة الشجار مع أمي. لكن أمي كانت امرأة قوية ولم تكن لترضى بذلك الوضع. وكان ذلك عامًا سيئًا عشناه جميعًا معًا في بيت واحد. وقد دخل يندرا السجن بعد ذلك بعام. مسكين! هل فعل ما فعل من أجلها؟ كانت لينا قد سئمت طول الشجار مع أمي فأجبرته على البحث عن مسكن آخر لهما، وأن يعمل أي شيء يجلب لهما به مالًا يستطيعان من خلاله تدبير ذلك الأمر، كانت تضغط عليه بلا هوادة. ولذا لم أستغرب عندما فقد صوابه وراح يسير في طريق معوج. أنا على يقين من أنه لم يكن يريد سوى سرقة بضعة أشياء تافهة. ولم يكن بكل تأكيد ينوي ارتكاب جريمة قتل، وأن ذلك قد حدث بمحض الصدفة، عندما وقف ذلك العجوز في طريقه. ولأن يندرا كان في قرارة نفسه إنسانًا طيبًا، لم يستطع إيذاءه؛ ولذا لم يقتل جارنا هذا. لكنهم قبضوا عليه وحبسوه وبقي في السجن خمس سنوات. أما تلك العاهرة فقد تركته وهربت بالطفل بعد المحاكمة مباشرة، ولا أعلم إلى أين. اهتز كيان يندرا مما فعلت. وتسبب ذلك في انهياره بشكل تام. أعرف ذلك، حيث قمت وأمي بزيارته في السجن عدة مرات. كانت مأساة بكل ما في الكلمة من معنى.

أخلوا سبيله قبل الحرب مباشرة، بعدها كرس حياته للعمل. لعلكِ تفهمين، راح يبحث عن طريق لتحقيق الذات، ومن يومها لم يعد يثق بأية امرأة. وهكذا ابتلعته الحقبة الجديدة وآفاق العمل الجيدة، بالتحديد انحاز إلى الجانب السيئ. في البداية كان يسافر ويعمل كمترجم، وكانت هناك وقتها حاجة كبيرة إلى هؤلاء الذين يترجمون من وإلى الألمانية والتشيكية، ثم ترقى، بحيث لم يعد يتردد علينا إلا نادرًا، ربما كانوا يرسلونه في مهام عظيمة الأهمية. وبعدها اختفى بالكلية، كما قلت لكِ منذ عام ألف وتسعمائة وخمسين. والآن هل لي أن أطلب مساعدتك؟ هل يمكنك أن تُمسكي بهذا، فلم أعد أستطيع مواصلة السير به؟

استمر الحديث حتى وصلتا إلى المقابر. كانت طوال الوقت تدفع أمامها عربة صغيرة وضعت بها حقيبة ممتلئة عن آخرها، كان بها بعض الادوات وإكليل كبير من زهور عيد الميلاد. لم تطلب المساعدة حتى تلك اللحظة عندما توقفتا بالعربة أمام بوابة المقابر. انحنت دورا تلتقط الأشياء من أسفل السلة، ثم وضعت الحقيبة على ذراعها وبصدر

امتلأ برائحة الصنوبر وهي تحتضن الحقيبة انطلقت خلف السيدة بيتينوفا التي كانت بالفعل تسير بين المقابر.

قالت عندما لحقت بها دورا: هنا يرقد لودفيك. أحببت أن يكون قبره فاتح اللون. فقد كان كل شيء فيه هكذا مشعًّا. شعره، عيناه، والأهم من ذلك كله روحه. كم كان وديعًا! كانت خسارة كبيرة أن يرحل هكذا مبكرًا. لكنه ظل يعاني من المرض فترة طويلة؛ ولذا استطعت تقبل الأمر عند وفاته. ربما لن يمر وقت طويل حتى توضع هنا أيضا صورتي. هل ترين؟ طلبت منهم وضع اسمي وإطار الصورة مباشرة هنا. وعندما أموت سيكون عليهم فقط إدخال الصورة فيه، ثم يقوم البنَّاء بكتابة تاريخ الوفاة. وربما يكون من الأفضل أن تكون الوفاة في بداية العام حتى لا يحتوي التاريخ سوى صفر واحد كي لا يتخطى حافة الإطار، أترينه؟ كان يمكنني شراء أسطوانة أكبر، صحيح، إلا أن ابني قد غلبني على ذلك أيضًا، فهو شديد الشح.

أخذت دورا تنظر إلى شاهد القبر الذي كتب عليه بحروف من ذهب: إينا بيتينوفا (17/6/1925-). وبالفعل كانت مساحة الفراغ داخل القوس صغيرة.

ثم قالت في ارتباك: ربما يحدث ما تتمنين.

- ولماذا جئتِ، أنا هنا ظللت أحكي بدون أن أعرف ماذا تريدين أن تعرفي بالضبط.

كانت دورا تتوقع ذلك السؤال. وكانت منذ اللحظة التي سمعت فيها بوجود إينجيبورج شفانزا، أي بيتينوفا بعد الزواج، كانت تفكر فيما ستقوله لها.

- كنتُ أود معرفة أحواله، أو بالأحرى كيف كانت حياة أخيك بعد الحرب. لأني أعتقد أنه كان يعرف خالتي...

قاطعتها بيتينوفا: أتعتقدين أنه كان على علاقة بها؟ يندرا؟ أترين، وكان دائمًا يؤكد لنا أنه لا يفكر مطلقًا بالنساء. على الرغم من أني أعرف أنه استمر بعد الحرب يبحث عن لينا. ولكن ليس من أجل أن تعود إليه، لا ليس لهذا السبب، ولكن ليعرف مصير ابنه. وأعتقد أنه لم يعثر عليهما. لكنه لم يذكر أمامنا شيئًا عن أي امرأة غيرها. أكان على علاقة بامرأة أخرى؟ إذن نحن أقارب، إذن لماذا لم نعرف بذلك؟

- لست على ثقة من كونهما كانا على علاقة ببعضهما.

- ومن تكون تلك المرأة؟ تقولين خالتك؟ وهل كانت جميلة؟

- عاشت خالتي وحيدة، لم تتزوج مطلقًا، وهي التي ربتني. لكنها توفيت في عام تسعة وسبعين، ولم يتسنَّ لي التحقق من علاقة أخيك بها إلا الآن، لهذا أتيت أسألك إن كان ذكرها يومًا أمامك.

- وحيدة؟ تلك المرأة هي التي بوسعها أن تفهمه وتشعر بما يحسه. لكنه لم يذكر لي شيئًا عنها. لكن اسمعي، هذا لا يعني أنه لم يكن يعرفها، فنحن لم نكن نلتقي إلا قليلًا. كما قلت لكِ زوجي لم يكن يحبه؛ لذا ظللنا لأعوام طويلة لا نلتقي ولا حتى في أعياد الميلاد. ألا ترين أنه ربما كان في ذلك الوقت معها؟ وكنت دائمًا أتساءل أين هو وماذا عساه يفعل!

فأجابت دورا: لا أظن.

- وماذا كان اسمها؟ ومن أي البلاد هي؟ ربما يساعدني ذلك على تذكر أي شيء.

ترددت دورا قليلًا، ثم تشجعت.

- اسمها تيريزيا سورمينا، وكانت من جيتكوفا.

انتصبت بيتينوفا واقفة وكانت حتى تلك اللحظة تسوي الحصى المتجمد داخل المستطيل المحيط بحواف القبر بالمِدَمَّة.

- بالفعل من جيتكوفا؟ بالتأكيد لم يكن يقضي عيد الميلاد معها. هذا إن كانت هي تلك المرأة التي أعرفها من جيتكوفا، فلا يمكن أن تكون بينهما أية علاقة. وغالبًا ستكون هي تلك المرأة التي حكى لنا عنها عندما كنا نزوره بالسجن وقال إنه سيقتلها. لكن لا تخافي، يندرا لا يمكن أن يفعل شيئًا كهذا. كان يقول ذلك فقط من فرط غضبه، لكنه عمومًا كان طيب القلب كما قلت لكِ. لكن لابد أن خالتكِ هذه كانت شخصية حقيرة. ربما لم تكوني قد وُلدتِ بعد حينها، كما أشك أنها كانت لتتباهى بما فعلت، هل لديكِ فكرة عما كان منها؟ في ذلك الوقت لم يكن يندرا قد قُبض عليه بعد، ولكنه بعد أن فر من ذلك البيت الذي سطا عليه، ذهب العجوز، الذي نجا من القتل، بعد عدة أشهر إلى امرأة مجنونة تقيم بـ جيتكوفا، يا لها من شيطانة، لو كانت خالتك هي نفسها تلك المرأة، فقد أخبرته في جلسة لتحضير الأرواح بأن من قام بمهاجمته وسرقته هو جاره، وأنه

هو نفسه ذلك الشخص الذي يعامله أفضل معاملة. وهكذا دلهم على يندرا؛ لأن يندرا كان يتعامل مع الجميع بمنتهى الطيبة، باختصار كان رجلًا حسن الخلق. ثم حدث أن وجدوا عنده المسروقات. وهكذا اعتبر تلك المجنونة، التي كانت تسمى نفسها ساحرة، هي المسئولة عما جرى له. لولا تدخلها لما كشف ذلك اليهودي هويته، ولانتهي كل شيء بمرور الوقت على خير. فهو لم يُصب بأذى، كما أنه ما زال لديه من المال الكثير. وكان يمكنه التغاضي عن بضعة أشياء سُرقت منه. وربما تمكَّن يندرا بذلك من مواصلة العيش مع زوجته التي لم تكن لتتركه لو مرت الأمور بسلام. هكذا كان رأيه بكل تأكيد. ثم أشارت بيدها، والآن ناوليني من فضلك ذلك الإكليل. انحنت دورا نحوها تعطيها إكليل عيد الميلاد.

وضعته بيتينوفا وسط الحصى أمام شاهد القبر، ثم قالت: أستطيع أن أؤكد أن الشعور بالمرارة مما فعلته تلك الساحرة ظل عالقًا في حلقه طوال حياته. أنتِ ابنتها؟ أتعلمين أن هيئتك عادية؟ أم أنك تعتبرين نفسك كذلك ساحرة؟

- أنا ابنة أختها. ولعلمك خالتي كانت بالأساس مُعَالِجة بالأعشاب، كانت تداوي الناس.

- ولهذا السبب كانت تعتبر نفسها ساحرة؟ أليس هذا بالأمر الغريب؟

- بل هكذا كان أهل القرية يسمونها. وكان يوجد بمحيط هروزينكوف عدد كبير غيرها من أولئك اللواتي يعالجن ويقرأن المستقبل.

- من هروزينكوف؟ وهل توجد جيتكوفا هذه بالقرب من هروزينكوف؟

- نعم، توجد أعلى تلال هروزينكوف، وتعتبر منطقة منعزلة.

- لكنه كان يذهب إلى هناك، أذكر ذلك جيدًا، وكان ذكرها أمامنا من وقت إلى آخر. وحدث ذات مرة أن تمنيت لو تعرَّف على أية امرأة، وكان حينها يتحدث عن امرأة تدعى يوسيفينكا. كان يعجبني الاسم بصيغة التصغير هذه، وما دام قد نطق اسمها مقرونا بصيغة التدليل، فلابد أنها كانت تعني بالنسبة له شيئًا مهمًّا. ولكنه كان يضحك من قولي هذا ويقول إنها مجرد امرأة تتعاون معهم، أو إنها علاقة عمل أو شيء من هذا القبيل، وأنها أكبر منه سنًّا؛ ولذا لا ينبغي

أن أترك لخيالي العنان كي يجمح. فقلت لنفسي: ولِمَ لا؟ وماذا لو تعلَّق بامرأة أكبر منه سنًّا؟ لن يكون أول من فعل ولا آخرهم. ولكنه رد بأنها امرأة طاعنة في السن وإنه لا يمكن أن تجمعه علاقة بمثل هذه الساحرة. ربما كانت امرأة غريبة الأطوار، أو خطيرة، بل ربما كان ذلك اسمًا حركيًّا، ولكِ أن تحكمي مَن ذلك الذي يطلق اسم التدليل هذا على امرأة مسنة. ألا تعرفين امرأة هناك بهذا الاسم؟

- تساءلت دورا في شك: يوسيفينكا؟

- نعم، يوسيفينكا.

- ألم يكن اسمها على الأرجح يوسيفتشينا؟

- يوسيفتشينا! نعم إنه هو! كان اسمها فيه تدليل على خلاف ما كان معتادًا، لكن بالفعل معكِ حق كان يقول يوسيفتشينا وليس يوسيفينكا. كان له وقْع جميل على الآذان، يوسيفتشينا؛ ولهذا ظننت في البداية أن الأمر يمكن أن تكون له أبعاد أكبر، ما دام يذكرها باسم التدليل هذا.

أومأت دورا برأسها: لعله كان كذلك.

أشعلت عود الثقاب وأوقدت أول شمعة من الشموع الأربع الموجودة داخل الإكليل. أخذت الشعلة الخافتة تومض بين كفيها قبل أن تشتد وتعلو. قالت المرأة بابتهاج وهي تنهض على مهل: تمام.

- كنت أتمنى أن تكون في حياته امرأة. كان وحيدًا! وكان وجود المرأة سيفيده بشدة، بالذات لو كانت أكبر منه سنًّا. فالرجل لا يمكنه العيش بمفرده، وإلا أثر ذلك بالسلب على تفكيره. وقد مات يندرا، يا أسفي عليه، متألمًا حزينًا. أتعلمين أين يوجد قبره؟ في هراديشتي. وقد أوصى بحرق جثمانه، كما أوصى بأن تثبت بالجدران لوحة صغيرة تحمل اسمه حتى لا يتجشم أحد عناء الاهتمام بقبره؛ لأنه ليس لديه عائلة تقوم بذلك. وهناك على تلك اللوحة توجد صورته وهو في الخامسة والأربعين من عمره. وكانت لنا صورة تجمع أفراد عائلتنا، طلبت منهم تكبيرها ووضعها أعلى القبر. اذهبي إلى هناك وانظري إليه لعلك ترين بنفسك كم كان وسيمًا.

وقفتْ هناك في مغرب ذلك اليوم ملتحفة معطفها وشالها الذي كان يغطي شعرها. كانت تسير بخطوات منتظمة كما لو كانت ماكينة. اتخذت قرار الذهاب إلى هناك بعد حديثها مع بيتينوفا، والآن أدركت لتوها حجم الخطأ الذي ارتكبته.

لم تفكر طويلًا. ذهبت إلى هناك مباشرة بعد أن قضت عدة ساعات عند يعقوب بالمستشفى دون أن تعرف إن كان يشعر بوجودها معه. كانت تأمل في أنه ربما يحس بها في أعماق روحه. خرجت من غرفته باكية وغير مستعدة لمتابعة النبش في الماضي. فالحاضر هو ما يعنيها الآن.

استقبلتها المقابر بالهدوء وبوميض أضواء شموع عيد الميلاد المضيئة.

سارت بخطوات بطيئة وهي ضائقة الصدر بمحاذاة الجدار المحيط بالقبور المثبت عليها لوحات رخامية بحجم كتاب مفتوح حتى وصلت إلى قبر شفانتس. كانت مثبتة في مستوى نظرها، وبجوار الإطار الصغير المستدير الذي يحمل صورة يطل منها رجل في منتصف العمر، يوجد اسمه منحوتًا بماء الذهب. كان لابد أن تقترب كثيرًا كي تتمكن من رؤية صورته بوضوح في ظلمة بداية ليلة من ليالي شهر ديسمبر.

وقف أمامها وجه منحوت مستدير لرجل ذي وجنتين مستديرتين أكسبتاه بعض الشموخ، وظل يتطلع فيها. وكان من الطبيعي تصور أن تلك الوجنتين قد صارتا أكثر هيبة بمرور الزمن واندمجتا مع لُغْده وهذا الأخير مع رقبته. وأسفل جبهته غير العريضة استقرت عينان داكنتان، وكانت شفتاه الدقيقتان تبدوان في الصورة مضمومتين بشدة وصرامة بشكل لا يوحي بأنه كان مستمتعًا باللقاء العائلي الذي شهد التقاط تلك الصورة. كان يبدو مهمومًا، صلبًا وعنيدًا.

ولم يكن بالقطع يبدو وسيمًا، كما لم يحمل ملامح قاتل.

تحرك في نفس دورا وهي تنظر إليه شيء، ولم تكن تدري ما إذا كان ذلك الشيء سينتهي بها إلى البكاء أم إلى الصراخ. لذلك فضلت أن تغمض عينيها وتتنفس بعمق إلى أن استطاعت التغلب ذلك الشعور الجاثم على صدرها.

راحت تحدث نفسها وهي تتطلع في وجهه: هكذا إذن كان يبدو. ذلك الرجل الذي

أوصل سورمينا إلى مستشفى الأمراض العقلية، حيث تحولت إلى بقايا إنسان، امرأة مجذوبة تتمتم بكلماتها الأخيرة: لا تثقِي بهم! أخذت تتردد في نفس دورا ذكرى ذلك اليوم وهي تقول لها: لا تثقِي بهم! كانت كلمات سورمينا التي يصعب تمييزها من بين الأزيز تدوي في أذنيها. وأخذت تتذكر بقية أجزاء الجُمل التي كان وقعها عليها كضرب السياط، والتي كانت حينها تصدر من فمها الخالي من الأسنان. وفجأة وبهدوء وعلى مراحل كما لو كانت تخرج من بين الضباب بدأت تكتسب معنى.

الألمان! كانت تعني بذلك شفانتس! ففي منتصف السبعينيات، وبعد مرور ثلاثين عامًا من لقائها به أثناء إعدام هاري، وقعت عيناها عليه، عندما أخرجها من الحبس ليبعث بها إلى مصحة كرومنيرشيجه، لابد أنها تذكرته! من هنا جاء خوفها الشديد من الألمان في ذلك الوقت، أي في آخر زيارة لـ دورا.

ماهدالكا! ماذا كانت تريد عندما ذكَّرتها أن تحذرها منها! وسارت تجري على لسانها الحكاية، حكاية ماهدالكا، وفوكسينا، وكذلك الطفل! ولم يكن لهذا الطفل علاقة بـ دورا، كانت تعني به ابنة فوكسينا التي يعرف الجميع أين وكيف انقطعت أخبارها، ولم يُعرَف لها يومًا مكان. *استغلي ذلك الأمر عندما تضيق بكِ الدنيا!* كانت سورمينا تعرف أين توجد الطفلة. كانت هي من خبأتها لتصبح تلك نقطة قوتها في مواجهة ماهدالكا التي سلبتها الشيء الوحيد الذي تبقى من فوكسينا، ابنتها، خليفتها ووريثة علمها التي هي من دمها، فرصتها الأخيرة، والورقة الرابحة في يد سورمينا ودورا.

شعرت دورا بدوار، وراحت تغوص بعينيها في عيني شفانتس، فأعادها ذلك التواصل إلى السنوات التي عصفت فيها مشيئته بأقدارها وأقدار سورمينا. وهكذا فجأة أدركت ما جرى في الماضي. أخذت قطع الفسيفساء تنتظم بجوار بعضها البعض لترسم صورة واضحة. بات واضحًا أن سورمينا كانت مؤمنة بذلك، وكانت خائفة، مذعورة من قدرة ماهدالكا على إلحاق الأذى بها، كانت تخاف سوء العاقبة، بشكل أساسي كانت مرعوبة من أن يصيبها مكروه هي ودورا؛ لأنها كانت على قناعة تامة بأن خاتمتها ستكون سيئة. لذلك قررت في النهاية إطلاع دورا على الأمر بأكمله، على تلك اللعنة، وعلى الطريقة التي تتجنب بها أذى ماهدالكا مستغلةً تلك الطفلة المخبأة. حاولت بأقصى ما تستطيع أن تخبرها، حاولت أن تحيطها علمًا بكل ما تعرفه هي عما كان وسيكون، إلا أن الوقت كان

قد فات. أصابتها لعنة ماهدالكا على يدي يندرشيخ شفانتس الذي بدأت تتبدل تعبيرات وجهه في الصورة في الدقائق الأخيرة أمام عيني دورا، حيث راحت شفتاه تنفرجان فجأة عن ابتسامة سخرية شريرة استطاعت أن تلمح فيها دورا ما لم يكن ظاهرًا فيها قبل قليل، إنها ابتسامة المنتصر.

بوتوتشنا

بعد مرور أربعة عشر يومًا ذهبتُ إلى بوتوتشنا. يحتل مبنى الجمرك مساحة الوادي الضيق الممتد بالكامل بين منحدر التل وبحيرة درايتوميتسه. المساحة أمام المبنى وفي المنطقة الخلفية تشغلها ساحة انتظار سيارات خرسانية واسعة تبدو غير ملائمة في مكانها، بالتحديد في تلك المنطقة التي تمتد فيها المروج في صيف تفتحت فيه أزهار القرنفل وزهرة الأوركيد النادرة، وتحيط بها تلال الكاربات المرتفعة من كل اتجاه.

استعدت لإبراز بطاقة الهوية وهي تنتقل من الجانب التشيكي إلى السلوفاكي سيرًا على الأقدام. وأشار إليها أحد معارفها من جيتكوفا برأسه من داخل مبنى المصلحة الدافئ كي تتابع السير إلى الأمام. ثم انعطفت إلى اليمين مباشرة بعد مبنى المصلحة في اتجاه بوتوتشنا، حيث تحول الطريق الإسفلتي إلى طريق اعتيادي يخترق الغابة، تحيط بها فيه الأشجار الكثيفة وقد سكنت أصوات الضجيج. ثم أخذت تتوغل أكثر وأكثر في الغابة.

من المفترض أن يكون البيت الذي تقصده هو أول بيت.

وجدت هناك بيتًا نصف متهدم، سقفه متهالك، ونوافذه مكسوة بألواح خشبية. توقفت أمامه قليلًا. لم تجد فوق البوابة الخشبية أي لافتة تحمل اسم ساكني البيت. لكن أول بيت في بوتوتشنا هو بالتأكيد منزل ماهدالكا. أمسكت بالمقبض الحديدي، فانفتحت أمامها البوابة محدثة صريرًا. وأخذت تلقي نظرة على الداخل.

كان الفناء في حالة فوضوية، قوالب طوب ساقطة من زاوية الإسطبل، ومن السقف يتدلى القش ومعه جزء من المزراب حتي وصل إلى قدميها، أوانٍ مكسورة وقطع أخشاب وأحجار ملقاة على الأرض وبينها قطع ممزقة من قماش مهلهل، أكياس من النايلون تتطاير فوق بركة صغيرة من الماء البارد. وهكذا رأت فيه مكان خربًا.

سارت على بلاط أرضية الممر المتهالكة حتى وصلت إلى باب البيت. لكنه كان مقفلًا. انحنت لتلتقط إحدى الخرق الملقاة على عتبة البيت كي تنظف بها النافذة الصغيرة

الموجودة في الجزء الأعلى من الباب. كانت تطمح في رؤية المكان الذي مارست فيه ماهدالكا طقوس السحر، لكنها لم تستطع أن ترى شيئًا سوى الجدار المقابل. تراجعت يائسة كي تتفقد بقية زوايا الفناء الصغير وترى بعينيها ما تبقى من ممتلكات ماهدالكا، ثم تركت البيت وخرجت.

أمام البوابة كانت تقف طفلة في الثامنة من عمرها، أصاب وجودها دورا بالذعر. سألتها الفتاة الملتحفة بمعطف قديم غير ملائم لسنِّها وشال معقود أسفل ذقنها: ماذا تفعلين هنا؟

أجابتها دورا: أنا... جئت أسأل عن ماهدالكا.

- عائلة ماهدال لم تعد تقيم هنا منذ مدة طويلة. وجدتي تقول إنهم انتقلوا من هنا قبل مولدي.

قالت دورا باهتمام واضح: أها، وجدَّتُك تقيم هنا أيضًا؟

أومأت الفتاة برأسها.

- فوق. كلنا نقيم هناك.

- خذيني إليها من فضلك، أود أن أسألها عن شيء ما.

استدارت الفتاة وصعدت بخفة إلى أعلى الغابة عبر الطريق الذي قطعته ألسنة الماء المتجمد التي تجمع فيها الماء القادم من أماكن مختلفة، وتبعتها دورا. سارتا عشرين دقيقة بالتمام والكمال، أخذ الطريق خلالها يضيق لينحصر في المدق الذي تحيط به الغابة التي كانت تشتد كثافة أشجارها كلما طال المسير. في النهاية ظهر أمامهما بيت محاط بسياج بمكان عارٍ من الأعشاب. انطلقت الفتاة بسرعة واختفت خلف البوابة. وظلت دورا واقفة أمام البيت لا تدري ماذا تفعل. وبدأت تصل من داخل البيت إلى سمعها أصوات البعض، كما بدت حديقة البيت الخلفية مليئة بالحركة والحياة. لابد أن أهل البيت كانوا بالداخل. وبعد قليل لمَّا لم يخرج من البيت أي أحد لاحظت وجود جرس، فدقت زر ذلك الجرس عدة مرات.

لم تكد يدها تبتعد عن الجرس حتى خرج رجل من مدخل البيت في حوالي الأربعين

من عمره مرتديا قميصًا خفيفًا. وما إن وقعت عليه عينا دورا حتى شعرت بالبرد يسري في أوصالها. فتح البوابة وأسند كلتا يديه على السياج وراح يتطلع فيها. لم تَرُقْ لدورا تلك الإيماءة، كانت تفوح منه رائحة العرق والكحول، كما أظهرت لها إيماءته تفوقه البدني.

نادوا امي! هكذا دوى صوته في أرجاء البيت، عندما سألته بأدب عن عائلة ماهدال.

ازدادت الجلبة بالداخل وظهر بمدخل البيت رجل آخر يشبه تمامًا ذلك الذي يقف أمامها، إلا أنه كان أصغر سنًّا منه ومن خلفه مباشرة رجل ثالث، نسخة مكررة من هذا الثاني.

تبسم لها الرجل الواقف عند البوابة وأومأ برأسه تجاههم قائلًا: إنهم إخوتي.

ومن بين أرجل الإخوة ظهر الكثير من الأطفال من مختلف الأعمار بما فيهم الفتاة التي كانت دورا تعرفها.

تبسم لها الرجل من جديد قائلًا: وهؤلاء أبناؤنا.

أطلت من باب البيت امرأة مُسِنَّة، ظهرت فوق جبينها من تحت غطاء الرأس شعرات بيضاء ولم تكن ترتدي أي شيء سوى مريول واسع طويل، وأخذت تردد بفظاظة نفس السؤال مرات ومرات: من هذه؟

- جاءت تسأل عن عائلة ماهدال، رد الرجل الواقف لدى البوابة ثم ظل واقفًا بلا حراك، كما لو كان لا يستشعر برودة ديسمبر. وفي تلك الأثناء اختفى مرة أخرى أحد الرجال ومعه الأطفال.

- أدخلها إذن إلى هنا، فأنا لن أتحدث معها خارج البيت. ثم قالت له: دعها تدخل إلى الدفء، وبعد ذلك دوى صوتها من داخل البيت: ابْقَ معها يا ميلوش حتى أرتدي ملابسي.

وضع الرجل الذي كان يقف عند البوابة يده على كتف دورا وضغط عليها بخفة في إشارة منه كي تتحرك نحو الداخل، ثم قال وهو يشير إلى أخيه الأصغر الذي ظل واقفًا لدى الباب يرفع يده كي يسلّم عليها: اسمي بيتر وهذا ميلوش. وما إن اقتربت منه حتى

أمسك بكفها وأخذ يهزها بقوة.

سألها وحمرة الخجل تملأ وجهه: هل أنتِ عزباء؟ وبدون أن ينتظر ردها بادر بالقول: أنا أعزب.

ردت دورا في ارتباك: وأنا أيضًا، وفي هذه اللحظة كان رجل البوابة يدفع بها إلى الداخل. سارت ببطء حتى اجتازت الردهة ودخلت إلى حجرة تعج بصراخ الصغار، وعلى مقربة من الطاولة جلست سيدتان بدينتان بعض الشيء. ثم جاء من الخلف أحدهم يساعدها على خلع معطفها، ويدفع بها نحو الكرسي في نفس اللحظة التي وُضعت أمامها فيها كأس صغيرة من البراندي. أما السيدتان فكانتا تحدقان فيها بدون كلام.

أخذت دورا تتلفت حولها بالحجرة التي لم يكن بها أي مظهر من مظاهر الاحتفال بعيد الميلاد الذي أوشك على المجيء. كان بيتًا خاليًا من الدفء يشبه موقعًا للبناء. وكان طلاء الجص الخشن الملطخ بالبقع يحتاج لطبقة جديدة تغطيه، أما الأثاث فكان متواضعًا، لا توجد به قطعة تشبه الأخرى. وكانت هي نفسها تجلس على كرسي مصنوع من البلاستيك خلا ظهره من العوارض التي يُتكأ عليها. وعندما استندت على الطاولة مالت نحوها، ومال معها الشراب داخل الكئوس الموضوعة أمام الجميع.

دوى بالغرفة صوت يقول: فلنشرب نخب عيد الميلاد ونخب التعرف على الآنسة...، إيه...، فردت دورا سريعًا: دورا، دورا إيديسوفا من جيتكوفا.

أشار الرجل الذي قدم نفسه باسم بيتر نحوها بكأسه، بينما أمسك الباقون بكئوسهم في نهم. أخذت تحدق فيهم واحدًا تلو الآخر وقد اشرأبت أعناق الجميع نحوها كي يقرعوا الكئوس، ولاحظت أن أسنانهم جميعًا معوجة ومتفرقة عن بعضها، ويستوي في هذا الكبار والصغار على حد سواء. يالها من صفة عائلية قبيحة.

بدأت الأم الحديث بقولها: أتيتِ تسألين عن عائلة ماهدال، أليس كذلك؟ وكانت قد جاءت لتوها لتجلس معهم على الطاولة بعد أن ارتدت بلوفر مثقبًا ثقيلًا وطويلًا. فقاموا سريعًا بوضع كأس أمامها ملئوها عن آخرها. فشربته دفعة واحدة ومسحت فمها بطرف كُمها، ثم تابعت الحديث: لقد غادروا المكان هنا منذ فترة طويلة. وماتت ماهدالكا في أوائل الثمانينيات، وقبل عدة سنوات تبعها ابنها وزوجته، بينما انتقل أحفادهم إلى

مستوى أعلى وأفضل. لعل الله يرفع شأن أحدهم هنا ولو في آخر الكون.

فتساءلت دورا في فضول: أها. وإلى أين انتقلوا؟

- أنا لا أعرف، لم تكن لنا بهم علاقة تذكر، فقد كانت عائلة غريبة. والبعد عن مثل هؤلاء البشر غنيمة.

قال بيتر: لكنهم رحلوا على الأرجح إلى مكان بعيد جدًّا عن هنا، حتى لا يتعرف أحد على هويتهم، فقد كانت سمعتهم ملطخة بالعار.

- ولِمَ؟

تظاهرت دورا بعدم المعرفة.

- لم يفعلوا في حياتهم خيرًا كثيرا. وكانت تلك المدعوة ماهدالكا ساحرة، هكذا كانوا يسمونها هنا. وكانت تتعاون في فترة ما مع الألمان، لكنها لم تُحاسَب على فعلتها، بل إن الأمر حتى بعد التحرير مر بدون حساب أو عقاب. ودائمًا ما كان يأتي في أثرها رجال الشرطة فيصطحبونها لمدة يومين ثم يخلون سبيلها كما لو أنها لم تفعل شيئًا، على الرغم من أنها أضرت بالكثيرين، لكن ماذا يفيد الكلام؟! وكان يُروى عنها أنها على علاقة بشخصية نافذة في جهة ما بـ هراديشتي كانت تحميها. وإلا فما تفسير إفلاتها الدائم من العقاب على ما اقترفت يداها من ممارسات خارجة عن القانون؟ أو ربما كانوا يغضون الطرف عنها لأنها تنقل اليهم أخبار الناس هنا، وكانت تعرف عنهم الكثير مما يشوه السمعة. لكن إن كان هذا أو ذاك فقد ماتت هي قبل الثورة، حيث لم يعد للخوف مكان في قلوب الناس، فقاموا بمعاقبة من بقي من تلك العائلة بما يليق. ولذا لا استغرب اختفاء أحفادها من هنا.

أخذ ميلوش، الذي جذب كرسيه إلى جوار دورا، يملأ لها الكأس، فرفضت قائلة: شكرًا لا أريد المزيد، إلا أن الباقين أشاروا إليها بأيديهم فقط كي تشرب.

فقالت إحدى المرأتين بابتسامة ماكرة، وهي زوجة بيتر، وكانت تُدعى ماريا كما قالت لها من قبل: ربما تعتاد عليها.

وتساءلت العجوز وهي تنظر إليها بريبة، تمامًا كما ارتسمت على وجهي زوجتي ابنيها نفس النظرات المرتابة: ولماذا تبحثين عنها؟ لم يأت أحدهم يومًا إلى هنا يسأل عن ماهدالكا إلا وانتهى الأمر نهاية سيئة.

- من أجل خالتي. اسمها سورمينا وهي مثلي من جيتكوفا، وكانت بينهما خلافات. ألا تعرفين عن ذلك الأمر شيئًا؟

بدأت حدقتا عيني المرأة تضيقان، وبدا واضحًا أنها تحاول جاهدة أن تتذكر.

- ألم تكن تلك هي ذاتها المرأة التي حلت بها لعنة ماهدالكا؟ أليست هي؟ كانوا يقولون إن ماهدالكا أنزلت اللعنة بأسرتها في جيتكوفا التي فرت منها، وإن تلك اللعنة قد حلت بكل الساحرات من تلك العائلة. ربما كانت بذلك تتخلص من منافساتها.

هيه هيه، ضحكت المرأة بصوت عال وهي توماً لبيتر برأسها كي يصب في كأسها بعض الشراب.

- لو كنتِ تعنين تلك المرأة، فأعتقد أن اللعنة ما تزال سارية، ألا توافقيني الرأي؟ ستبقى اللعنة وتتواصل وستصيب كل نساء تلك العائلة. وإذا كنتِ جئتِ تبحثين عنها من أجل ذلك، كان الله في عونك يا ابنتي، والأفضل أن تشربي ما في كأسك.

كانت المرأة تتحدث وهي تشير لدورا كي تشرب ما تبقى في الكأس التي تقبض عليها بأصابعها.

تأثرت دورا بشدة بعد أن أفرغت ما في كأسها من شراب، فحدث ما كانت بالفعل تريده أن يحدث. اندفع الكحول بمذاقه الناعم الحارق ليتجاوز عنقها حتى يصل إلى معدتها. فقام بيتر يصب لها في الكأس المزيد.

- لكن لا تشغلي بالكِ كثيرًا بهذا الأمر. ربما تكون كلها مجرد أقاويل ليس لها أي أساس من الصحة. وفي النهاية المكتوب ليس منه مهروب؛ لذلك لن يجدي الجزع في هذا الشأن بأي شكل من الأشكال. أنتِ بذلك فقط سوف تقصرين عمرك، أليس كذلك؟

امتلأت الغرفة بأصوات بقية أفراد العائلة الذين دخلوا في نقاش حول تأثير السحر وإمكانية إفساد مفعوله.

- يمكن رد ذلك السحر عندما نقرأ الصلوات بالمقلوب، وذلك عندما يكون القمر بدرًا، حتى ينقلب السحر ويرتد على الساحر.
- ولكنها ماتت!
- إذن سيرتد ذلك على أبنائها وأبناء أبنائها.
- لكن دماءهم يمكنها أن تبطل ذلك، عندما يُروى بها قبر ماهدالكا!
- اصمت، هل يمكن أن يترك أحدهم نفسه ليجرح فوق القبر؟
- يكفي المرء أن يستحم في المريمية.

كانت الكئوس أثناء ذلك النقاش تفرغ ثم تعود لتمتلئ مرة أخرى بإيقاع منتظم، وصار وقع ارتطام قيعانها بالطاولة يزداد سرعة وقوة بمرور الوقت. وكانت دورا ترتشف ما بكأسها من شراب وهي شاردة الفكر.

وفجأة شعرت من خلفها بيد ميلوش وهي تعبث أسفل قميصها من فتحة الكرسي الخالي من مسند الظهر. ارتعبت لدرجة جعلتها تسكب ما تبقى في كأسها من البراندي على الأرض. فانفجرت السيدتان اللتان كانتا تتابعان كل حركة من حركات دورا في الضحك، ثم ما لبثت العدوى أن أصابت بقية الموجودين، فراح الجميع يضحكون، العجوز، والرجال، بل وحتى الأطفال ذوو الوجوه البلهاء التي غطاها الغبار بسبب لعبة ما كانوا يلعبونها على الأرض.

بدأت تشعر بالضيق في ظل وجودها مع هؤلاء البشر. فقامت مسرعة استعدادًا للخروج على الرغم من معارضتهم لرحيلها واتجهت نحو الباب وهي تتبادل معهم التحية. وبالكاد انتزعت المعطف من على حامل المعاطف ولم ترتح روحها إلا عندما عادت تستنشق الهواء النقي.

وقبل أن تصل إلى البوابة، تبعها ميلوش.

سألها بلهفة، وكان واضحًا أن كأس البراندي الأخيرة، التي كانت آخر قطراتها ما

تزال تتراقص على حافة شفته العليا، هي التي أمدته بالقوة: أتقبلين الزواج بي؟

يبدو أن أسرته قد استطاعت في تلك الفترة القصيرة التي تلت مغادرة دورا إقناعه بأن السحر ليس وباءً، وحفزوه بكأس من البراندي وأرسلوه يجرب حظه.

أجابت دورا في ارتباك: أشكرك على طلبك، لكني لا أرغب في الزواج. ومرة أخرى دوت ضحكات مزعجة من داخل البيت.

فضلت ألَّا تنظر صوب ذلك البيت، وصارت تتمنى الخروج منه والابتعاد عن المحيط الذي توجد به تلك الأسرة العجيبة. كانت تشعر في ذلك المكان بالاشمئزاز، وبغرابة سلوكهم، ثم ذلك الشبه الشديد بينهم جميعًا، بما فيهم الرجال والنساء والأطفال. بسرعة صفقت البوابة من خلفها وانطلقت تركض من التل إلى أسفل عائدة إلى الجانب التشيكي.

اكتسبت رحلاتها الأخيرة في عطلات نهاية الأسبوع هذا الشتاء طابعًا حزينًا. كانت تذهب بدون يعقوب الذي ظل طريح الفراش بالمستشفى. ببساطة فقدت تلك الرحلات معناها.

كالعادة غادرت اليوم مع انتهاء مواعيد الزيارة، وبعد مغادرتها بعشرين دقيقة انتابها شعور بأنها تهمله. على الرغم من أن وجودها بالمستشفى لا يقدم ولا يؤخر، إلا أنها كانت تحس بأن مكانها هناك إلى جواره، بجانب سريره وليس في أي مكان آخر. ماذا لو استفاق من غيبوبته ولم يجدها؟ لذلك قضت عصر الأيام من الجمعة إلى الأحد بالمستشفى، حيث احتفلا بوقفة عيد الميلاد بجوار فروع شجرة السرو الموضوعة بالزهرية فوق الطاولة المهتزة.

توقف الباص عند حافة الكوبري الصاعد بمحطة هراديشتي وهرع الجميع ممن كانوا حتى تلك اللحظة يقفون متكئين على الدرابزين إلى باب الصعود. كان البر قارسًا. وكانت دورا آخر من صعد. اجتازت الممر الضيق بالباص حتى وصلت إلى المقعد الخلفي الذي يتسع لفردين. كالعادة مرت الحافلة بعدد من القرى لتصل سريعًا إلى أوهيرسكي برود، ثم تبدأ بعدها ببطء شديد تقطع الطريق عبر المنعطفات الحادة المحفورة داخل تلال الكاربات الأبيض. أخرجت دورا الجريدة.

كان يكفي أن يقع بصرها على الصورة الكبيرة لكنيسة هروزينكوف من الداخل، التي كانت تتصدر الصفحة الأولى للأخبار المحلية، كي تعرف أن شيئًا سيئًا قد حدث. لم تقرأ المقال الذي يلي العنوان المكتوب بالخط العريض لينبئ عن وفاة إيرما. ارتعشت يداها واغرورقت عيناها بالدموع.

كانت هي ويعقوب في الماضي قد اعتادا السير بـ هروزينكوف على مهل، وكانا يسعدان عندما يقفان مع كل من يقابلونهم بالطريق فيتبادلون السؤال عن أخبارهم وكل

ما هو جديد لديهم. هذه المرة اجتازت دورا القرية بخطى سريعة، كي تصل في أسرع وقت إلى أعلى، إلى بيتهم. لم تتوقف حتى لتبادل الحديث مع جاراتها اللاتي تصادف وجودهن بالطريق المؤدي إلى بيدوفا، لم تشأ أن تسمع أي كلام عن وفاة إيرما من سيدات تتوق إلى مستمع يصغي إلى أحاديثهن. كانت تحيِّيهن وتسرع إلى الأمام لتتابع السير. في الصباح ستذهب إلى باجلاركا، ثم تذهبان معًا إلى المقابر.

وبمجرد أن توقفت آخر بقايا الضوء الصادر من مصابيح ستاري هروزينكوف عن الوصول إليها، أخرجت الكشاف اليدوي وأضاءته. كان الطريق الصاعد إلى بيدوفا مظلمًا في أجزاء منه بسبب قربه من الغابة وكذلك عند المنحدر، والضوء الوحيد الذي كان يمكنها رؤيته يجيء من نافذة بيت هودوليك ثم من بيت إيرما الأبعد منه. وهذا بالتأكيد لن يكونَ مُضاءً اليوم. كان شعاع الكشاف الذهبي المستدير بالكاد يضيء الطريق لمسافة متر إلى الأمام، وكان حذاء دورا المتين يجتاز بسهولة خطوط الثلج الهش. فرحت دورا عندما أمسكت يدها أخيرًا بمقبض باب بيتهم.

خلعت ملابسها الباردة وحقيبة ظهرها وألقت بها في حجرة المعيشة واندفعت نحو المدفأة. بعد لحظات كانت النار تشتعل أسفل الموقد، فوضعت دورا الحساء فوقه. جلست على مقربة من باب التنور، فشعرت بالدفء وراحت تتلفت حولها بسرعة. منذ ذلك الحين ذهبت إلى هناك عدة مرات، لكنها لم تستطع التعود على الفراغ الذي تركه غياب يعقوب عن البيت.

ماتت إيرما إذن، هذا ما كان يشغل بالها. كانت تفكر أن ما زاد الأمر سوءًا بالنسبة لها هو أنها رأتها في زيارتها الأخيرة لها في الخريف وهي عجوز تلهث أنفاسها، منكمشة تغوص أسفل أغطية الفراش العالية.

كانت تدين لها بالفضل لأسباب عدة، وكانت تود أن تسألها عن أشياء عديدة أخرى. مثلًا إن كانت تعرف شيئًا عن طفلة سورمينا وفوكسينا.

الآن لابد أن تعتمد على نفسها بعيدًا عن ذاكرة إيرما التي كانت تصل تقريبًا إلى بدايات القرن الماضي، وبعيدًا عن حكمتها التي كانت تستطيع بها دفعها لتتقدم إلى الأمام، حتى وإن كانت تفعل بطريقة فجة.

أنزلت دورا الحساء المغلي من فوق الموقد، أخذت تدير الملعقة داخل القدر ثم تناولت القليل منها. لم تكن جائعة، لكنها لم تستطع التحرر من الطقوس الاعتيادية التي كانت تمارسها لسنوات طوال في كل يوم جمعة. وعندما أدركت ذلك، قامت لتضع في النار بضع قطع من الخشب، وأغلقت باب المدفأة جيدًا، ثم خلعت ملابسها وتسللت إلى الفراش.

كان أفضل ما يمكن أن تفعله هذا المساء هو الخلود إلى النوم.

أيقظتها دقات ناعمة متتالية على زجاج النافذة. ولابد أن تلك الطرقات قد تكررت مرارًا، لأنها سمعتها عدة مرات قبل أن توقظها في النهاية من نومها. فقامت ووصلت وسط الظلمة التي غمرت الحجرة إلى النافذة لتلمح خلفها وجه يانيجينا الشاحب المحاط من الجانبين بقبعة كبيرة من الفرو تغطي أذنيها. أفاقت فجأة من هول المفاجأة، فألقت بالمعطف على كتفيها وذهبت لتفتح الباب. وقبل أن تدخل يانيجينا بصوت دبيب أقدامها العالي، ذهبت دورا سريعًا لتضيف المزيد من الأخشاب كي تتقد النار التي كادت تنطفئ من جديد. فأضاءت ألسنة اللهب الضعيفة من بين فتحات المدفأة ظلمة الحجرة.

وقفت يانيجينا مرتبكة لدى الباب وهي تقبض بيديها على القبعة وتضغط عليها، وقد تورَّد وجهها بفعل برودة الليل، وتبدَّى جمالها الفطري وسط عتمة الحجرة التي تخللتها الأشعة الذهبية. اقتربت منها دورا وساعدتها على خلع معطفها المبلل الذي ألقت به بعد ذلك على حامل الملابس فوق التنور.

قطعت يانيجينا الصمت بقولها: انتظرتك في كوبرفازي.

ظلت دورا صامتة، ولم تكن قد تخلصت بعد من أثر المفاجأة التي تسببت فيها يانيجينا بقدومها إلى هنا، إلى بيتهم، وسط عالمها الصغير.

وأضافت يانيجينا من دون أن تُبدي ذرة ندم: ذهبت إلى هناك عدة مرات.

أومأت دورا برأسها، وكي تتخلص من ذلك الموقف المحرج، بدأت تعد الشاي. هوت يانيجينا في يأس على المقعد المجاور للتنور.

وبعد قليل عادت من جديد لتقول: قالوا لي في المتجر إنك أتيتِ اليوم بمفردك مرة أخرى.

وهنا أومأت دورا برأسها: نعم. ما زال يعقوب بالمستشفى.

أخذت يانيجينا تتنحنح وتتمتم بأنها تشعر بالأسى حياله.

وردَّت دورا: ماتت إيرما.

تطلعت فيها يانيجينا بوجه تعلوه الدهشة، ثم قالت متعجبة: نعم. وقد أقيمت لها جنازة. لكني لم أكن أعرف أن أمرها يهمك إلى هذا الحد.

- بل يهمني.

هزت يانيجينا كتفيها، وظلت تفكر قليلًا فيما ينبغي عليها قوله.

- لم تعش قليلًا.

- أعرف.

لم تكن أي منهما تعرف ماذا تقول بعد ذلك. فلم يسبق لهما أن تبادلتا معا أي حوار؛ لذا لم تعرفا عن أي شيء يمكنهما مواصلة الحديث. كانت لقاءاتهما محددة الغرض، وكانت تمر بدون إضاعة أي وقت في الحوار.

لكن دورا بدأت منذ فترة تشعر بأن الأمر لا يمكن أن يستمر على هذا النحو. ربما يكون ذلك بسبب ما حدث لها في كوبرفازي، أو ربما بسبب ما حدث ليعقوب. فجأة فقدت أشياء كثيرة لديها كل معناها القديم؛ لذلك كان لابد من توضيح الأمور فيما كان بينهما، ثم تغيرها؛ ولذا قالت: لن أذهب مجددًا إلى كوبرفازي.

سكتت يانيجينا مدهوشة بما تسمع.

تابعت دورا: أريد أن أبيع البيت، لا أرغب في العودة إلى هناك، أريد أن أتخلص من ذلك العبء للأبد. لا يوجد سبب يجعلني أحتفظ بالبيتين. ولن يكون بمقدور يعقوب الإقامة فيه بمفرده.

خفتَ صوتها، وفي محاولة لتخفيف حدة الحزن استدارت وأخذت تعض على شفتيها في ألم.

لم تتوقع ما حدث، لكن فجأة سمعت يانيجينا وهي تقوم وتقترب منها وتحتضنها من

الخلف. أحست دورا بأنفاسها المشبعة برائحة الكحول فوق وجنتيها. فأغلقت عينيها وانكمشت كما لو كانت تريد أن تختفي داخل جسد يانيجينا العملاق. كان هذا هو كل ما تحتاجه. أن يشاركها أحدهم. لم تعد ترغب في البقاء وحيدة في كل شيء.

وبعدها قالت: سيرفضون تسليمه لي في العطلات، حالته سيئة.

همست يانيجينا في أذنها: اصبري، ستتحسن الأحوال.

فردَّت دورا وهي تشعر ببرودة الدموع التي تسيل على وجنتيها: وماذا لو لم يحدث؟

كانت تلك هي أول دموع خلال الأسابيع الأخيرة، وعندما برزت على السطح، انهمرت كالسيل الذي لم تستطع إيقافه، وراحت يانيجينا تربت على كتفيها في عجز. وبعد قليل اقتادتها إلى الطاولة، وأجلستها على أحد الكراسي، ووقفت هي عند الموقد تصب الشاي، ثم جلست أمام دورا صامتة حتى هدأت.

سألتها دورا بعد ذلك: كيف حال زوجك؟

لم تكن هي نفسها تعرف لماذا تسأل مثل هذا السؤال. ربما لشعورها بالامتنان لأنها شاركتها تلك اللحظات، ذلك الشعور الذي كسر إحساسها بالمرارة، وخاصة عندما تخيلت أنها بعد عدة ساعات ستذهب ولن تعود إلى هنا مرة أخرى. كان من غير اللائق تجاهل ذلك الذي لم تتحدثا يومًا عنه.

أجابت يانيجينا بعد قليل هامسة وغير مبالية: هو على حاله.

- ألن تتحسن حالته؟

- لا.

- هل يتلقى علاجًا طبيعيًّا؟

- صار يرفضه. لديه كسر في عموده الفقري، ولم يعد يُرجى شفاؤه، كل ما في الأمر أنه كان يعيش على أمل كذَّاب.

- وكيف يتفاعل الأولاد مع هذا الوضع؟

اتكأت يانيجينا على ذراع الكرسي وقد بدا عليها الامتعاض وهي ترسم بيديها على

صدرها علامة الصليب. وأخذت جفونها تتحرك بعصبية كما لو كانت تريد أن تستبعد ذلك السؤال برموش عينيها القصيرة. لكن دورا لم تتنازل عن سؤالها، ولم تكفَّ عن الحديث في هذا الموضوع. وركزت نظرها عليها وانتظرت الإجابة.

- يتفاعلون معه بشكل أسوأ مني، أقصد هكذا كان حالهم. كانوا يفتقدون زوجي أكثر مما كنت أفتقده أنا. أما الآن فقد أصبحت الأوضاع أفضل، وخفَّتْ حِدة الأزمة كثيرًا لحسن الحظ.

بدا لبعض الوقت أن يانيجينا قطعت الحوار. لم تستطع تحمله، كان ثقيلًا عليها. وبدلًا من متابعته تنهدت تنهيدة عميقة، ثم سارعت بالقول: لم يكونوا ليسامحوني لو عرفوا بالأمر. ولم أكن أنا لأحتمل ذلك!

لم تتوقع دورا من يانيجينا الهادئة، الجافة ردَّ فعل كهذا، لكن بما أنها جاءت، فقد لاحت الفرصة.

فقالت بحزم: ما كان يحدث لم يكن ليستمر بأي حال! وأنا لم أكن أستطيع تحمل المزيد. ذلك الخوف الرهيب، والاختباء، ووخز الضمير. أنا أيضًا أخاف بشدة، وهل كان يمكننا أن نخفي أمرًا كهذا للأبد؟ أن نلتقي في بيت قديم مرة كل فترة لعدة ساعات؟

لم تكن دورا نفسها قبل قليل تتصور أن يكون هذا الأمر مزعجًا لها إلى هذا الحد. كان صوت القلق بشأن يعقوب يعلو فوق كل الأصوات. وفجأة اندفع كل ذلك منها كتيار متدفق أظهرَ حقيقة ما كانت تريد. ماذا كان يعني بالنسبة لهما الاختباء؟ وماذا كان يعني التستر؟ أكان كل هذا من أجل أن تبقيا معًا؟

وهنا صاحت يانيجينا: لكنكِ تعلمين جيدًا أنه لا ينبغي أن يعرف أحد عن ذلك الأمر شيئًا! تعرفين العواقب!؟ كان صوتها يرتعش من شدة الانفعال.

- حسنًا، وماذا بعد؟ هل تريدين أن يستمر هذا الأمر إلى الأبد؟ أن تعيشي هكذا تحملين بول رجل لن يقوم من مقامه في يوم من الأيام، رجل لم يكن يومًا يعني بالنسبة لكِ شيئًا؟ وكل ذلك من أجل ألا يتحدث عنكِ الناس؟

خبطت يانيجينا بكفها المفرود على الطاولة، وصاحت:

- كفى! يكفي هذا، أتسمعين؟ سهل عليكِ أن تقولي هذا! أنتِ يوم الأحد سترحلين مرة أخرى، لديك مكان آخر تعيشين فيه. أما أنا، أنا ليس لديَّ مكان آخر أختبئ فيه! سوف يعاملونني هنا معاملة الحيوانات، سيبصقون في وجهي! وسيحتقرني أبنائي.

أصابها كلام دورا في مقتل، فانكسر صوتها. وأدركت دورا أنها تخطت الحدود. فانتابها الخوف فجأة. خوف لم تعرف له سببًا ولا مسببًا. كل ما كانت تعرفه هو أن شيئًا ما انفتح بداخلها، ولم يعد ممكنًا كبته، شيئًا ما سيمنعها من أن تعيش كما كانت تعيش من قبل.

مرت دقائق جلستا فيها قبالة بعضهما. وضعت يانيجينا وجهها بين كفيها، بينما ركزت دورا بصرها على قرص الطاولة. ولو لم تخمد النار لمكثتا جالستين هكذا حتى الصباح. قامت دورا لتضع قطع الخشب الصغيرة بالمدفأة. وعندما عادت إلى الطاولة أمسكت يانيجينا بذراعيها وجذبتها نحوها. جلست دورا على حجرها.

- لا أستطيع التخلي عنه. لا يصح. هكذا قالت يانيجينا وهي تدفن رأسها في قميص دورا. لن أحترم نفسي إن فعلت، وبعد كل تلك السنوات. أحيانًا عندما أكون في البيت ينتابني شعور بأني لا أريد أن أنظر إليه، بل لا أريد أن أبقى في البيت، أريد أن أخرج منه ولا أعود، لكن هذا غير ممكن. وفضلًا عن ذلك أنا أستطيع أن أفعل ما يحلو لي، أما هو فلا. والأولاد...

سكتت دورا ولم تردّ، كأن بحلقها فراشة ترفرف، تلاطفها بأجنحتها ذات الشعيرات الناعمة المغطاة بالغبار الملون، ولا تسمح لها حتى بابتلاع ريقها، فضلًا عن أن ترد.

بعدها تابعت يانيجينا بصوت خفيض: لكني على الجانب الآخر لا أستطيع أن أتخيل ماذا سأفعل لو انتهى ما بيننا. كنت فيما مضى أتمنى من أعماق قلبي لو لم أشعر بما أحس به تجاهك، كنت أتمنى لو أنكِ لم تظهري يومًا في حياتي. لكن مشاعري تغيرت في الفترة الأخيرة.

شعرت دورا بموجة من السعادة تغمر كيانها، حملتها معها وجرفتها إلى مكان سحيق حيث الفراغ الصوتي الناعم، الدافئ، شعرت بأنها نطفة في رحم أم، تختبئ

بأمان في ثنايا غياهبه. عانقت يانيجينا، واحتضنت رأسها بين كفيها لتوجهها نحوها.

قالت يانيجينا هامسة وهي تقبض جفنيها بشدة كي تقاوم الدموع: عيشة مزرية! أحست دورا بدقات قلبها، فرفعت يدها تملس بها على وجنتيها برقة ونعومة، وراحت تتخلل بها شعرها الكثيف الطويل وقد انسدل على وجهها وأبَى أن يبقى مقيدًا خلف أذنها لتظهر من بين خصلاته بعض الشعرات البيض. وفوق جبينها، الذي كانت تغطيه دائمًا خصلات مهملة من شعرها، توقفت حركة يد دورا عند ملمس خشن لوحمة بارزة.

وهنا تذكرت أين كانت تراها، وذلك قبل أن تجد يانيجينا الطريق إلى ثغرها.

الجزء الخامس

يندرشيخ شفانتس

كانت دورا تنتظر تلك اللحظة منذ سنوات عديدة، وبخاصة في تلك الشهور الأخيرة التي كانت الحكومة تسوِّف فيها، حتى كاد طول الانتظار يحرق أعصابها. كانت تتابع بشغف كل ما يُنشر من أخبار. ثم بدأ الموضوع يدخل في حيز التنفيذ. وبدأت تنتشر أخبار عن إتاحة ملفات العملاء والتابعين لأمن الدولة للجمهور. الآن يستطيع أي شخص الاطلاع عليها.

كانت على يقين من أنها هي من تقدَّمَ بأول طلب في اليوم التالي مباشرة لصدور القرار، أرسلتْ طلبًا بالاطلاع على الملف الشخصي للعميل يندرشيخ شفانتس.

تخطَّى ذلك فترة التسعين يومًا المقررة. وبعد خمسة أشهر وصلت رسالة إلى بريدها الإليكتروني يخبرونها فيها بأنها يمكنها الحضور.

كانت دار محفوظات كانيتسه تقع وسط الغابة خلف برنو. وقد اضطرت هي ولينكا بافليكوفا للعودة إليها بعد أن مرتا عليها ولم يروها لصغر حجم اللافتة التي تحمل السهم الذي يشير إلى الدار.

مرت بضع سنوات منذ ذلك الوقت الذي عرفت فيه بوجود شفانتس. ولم تستطع طوال تلك الفترة كشف النقاب تمامًا عن ذلك الرجل الذي يحمل على عاتقه وزر ما حدث لسورمينا، ولها، وليعقوب. لم تكن المعلومات غير الكاملة التي جمعتها تكفي لرسم صورة كلية عن حياته كي تستطيع التعرف على شخصيته.

وما زالت غير متأكدة إن كان ما انتظرته سوف يحدث حتى تراه بعينها. ربما كانت تأمل أن تشعر بالراحة، وخاصة إذا ما حدث شيء يشبع فضولها المتنامي.

وهذا هو ما تأكدت منه في ذلك اليوم من أيام شهر يوليو.

****

كان ما يحويه ملفه من أوراق أقلَّ من نصف محتوى ملف سورمينا. وكانت صور المستندات التي تم بدقة شديدة تسويد الأسماء الحقيقية للشخصيات بها تُقدَّر بنحو

مائة مستند. أثار ذلك الأمر دهشة دورا. كانت تتوقع ما هو أكثر من ذلك. توقعت عددًا أكبر من الصفحات، عشرات الأسماء، كانت تنتظر أن تكشف الغطاء عن المؤامرة. وهكذا دخلت إلى ساحة القتال، لكنها بدلًا من الجيش وجدت أمامها بضعة جنود مرتبكين.

جلست لدى الطاولة في غرفة القراءة غير المجهزة بالمكيفات؛ لذا كان العرق يسيل على خديها كما كان يجري فوق ظهرها، ما جعل ملابسها الصيفية الخفيفة تلتصق بجسدها.

طلبوا منها المغادرة في وقت الغداء، وأغلقوا خلفها الباب جيدًا، كما لو كانت هي من يخشون. لا ينبغي أن يخشوها هي. كانت تشعر بغيظ شديد جعلها تخبط بيدها على جبهتها، كان حريًّا بهم أن يخافوا أولئك الذين قرر الموظفون الإداريون أن يحيطوا مصائرهم بالسرية والكتمان لمدة ثمانية عشر عامًا بعد الثورة، والذين تقف في مؤخرتهم تلك المرأة النحيلة صاحبة تسريحة الشعر العتيقة التي وقفت في ذلك اليوم تحرس الملفات. تمنعها من النشر، من الوصول إلى أولئك الذين كانت دورا واحدة منهم.

انتظرت خلال فترة الظهيرة على دكة في الظل خلف السياج الذي كان يحيط بالدار من جميع الجهات. أخذت تتابع خلسة كيف تراقب عدسات الكاميرا محيط الدار بالكامل من فوق البوابة المصممة على شكل شبكة رقيقة تقليدية تحاكي بوابات معظم الحدائق. بدأت تلتقط بالشوكة ما بداخل العبوة البلاستيكية من سلطة كانت قد أعدتها في الصباح، ولم تكن حينها تتصور أنها بكل الأحوال لن تجد في ذلك المكان الموحش أيًّا من الوجبات الخفيفة.

ربما يرجع سبب اختيارهم لهذا المكان إلى رغبتهم في الحيلولة بين أولئك الذين يتوقون إلى معرفة أسرار ماضيهم وبين الوصول إلى تلك الملفات اللعينة. تصل الحافلة إلى هنا في ثلاثة أرباع الساعة، وتتوقف في مكان يبعد اثنين كيلو متر من دار المحفوظات. عَلمتْ بذلك من الموقع الإليكتروني للدار ففضلت أن تُقلِّها لينكا بافليكوفا إلى هنا بسيارتها.

وعندما نزلت من السيارة بجوار الدار، ودَّعتها لينكا قائلة: حظًّا سعيدًا.

في تلك اللحظة كانت دورا تحدث نفسها بأن كل ما حدث كان بفضلها. فلو لم

تكن هي لما أمكنها يومًا أن تتوصل إلى معرفة ما كان من أمر سورمينا، وعلى وجه الخصوص من داخل أرشيف أمن الدولة.

وأضافت لينكا وهي تدير موتور سيارتها استعدادًا للانطلاق: اتصلي بي عندما تنتهين، سوف أمر عليكِ بالسيارة كي أصطحبك! أومأت دورا برأسها وهي تقف في الطريق المؤدي إلى المبنى الخرساني قبيح المنظر لفرع أرشيف الوحدات الأمنية.

مرت لحظات قليلة سمعت دورا بعدها صوت صرير البوابة. وكان ذلك يعني الإشارة إلى أنه يمكنها أن تعود لتغوص من جديد في أعماق الملف. جمعت بقايا وجبة الغداء بسرعة ووضعتها بالحقيبة وتوجهت بلهفة نحو جدران الأرشيف. كانت عدسات الكاميرا تراقب ظلها النحيل خطوة بخطوة.

وفي نهاية ذلك اليوم شعرت بأنها أخيرًا استطاعت التعرف عليه. وقف أمامها عاريًا، عرفت عنه كل شيء منذ مولده حتى وفاته، وأهم الأحداث في حياته مدعومة بتواريخ وقوعها. وإذا كان في صباح ذلك اليوم قد بدا لها شريرًا غامضًا، فالآن تظهر أمامها صورته مرسومة بألوان واضحة: رجل قاسٍ، لا يراعي شعور الآخرين، لا يوجد شيء يستطيع أن يزحزحه عن هدفه.

وعلى الرغم من ذلك لم يكن هناك شيء في البداية ينبئ عن أنه سيصبح ذلك الرجل غليظ القلب. فقد نشأ في عائلة عادية يعولها الأب، وكانت أمه ربة بيت، وبعد بضع سنوات وُلدت أخته الصغرى. كانوا يقيمون ببيت ملحق به حديقة، ولديهم ماشية.

وكان يحتل مكانة محترمة وسط الجالية التشيكية الألمانية بقريته الصغيرة، حيث كانت بطاقة الترشيح التي تقدَّمَ بها لعضوية الحزب الديمقراطي الاجتماعي تشير إلى أن العديد من أسلافه كانوا يشغلون منصب عمدة القرية. فكيف أصبح على هذه الشاكلة؟

هل كان طموحه أكبر بكثير من أن يظل يعمل بطلاء جدران المنازل؟ ألم تَرُقْ رائحة فرشاة الطلاء له ولزوجه الحسناء التي أتي بها إلى بيت عائلته بمجرد بلوغه؟ ربما لكلا السببين معًا. إضافة إلى أنه كان ينتظر قدوم طفل، والمؤكد أن الأزمة الاقتصادية الوشيكة كانت تعوق تحقيق أحلامه في إيجاد مسكن خاص لعائلته الصغيرة.

وإذا لم تكن إينجيبورج بيتينوفا تبالغ، فلابد أن يكون قد مر بأوقات عصيبة. فقد

وجد نفسه محاصرًا وسط صرخات امرأته وأمه، كلتاهما تصيحان في أذنه في وقت واحد. ربما كانتا تتحدثان إليه بشكل مباشر، وربما كانت زوجته بعد ذلك عندما تختلي به ترميه بأقذع الشتائم وتتهمه بعجز المُقْعَدين. أضف إلى ذلك الجرح العميق الذي التأمَ بشكل خاطئ، والذي أصيب به في قدمه بعد سقوطه من فوق السُّلم، الأمر الذي منعه من العمل أكثر من ستة أشهر، وظل يعاني تبعاته طيلة حياته.

ربما فكر في ذلك بعد إحدى هذه المشاجرات، عندما لفظت إحداهما كلمة جعلت كأس الصبر الممتلئة عن آخرها تفيض، ليسيل منها الشر الذي طال كبته. ولعل هذا هو ما أوصله إلى الباب المغلق للسلم الخارجي ببيت ليو فايسمان، ذلك العجوز اليهودي، الذي كان يمتلك من المال ما يكفي لتوزيعه على أهل القرية جميعًا. ومن أجل ماذا؟ لا شيء، فقط من أجل إحداث ذلك التأثير. حتى يتسنى له أن يتباهى وهو يتأرجح فوق أرجوحة بالحديقة، أو يجلس وسط أثاث مصنوع من الخوص بمدخل فيلا، أو بالخادمة التي تدير شئون منزله. شعر شفانزا الشاب أنه يستطيع أن يفعل أكثر مما يفعل بكثير، وأنه يجب عليه إعالة زوجة وطفل.

كان الوصول إلى بيت الرجل قبل أن يطلع الصبح أمرًا غاية في السهولة. لكن كان ينقصه معرفة المكان الذي يخبئ فيه فايسمان أمواله. أخذت تتخيله وكأنها تراه وهو يبحث في الشيفونيرة، على الأرفف، وكلما مر الوقت ولم يجد شيئًا ازداد هياجه، يريد أن ينتهي من هذا الأمر، لكن ذلك اليهودي ضبطه، ولم يكن عليه أن يفعل، لأن شفانزا كان عصبيًا بدرجة جعلته يصب عليه جام غضبه، ويوجه نحوه مطواة أخذ يطعنه بها في نوبة هيستيرية وظل يطعنه ويطعنه.

لابد أن دهشته كانت كبيرة لما استطاع فايسمان بعد ما حدث أن يفلت من الموت، وكان الرجل يعاني حشرجة الموت عندما فر من أمامه. ولابد أن خادمته أدركته في الوقت المناسب. وفي الصباح كان خبر السرقة قد انتشر في القرية، كما تناقل الناس خبر نجاته من الموت بعد أن تعرض للاعتداء من قبل اللص. وأخذ رجال الشرطة يمشّطون القرية لعدة أيام بعد الحادثة. تستطيع دورا أن تتخيل كيف كان نوم شفانزا في تلك الفترة. بالتأكيد كان يستيقظ في الليل مذعورًا ليسترجع ذلك الإحساس المرعب، عندما اخترق نصل السكين حتى مقبضه جسد الرجل، فيتصبب عرقًا من تخيل حجم العقوبة.

بالتأكيد فقد الكثير من وزنه وصار جلدًا على عظم يعرج على قدمه اليسرى، كما بدأت تنبت في رأسه بضع شعرات بيضاء. ولكي لا يلفت النظر إليه؛ لم يتصرف في أي شيء مما تمكّن من سرقته من الفيلا. حتى إنهم بعد مرور ستة أشهر وجدوا كل المسروقات عنده بالتمام والكمال، حتى ذلك الشمعدان الذهبي (المينوراه).

وعندما خرج فايسمان من المستشفى، فقد شفانزا بكل تأكيد آخِرَ ما تبقَّى له من هدوء أعصابه. لابد أنه كان يتعذب وهو يحاول تحمل الشد العصبي من إمكانية أن يتعرف عليه. وحدث ذات مرة أن فقدَ قدرته على احتمال الأمر عندما لمح فايسمان يجلس على الأرجوحة بحديقة فيلته. كان لابد أن يتخلص من ذلك الضغط الرهيب حتى وإن كان الثمن هو أن يتعرف عليه ذلك اليهودي. راحت دورا تتخيل كيف خرج من منزله متوجهًا صوب السياج، وكيف كانت تبطئ خطواته كلما اقترب منه أكثر. كان يغفو وقد غلبه الإرهاق بعد فترة نقاهة طويلة وصعبة، وكذلك بفعل شمس الظهيرة وبسبب الحلقة المحيطة برقبته، وذراعه المتدلية داخل العصابة المثلثية.

ربما كانت تلك هي المرة الأولى التي يتبادلان فيها معًا حوارًا وديًّا. كان هذا الحوار بمثابة بداية الراحة بالنسبة لـ شفانزا. شعر بمنتهى السعادة لعدم تعرف فايسمان عليه، بالتأكيد كان يرغب في القفز من فوق السياج ليطبع على جبينه قبلة. ولم يعد غريبًا عليه بعد ذلك كلما رآه أن يحييه بحرارة، على الرغم من أنه كان فيما مضى لا يعيره أي اهتمام، لكنه بعد تلك الحادثة كان يبذل قصارى جهده لاسترضاء الرجل. وهكذا سارت الأمور حتى جاء ذلك اليوم الذي قبضوا عليه فيه.

ولابد أن شفانزا كان يعتقد أن ذلك اليهودي المخبول قد أصيب بالجنون عندما ذهب يبلغ عنه الشرطة. بالتأكيد رشاهم كي يقبلوا الاستماع إليه، ويستجيبوا لرغبته في القبض عليه. لكنهم لا يمتلكون ضده أي دليل مادي. تستطيع دورا أن تتخيل أنه لم ينسَ قط وجهي والديه المذعورين المندهشين، ونظرة الاحتقار في عيني زوجته. كانت دورا على يقين أنه كان ينام بمحبسه وفي مخيلته تلك الصور يومًا بعد يوم.

ووسط المحاضر التي احتواها الملف كانت توجد قصاصات من الجرائد المحلية.

كشف مثير:

وقعت في منتصف العام الماضي بمنطقة هورني نيمتشي جريمة سرقة كاد يدفع المواطن ليو فايسمان حياته ثمنًا لها. وقد عاد ليستكمل علاجه بالبيت بعد فترة علاج طويلة ومعقدة، إلا أنه فقد الإحساس بالأمان: ظل الجاني الذي ارتكب تلك الجريمة البشعة حرًا طليقًا. ثم حدث أن أشارت عليه خادمته أن يستعين بمساعدة ساحرة جيتكوفا المعروفة. وكانت أصول تلك الخادمة تنحدر من هروزينكوف؛ ولهذا كانت تعرف عن قرب قدرات ساحرات تلك المنطقة. بناءً على ما سبق انتقل العجوز إلى جيتكوفا لزيارة الساحرة الشهيرة سورمينا، التي بخلاف كيس الأعشاب الذي أعطته إياه للتعجيل بشفاء جراحه المؤلمة، كشفت له أن الجاني هو شخص قريب منه، بل هو جاره، الذي شفي تمامًا من مرض ألَمَّ به، والذي غيَّر سلوكه القديم تجاهه ليتحول إلى شخص ودود، وهو في هذا يبدو مدفوعًا بوخز الضمير، وليس بالتعاطف مع رجل مُسِنّ. وتم العثور على المسروقات لدى المواطن هينريخ شفانزا، جار فايسمان. هذا الاكتشاف المثير سينتقل ليستكمل مساره بمحكمة أوهيرسكي هراديشتي التي ستصدر حكمها بحق المتهم قريبًا. وسوف نوالي قراءنا بتفاصيل القضية في الفترة القادمة.

لابد أن شفانزا قد عانى كثيرًا في السجن، باعتباره شخصًا معاقًا فشل في السرقة، وتركته امرأته وراحت تبحث عمن هو أفضل منه، ويقال إن أحدهم جاء واصطحبها بسيارته. وقد كتبت له أخته إينا في خطاب أرسلته إليه في السجن أنها على يقين أن تلك السيارة كانت مستأجرة حيث كانت تحمل لوحة فيينا، أما الرجل فكان يتحدث التشيكية بطلاقة. يعلم الله من أين أتت به تلك العاهرة! لكن عليه أن يسعد بما حدث: فلن تتسبب تلك الشخصية الحقيرة في إيذائه مرة أخرى. إلا أن أسوأ ما في الأمر هو أنها لم تترك لهم الطفل.

وهكذا تجسدت أمام دورا صورة شفانزا الذي تزلزل كيانه غضبًا وعجزًا بلا حدود أمام زملائه الثلاثة داخل الزنزانة الصغيرة. تكاد دورا تسمع تعليقاتهم الساخرة: هل هذا برَجُل؟ من يدري، لعله لم يستطع أن يملأ عينيها بالمرة؛ لذا ضاقت بمعيشتها معه! يا له من زوج مخدوع!

مكث في السجن خمس سنوات هي نصف فترة العقوبة التي قضت عليه بها المحكمة. أفرجوا عنه بعد مرور نصف المدة بعد إيقاف تنفيذ بقية مدة الحبس، فخرج وقد هزل جسده، وابيضَّ شعره، واشتد حقده. فلم يعد يوجد أي شيء يربطه بالحياة وهو بعد لم يبلغ الثلاثين من عمره.

ربما مكث في بيته بضعة أشهر بعد ذلك. ظل بلا عمل، حيث منع سوء سيره وسلوكه الجميع من توفير فرصة عمل له، حتى وإن وُجدت هذه الفرصة بالفعل. بقي حبيس الجدران الأربعة يحاصره اللوم في عيون أبويه وأُخته؛ لأنه كان يستحي من الخروج، كما أنه لا يستطيع دخول الحديقة بسبب ذلك الكلب فايسمان. ربما بقي وحده في الحظيرة مع زجاجة براندي، وربما ظل مخمورًا حتى الصباح، ووقع أسير الندم، وفي عز شعوره باليأس بسبب الدمار الذي حل بحياته قرر أن يفعل شيئًا.

وفي عام 1939 عاد من جديد، عاد ليتغير كل شيء فجأة بعد أن أتاحت له الحقبة الجديدة الفرصة.

بمجرد أن استشعر أن حياته يمكن أن تتغير بتغير السفينة والرُّبان، تقدم بطلب للحصول على الجنسية الألمانية التي اكتسبها سريعًا، ويكفيه أنه أثبت الأصل الألماني لوالديه اللذين كانا طوال فترة الجمهورية الأولى يطالبان بالحصول عليها. وهكذا أصبح شفانزا ألمانيًّا حقيقيًّا، وتحولت سمعته التي كانت حتى فترة قريبة ملوثة إلى مجرد حدث سيئ عارض، لم يكن لموظفي سلطات الاحتلال من رد فعل عليه سوى التلويح بأيديهم بلامبالاة. فجأة صعد السجين السابق من قاع المجتمع. تحول بضربة من عصا إلى شخصية مرموقة، وهو الذي لم يكد شعره يطول بعد خروجه من السجن. الرجل الذي لم ينسَ قط، بعد انكشاف أمره، أن يردد أن حسن حظ اليهود هو سبب كل تعاسته في الحياة، تلك التي تجسدت في شخص تاجر هورني نيمتشي، ليو فايسمان ومحاكم تشيكوسلوفاكيا.

مُنح هينريخ شفانزا فرصة ثانية، ردَّ عليها هو بالإخلاص والولاء والمحاولة الجادة للقضاء على ما تبقَّى من آثار لحياته في عهد الجمهورية الأولى. ولم ينسَ السادة الجدد مكافأته على إسهاماته المخلصة ومنحه ما كان يطمح إليه من مكانة معتبرة داخل بنية الجهاز الحكومي الجديد. فصعد نجمه وظيفيًّا بشكل لافت.

رأت دورا في أوراق شفانزا أن الأمور سارت في البداية في شكل بلاغات محبوكة، وبضع شائعات أنصت إليها أحد رؤسائه فقام بدوره بنقلها إلى رئيسه، ثم انضم الرجل الهمام إلى البوليس السري الألماني. كل ما تطلبه الأمر كان محضرًا قصيرًا بقلم ضابط صغير بفرع زلين لقيادة قوات الهجوم التابع للوحدات الوقائية الألمانية، وهو جراذ الذي يعرف جيدًا كيف يستغل الظروف المحلية، وكانوا يسمونه الوكيل ثم صاروا يطلقون عليه مسئول الإمدادات، وهو من أوصى بتعيينه في وظيفة أمين سر. وقد كتب جراذ في خانة التقييم: رجل مزدوج الجنسية يُنتظَر منه نفع كثير، مطيع للأوامر دائمًا، شديد الإيمان بانتصار الصليب المعقوف وبفلسفة القائد. وتم تعيين شفانزا بعد ذلك، بالتحديد في يناير 1940 تحت رقم ب-7.

وتستطيع دورا أن تخمن كيف استطاع ذلك الرجل التطبُّع بصفات الألمان سريعًا، وكيف كان يتصرف أمام رؤسائه بطريقة ألمانية فجة، فكان يحييهم رافعًا يمناه فقط وهو يضرب الأرض بكعبه محدثًا صوتًا يرتد صداه من الجدران المحيطة. أما التشيك فكان يمشي بينهم هادئًا كالنسمة، لكن أذنيه مفتوحتان كي لا يفوته شيء مما يحدث حوله. وبعد عام أو عامين ارتقى إلى درجة جعلتهم يوكلون إليه المهام الخطيرة. وهذا ما حدث مثلًا في موضوع المنشورات الشيوعية.

حدث ذلك في قرية سفاروف، حيث كان من المقرر طبقًا للبلاغ أن تلتقي بها إحدى خلايا المقاومة الشيوعية. وطبقًا للتقرير المقتضب الخاص بالعملية حاول شفانزا، البلطجي الموكل بتنفيذ العملية، اختراق الخلية. فصار يتحدث السلوفاكية بالحانة، وطلب عدة كئوس من الويسكي. وراح في البداية يُلمح ثم بدأ يصرح بتوقعاته بسقوط الإمبراطورية الألمانية وانتصار الشيوعيين. بالتأكيد السوفيت لن يتركونا وحدنا في تلك الظروف! فقام صاحب الحانة باستدعاء الشرطة لتلقي القبض على ذلك الزائر العجيب؛ لأنه رأى أن المنشورات الشيوعية التي كان يستند عليها بمرفقه ويمررها لبقية رواد الحانة تُعَدُّ عملًا خارجًا عن القانون مثلها مثل ترديد تلك المقولات التي تفوَّه بها. بالتأكيد قال لنفسه: *لتتولَّ الشرطة أمره*، ثم أغلق الحانة وجلس ينتظر مجيئهم. وجد الضباط معه بخلاف المنشورات سلاحًا ناريًّا معبئًا وبطاقة شيوعية، فقرروا إبلاغ رؤسائهم الألمان. وهكذا جاءت الرياح بما لا تشتهي السفن، وبدأ شفانزا يخاف من فشل

المهمة. وإلا كيف يتأتى لدورا أن تفسر أن يسجل الشرطيان دوبروفسكي وتسيجلير في المحضر أن *الرجل بكى بكاءًا حارًا، واستعطفهم، وابتزهم عاطفيًا لكونه العائل الوحيد لأسرته، وأنه همَّ بضرب نفسه بالنار أمامهم؛ لأنه كان في أشد درجات اليأس، حتى إنهم أنهوا استجوابه، وألقوا بسلاحه في البركة، وأحرقوا المنشورات، وأخلوا سبيله.* وبعد أربعة عشر يومًا جاء رجال الجستابو يلقون القبض على هذين التشيكيين الخائنين، ويقتادونهما للتحقيق بمدينة كونيتسه الجامعية ببرنو، ثم حُكم عليهما بالإعدام بعد محاكمة سريعة في شتاء عام 1943. بينما زاد راتب شفانزا.

وإلى هنا انتهى الجزء الضئيل المتعلق بالتاريخ النازي لشفانزا بالملف. وبخلاف ذلك لم يكن يوجد شيء ذو أهمية تُذكر. لم تجد شيئًا عن كراهيته المجنونة للساحرات، ولا مشاركته في تعقب الطيارين الأمريكيين. ربما لم يكن يوجد في نهاية عام 1944 من يهتم بالتفاصيل الدقيقة المتعلقة بالتفويض الممنوح للرجل، أو ربما فُقدت بقية البيانات الخاصة بممارساته. أم تراها استُبعدت من الملف؟ استيقظت الشكوك في نفس دورا من جديد. لكنها ردت على تلك الشكوك بأنهم لو كانوا يريدون إخفاء هذه المستندات، فلماذا لم يحجبوا الملف بأكمله؟ إلا أن عملية المنشورات الشيوعية اكتسبت هنا بعدًا مختلفًا تمامًا عما ذكره ليتشيك في مقاله الموجه إلى العالم وإلى الرفقاء شركاء الوطن، وتكاد وحدها تكفي لتُوقِع به في قبضة العدالة.

وليس لدى دورا أي تصور عما يمكن أن يكون قد وعدهم به. أو الطريقة التي استطاع بها أن يحوز ثقتهم أكثر من أي أحد غيره، أو الكيفية التي أمكنه من خلالها أن يكسب رضاهم. وقد وُفِّق بالفعل في الوصول إلى مراميه. ولعل تأخره في تدبير الأوراق المطلوبة ومغادرة البلاد مع سادته الألمان، الذين تركوه بلا أي تردد في مواجهة الجماهير التي قدم في حقها البلاغات سابقًا، لم يكن في النهاية خطأً كبيرًا. ففي بداية عام 1945 قُبض عليه. وأصدرت المحكمة الشعبية بعد ستة أشهر حكمًا بإدانته بناء على اتهامه بأنه في وقت المخاطر الشديدة التي تعرضت لها الجمهورية كان يناصر الحركة النازية، وذلك من خلال التقارير التي كان يقدمها لمكتب الجستابو في زلين عن أناس مختلفين، وهو الأمر الذي يعني ارتكابه لجريمة التآمر على الجمهورية طبقًا للمادة 1 من القانون رقم 50 لعام 1923.

وقد نفى شفانزا التهمة الموجهة إليه، وصرح في نهاية المحاكمة: لا أعترف بصحة التوقيعات التي ذُيلت بها المحاضر والتي تمت تحت وطأة الإصابات والضرب أثناء التحقيقات، وأؤكد أنها كلها أشياء مدسوسة ومختلَقة.

ولم تكن عقوبة الحبس لخمس سنوات هي الأسوأ في ذلك التوقيت. إلا أن التعرض للسجن مرة أخرى بالنسبة لشفانزا، الذي سبق له أن قضى عدة سنوات في السجن، كانت فكرة تفوق قدرته على الاحتمال. ولابد أنه فعل أقصى ما يستطيع وبطريقة مقنعة، كي يستمعوا إلى أقوله. ويوجد أسفل منطوق الحكم الصادر في 3/10/1945 ملحوظة غير واضحة تمامًا كتبت بخط اليد: يُحبس؟ أليس من الأفضل... الاستفادة منه بشكل أفضل؟

وقد كان. التقط شفانزا الحبل الممدود في سعادة. كان يتصرف تمامًا بحسب أوامرهم. وكانت صورة ملفه بالسجن، الذي يرجع إلى نهاية يناير 1948، تحفل بالثناء والإشادة. كان المتهم أثناء فترة تأديته للعقوبة يتصرف كأحد أنصار الجمهورية الشعبية الديمقراطية، وحدث كثيرًا أن تدخَّل في حالات سوء تنظيم العمل البسيطة التي كانت تنشأ بين المساجين، وذلك من أجل احترام النظام وإطاعة تعليمات حراس السجن. وزاد على ذلك بأنه كان لا يتردد عن موافاتنا بالأجواء السائدة وسط جموع المساجين، وهو الأمر الذي نثمِّنه بشدة. كما أنه حسن السير والسلوك ويبدو واضحًا أن العقوبة في حالته قد أدت الغرض التربوي المطلوب. وهو من الناحية السياسية كذلك يُبدي ندمه على موقفه الخاطئ المؤيد للمحتل النازي، كما يقوم الآن بدافع شخصي منه بدراسة الماركسية، ويتحدث عن النظام الشعبي الديمقراطي باعتباره أحد الاحتمالات التي يمكن أن تصبح حقيقة في المستقبل. ولهذه الأسباب نميل إلى الاستجابة لطلب اللجنة المحلية لهيئة الأمن الوطني بالعفو عن هينريخ شفانزا.

حصل على العفو في مارس 1948، ولم يمرَّ شهر بعدها حتى كان بين ملفات موظفي القسم المحلي لأمن الدولة بـ أوهيرسكي هراديشتي بطاقة تحمل اسم الموظف يندرشيخ شفانتس.

تساءلت دورا من جديد: كيف استطاع ذلك الرجل أن يبهرهم بشخصيته؟ ما الذي استطاع أن يقدمه لهم؟ لم تجد ما يمكن أن يقدم لها تفسيرًا بين طلبات قبول العروض

بالتعاون، ومستندات التقدم لشغل الوظيفة، والمذكرات، وتصاريح الإجازات في إطار الحركة النقابية الثورية هناك. أو ربما يوجد؟ فبين العديد من الأوراق عديمة الأهمية كانت توجد إشادة من رئيس شفانتس في العمل، الملازم أول كوجيلا. وكانت تتعلق بحسن أدائه للعمل مع الحكام السابقين. مع الحكام السابقين؟ وهل يُعقَل أن تكون المخاوف القهرية من التآمر على الدولة، التي استشرتْ في بداية الخمسينيات، وذلك بالتحديد من الخدَّام السابقين لممثلي الحماية الألمانية والأعداء الحاليين المتمسكين بالأفكار النازية، قد تضخمت ليصل مداها حتى إلى هنا، وسط الحقول ومزارع العنب بجنوب مورافيا؟ إلى هنا حيث اعتاد الناس تفضيل معاقرة الخمر على إعداد الخطط لقلب نظام الحكم؟

ربما يتحدث أحدهم بشكل صريح في جلسة حول طاولة، ربما يتكلم أحدهم بلا حذر بأن الأوضاع كانت أفضل في عهد هتلر. أو ربما كان يوجد بينهم أحد المتعاطفين السابقين مع الألمان الذين كان شفانتس يعرفهم من تلك المنطقة. وهل كان يختفي بعدها لعدة سنوات يقضيها بالسجن بتهمة التعاون مع الاستخبارات الغربية، بالتحديد مع منظمة جيهلين؟ كم كان عدد هؤلاء الذين اقتادوهم من طاولة بإحدى الحانات مباشرة إلى قاعة التحقيقات ذات البلاطات الجدارية الخضراء التقليدية التي علقت بها بقع الدم والبصاق؟

بالتأكيد كانوا ينفون التهم الموجهة إليهم. وكان لابد ببساطة من استخدام العنف لاستخراج المعلومات منهم.

وكان شفانس هنا ليقوم بهذا الدور، وطبقًا للثناء الذي حظي به كان واحدًا من أفضل من قاموا بهذه المهمة، وكانوا يوعزون إليه باختبار صلاحية المرشحين من النابهين للعمل بقسمهم. ومن أمثلة ما كانوا يستنطقون به الخاضعين للتحقيقات، كانت تلك اللوحات المعدنية الرقيقة الموصلة بالتيار الكهربي، والتي يضعونها في حذاء المحقَّق معهم، الذين كانوا بعدها يتلوون كدمى مصنوعة من قماش، تكاد أعينهم تخرج من محجرها وتنفجر شراييها، فتسيل منها قطرات الدم على الجانبين. إلا أنهم كانوا يحاولون دائمًا فصل الكهرباء قبل أن يحدث ذلك بقليل حتى لا يفتضح أمرهم.

وهذا شكر على *العمل المتميز للفريق المكون من كارِل كاهِردا، أنتونين ليتشيك،*

يندرشيخ *شفاتس*... وبعدها بقليل *وداع الموظف المثالي* يندرشيخ شفانتس الذي انتقل إلى أعلى بعدة طوابق. إلى المكتب الرئيسي لهيئة الأمن الوطني. وكان حينها لديه من العمر خمسون عامًا إضافة إلى قدمه المصابة. لم يعد يحتمل صحيًّا التعامل خلف الأبواب المغلقة مع الشخصيات المعادية للجمهورية الاشتراكية الشابة.

إلا أنه احتفظ بقضية وحيدة. قضية كان يتتبعها منذ بداية نشاطه الوظيفي. كان عليه حينئذ أن يستبعد ملف «الساحرات» لمًّا لم يثبت تواصلهم من الألمان. لكن عملية متابعة الساحرات لم تتوقف، وكما تبيَّنَ بعد فترة وجيزة، كانت توجد مبررات لذلك. فقد نجح بالفعل في نهاية المطاف في الوصول إلى عدوه الداخلي متمثلًا في إحداهن. العدو الذي تسبب في هروب المال للقطاع الخاص، وعدم الرغبة في الاندماج في الجمعيات التعاونية، ذلك الذي تسبب في إحداث أضرار عميقة وطويلة المدى بصحة المواطنين الاشتراكيين البسطاء.

وهكذا أنهى قضية سورمينا بنجاح في سبتمبر 1979.

وبعدها بشهر تقدم بطلب لإحالته على المعاش، وكان بالفعل قد عمل في حياته بما فيه الكفاية.

ويمكن لدورا أن تتخيل السيدات اللاتي كن يعملن معه بالمكتب وهن يُقِمْن له حفلًا يُحضرن فيه شطائر الخبز المملحة بأطعمها المختلفة، بالإضافة إلى بضعة مثلثات من الشيكولاتة المحشوة ويلتقون جميعًا بعد الثالثة في قاعة الاجتماعات كي يشربوا النبيذ على شرف وداعه. ويغادر شفانتس في نهاية اليوم بعد أن تعود تلك السيدات إلى أسرهن، ويكتفي الرجال بما أدوه من عمل في ذلك اليوم، يغادر وهو يحمل لوحات تذكارية ثقيلة مثبتًا بها ورقة كُتب عليها بخط رديء: *وداعًا أيها الموظف النابغ*، ذُيِّلت بتوقيعات جميع الزملاء الرفقاء. تكاد دورا تعرف، تحس تمامًا، أنه كان حينها في أحسن أحواله. وهكذا ظل يشعر في السنوات السبع التالية التي سبقت وفاته، حيث كان يذهب في ياروشوف لتمشية كلبه بالحديقة القريبة، وفي الصيف كان يستمتع بالراحة المستحقة بالبيت الريفي الذي اشتراه حديثًا فوق منحدر فيشكوف، وهو يطل على منظر رائع يرى من خلاله تلال بيدوفا، كوبرفازي، وتشيرينوفا.

وهكذا أصبحت تعرف كل شيء. لم يبقَ هناك من جديد يمكن أن تعرفه. وصلت إلى نهاية الطريق المحدد، إلى النهاية التي يمكنها من خلالها رؤية كل شيء. سورمينا وماضيها. ولم يتبقَّ الآن سوى تلك المحطة الأخيرة. الدراسة التي تعمل عليها.

بيدوفا

أغلقت مكتبها في آخر يوم من أيام يوليو لبضع دقائق بعد الثانية عشرة. دقت على أبواب مكتب لينكا بافليكوفا أسفل مكتبها بدور واحد، وانطلقتا معًا إلى الدور الأرضي حيث يوجد المطعم.

كانت معنويات دورا تكاد تبلغ عنان السماء. فهذا اليوم هو آخر أيام العمل قبل أن تقوم بإجازة لمدة شهر وافقوا على منحها إياها حتى تتمكن من الانتهاء من دراستها. شهر، أربعة أسابيع طويلة. ستقضيها في بيدوفا بجوار يعقوب وستتمكن الآن من زيارته يوميًّا.

شهر فقط؟ وهل ستكفيكِ تلك المدة؟ سألتها لينكا غير مصدقة، عندما جلستا قبالة بعضهما تتناولان طعام الغداء في صينيتين على شكل زهرة صغيرة. أخذت دورا تنظر إلى تلك الزهرة ثم قالت: إنها زهرة الناردين، وتسمي في بلدتهم حشيشة الهر. كانت سورمينا تسقي يعقوب مغلي جذور تلك الزهرة، كي تهدأ نوبات الصرع.

ابتسمت دورا لـ لينكا وأومأت برأسها. أخيرًا جاء الوقت الذي ستضم فيه للمادة التي جمعتها عن سورمينا منذ ثماني سنوات آخر جزء متبقٍّ: المعلومات التي حصلت عليها من الملف الشخصي لـ شفانتس. كانت واثقة أن النسخة الأولى من الدراسة يمكن أن تكون جاهزة خلال الشهر القادم.

ردت لينكا بأن كليموفا حصلت في دراستها الأخيرة على إجازة ستة أشهر.

فأجابتها دورا: لكنها كانت في تلك الفترة ما تزال تقوم بجمع المادة العلمية، أما أنا فلحسن الحظ كل شيء عندي جاهز.

- حتى تقارير المحكّمين؟

- نعم. وقد جاءت تلك التقارير على نحو رائع. والاستشاري الذي يرأس مركز علاج الاضطرابات النفسية يقوم حاليًّا بإعداد دراسة علمية يبحث فيها إمكانية تجريب الطب الشعبي. وهو معجب جدًّا بالساحرات، حتى إننا ذهبنا معًا إلى جيتكوفا

لرؤية وفحص بعض المعمرين الذين خضعوا للمعالجة على أيدي الساحرات.

- ممتاز! بالتأكيد ستتمكنين من إبراء ساحة الساحرات، غمزت لينكا لها بعينها مشجعة اياها: أنا متأكدة أنك ستفعلين.

نعم، ابتسمت دورا وهي تجذب نحوها طبق حساء الطماطم غليظ القوام، ثم قالت: سأمحو عنهن كذلك تهمة التخابر مع الألمان. أتحدث بالتحديد عن سورمينا وبعض الساحرات الأخريات، وليس جميعهن.

كان بخار الماء يتصاعد من الحساء الساخن.

سألتها بعد ذلك: ألم أخبركِ بما توصل إليه الفريق الألماني من نتائج؟

لا، هزت لينكا رأسها بالنفي.

- كانوا مقتنعين بأنهم وجدوا فيما تقوم به الساحرات من الممارسات العلاجية بقايا المعارف الروحية الجرمانية. كما كانت طقوسهم السحرية تشبه تمامًا طقوس الكاهنات الجرمانيات القديمات. وهي البقايا التي لم تُحفظ في أوروبا إلا في أماكن معدودة، وذلك بين سكان المقاطعات الداخلية، الذين تم طردهم في الماضي إلى الجبال ليبقوا هناك منعزلين عن الحضارة. وفي إطار ذلك المجتمع المحدود حافظ الناس على تعاليم أسلافهم، وذلك بطريقة محددة اختلطت بالطبع بعض الشيء بالمسيحية.

فقالت لينكا وقد بدا عليها الاهتمام بالفكرة: لكن تلك النظرية برأيي ليست جديدة تمامًا، وقد سمعت عنها من قبل، ثم أضافت: كان يمكن أن يصبح الأمر رائعًا إذا ما تأكد ذلك بالنسبة لساحراتك. هل استطاعوا إثبات ذلك؟

هزت دورا رأسها بالنفي: لا. ويبدو أنهم فعلوا خيرًا إذ لم يستطيعوا إثبات ذلك.

- ماذا تقصدين؟

- كل الدلائل تشير إلى أن ما كان الألمان يعتبرونه دليل إثبات المعارف الروحية الجرمانية القديمة، أي كل المظاهر المتعلقة بالرقيا، والتنبؤ بالمستقبل، وطرق العلاج والتعامل مع العقل الباطن للعملاء ومع أرواحهم بشكل عام، وكذلك

احترام أسرار الطبيعة، كل ذلك لا يتفق مع سمات المعرفة الروحية السلافية.

- أتودين القول بأنهم كانوا على خطأ؟ أنهم فسروا ممارسات الساحرات بشكل خاطئ؟

- لا. ليس بالضرورة. بل كانوا غالبًا على صواب. إلا أن فرضيتهم تتفق مع الحقائق التي نعرفها عن ممارسات الكاهنات السلافيات القديمات، وفي فترة لاحقة مع الساحرات اللاتينيات اللواتي كن يُعرفن باسم المشعوذات، أي الساحرات بوصفهن وسيطات ينقلن الفنون والطقوس السحرية بما فيها فنون العلاج. ومن أمثلتهن كازي، تيتا، وليبوشه، اللواتي يمثلن جزءًا أصيلًا من تقاليد أكثر قدمًا، وقد تركن من بعدهن الكثير من الوريثات. وأعتقد أن ساحرات جيتكوفا قد شربن من نفس المعين الذي شربت منه سابقاتهن.

تساءلت لينكا في دهشة وهي تبعد طبق الحساء الفارغ: ومن أي نبع برأيك خرجت الساحرات؟ من المعرفة الروحية الجرمانية أم السلافية؟

- هذا هو السؤال. أعتقد أن تلك السمات الكثيرة المشتركة ليس لها سوى تفسير منطقي واحد وهو الأصل الهندي الأوروبي المشترك. ولو نجحت في إثبات ذلك في دراستي فسوف تصبح ظاهرة الساحرات جزءًا من التراث الروحي الأقدم على الإطلاق في وسط أوروبا!

تنهدت لينكا بحماس وهي تقول: سيكون ذلك أمرًا عظيمًا! وظلت دورا لبعض الوقت تنظر إلى وجبة الجبن الريكوتا بالمطعم المتواضع، ثم هزت رأسها في اشمئزاز قائلة: في كل الأحوال سيكون الأمر سيئًا، أليس كذلك؟ عشرات من حاملات تلك المعرفة اضطررن للتعايش مع قدوم المسيحية، ثم محاكمات الساحرات في بداية العصر الحديث، وما قام به الحكام المحليون والمحاكم من ممارسات فاسدة، بالإضافة إلى بحث الوحدات النازية الألمانية، وفي نهاية المطاف جاء البلشفيون ليقضوا على ما تبقّى منهن.

هزت دورا رأسها في حزن: أخشى أن يكون الأمر على هذا النحو. لكن ما زال أمامي باب سأطرقه. عندما أنتهي من دراستي، سوف أرسل بها إلى بنات إيرما جابرهيلوفا، آخر ساحرات كوبانيتسه. وهؤلاء هن الوحيدات اللواتي يمكن أن يكنَّ مرتبطات بتلك

التقاليد. وإن كنت أخشى عدم قدرتهن على إعادتها إلى الحياة من جديد، فقد غادرن بيت أمهن في سن مبكرة ولا أراهن يستطعن تذكر أي شيء مما كان يحدث فيه.

مرت لحظات قليلة كانتا تتناولان فيها الطعام في صمت، ثم قالت دورا: وإلامَ توصلتِ بخصوص عمكِ؟ ذلك الذي عثرتِ على اسمه بالقوائم.

أومأت لينكا برأسها وهي تتنهد: لا شيء على الإطلاق. عمره ثمانون عامًا، بينما بلغ أبي الخامسة والسبعين من عمره، فلم يطاوعني قلبي على فضحه ونشر غسيله القذر أمام الجميع، على الرغم من أنه طبقًا لما جاء في ملفه قد فعل الكثير. كان يتجسس وينقل أخبار كل من أمكنه الوصول إلى أخبارهم.

فردَّت دورا: يؤسفني سماع ذلك.

اكتفت لينكا بابتسامة حزينة وهزت كتفيها. وكانت تلك الإيماءة تحمل معنى الشفقة، فشعرت دورا بالتأثر.

وبعد عدة دقائق وقفتا عند مدخل المطعم تودعان بعضهما.

ربتت لينكا على كتفها قائلة: بالتوفيق! ثم ابتعدت متجهة نحو السلم وعلى وجهها ابتسامة رضا.

****

بقيت دورا منذ ذلك اليوم في بيدوفا.

في الصباح كانت تكتب، وعند الظهر تذهب لزيارة يعقوب بمعهد أوهيرسكي هراديتشي للعناية المركزة حتى صارت تعرف الجميع هناك، ليس فقط المرضى، بل والممرضات والأطباء أيضًا.

وكانوا هم من ساعدوها على قبول فكرة أن يعقوب سيظل دائمًا في حاجة إلى رعاية الآخرين، تلك الرعاية التي لا تستطيع دورا أن توفرها له. ولم يكن تقبل ذلك بالأمر اليسير.

لكنها في نهاية الأمر اعتادت الوضع الجديد، واتسعت حياتها لتشمل العمل، وزيارة معهد العناية المركزة، والليالي التي قضتها وحيدة في جيتكوفا، التي لم يكن يخفف من

وطأتها سوى زيارات يانيجينا بين الحين والحين. كانت دورا أحيانًا تبتعد عن الكمبيوتر لتتكئ على الكرسي الخشبي.

كانت تسأل نفسها: كيف ستسير الأمور بينهما بعد ذلك؟ كانت تفكر كيف تطورت لقاءاتهما في الأسابيع الأخيرة. مرت عليهما سنوات لم يكن بينهما فيها أي حوار. أما الآن فهما تتدفآن بفيض من الكلمات، فيض كأنما نتج عن إعصار، وكانتا تختلفان بقوة وجموح حول أسلوب حياتهما في كل مرة تلتقيان فيها من ليالي السبت. والآن أصبح بوسعهما الالتقاء في أوقات أكثر وأطول بكثير من ليالي السبت. ستبقى دورا هنا لمدة شهر، وخاصة أن زوج يانيجينا كان قد مات ودفن قبل أسبوع، والآن صارت حرة.

فردت دورا جسدها، ثم تركت الطاولة لتقوم وتتحرك نحو النافذة. كانت الأضواء تضيء في بيت كوبرفازي المقابل، فتبسمت له. وقد سكنه منذ عدة أشهر جيران جدد، أناس غريبو الأطوار. لكن عمومًا لو كانوا غير ذلك لما جاءوا للسكن هنا، وهم بالتأكيد ليسوا من أهالي المنطقة. إذ لم يكن أحد منهم ليرضى بالسكن أسفل شجرة الغبيراء تلك.

ولا تدري دورا إن كان أحدهم قد أخبر هؤلاء من محبي الطبيعة بحقيقة الأمر. على الأرجح لم يفعل أحد، وإلا لما أقدموا فرحين على الحركة بهمَّة ونشاط حول بيت نصف متهدم وشجرة ملعونة. يتحركون بخفة في ملابسهم الفضفاضة، كل منهما يصطحب طفلًا يلبس منديل رأس كبيرًا معقودًا وراء ظهره. يقال إنهم سيقيمون هناك مزرعة طبيعية. هزت دورا كتفيها، فليسموا العمل بالحقل أي اسم يريدون.

حدث ذلك منذ عدة أشهر، ومنذ ذلك الحين صارت ترى على المنحدر المقابل بعض الأغنام، والماعز، كما بدءوا يزرعون الحقل. كل شيء كان يجري بانضباط شديد. فقط كان السكان المحليون يتعجبون عندما كان ذلك الثنائي يظهر من وقت لآخر أسفل التل في هروزينكوف. ولم تكن دورا تعجب من فعلهما هذا. فعلى الرغم من أن هذا الثنائي قد جاء إلى هنا مدفوعًا بحبه للحياة فوق الجبال، والأرض والحياة بالريف، كان طبيعيًّا أن يُحجما عن الانخراط وسط جماعة السكان المحليين، كما لو كانا قد جاءا إلى هنا من قرن آخر، يعيشان على الفطرة كالأطفال، لا تفارق وجهيهما ابتسامة وديعة، ولديهما إيمان مطلق بالطبيعة والفطرة النقية. إلا أنهما جاءا إلى كوبانيتسه التي يدمن فيها

الناس الخمر، إلى بلدة لم يجتهد من أهلها في العمل بالحقل إلا القليل، بينما صارت السيارات تجوب أنحاء جيتكوفا أعلى التل، وإن كان ذلك يحدث فقط في عطلة نهاية الأسبوع، لأن الجميع خلال أيام العمل الأسبوعية يكونون في أماكن أخرى يعملون بها باستثناء بعض كبار السن.

ظلت دورا تنظر من النافذة حتى انطفأت الأنوار في البيت المقابل. ثم نظرت إلى معصمها لتعرف كم الساعة. كان الوقت قد تخطى منتصف الليل. حان الوقت إذن كي تغلق الكمبيوتر وتذهب للنوم.

نظرت بفرح إلى شاشة الجهاز وهي ترى عدد صفحات الرسالة وقد وصل إلى مائتين، وها قد أوشكت على الانتهاء منها. فقامت بحفظ محتوى الملف بعناية، ولم يبقَ إلا أن تقوم بعدة حركات بالفأرة حتى تسودَّ الشاشة معلنة إغلاق جهاز اللاب توب.

وبمجرد أن أطفأت الأنوار سمعت دورا صوت صرير البوابة مصحوبًا بوقع خطوات هادئة في طريقها نحو مدخل البيت. اجتاحت روحَها موجةٌ من النشوة، كما لو كانت قد سَرَتْ في جسدها مادة الأدرينالين. لابد أنها يانيجينا! كانت متأكدة أنها هي، وراح يحدوها الأمل في أن لقاءهما اليوم سيكون مختلفًا، وأنها لن تبتعد عنها بعد اليوم. نهضت دورا مسرعة ووضعت اللاب توب في الصندوق مزدوج القاع، ذلك الذي كانت سورمينا يوما ما تخفي فيه أشياءها الثمينة، واليوم تضع هي فيه الأشياء التي لا تريد أن تفقدها؛ تحسبًا لأن يكون القادم إلى بيتها شخصًا آخر غير يانيجينا، هكذا قالت لنفسها حتى في هذه المرة قبل أن تسمع صوت طرقات متقطعة كانت تعرفها.

انطلقتُ مباشرة من داخل مكتب البلدية، حيث سمحوا لي بإجراء مكالمة على الهاتف الأرضي لبيت ألجيبيتا باجلاروفا، وأوضحوا لي عبر الخريطة الجوية كيفية الوصول إلى بيتها، فنزلتُ إلى أسفل التل. ثم سرتُ عبر ممر المشاة الذي يمر بالغابة، ثم يهبط إلى أسفل حيث الوادي المجاور، ثم يصعد إلى أعلى مرة أخرى، ثم يمر بطريق مختصر عبر تل روكيتوفا. كان الأمر يبدو بسيطًا، لكنني فقدت أعصابي عندما وجدتني أسير في دروب ضيقة لمدة تزيد على ساعة. وقد أخبروني بالمكتب أني سأصل بعد لحظات.

أخرجتُ هاتفي المحمول من جيب الحقيبة الجانبي كي أتصل بهم وأتأكد منهم إن

كنت أسير في الاتجاه الصحيح. وبالطبع كان ذلك مستحيلًا، حيث أشار مؤشر قوة الإرسال إلى انعدام وجودها. وهكذا وجدت نفسي ضائعة وسط الجبال، في الطريق إلى الغابات المؤدية إلى بيت امرأة أغلب الظن أنها نسيت كل شيء منذ زمن بعيد. وقد قيل لي إن عمرها سبعة وثمانون عامًا، لكن ذاكرتها حديدية.

دفعتُ بالهاتف مرة أخرى إلى الحقيبة وتابعتُ السير إلى أعلى. كانت تلفُّ الغابةَ نسمةٌ باردة لطيفة، ولو لم يكن ذلك الهدوء المريب لوقعت أسيرة الإعجاب بالمكان. وبدأت تتوارد على خاطري أفكار مزعجة كانت تزداد وطأتها عليَّ كلما مر الوقت، تسبب فيها ذلك الصوت الأحادي اللانهائي لحفيف الأشجار، إضافة إلى ذلك المزيج المختلط من اللونين الأخضر والبني. ربما يهاجمني أحدهم. ربما أُغتصب. أو ربما أُقتل. ثم بدأت كثافة الأشجار لحسن الحظ تقل، وتحولت الغابة إلى بستان تفاح، وكان ذلك يعني أنني قد وصلت. هناك حيث تبدأ أشجار الصنوبر تتداخل مع شجر التفاح، هناك بالتحديد يبدأ تل روكيتوفا كما قالوا لي في المكتب. وهناك ستكون في انتظاري ألجيبيتا، أكبر سكان كوبانيتسه سنًّا، شاهدة العيان التي عايشت آخر من كن يقمن هناك من الساحرات.

وعندما وصلتُ إلى بيتها قالت: مرحبًا. لم يكن واضحًا من أين يأتي صوتها، لكني لمحت بعدها وجهها خلف الستارة من فتحة النافذة الصغيرة.

- تفضلي إلى هنا، هنا. ثم قالت لي وهي تناولني إبريقًا زجاجيًّا عبر النافذة: في البداية أحضري بعض الماء من البئر هناك، سوف ينعشك، لكن عليك إحضاره من المجرى الصغير.

استدرتُ متجهة نحو شجرة البلوط حيث كانت تشير. كانت هناك عريشة مقامة على مسافة قريبة من جذع الشجرة وكان النبع يتدفق من تحتها.

عدت بعد قليل بالوعاء مملوءًا، فسمحت لي بعدها بالدخول وأشارت لي كي أجلس على كرسي بحجرة متواضعة الأثاث، بات واضحًا أنها الغرفة الوحيدة بالبيت إذا لم نضع الردهة في الحساب. كانت باجلاروفا تفتش عن شيء ما في خزانة المطبخ بجوار التنور، وبعد لحظات قليلة أخرجت كوبين، وبخطوات متثاقلة اقتربت من الطاولة، في حين كنتُ أتابع سباحين صغارًا شبه مضيئين يطارد بعضهم بعضًا داخل إبريق الماء

الآتي من البئر.

ولاحظت هي أني أنظر إليهم، وعندما اقتربَتْ نظرت هي الأخرى إلى الإبريق.

لم تصبري، أليس كذلك؟ لم تستطيعي الانتظار حتى يمتلئ الإبريق من مجرى النبع الصغير، أليس كذلك؟ ثم قالت وهي تلقي بالماء من النافذة عليكِ الذهاب مرة أخرى. كانت محقَّة، لم أحتمل الانتظار كي يمتلئ الإبريق من ذلك المجرى الصغير، وكان الماء الذي يجري أسفله يبدو نظيفًا.

وعندما عدت للمرة الثانية وجدت على الطاولة إلى جانب الأكواب طبقًا به قطع التفاح.

- التفاح مقطوف من البستان هنا. إنه لذيذ. تفضلي.

- شكرًا.

- جئتِ إذن من أجل الساحرات؟

أومأتُ برأسي عندما كانت هي تصب ماء البئر المعجزة الذي يقال إن فيه شفاء لأمراض العيون، كما أنه مفيد للصحة بشكل عام.

من وقت لآخر يرسلون إليَّ بأناس مثلك، محررين وطلبة. لو كانوا ينشرون كل ما قلته لهم لما احتاج أحد المجيء إلى هنا ثانية. كان يكفيهم قراءته. وكل ما وصلني منهم كان مجرد بضعة مقالات صحفية، لكنها عديمة القيمة. حتى الآن لم يستطع أحد أن يكتب عنهم كما ينبغي. لكن لِمَ تريدين أنتِ تلك المعلومات؟

فقلت: أؤلف كتابًا.

- وفي أي مدرسة سَيُدَرس؟

أجبتها وأنا أشعر ببعض الحرج لأني سأخيب رجاءها في صدور عمل ذي قيمة: لن يكون كتابًا متخصصًا. سيكون عملًا قصصيًّا روائيًّا.

قالت باجلاروفا: أها. هذا أيضًا ينبغي أن يُكتب بطريقة جيدة، على الأقل سيصل إلى الناس بطريقة يسهل استيعابها.

ابتسمتُ لها.

ثم عادت تسأل: وما هي معلوماتك أنت عن الموضوع؟

أخذت أفكر. من أين أبدأ؟ من دراسة الأنثروبولوجيا والإثنولوجيا الاجتماعية التشيكية والأوروبية، أم من الدراسة الإثنوجرافية المتعلقة بالممارسات السحرية للأطباء السحرة (الشامانات) بالإسكيمو، أم من دراسة الماجستير والدكتوراه الخاصة بمنطقة كوبانيتسه التي قمت بإعدادها بجامعة براغ وجامعة برنو، والتي تم الجزء الأعظم من تلك الدراسات بين جدرانها، أم من كتبي عن التعاليم الباطنية الغربية، السحر والأديان، محاكم التفتيش ومحاكمات الساحرات في التشيك وفي سلوفاكيا...

- قرأت لهوفر وغيره من الإثنوجرافيين من القرن التاسع عشر والقرن العشرين، كما قرأت كتب يليك، بالإضافة إلى العديد من المقالات الصحفية، والمقالات المنشورة بالمجلات المتخصصة، وقرأت تاريخ جيتكوفا، هروزينكوف، فيشكوفيتس، وفابينيتسه...

ولم تقرئي شيئًا لـ إيديسوفا؟ دورا إيديسوفا؟

فاجأني سؤالها. لم يخطر لي على بال أن تلك العجوز يمكن أن تعرف شيئًا عن باحثة بقسم الإثنولوجي بأكاديمية العلوم ببرنو.

نعم بالفعل قرأت لها، فهي بخلاف دراساتها المحدودة المنشورة في الدوريات المتخصصة كتبتْ رسالة الماجستير في موضوع تاريخ ساحرات جيتكوفا. ويمتد تاريخ المادة التي عرضتها في الرسالة ليصل إلى القرن السابع عشر وينتهي في الواقع عند الفترة التي انتهى عندها هوفر في كتبه. وقد قرأت تلك الدراسة حديثًا، وهي شاملة ومسهبة، هذا حق، أريد أن أقول... لم تستغل فيها الطاقات التي كانت طبيعة الموضوع تسمح لها بها.

- وهل هذا هو كل شيء؟

- ماذا تعنين بكل شيء؟

- أقصد إن كنتِ قرأتِ لها شيئًا آخر.

- لا. لم يصدر عمل آخر يحمل اسم إيديسوفا، هذا هو كل ما نشرت حتى الآن. لكن

كيف عرفتِ أن لها كتبًا أخرى، هل تعرفينها؟ فهي ليست واحدة من الكاتبات في مجال... لا أعرف كيف أعبر... أعني أن أعمالها ليس لها جمهور عريض.

- إنها من مواليد هذه المنطقة.

هذه مفاجأة بالنسبة لي: أحقٌّ ما تقولين؟

- نعم، كانت تقيم في بيدوفا، على بعد عدة تلال من هنا. يمكنك أن تذهبي إلى هناك لتشاهدي المكان بنفسك، ومن بيدوفا يمكنكِ المرور إلى هروزينكوف. ويمكنك أن تهاتفيني من هناك لتخبريني إن كان أحد يقيم بالبيت أم أنه ما زال خاليًا من السكان. تعرفين أنه بعد تلك الحادثة المروعة رفض الجميع الإقامة به. لكن ربما دخلت تلك الكارثة طي النسيان، فقد مر عليها عدة سنوات.

لم أكن أعرف عمَّ تتحدث. وقد تولد لديَّ شعور غير مريح بأني سأكون مزعجة، لكني كنت مضطرة للسؤال: أية كارثة تقصدين؟

إيه، غمغمت باجلاروفا: وجدوا هناك جثة قتيلة.

حبست أنفاسي.

- وجدوها ميتة؟ كانت ما تزال في عز الشباب!

- هذا ما كان. هاجمها أحدهم وكسر عنقها. وهذا هو كل ما أعرف. وأظن أن الشرطة نفسها لم تكن تعرف أكثر من ذلك. لم يتوصلوا حينها إلى الكثير. أقصد لم يعثروا على أدلة كافية. كان ذلك في الصيف، وقد استغرق الأمر عدة أسابيع حتى وجدوها. ولم تكن تأتي إلى هنا كثيرًا، بل كانت تبقى لبعض الوقت ببرنو، وكانت تقيم بصفة أساسية لدى أخيها في هراديشتي؛ لذلك لم يفتقدها أحد هنا. لكن لمَّا طال غيابها عن العمل، بدءوا يبحثون عنها. ووجدوها في بيدوفا. أقصد وجدوا ما تبقى منها.

أخذتُ أتطلع فيها في فزع.

- ومنذ ذلك الحين أدخلوا الهواتف الأرضية إلى المنازل، تعرفين، نعيش هنا في مناطق منعزلة. ألا ترغبين في تناول تلك التفاحة؟

شكرتها واعتذرت عن تناولها. فأخذت هي شريحة تفاح ووضعتها في فمها ثم قالت وهي ما تزال تمضغها: لكن تلك الأحداث هنا تعد أمرًا طبيعيًّا.

- أي أحداث؟

- موتها بهذه الطريقة. تقومين بعمل بحث عن الساحرات، صحيح؟ اكتبي عن هذا في بحثك يا آنستي. الآن وبعد أن انتهى كل شيء، يمكنك أن تكتبي عنه؟ أتعرفين ماذا يقولون؟

هزت دورا رأسها بالنفي.

- دورا إيديسوفا واحدة من عائلة ملعونة. فهي ابنة ساحرة وابنة أخت ساحرة، خالتها هي سورمينا، وجدتها يوستينا روخاركا، وكانتا ساحرتين شهيرتين. وربما تحمل دورا بداخلها أيضًا تلك الساحرة، لا أدري، لكن إن كان ذلك كذلك، فهي لم تُخرجها من داخلها مطلقًا. فهي من جيل مختلف، والزمن قد تغير، ولم تعد للشابات رغبة في القيام بدور الطبيب الساحر أو المنجم، لم تعد تلك الأعمال تساير العصر، كما أنها كانت من الأعمال الخطرة في عهد الشيوعية. لكن حتى لو كانت تمارس تلك الأعمال، فالأمر سيان. لم تكن لتصنع المعجزات، وهل كان يمكن أن تنجح فيما فشلت فيه سورمينا وكانت هي من هي. أتعرفين كيف ماتت سورمينا؟ بمستشفى الأمراض العقلية. وهل تعلمين كيف ماتت إيرينا والدة دورا؟ قضت تحت نصل البلطة، قتلها زوجها. وماذا عن دورا؟ حكى لي زوجي أنه لمَّا كان الرجال يُفْرِطون في الشراب، كانوا يتراهنون بالحانة، كيف ستنتهي الأمور. لكن خيالهم عجز عن التنبؤ بما حدث بالفعل.

سألتها دورا في توتر: تقولين ملعونة؟

- لا تصدقين ما أقول، أليس كذلك؟ وكذلك دورا. لم يكن لها أن تعرف، وقد حاولت سورمينا جاهدة ألَّا تصل إليها أبدًا تلك المعلومات، لكن عرفت الطريق إلى تلك

اللعنة بنفسها. ألحَّتْ طويلًا كي تعرف، حتى أفشت لها إيرما سر ماهدالكا التي قهرتهم بسحرها.

- لكنها كانت هي أيضًا ساحرة!

- نعم بالفعل.

- أقصد أن الساحرات كانت، أريد أن أقول كن يساعدن...

حسنًا، نعم. لكن ليس كلهن. يوسيفتشينا ماهدالكا كانت مختلفة. لم تكن تتورع عن عمل أي شيء. أصابت أمها وأخواتها وابنة أختها باللعنة وراحت تنظر إلى الواحدة بعد الأخرى وهي تموت. وكانت سعادتها لا توصف عند وفاة سورمينا. أتعرفين؟ حاولت سورمينا طوال حياتها التصدي لتلك اللعنة وإبطال مفعولها. لكن هل كان أحد يعلم كيف كانت تفعل؟ كانت هناك وسائل يمكن من خلالها تدمير ماهدالكا وأسرتها بالكامل، لكن قلَّ من يقبل بالإقدام على مثل تلك الأفعال. حتى لو... ربما تكون قد حاولت، لست أدري. وبحسب ما قالته لي فقد وجدت في الأيام التي كان الناس فيها يهرعون إلى الجبال جثة فوكسينا، ابنة ماهدالكا بالتبني ووريثة علمها. أما إذا ما كانت سورمينا قد عثرت عليها بعد أن فارقت الحياة بالفعل، أو أنها شاركت وأسهمت في موتها، هذا ما لا يمكن أن يعرفه أحد اليوم. وكانت فوكسينا سليطة اللسان؛ لذا لا أستغرب أن يكونوا قد فعلوا بها ذلك بسبب اللعنة التي ألحقتها عائلة ماهدال بساحرات عائلة سورمينا. لكن من يدري ماذا جرى. فقد كانت فترة عصيبة، ولم تكن سورمينا تستطيع الحركة بشكل طبيعي بسبب إصابة قدمها. ربما يكون التدافع، كما قالت هي نفسها.

لكن الشيء المؤكد هو أنها جاءتني تعرج وهي تحمل الطفلة، ابنة فوكسينا، التي كان عمرها حينها لا يتعدى عدة أشهر والتي ربما لم يسمح لها ضميرها بقتلها، وطلبتْ مني إرسالها بعيدًا عن هنا؛ لأنها ابنة فوكسينا، خليفتها ووريثة ماهدالكا، وهي مرتبطة بتلك اللعنة، وأنها إما أن تختفي أو سيصيبها الأذى بالضرورة. فحاولت إقناعها حينها أنه بمجرد أن تكبر الطفلة من دون أن يعلم أحد عن أصلها وكينونتها شيء فإن ذلك في حد ذاته يكفي. لم تصدقني، لكنها اقتنعت عندما قلت لها إنها ربما تكون الشيء الوحيد الذي تحرص عليه العجوز يوسيفتشينا وذلك إلى الحد الذي يجعلها تكف أذاها عن عائلة

سورمينا حتى لا تتعرض الطفلة لمكروه. وهكذا وجدتُ للطفلة بمساعدة أختي عائلة حُرمت من الإنجاب في برود وأرسلتها إليهم.

وكانت ماهدالكا بعدها تسير في طرقات القرية كالمجذوبة تطرق أبواب كل من يمكنه أن يعرف عنها شيئًا. إلا أن الجميع كانوا يهزون أكتافهم قائلين: لابد أنها وقعت فريسة لحيوانات الغابة. لكن حتى وإن عرف أحدهم عنها شيئًا، فلم يكن ليخبرها به، فقد كانوا هنا يكرهونها. ولا أعرف الكيفية التي سربت بها سورمينا الخبر إليها، وخاصة أنهم لم يحاولوا حتى الاقتراب من المنطقة التي تعيش فيها لتَقَصِّي الأمر. لكنها فعلت بطريقة أو بأخرى. ووصلت الرسالة إلى ماهدالكا بضرورة أن تكف يدها عن سورمينا وعائلتها، وإلا فسيحدث ما لا تحمد عقباه لخليفتها. وهكذا قُلمت أظافر ماهدالكا.

وقد علمتُ بعد ذلك أن الأمور كلها تغيرت، بمجرد انتشار وذيوع خبر أنها ليست ابنة والديها اللذين كانت حتى ذلك الحين تعيش معهما في برود. واجهت البنت مشكلات كبيرة، وفي النهاية هربت من البيت. هذا ما ذكرته لي أختي التي كانت من وقت لآخر تأتي على ذكرها حينما تجيء لزيارتي. وكنت بدوري أنقل ما سمعت إلى مسامع سورمينا، وأقسم أني لم أكن أبوح به لغيرها. ولا أدري كيف وصلت تلك الأخبار إلى ماهدالكا، لكنها وصلت إليها بطريقة أو بأخرى، فعرفتْ أن سورمينا لم يعد لها أي سلطان على وريثتها، وهنا باختصار بدأت الحكاية. لم يمر عام حتى حدث لـ إيرينا ما حدث. وبعدها بعدة سنوات كذلك ما كان من أمر سورمينا. وقد كتبت لي أختي مباشرة قبل أن تذهب سورمينا إلى المحكمة، التي لم تعد من بعدها، أن هذه الطفلة قد أصبحت امرأة مكتملة الأنوثة والعقل وأنها موجودة هنا. موجودة في كوبانيتسه وتعيش بها، أتصدقين ذلك؟ كاد قلبي حينها يتوقف عن النبض، فقلت لنفسي: لابد أنها عرفت طريق أهلها وعادت إليهم.

أسرعت إلى سورمينا أقص عليها الخبر، ليتكِ كنتِ هناك لتري، انتفض جسدها كله، وأخذت تتمتم بأن ما حدث كارثة، وبأن ماهدالكا ستصنع من هذا الانتصار أداة تُنزل بها عليهم لعنتها، وأنها لابد أن تفعل شيئًا. إلا أن الوقت كان قد فات. فبعد عدة أيام حبسوها. ولم تمهلها الأقدار كي تتصدى لها، وامتدت تلك البذاءة ليصل أذاها إلى دورا. الحمد لله أنها لم تنجب، على الأقل ستنتهي بموتها اللعنة.

جلستُ أكتم أنفاسي وأنا أنصت إلى سيل الكلمات الذي انهمر من فم العجوز. لم يخطر يومًا على بالي ولا حتى في الأحلام أن يحدث شيء كهذا.

- الخسارة الوحيدة هنا هي أن دورا ماتت قبل أن تتمكن من إصدار كتابها. الكتاب الذي يحكي عن الساحرات، وكانت قد قضت طوال حياتها تجمع المادة العلمية المتعلقة بهن هنا. كانت أكثر الناس معرفة بهن. وذلك من الناحيتين، كانت تعيش معهن، كما أنها ظلت لسنوات تدرس حياتهن. لو عرف الناس ما كانت تعرف هي لما أتيتِ أنتِ إليّ. وكنتِ ستعرفين ما لم تكوني تعرفين من الحكاية. لماذا تبدين مندهشة هكذا؟ ألا تودين أن تسأليني عن أي شيء؟ عليكِ الاستفادة مني، ما دمت بخير، ربما بعد الظهر، عندما ينخفض ضغطي، تصبح حالتي مزرية بشكل لا يجدي معه إلا النوم. هيا اسألي.

مددتُ جسدي لاستخرج الدِكتافون والمُفكرة التي فتحتها ليقع بصري على صفحتين ممتلئتين عن آخرهما بالأسئلة. أخذت أنظر إليهما في عجز وأنا لا أدري من أين أبدأ.

عندما غادرتُ كانت الساعة تقترب من الخامسة. وقد حثتني العجوز باجلاروفا بنفسها على الرحيل قائلة إني هكذا سأتمكن من أن أجد مخرجًا من الغابة قبل حلول الظلام إذا ما تصادف أن سرت في الطريق الخطأ.

بعد قليل تركت روكيتوفا التي بدأت ظلال الأشجار الأولى تبتلعها بعد أن غابت الشمس خلف قمة التل. ماتت إذن دورا إيديسوفا. آخر من تبقّى من نسل الساحرات، المتخصصة في الإثنوجرافيا، والقتيلة.

هل هي صدفة؟

أم هي اللعنة؟

شعرتُ بقشعريرة في بدني.

عدتُ أسمع صوت حفيف الغابة الخافت، وصارت الفروع الطويلة لأشجار الصنوبر الأولى تتأرجح في الهواء وتلوح لي، هيا تعالي. رحت أفكر: شيء عجيب، ووجدتني أحاول فهم سبب حركتها ما دامت الريح ساكنة. وكانت المروج التي مررت عليها هادئة تمامًا.

وفوق قمة التل حلّق طائر الباشق وراح صياحه المروع يدوي في أرجاء الطبيعة. فشعرتُ بانقباض رهيب في روحي.

ملحوظة الكاتبة

موضوع هذا العمل هو مصائر نساء حقيقيات عشن في جيتكوفا، لكن ليس كل ما جاء فيه يطابق الواقع. واحترامًا لذكرى أولئك النساء وأسرهن التي ما زالت تعيش بجيتكوفا، وستاري هروزينكوف، ودرايتوم، قررت عدم استخدام الأسماء الحقيقية إلا في حالات بعينها فقط. الكثير من الحكايات والأحداث العرضية نُسبت إلى ساحرات أخريات، كما أن بعضهن ليس لهن وجود في الواقع الحقيقي.

الوثائق المستخدمة في الكتاب ليست حقيقية، وإن كانت تستند إلى مراجع موجودة بالفعل، ويمكن الاطلاع على الكثير من أمثالها في دور المحفوظات التشيكية والسلوفاكية.

الإنشاد بجوار جثمان المتوفى مأخوذ بتصرف من كتاب يوسف هوفر (حكايات من كوبانيتسة، أولوموتس 1923). حكاية كاترشينا سخانيلكا وكاترشينا ديفوكا مأخوذة من كتاب أنتونين فربيك مع إدخال تعديلات على النص: *كتاب الدم بمدينة بويكوفيتسه* (أوهيرسكي هراديشتي 1971). المادة الخاصة بفهرس بيانات الساحرات حصلتُ عليها من كتاب سونكي لورينزا: *ملفات هيلمر الخاصة بالساحرات- القومية الاشتراكية ومطاردات الساحرات* (بيلفيلد 2000). المادة المتعلقة بقضية ماجدالينا ميكفا عثرت عليها بدار المحفوظات الوطنية المحلية بـ أوهيرسكي هراديشتي، مع تغيير الأسماء والأماكن. الصور الفوتوغرافية والمقال الموجود مأخوذ من مجلة *أخبار براغ المصورة*، 1938، العدد 19، رقم 34 (دار المحفوظات الوطنية المحلية بـ أوهيرسكي هراديشتي، دار محفوظات منطقة جيتكوفا)، الصورة والمقال مقدمة من شركة مافرا (من إصدارات ملادا فرونتا دنس الخاصة بشرق مورافيا بتاريخ 12 يناير 2001، العدد 12، رقم 10). المَحْضر مأخوذ من دار الوثائق السلوفاكية القومية ببراتيسلافا مع تغيير الأسماء والأماكن.

يرجع الفضل في إمدادي بالكثير من المعلومات إلى عملي السيد يرشي يليك *ساحرات جيتكوفا* (الكور بوتسله، 2005) وسِحر جيتكوفا (الكور بوتسله، 2005).

كما أشكر العديد من شهود العيان المعاصرين للأحداث، والعاملين بالمتاحف ودور المحفوظات. وشكر خاص أوجهه للسيد إيفان بيرجمان من دار المحفوظات القومية المحلية بـ أوهيرسكي هراديشتي، والسيدة أنا بوروفا من متحف الطبيعة بفلاشسكو، والسيدة دانا كليمبوفا من دار الوثائق القومية السلوفاكية ببراتيسلافا، والسيد شتيفان أولينيتساك من قسم ملفات محاكمات الساحرات بدار محفوظات بوزناني. وأشكر د. دافيد كوفارشيك على فكرة العمل وعلى الاستشارات المتخصصة، والمعلومات الهامة الكثيرة التي قدمها لي أثناء التنقيب عن المادة العلمية. كما أتوجه بالشكر لـ د. ليبور جرونسكي ود. نوربيرت هولوب على الاستشارات المتخصصة في مجال الطب النفسي، والشكر موصول للأستاذة فلادكا يابوركوفا على الاستشارات التي قدمتها لي في مجال القانون.

تقرر دورا ذات يوم -باعتبارها الأخيرة في سلالة ساحرات جيتكوفا- تتبع تاريخ العائلة وكشف غموض مصير خالتها تيريزا سورمينا. تأخدنا دورا معها في بحثها إلى محاكمات الساحرات في أوروبا القرن السابع عشر، كما تتتبع مصائر الساحرات ومعاناتهن في القرن التاسع عشر وفي فترة الاحتلال الألماني لبلادها -التشيك- ثم أخيرا خلال الحقبة الشيوعية في القرن العشرين.

****

بيع من رواية "ساحرات جيتكوفا" في لغتها الأصلية أكثر من 100 ألف نسخة، وترجمت الرواية إلى 12 لغة من بينها العربية، وتجري التحضيرات الآن لتحويلها إلى فيلم سينمائي.

****

حصلت الرواية على 3 جوائز؛ هي: جائزة يوسف شكفوريتسكي (2012) وماجنيسيا ليتيرا (2013) وجائزة قراء الكتاب التشيكي (2013).

كاترشينا توتشكوفا

الكاتبة التشيكية "كاترشينا توتشكوفا"، من مواليد عام 1980. حصلت في عام 2010 على جائزة ماجنيسيا ليتيرا الهامة عن روايتها "طرد جيرتا شنيرخ" والتي ترجمت إلى الإيطالية والمجرية، كما ترشحت عنها لنيل عدة جوائز أخرى.

ISBN 978-977-821-001-9

9 789778 210019

SEFSAFA PUBLISHING HOUSE
WWW.SEFSAFA.NET